

حياة الفلاسفة والعرفاء
أو
الحكمة والحكماء
تأليف
العلامة الشهيد
السيد حسن السيد علي القبانجي النجفي ره
الجزء الثاني
منشورات
مؤسسة الأعلى للمطبوعات
بيروت - لبنان



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



حياة الفلاسفة والعرفاء

أو

الحكمة والحكماء

تأليف

العلامة الشهيد

السيد حسن السيد علي القبانچي النجفي «ره»

الجزء الثاني

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م





مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - طريق المطار - قرب سنتر زعرور
هاتف:٤٥٠٤٢٦ / ٠١ - فاكس:٤٥٠٤٢٧ / ٠١

Published by Aalami Est.
Beirut Airport Road
Tel:01/450426 Fax:01/450427

Email:alaalami@yahoo.com

حكماء القرن الخامس

(١٥)

الشيخ الرئيس ابن سينا[١]

قال البستاني في (دائرة المعارف): هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري المشهور بـ (الشيخ الرئيس)، كان من أشهر الحكماء والأطبّاء، فهو أبقراط الطبّ، وأرسطو الحكمة عند العرب والإفرنج، وقد جمع في فسيح صدره كتابات أرسطو، وأوعىٰ في خزانة معارفه حكمه وقواعده، وقد نقل الإفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتابات جالينوس وأبقراط، ونشروا أشهر تآليفه في اللغة العربية، وترجموا أكثرها إلىٰ لغاتهم، وكان هو المعوَّل عليه شرقاً وغرباً في قواعد الحكمة والطبّ، وقد اعترف له الجميع بالفضل، فافتخر به الشرق وأخذ عنه، ومدحه الغرب وانتفع بتصانيفه.

ويقول بعد فصل: اشتغل أبو علي بتحصيل العلوم الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك، ثمّ رغب بعد ذلك في علم الطبّ وتأمَّل الكتب المصنَّفة فيه وعالج من احتاج لا علىٰ طريق الاكتساب بل تأدّباً وممارسةً، وعلم الطبّ حتَّىٰ فاق فيه الأوائل والأواخر في أقلّ مدَّة وأصبح فيه

(١) فلاسفة الشيعة: ٢٥٦؛ تراث العرب العلمي: ٢٨٦؛ معجم أُدباء الأطبّاء ١: ١١١؛ أعلام العرب في الكيمياء: ١٧٥؛ عيون الأنباء ٣: ٣؛ تاريخ فلاسفة الإسلام: ٥٣؛ روضات الجنّات ٣: ١٧٠؛ أعيان الشيعة ٢٦: ٢٨٧؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٢٩؛ إخبار العلماء: ٢٦٨؛ دائرة معارف البستاني ١: ٥٣٥.

عديم القرين، فكان فضلاء هذا الفنّ وكبراؤه يختلفون إليه ويقرؤون ويمارسون أنواع العلاجات المقتبسة من التجارب.

وكان عمره إذ ذاك نحو ستّ عشرة سنة، وفي مدَّة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها، ولا اشتغل في النهار إلَّا بالمطالعة، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضَّأ وقصد المسجد الجامع وصلّىٰ ودعا الله ﷻ أن يسهّلها عليه ويفتح مغلقها له.

وكان نادرة عصره في علمه وذكائه، وله من التصانيف ما يقارب المائة بين مختصر ومطوَّل، وانتفع الناس كثيراً بكتبه، وهو أحد فلاسفة المسلمين.

وفي (الكنىٰ والألقاب)[1] للشيخ القمّي: وحكي عن ابن سينا أنَّه قال: لـمَّا بلغت التميّز سلَّمني أبي إلىٰ معلِّم القرآن ثمّ إلىٰ معلِّم الأدب، فكان كلّ شيء قرأ الصبيان علىٰ الأديب أحفظه، والذي كلَّفني أُستاذي كتاب الصفات وغريب المصنَّف، ثمّ أدب الكاتب ثمّ إصلاح المنطق، ثمّ كتاب العين، ثمّ شعر الحماسة، ثمّ ديوان ابن الرومي، ثمّ تصريف المازني، ثمّ نحو سيبويه، فحفظت تلك الكتب في سنة ونصف، ولولا تعويق الأُستاذ لحفظتها بدون ذلك، وهذا مع حفظي وظائف الصبيان في المكتب.

فلمَّا بلغت عشر سنين كان في بخارا يتعجَّبون منّي، ثمّ شرعت في الفقه، فلمَّا بلغت اثنتي عشرة سنة كنت أُفتي في بخارا علىٰ مذهب أبي حنيفة، ثمّ شرعت علم الطبّ وصنَّفت القانون وأنا ابن ستّ عشرة سنة.

فمرض نوح ابن منصور الساماني، فجمعوا الأطبّاء لمعالجته فجمعوني

---

(١) الكنىٰ والألقاب ١: ٣٢٠.

معهم فرأوا معالجتي خيراً من معالجات كلّهم، فصلح علىٰ يدي، فسألته أن يوصي خازن كتبه أن يعيرني كلّ كتاب طلبت، ففعل فرأيت في خزانته كتب الحكمة من تصانيف أبي طرخان الفارابي، فاشتغلت بتحصيل الحكمة ليلاً ونهاراً حتّىٰ حصّلتها، فلمّا انتهىٰ عمري إلىٰ أربع وعشرين كنت أُفكّر في نفسي ما كان شيء من العلوم لا أعرفه، انتهىٰ.

ويحكىٰ أنّه لم يكن في آنٍ فارغاً من المطالعة والكتابة، وقليلاً من الليل يهجع، وإذا تردَّد في مسألة يتوضّأ ويعزم جامع البلد ويُصلّي فيه ركعتين بالخشوع ويشتغل بالدعاء والاستعانة إلىٰ أن ترتفع شبهته، ومرَّت به طوارئ مختلفة، وقاس ما يقاسيه طالب العلىٰ، انتهىٰ.

وفي تاريخ فلاسفة الإسلام تأليف محمّد لطفي جمعة (ص ٦٤)، قال: إنَّ ما ذكرنا بالإيجاز عن حياة الشيخ الرئيس من الشؤون العادية يدلُّ دلالة سطحية علىٰ حياته، ويحار المؤرِّخ إذا حاول الوصول إلىٰ علم يقيني عن نفسية ابن سينا وأخلاقه، ويظهر للواقف علىٰ أخباره أنَّ أبا عبيد الجرجاني وهو صاحبه الذي نقل عنه، لم يدوِّن ما يلقي شعاعاً من النور علىٰ تلك الناحية من حياة الرئيس، ولكن المدقِّق قد يصل بعد طول الإمعان إلىٰ بصيص من الضياء، وقد جاءت النبذ الدالّة علىٰ خلقه وعقله عرضاً لا قصداً، من ذلك أنّه نشأ منذ نعومة أظفاره مستقلّاً برأيه، وترعرع ونما وهو يحافظ علىٰ ذلك الاستقلال بالرأي الذي هو الجوهر في أخلاق الرجال.

فقد حكي أنَّ أباه وأخاه كانا من الإسماعيلية، وأنّه سمع منهما كلاماً في النفس والعقل علىٰ طريقة يرضاها أبوه وأخوه ولا يقبلها عقله ولا ترتاح إليها نفسه، فلم يقبل عليها ونبا عنها.

وهـذا الاسـتقلال في الـرأي والاعتـداد بـالنفس دليـل قـوَّة الفكـر والإرادة، حقَّـاً أنَّ الاعتـداد بـالنفس مـن أدلَّـة الإعجـاب بهـا، وفي الإعجـاب بـالنفس عيـوب ومحاسـن، ويظهـر لنـا أنَّ ابـن سـينا اسـتفاد بإعجابـه بنفسـه سـموَّاً في خلقـه وعلـوَّاً في مقاصـده واقترابـاً مـن المثـل الأعلىٰ، ولم يخفَ علينا ذلـك فقـد وصـف نفسـه بالتقـدّم في العلـم والبراعـة فيـه بكـلام ملـؤه الإعجـاب بالـذات، ويظهـر مـن أخبـاره أنَّـه كـان عبقريـاً ممتـازاً قـادراً عـلىٰ الإلمـام بـالعلوم والمعـارف واسـتنباط الأفكـار القويـة ببساطة وبدون تكليف ظاهر أو خفي، فكان عقله مخلوقاً للفلسفة.

فقـد سـبقة في كـلّ الأُمـم فلاسـفة وصـلوا إلىٰ الحقيقـة بعـد الجهـد والتعب وبعد التـألّم والمعانـاة في سـبيل البحـث عنهـا، ولكـن ابـن سـينا كـان فذَّاً في عبقريته حقَّاً، وكـان ذكـاؤه مـن النـوع الـذي يظهـر قبـل أوان ظهـوره عنـد أشـباهه في السـنّ والمواهـب، فقـد أتـمَّ ابـن سـينا تعليمـه ودراسـته في أواخر العقـد الثـاني مـن عمـره الحافـل بالعجائـب، وكـان عـلىٰ قمَّـة الفتـوَّة مالكاً زمـام العلـوم المعروفـة لعهـده، يعيهـا ويحفظهـا ويحلّلهـا، ثـمّ انـدمجت تلك العلوم في نفسه فنضـجت الـنفس وتجلَّـت معرفتهـا أجمـل تجـلّي، ولـيس لدينا دليل علىٰ أنَّه زاد عـلىٰ علمـه شيئاً بكـرِّ السـنين ومرِّهـا، ولكنَّـه أحسـن اسـتعمال الأدوات التـي حبـاه الله إيّاهـا، فلـمَّا فـرغ مـن تحصـيل العلـوم بأسرهـا في مقتبـل الشـباب لم يـزد عليهـا شـيئاً ولم يجـدّد لـه علـم، ولكـن فطرتـه السـلمية وبصـيرته المنـوَّرة وعقلـه الجبّـار وإرادتـه القويّـة تضـافرت كلّها علىٰ المحافظة فيما بقي مـن عمـره عـلىٰ الأُسـس العلميـة التـي ركـزت في نفسه في عنفوان الفتوَّة، والتي صرف جهده في صقلها وتهذيبها.

وممَّـا يؤيّـد قولنـا بـأنَّ عقـل ابـن سـينا كـان مخلوقـاً للفلسـفة، وأنَّ

ممارسة العقليات كانت لديه أسهل منها لدىٰ غيره، أنَّه بعد تفوّقه في سرعة إحراز العلوم، وامتلاك ناصيتها بقليل عناء، صار التأليف والتصنيف من أبسط الأُمور وأسهلها وأسرعها لديه، فلم يكن من الحكماء الذين يطيلون النظر فيما يكتبون، ثمّ إذا هم دوَّنوا شيئاً يصرفون وقتاً في تحويره وتبديله بعد نقده وتمحيصه، بل كان ابن سينا فيّاضاً بحكمته وفلسفته يثبتها، ولا يمحو ما أثبت، ولا يتردَّد في تنقيح أو تصحيح، ولا يشكّ في صحَّة ما كتب، ودليلنا علىٰ ذلك كثرة الكتب التي ألَّفها ابن سينا، وكلّها قيّمة ممتعة، وقد ألَّف بعضها وهو في نضارة العمر يترقرق في وجهه ماء الشباب، علىٰ أنَّه لم يبلغ أكثر من ثلاث وخمسين سنة علىٰ الأقلّ، أو ثمان وخمسين سنة علىٰ الأكثر. ينتج ممَّا تقدَّم أنَّ الشيخ كان من أظهر صفاته كثرة العمل وسهولته، وسرعة إتمامه.

وكان يشبه جوتة الفيلسوف الألماني من بعض وجوه، فإنَّ جوتة ألَّف رواية (فوست) في جزئين بين الأوَّل والثاني منهما نحو ستّين عاماً، كذلك ابن سينا ألَّف الجزء الأوَّل من الشفاء مذ كان في معيّة الأمير شمس الدولة، وما زال يوالي التأليف فيه في فترات متباعدة حتَّىٰ أتمَّه وهو في معيّة الأمير علاء الدولة. وهذا دليل علىٰ أنَّه رضيٰ عمَّا ألَّفه في شبابه بعد أن بلغ أشدّه، وثبتت في الحكمة قدمه، كذلك كانت حال جوتة وكتابه الخالد (فوست)، وكذلك كان كتاب الشفاء للرئيس أوسع وأمتع ما وضعه في الحكمة.

أمَّا عن عقيدة ابن سينا فقد وردت نصوص تدعو للتقوّل والظنّ، ولكن الأخبار الصادقة الصحيحة المروية عن الجرجاني الثقة وغيره، مجمعة علىٰ أنَّ الشيخ الرئيس كان إذا أشكلت عليه معضلة، توضَّأ وقصد المسجد الجامع وصلّىٰ ودعا الله أن يسهّلها عليه، ويفتح مغلقها

بين يديه، وهذا دليل علىٰ العاطفة الدينية القويّة في نفس ابن سينا، يصحُّ لنا أن نقول: إنَّ إيمانه كان جزءً من عبقريته، وإنَّ اعتقاده بواجب الوجود كان من أقوىٰ أسباب ظهور عبقريته، انتهىٰ.

وللعلَّامة الشيخ عبد الله نعمة في كتابه فلاسفة الشيعة (ص ٢٥٦) مقال وافي عن حياة الرئيس ابن سينا حيث يقول:

الرئيس ابن سينا هو ألمع اسم في تاريخ العلم والفكر والطبّ، ومن أكبر الفلاسفة المسلمين، الذين برزوا في الفلسفة والطبيعيات والطبّ، وهو من الذين دفعوا عجلة الفكر والعلم إلىٰ الأمام في خطوات كثيرة. وكان ابن سينا، من أشهر الفلاسفة جميعاً، وأعلاهم شأناً، وأعظمهم ذكراً، وأبعدهم أثراً.

وقد طار ذكره مشرقاً ومغرباً، وامتدَّ أثره إلىٰ الشرق والغرب علىٰ السواء، وبخاصّة بعد أن ترجمت آثاره في الفلسفة والطبّ وغيرهما إلىٰ اللغة اللاتينية وسواها، وعلىٰ نظرياته وآرائه العلمية كان المعوَّل للمدارس الفلسفية والطبّية إلىٰ عهد قريب.

وقد ظلَّ كتابه (القانون) في الطبّ مرجعاً لطلَّاب الطبّ في جامعات أُوروبا حتَّىٰ القرن السابع عشر.

وسيطرت آراء ابن سينا الفلسفية علىٰ المفكّرين والفلاسفة، وامتدَّت جذورها إلىٰ توما الاكويني، الذي كانت فلسفته من ثمرات تعاليم ابن سينا.

وتكاد شهرته الطائرة تغني عن التعريف به، لما كان لآرائه من سيطرة عاتية علىٰ أفكار العلماء من متقدّمين ومتأخّرين، حتَّىٰ لُقِّبَ بأرسطو الإسلام وأبقراطه.

وحظي ابن سينا دون سواه من نوابغ المفكّرين بكثرة الدراسات التي وضعت حول آثاره وآرائه، وبتأثير مدرسته الفكرية علىٰ أفكار فلاسفة متأخّرين عنه كالطوسي وسواه، التي لا تزال آثارها بارزة في تفكيرهم.

أمّا في عصرنا الأخير فقد كتبت عنه دراسات ضافية من مسلمين ومستشرقين، تناولت حياته وعناصر دراسته، واتّجاهاته وتفكيره، وجوانب كثيرة من ثقافته، لذلك ستكون دراستنا له في نطاق محدود، مكتفين بما كُتِبَ عنه من دراسات كثيرة.

وتقوم شهرة الرئيس _ في الأكثر _ علىٰ الفلسفة والطبّ، وعلىٰ كتبه التي وضعها فيها، كالإشارات والشفاء والنجاة، وكالقانون وغيرها.

وقليلون من يعرف أنّه اشتغل بالمنطق والرياضيات والفلك والموسيقي والطبيعة، وسواها من جوانب المعرفة، وأنَّ له في هذه المعارف وغيرها مؤلَّفات كثيرة، وكان له أثر في تقدّمها وتطوّرها.

وقد التقت في الشيخ الرئيس شخصيات عديدة، قلَّما نجد له شبيهاً في غيره من نوابغ المعرفة، فهو إلىٰ كونه فيلسوفاً منهجياً، صاحب مدرسة فلسفية ذات نظريات معيَّنة، وطبيباً نابغةً مكتشفاً لجوانب كثيرة من العلوم الطبّية، فهو إلىٰ ذلك منطقي كبير كشف عن آراء أرسطو المنطقية وهذَّبها، ورياضي وفلكي، له في الرياضيات والفلك والطبيعيات آثار ومؤلَّفات قيّمة، وكان إلىٰ ذلك أيضاً شاعراً تشيع في شعره الروح الفلسفية، وقصيدته العينية في النفس وغيرها شاهد علىٰ ذلك.

وكان أيضاً سياسياً تولّىٰ الوزارة في عهد السامانيين وسواهم حتَّىٰ لُقِّبَ بـ (الرئيس) وهو لقب سياسي.

وبالرغم ممَّا التفَّت بابن سينا من شخصيات علمية، فإنَّ شخصيته الفلسفية والطبّية هي البارزة عند أكثر القرّاء دون سواها من جوانب شخصيته العلمية والاجتماعية وغيرها، وكان إلىٰ ذلك أيضاً واضح التعبير جميل الأُسلوب حسن التنظيم ممَّا ساعده علىٰ نشر آرائه ومؤلَّفاته بين الناس وعند المفكّرين والأُدباء، ممَّا لم يظفر الفارابي بمثله، الذي كان يفتقر إلىٰ الشيء الكثير من ذلك.

وقد استطاع ابن سينا وهو يعيش في فترة تعصف بالأحداث والقلاقل السياسية، وفي الأسفار الكثيرة، وفي أعماله الوزارية والديوانية، أن يقتنص الوقت الكافي، ليخرج آثاره ومؤلَّفاته التي بلغت حوالي (١٨٠) مؤلَّفاً، ولم يترك موضوعاً من موضوعات الفلسفة إلَّا وجرىٰ فيه قلمه، وذلك يدلُّ _ دون ريب _ علىٰ مدىٰ مقدرته وبراعته واستيعابه لكلّ ما كان معروفاً في عصره من العلوم.

ومن المثير _ حقَّاً _ أنَّ أكثر معارفه وثقافته لم يتلقّها ولم يقرأها علىٰ أُستاذ أو معلِّم، ومن ذلك علم الطبّ الذي نبغ فيه وألَّف فيه أكبر موسوعة طبّية ظلَّت مرجعاً قروناً عديدة للشرق والغرب علىٰ السواء حتَّىٰ عصر قريب، وأتىٰ بنظريات واكتشافات لا تزال متَّبعة حتَّىٰ اليوم.

وتعرَّض في حياته لأمواج من الأحداث، ترفعه تارة، وتخفضه أُخرىٰ، حتَّىٰ دفعت به إلىٰ السجن، ولبث فيه بضعة أشهر، وعاش فترات من حياته هارباً من طغيان الحاكمين، أو في سجونهم، كما أنَّه تقلَّد الوزارة لشمس الدولة في همدان، وجعل ينتقل من قصر أُمور إلىٰ قصر

آخر، يشتغل بتدبير أُمور الدولة حيناً، وبالتعليم والتصنيف حيناً آخر، وهو في كلّ ذلك تأبىٰ عليه نفسه الخضوع لمن يتّصل بهم من الأُمراء، أو أن يطأطئ رأسه لأحد حتّىٰ لأساتذته الذين أخذ ثقافته عنهم.

وأخيراً توفّي في همدان عام (٤٢٨ هـ / ١٠٣٧م) وهو في السابعة والخمسين من عمره.

مذهبه:

مهما اختلفت الآراء حول عقيدة ابن سينا فإنَّ هناك أُموراً ينبغي أن لا تفوت من حسابنا، وكلّها تلقي ضوءً علىٰ قصّة مذهبه، ويؤلّف مجموعها عنصراً هامّاً في إنارة السبيل، وهي:

أوّلاً: إنَّ في اسم ابن سينا ونسبه ما يُشعِر بتشيّع أُسرته، التي نبت منها، والبيت الذي نشأ فيه فهو أبو علي الحسين، وأبوه عبد الله، وجدّه الحسن، وأبو جدّه علي، وكلّ هذا أسماء لا يتّفق عادةً أن يتسمّىٰ بها أبناء أُسرة واحدة، إلَّا أن يكون لهم اتّجاه شيعي، وميل إلىٰ أهل البيت.

ثانياً: إنَّ ابن سينا ولد ونشأ وتثقّف في عصر وبيئة كانت تعاليم الشيعة شائعة فيه، وكان السواد الأعظم من الحكّام وأهل العلم من الشيعة، وطبيعي أن يتأثّر ابن سينا بهذا كلّه أو ببعضه.

ثالثاً: إنَّه عاش في بلاط الحكّام الشيعيين كالسامانيين وبني مأمون والبويهيين وشمس المعالي قابوس بن دشمكير وغيرهم، وهذا يفضي _ عادةً _ إلىٰ وجود صلة مذهبية بينه وبينهم.

رابعاً: إنَّه فرَّ حين طلبه محمود بن سبكتكين _ وهو سُنّي المذهب _ شديد التعصّب علىٰ الشيعة، إلىٰ طبرستان وبعض نواحي خراسان، ملتجئاً إلىٰ شمس المعالي قابوس بن دشمكير الأمير الشيعي، إنَّه فرَّ من

السلطان محمود حين وشي بعضهم لديه متَّهماً ابن سينا في مذهبه، فطلبه السلطان أشدّ الطلب.

ويبدو أنَّ هذه الوشاية علىٰ ابن سينا كانت من نوع التهمة بالتشيّع، ولأجل ذلك فرَّ واحتمىٰ عند ملكٍ شيعي، وبخاصّة أنَّ المنطقة التي لجأ إليها معروفة بالتشيّع، ولاسيّما طبرستان فإنَّ أكثر أهلها كانوا من الشيعة.

خامساً: تصريح ابن سينا نفسه بقوله: (... وكان أبي ممَّن أجاب داعي المصريين، ويُعَدُّ من الإسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل علىٰ الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم، وكذلك أخي، وكانوا ربَّما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي، وابتدأوا يدعونني إليه...).

سادساً: إنَّ في مصنَّفات ابن سينا من التعابير والأساليب والأفكار ما يتَّفق مع كثير من أفكار الشيعة وتعابيرهم، وفيها ألفاظ وعبارات تشبه كثيراً ألفاظ وعبارات شيعية.

فهناك في مؤلَّفاته إيماءات وإشارات إلىٰ اعتبار الأفضلية في الخليفة، واعتبار العصمة، وإلىٰ وجوب النصّ عليه، وسوىٰ ذلك ممَّا لا يقول به غير الشيعة عادةً.

ومن أمثلة ذلك قوله في رسالته المعراجية المطبوعة علىٰ هامش إلهيات الشفاء في إيران سنة (١٣٠٣هـ/ ج ٢/ ص ٦٥٤)، الذي يفيد امتياز علي بن أبي طالب عليه السلام علىٰ غيره من الصحابة، وأنَّ منزلته منهم منزلة المعقول من المحسوس، قال فيها ما تعريبه: (أشرف الناس وأعزُّ الأنبياء، وخاتم الرسل صلى الله عليه وآله، قال لمركز الحكمة، وفلك الحقيقة، وخزانة

العقل، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان بين الصحابة كالمعقول بين المحسوس: إذا تقرَّب الناس إلىٰ خالقهم بأنواع البرّ، تقرَّب أنت إليه بأنواع العقل تسبقهم).

ومثل هذا الخطاب لا يليق ولا يصحُّ إلَّا أن تكون المخاطبة مع كريم رفيع القدر عظيم المجد مثله.

وفي الحديث: «يا علي إذا عنّىٰ الناس أنفسهم في تكثير العبادات فعنّ نفسك في إدراك المعقول حتَّىٰ تسبقهم كلّهم»، فلا جرم لـمَّا صار علي عليه السلام ببصر البصيرة العقلية مدركاً للأسرار كلّها، ولذلك قال عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[1]، وقال عليه السلام: «قدر الإنسان وشرفه لا يكون إلَّا بالعلم».

ومن تلك الكلمات قوله: (إنَّ هذا الشخص الذي هو النبيّ ليس ممَّا يتكرَّر وجود مثله في كلّ وقت، فإنَّ المادّة التي تقبل كمال مثله تقع في قليل من الأمزجة، فيجب _ لا محالة _ أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله قد دبَّر لبقاء ما يسنّه ويشرّعه في أُمور المصالح الإنسانية تدبيراً عظيماً).

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ النبيّ لا يهمل إقامة من يقوم مقامه الذي يكون بمثابة حلقة ثانية عنه، وامتداداً لرسالة يشرحها ويفسّرها ويطبّقها.

وقوله: (إنَّ النبيّ من عند الله تعالىٰ، وبإرسال الله تعالىٰ، وواجب في الحكمة الإلهية إرساله، وأنَّ جميع ما يسنّه فإنَّما هو ممَّا وجب من عند الله أن يسنّه، وأنَّ جميع ما يسنّه من عند الله تعالىٰ).

وهذا صريح مذهب الشيعة، الذين لا يجوّزون أن يكون ما يسنّه النبيّ باجتهاده ومن عند نفسه علىٰ خلاف غيرهم الذين يجوّزون ذلك،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٣١٧.

كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى۝﴾ [النجم: ٣ و٤].

وقوله: (والاستخلاف بالنصّ أصوب، فإنَّ ذلك لا يؤدّي إلىٰ التشعّب والتشاغب والاختلاف).

وهذا هو مذهب الشيعة في وجوب النصّ.

وقوله: (... ورؤوس هذه الفضائل: عفَّة وحكمة وشجاعة، ومجموعها العدالة، وهي خارجة عن الفضيلة النظرية، ومن اجتمعت له معها الحكمة والنظرية فقد سعد، ومن فاز مع ذلك بالخواصّ النبوية، كاد أن يصير ربَّاً إنسانياً، وكان يحلّ عبادته بعد الله تعالىٰ، وهو سلطان العالم الأرضي وخليفة الله فيه...).

وهو إيماء إلىٰ اعتبار العصمة والأفضلية في خليفة الله في الأرض، ممَّا يوافق مذهب الشيعة.

كلّ ذلك يسلِّمنا إلىٰ نتيجة واضحة لا ريب فيها، هي أنَّ ابن سينا كان شيعي العقيدة جزماً، ويتلاشىٰ أمام ذلك احتمال أنَّه كان سُنّياً.

وتميل الأدلَّة إلىٰ إثبات أنَّ ابن سينا لم يكن إسماعيلياً، فقد صرَّح هو نفسه بأنَّه لم يكن يقبل أقاويل الإسماعيلية بقوله كما سبق:

(... وكانوا ربَّما تذاكروا بينهم، وأنا أسمعهم، وأدرك ما يقولونه، ولا تقبله نفسي، وابتدأوا يدعونني إليه...).

وإنَّ آراءه ومؤلَّفاته قد خلت من كلّ اتّجاه إسماعيلي، ولم نعثر فيها علىٰ شيء من الآراء التي تلتقي بالفكر الباطنية، أو بالروح الإسماعيلية. وذلك كلّه يُبدِّد الرأي القائل: إنَّه كان إسماعيلياً، ويرجّح بقاءه علىٰ التشيّع الخالص.

وقد تكون آراؤه في اعتبار النصّ والعصمة والأفضلية في الخليفة من مرجّحات كونه شيعياً إمامياً.

ويؤيّد ذلك أنَّ الطهراني في (الذريعة) ذكره في مؤلِّفي الشيعة، وذكر مؤلَّفاته في كتابه المذكور.

كما عالج صدر الدين علي بن فضل الله الجيلاني الطبيب المعاصر للأمير أبي القاسم الفندرسكي الفيلسوف المعروف، قضيّة تشيّع ابن سينا ووضع كتاباً بذلك أسماه (توفيق التطبيق في إثبات أنَّ الشيخ الرئيس من الإمامية الاثنىٰ عشرية) أخرجه وعلَّق عليه وطبعه الدكتور محمّد مصطفىٰ حلمي سنة (١٩٥٤م).

ويبدو من ملاحظة الكتاب أنَّ الأدلَّة التي أوردها مؤلِّفه الجيلاني، لا تتَّسع لإثبات دعوىٰ الجيلاني وهي أنَّ ابن سينا كان إمامياً اثنا عشرياً، نعم إنَّ النصوص التي أوردها في كتابه المذكور تؤكّد تشيعه بوجه عامّ.

ابن سينا والنقّادون:

وابن سينا، ككثير من أمثاله النابغين العلماء، قد أُثيرت من حوله اتّهامات بالكفر والزندقة في هالة مشبوهة لم تنقشع حتَّىٰ عصور متأخّرة.

فقد قالوا عنه: إنَّه يذهب إلىٰ القول بقِدَم العالم، وإلىٰ نفي المعاد الجسماني، وإثبات المعاد النفساني، وإلىٰ أنَّ اللذّات الأُخروية للأرواح للأجسام، وإلىٰ استحلال شرب المسكر، وإلىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا يعلم الجزئيات بعلم جزئي، بل بعلم كلّي.

وهذه الآراء التي نُسِبَت إليه، تتنافىٰ مع صريح العقيدة الإسلاميّة والضرورة الدينية، ومن هنا حمل عليه علماء كثيرون من شيعيين وسُنّيين، وكفَّروه ولعنوه.

وأيّاً كانت هذه النسب، فإنَّ كتابه (الإشارات) التي هي آخر مؤلَّفاته كما قيل قد صرَّح فيه بحدوث العالم، وردَّ فيه علىٰ من زعم بأنَّ هذا الشيء المحسوس واجب لذاته، فقال: (لكنَّك إذا تذكَّرت ما قيل في شرط واجب الوجود لم تجد هذا المحسوس واجباً).

ونجده في الإشارات يحاول أن يثبت أنَّ اللذَّة العقلية والباطنية الروحية هي أسمىٰ من اللذَّة الحسّية الجسدية وأقوىٰ، وإنَّ الناس تتفاوت لذَّاتهم وتتنوَّع بحسب قواهم، ويحاول أن يرد في هذا علىٰ من يدَّعي أنَّ اللذّات القويّة منحصرة في اللذّات الحسّية.

وقد يكون يريد أن يثبت أنَّ الثواب في الآخرة قد يكون نفسياً وعقلياً، وقد يكون حسّياً بحسب مراتب الناس وسعاداتهم، ولم نجده يصرّح في الإشارة بنفي المعاد الجسماني.

بل إنَّ ابن سينا نفسه في المقالة التاسعة من إلهيات الشفاء يصرِّح بالحشر الجسماني، قال: (... يجب أن يُعلَم أنَّ المعاد منه ما هو منقول في الشرع، ولا سبيل إلىٰ إثباته إلَّا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبيّ، وهو الذي للبدن عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج إلىٰ تعلّم، وقد بسطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها نبيّنا وسيّدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وآله حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني، وقد صدَّقته النبوَّة).

وقد دافع عن ابن سينا الخونساري في الروضات، ودفع عنه هذه الاتّهامات.

وقد حمل علىٰ ابن سينا ابن سبعين الفيلسوف الإسرائيلي المتوفّىٰ عام (٦٦٩هـ / ١٢٧٠م) ونعته بالتمويه والخلط، قال عنه: (أمَّا ابن

سينا فمموّه مسفسط، كثير الطنطنة، قليل الفائدة، وما له من التأليف لا يصلح لشيء، ويزعم أنَّه أدرك الفلسفة المشرقية، ولو أدركها لتضوَّع ريحها عليه، وهو في العين الحمئة، وأكثر كتبه مؤلَّفة ومستنبطة من كتب أفلاطون، وما فيها من عنده فشيء لا يصلح وكلامه لا يعوَّل عليه).

كما حمل عليه جماعة آخرون سواه، ولكن الحقيقة الفكرية التي يتمتَّع بها ابن سينا وشخصيته الفلسفية هي أرسخ من أن يهزّها تحامل ابن سبعين وسواه، الذي ينظر إليه من زاوية واحدة فقط، هي أنَّه خالف فلاسفة اليونان، ولم يحذ حذوهم، وهذا لأن يكون مدحاً أولىٰ من أن يكون ذمَّاً.

وحسب ابن سينا مكانة علمية أنَّ أكثر من تأخَّر عنه يتحرَّك تفكيره في تيّار آراء ابن سينا، ولا زال كذلك إلىٰ عصر قريب، حتَّىٰ عُدَّ منظّم العلم والفلسفة في الإسلام، وقد امتدحه كلّ من الفيلسوفين ابن رشد وابن طفيل، وعنيا بآثاره، كما أطراه غيرهما من المتأخّرين.

فقد قال عنه اوبرفيك: (... ولقد كانت قيمته قيمة مفكّر ملأ عصره...، وكان من كبار عظماء الإنسانية علىٰ الإطلاق).

وهو عند سارطون أعظم علماء الإسلام، ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين...

آراء ابن سينا:

ومن آراء ابن سينا قوله في (النفس) أنَّها جوهر قائم بذاته، مستقلّ عن البدن، مغاير له، وخالف في ذلك أرسطو القائل: إنَّ النفس لا تفارق الجسم، وأنَّها صورة للجسم علىٰ معنىٰ أنَّها توجد بوجوده وتفنىٰ بفنائه، وأنَّها لا تفارق الجسم، وهي مبدأ وظائفه الحيوية كالتغذّي والنموّ والتوليد والحسّ والتخيّل والتذكّر والإدراك وهكذا.

ويقـيم ابـن سـينا بـراهين كثـيرة عـلىٰ ذلـك، ويثبـت فيهـا أنَّ الـذات والنفس المخصوصة لكـلّ إنسـان قـد تكـون معلومـة في حـين لا يكـون شيء من أعضائه معلوماً، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ نفسه مغايرة لجميع أعضائه.

ومن هذه الأدلَّة: أنَّـه لـو تـوهَّم إنسـان قـد خُلِـقَ دفعـة واحـدة كـاملاً في جميع قـواه العقليـة والجسـمية مـن غـير أن تـتلامس أعضـاؤه، بـل كانـت منفرجـة ومعلَّقـة في هـواءٍ طلـق وهـو يهـوي فيـه مـن دون أن يصـدمه أيّ شيء من خارج، فإنَّه في هذه الحـال يغفـل عـن كـلّ شيء إلَّا عـن ثبـوت ذاتـه ونفسه.

وقد يكون برهان ديكـارت في إثبـات وجـود الـنفس وهـو قولـه: (أنـا أُفكّر إذن أنا موجود) مستمدَّاً من هذا البرهان.

ونجد في رأي ابن سينا في الـنفس شـبهاً قريبـاً بـما يـذهب إليـه هشـام بن الحكم في حقيقـة الإنسـان، حـين قـال: (إنَّ الإنسـان اسـم لمعنيـين البـدن والروح، فالبدن موات والـروح هـي الفاعلـة الدرّاكـة الحسّاسـة، وهـي نـور من الأنوار).

بل نجد هذا المعنىٰ عنـد المفيـد وجماعـة مـن الشيعة أيضـاً، فقـد قـالوا بجوهرية النفس واستقلالها.

وفكرة وجود النفس المستقلَّة عـن الجسـم فكـرة إسـلاميّة أصـيلة، تمتـدّ جذورها في كثير من المعتقدات الإسلاميّة، مثـل مسـألة (عـالم الـذرّ) ومسـألة (البرزخ)، ومسألة (سؤال الملكين للميّت في القبر)، وسوىٰ ذلك، ممَّـا لا يصـحُّ ظاهرها إلَّا علىٰ افتراض وجود النفس وبقائها بعد الموت.

ويعنـي ابـن سـينا مـن الـنفس (الأنـا)، وفي ذلـك يقـول: (المـراد بالنفس ما يشير إليه كلّ أحد بقوله: أنا).

ويقيم علىٰ ذلك براهين ثلاثة وهي براهين علىٰ أنَّ النفس مغايرة للبدن أيضاً، الأوَّل برهان الاستمرار الذي أشار إليه بقوله:

(**البرهان الأوَّل**: تأمَّل أيّها العاقل في أنَّك تتذكَّر كثيراً ممَّا جرىٰ من أحوالك، فأنت إذن ثابت مستمرّ لا شكَّ في ذلك، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمرَّاً، بل هو أبداً في الانتقاص...).

الثاني برهان الانتباه، وهو الذي أشار إليه بقوله:

(**البرهان الثاني**: هو أنَّ الإنسان إذا كان متَّهماً في أمر من الأُمور فإنَّه يستحضر ذاته حتَّىٰ أنَّه يقول: إنّي فعلت كذا، وفي مثل هذه الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه، والمعلوم بالفعل غير ما هو مغفول عنه، فذات الإنسان مغايرة للبدن).

الثالث برهان الشخصية الجامعة لأفعال البدن المختلفة، وقد أشار إلىٰ ذلك بقوله:

(**البرهان الثالث**: هو أنَّ الإنسان يقول: أدركت الشيء الفلاني ببصري، فاشتهيته، أو غضبت منه، وكذا يقول: أخذت بيدي، ومشيت برجلي، وتكلَّمت بلساني، وسمعت بأُذني، وتفكَّرت في كذا، وتوهَّمته وتخيَّلته، فنحن نعلم بالضرورة أنَّ في الإنسان شيئاً جامعاً يجمع هذه الإدراكات، ويجمع هذه الأفعال، ونعلم بالضرورة أيضاً أنَّه ليس شيء من أجزاء هذا البدن مجمعاً لهذه الإدراكات والأفاعيل الإلهية. فإذن الإنسان الذي يشير إلىٰ نفسه بـ (أنا) مغاير لجملة أجزاء البدن، فهو شيء وراء البدن).

وقد سبق ابن سينا في فكرة (الأنا) التي سادت في الفلسفة الحديثة كلّ الذين أخذوا بها، أمثال ديكارت وبرجسون وفرويد صاحب التحليل النفساني وغيرهم.

أمَّـا في نظريـة الصـدور والفـيض، وترتيـب العقـول، وتكثّـر الموجودات، فلم يزد ابن سينا علىٰ ما عند الفارابي شيئاً.

فهو يقول في مسألة الصدور: (قد عرفت أنَّه واجب الوجود، وأنَّه واحد، وأنَّه ليس له صفة زائدة علىٰ ذاته تقتضي الأفعال المختلفة، بل الفعل آثار كمال ذاته، وإذا كان كذلك ففعله الأوَّل واحد، لأنَّه لو صدر عنه اثنان لكان ذلك الصدور علىٰ جهتين مختلفتين، لأنَّ الاثنينية في الفعل تقتضي الاثنينية في الفاعل، والذي يفعل بذاته إن كانت ذاته واحدة فلا يصدر منها إلَّا واحد، وإن كانت في اثنينية فيكون مركَّباً، وقد بيَّنا استحالة ذلك، فيلزم ألَّا يكون الصادر الأوَّل عنه جسماً، لأنَّ كلّ جسم مركَّب من الهيولىٰ والصورة، وهما محتاجان إلىٰ علَّتين وإلىٰ علَّة ذات اعتبارين، وإذا كان كذلك استحال صدورها من الله تعالىٰ، لما ثبت أنَّه ليس فيه تركيب أصلاً، فإنَّ الصادر الأوَّل منه غير جسم، فهو إذن جوهر مجرَّد، وهو العقل الأوَّل...

فإن قيل: من أين جاءت هذه الكثرة؟ فنقول: إنَّ الأوَّل تعالىٰ واجب، وعَلِم ذاته، فبعلمه الأوَّل وجب عنه عقل، وذلك العقل عَلِم الأوَّل وعلم ذاته، فبعلمه الأوَّل وجب عنه عقل، وبعلم ما دون الأوَّل وجب عنه نفس الفلك الأطلس، يعني الفلك الأقصىٰ، والفلك الأوَّل هو العرش.

ثمّ ذلك العقل علم الأوَّل وما دون الأوَّل، فبعلمه الأوَّل وجب عنه عقل، وبعلمه ما دون الأوَّل وجب عنه نفس الفلك المكوكب الذي هو الكرسي.

ثمّ ذلك العقل علم الأوَّل وعلم ما دون الأوَّل، فبعلمه الأوَّل وجب عنه عقل، وبعلمه ما دون الأوَّل وجب عنه نفس فلك زحل...).

ثمّ يمضي فيقول: (ثمّ ذلك العقل علم الأوَّل وعلم ما دون الأوَّل، فبعلمه الأوَّل وجب عنه عقل، وبعلمه ما دون الأوَّل وجب عنه نفس فلك القمر، فهذا العقل الأخير يقال له: العقل الفعّال، وواهب الصور).

ولابن سينا رأي خاصّ في الحركة، ويعتبرها محقّقة للزمان، وأنَّه لا يمكن تصوّره إلَّا مقروناً بها، فإذا لم يكن هناك حركة فلا يمكن تصوّر وجود الزمان أيضاً.

ويذهب إلىٰ أنَّ كمّيّات الأجسام ومقادير المسافات لا يمكن فهمها إلَّا بالنسبة الحركية، كما أنَّه لا يمكن فهم البدء والنهاية، والجهات الستّ، والتبدّل الحاصل في الجسم من الحالة الصلبة إلىٰ السائلة إلىٰ الغازية إلَّا بملاحظة الحركة.

وهذا يعني فرض بُعدٍ رابع للجسم هو الحركة، ويلتقي بالنظرية النسبية القائلة بفرض بُعدٍ رابع هو الزمان، بعد افتراض أنَّ الزمان عنده من توابع الحركة. ولا نريد أن نتوسَّع في آرائه الفلسفية؛ بل نقف منها علىٰ ما ذكرناه لئلَّا نخرج عن الطريق التي رسمناها من الاختصار.

أمَّا الجوانب الثقافية فأبرزها فيه هو الجانب الطبّي، الذي هو أحد أعمدة شهرة ابن سينا العريضة، وبروز شخصيته الواسعة، فقد برع فيه براعة فائقة، حتَّىٰ وُصِفَ بأنَّه (أبقراط الإسلام) وأنَّه مكمّل الطبّ بعد أن كان ناقصاً.

وقد استنفد الطبّ الكثير من جهود ابن سينا، فوضع فيه شطراً كبيراً من مؤلَّفاته، وأشهرها القانون، كما أنَّ له فيه اكتشافات ونظريات جديدة.

ولابن سينا اتّجاه كبير للرياضيات، ونعرف ذلك من المؤلّفات الكثيرة التي ألَّفها في هذا الموضوع.

ونستطيع أن نتبيَّن تحوّل ثقافة ابن سينا الشاملة للكيمياء والأخلاق واللغة والتفسير وسواها من مراجعة فهرست مؤلَّفاته الكثيرة التي وردت في (عيون الأنباء) و(أعيان الشيعة) وسواهما.

(انتهىٰ ما أردنا نقله من كتاب فلاسفة الشيعة).

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

ذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء (ج ١/ ص ١٤) وصيّة للشيخ الرئيس أوصىٰ بها بعض أصدقائه، قال: ومن كلام الشيخ الرئيس وصيّة أوصىٰ بها بعض أصدقائه، وهو أبو سعيد ابن أبي الخير الصوفي، قال: (ليكن الله تعالىٰ أوَّل فكر له وآخره، وباطن كلّ اعتبار وظاهره، ولتكن عين نفسه مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوفة علىٰ المثول بين يديه، مسافراً بعقله في الملكوت الأعلىٰ وما فيه من آيات ربّه الكبرىٰ، وإذا انحطَّ إلىٰ قراره فلينزّه الله تعالىٰ في آثاره، فإنَّه باطن ظاهر تجلّىٰ لكلّ شيء بكلّ شيء.

ففي كلّ شيء له آية　　　تدلُّ علىٰ أنَّه واحد

فإذا صارت هذه الحال له ملكة انطبع فيها نقش الملكوت وتجلّىٰ له قدس اللاهوت، فألف الأُنس الأعلىٰ، وذاق اللذَّة القصوىٰ، وأخذ عن نفسه من هو بها أولىٰ، وفاضت عليه السكينة وحقَّت عليه الطمأنينة، وتطلَّع إلىٰ العالم الأدنىٰ اطّلاع راحم لأهله، مستوهن لحيله، مستخفّ لثقله، مستحسن به لعقله، مستضلّ لطرقه.

وتذكر نفسه وهي بها لهجة وببهجتها بهجة، فتعجَّب منها ومنهم تعجّبهم منه، وقد ودَّعها وكان معها كأنَّه ليس معها.

وليعلم أنَّ فضل الحركات الصلاة، وأمثل (وأفضل) السكنات الصيام، وأنفع البرّ الصدقة، وأزكىٰ السرّ الاحتمال، وأبطل السعي المراءات، ولن تخلص النفس عن الدرن ما التفتت إلىٰ قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال، وخير العمل ما صدر عن خالص نيَّة، وخير النيَّة ما ينفرج عن جناب علم.

والحكمة أُمّ الفضائل، ومعرفة الله أوَّل الأوائل، إليه يصعد الكلم الطيّب، والعمل الصلاح يرفعه، ثمّ يقبل علىٰ هذه النفس المزيَّنة بكمالها الذاتي فيحرسها عن التلطّخ بما يشينها من إلهيات الانقيادية للنفوس المو ادية التي إذا بقيت في النفوس المزيَّنة كان حالها عن الانفصال كحالها عن الاتّصال، إذ جوهرها غير مشاوب ولا مخالط وإنَّما يدنّسها هيأة الانقياد لتلك الصواحب، بل يفيدها هيئات الاستيلاء والسياسة والاستعلاء والرياسة، وكذلك يهجر الكذب قولاً وتخيّلاً حتَّىٰ تحدث للنفس هيأة صدوقة، فتصدق الأحلام والرؤيا، وأمَّا اللذّات فيستعملها علىٰ إصلاح الطبيعة وإبقاء الشخص أو النوع أو السياسة.

وأمَّا المشروب فإنَّه يهجر شربه تلهّياً بل تشفّياً وتداوياً، ويعاشر كلّ فرقة بعادته ورسمه، ويسمح بالمقدور والتقدير من المال، ويركب لمساعدة الناس كثيراً ممَّا هو خلاف طبعه، ثمّ لا يقصّر في الأوضاع الشرعية، ويعظّم السنن الإلهية، والمواظبة علىٰ التعبّدات البدنية، ويكون دوام عمره إذا خلا وخلص من المعاشرين تطربه الزينة في النفس والفكرة في الملك الأوَّل وملكه، وكيس النفس عن عيار الناس من حيث لا يقف عليه الناس.

عاهـد الله أنَّـه يسـير بهـذه السـيرة، ويـدين بهـذه الديانـة، والله وليّ الذين آمنوا وهو حسبنا ونعم الوكيل)، انتهىٰ.

وذكـر الخونسـاري في (روضـات الجنّـات)، قـال: رأيـت في تـاريخ حمـد الله المسـتوفي في أنَّ الـرجلين _ يعنـي الشـيخ أبـا سـعيد بـن أبي الخـير الزاهد المتصـوّف المشـهور، والشـيخ أبـا عـلي ابـن سـينا _ تلاقيـا في موضـع، فلمَّا افترقا سُئِلَ كل منهما عـن صـاحبه، فقـال الشـيخ أبـو سـعيد: مـا أنـا أراه هو يعلمه، وقال الشيخ أبو علي: ما أعلمه هو يراه.

قلـت: وفـيما ذكـراه إشـارة إلىٰ درجـات علـم اليقـين وعـين اليقـين وحقّ اليقين، وبعبارة أُخـرىٰ يقـين الخـبر، ويقـين الدلالـة، ويقـين المشـاهدة، وبتقرير ثالـث: مكاشـفة في الأخبـار، ومكاشـفة بإظهـار القـدرة، ومكاشـفة القلوب بحقائق الإيمان.

وكـلّ مـن الألفـاظ الثلاثـة بمعنـىٰ نفـس اليقـين، إلَّا أنَّ علـم اليقـين علىٰ موجـب اصـطلاحهم مـا كـان بشـرط البرهـان، وعـين اليقـين مـا كـان بحكم البيان، وحقّ اليقـين مـا كـان بنعـت العيـان، ومُثِّـل لـذلك بمـن علـم ماهيّة النار مثلاً بالتعريف، وبمن رآهـا بـالعين، وبمـن تـأثَّر بهـا نفسـه، فعلـم اليقـين لأربـاب العقـول، وعـين اليقـين لأصـحاب العلـوم، وحـقّ اليقـين لأصـحاب المعـارف، وللكـلام في الإفصـاح عـن هـذا مجـال وتحقيقـه يعـود إلىٰ ما ذكرناه، فاقتصرنا علىٰ هذا القدر علىٰ جهة التنبيه، انتهىٰ.

ما يُنسب إليه من الشعر:

قـال ابـن أبي أصـيبعة في عيـون الأنبـاء (ج ١/ ص ١٥): ومـن شـعر الشيخ الرئيس، قال في النفس، وهي من أجلّ قصائده وأشرفها:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّع
محجوبة عن كلّ مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت علىٰ كره إليك وربّما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما أنست فلمّا واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنّها نسيت عهوداً بالحمىٰ ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتّىٰ إذا اتّصلت بهاء هبوطها في ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضّع
تبكي إذا ذكرت دياراً بالحمىٰ بمدامع تهمي ولمّا تقطع
وتظلّ ساجعة علىٰ الدمن التي درست بتكرار الرياح الأربع
إذا عاقها الشرك الكثيف وصدّها قفص عن الأوج الفسيح الأريع
حتّىٰ إذا قرب المسير إلىٰ الحمىٰ ودنا الرحيل إلىٰ الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجّع
وغدت مفارقة لكلّ مخلف عنها حليف الترب غير مشيّع
وبدت تغرّد فوق ذروة شاهق سام إلىٰ قعر الحضيض الأوضع
إن كان أرسلها الإله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكلّ خفيّة في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها حتّىٰ لقد غربت بغير المطلع
فكأنّها برق تألّق بالحمىٰ ثمّ انطوىٰ فكأنّه لم يلمع

وقال في الشيب والحكمة والزهد:

أمَا أصبحت عن ليل التصابي … وقد أصبحت عن ليل الشباب
تنفس في عذارك صبح شيب … وعسعس ليله فكم التصابي
شبابك كان شيطاناً مريداً … فرجّم من مشيبك بالشهاب
وأشهب من بزاة الدهر خوىٰ … علىٰ فودي فألمأ بالغراب
عفا رسم الشباب ورسم دار … لهم عهدي بها مغنىٰ رباب
فذاك أبيض من قطرات دمعي … وذاك أخضر من قطر السحاب
فذا ينعىٰ إليك النفس نعياً … وذا لكم نشور للروابي
كذا دنياك ترأب لانصداع … مغالطة وتبني للخراب
ويعلق مشمئز النفس عنها … فلمَّا عفتها اغريتها بي
فلولاها لعجَّلت انسلاخي … عن الدنيا وإن كانت إهابي
عرفت عقوقها فسلوت عنها … بإشراك تعوق عن اضطراب
بليت بعالم يعلو أذاه … سوىٰ صبري ويسفل عن عتابي
وسيل للصواب خلاط قوم … وكم كان الصواب سوىٰ الصواب
أخالطهم ونفس في مكان … من العلياء عنهم في حجاب
ولست بمن يلطّخه خلاط … متىٰ اغبرَّت أُناث عن تراب
إذا ما لحَّت الأبصار نالت … خيالاً واشمأزَّت عن لباب

وقال أيضاً:

يا ربع نكّرك الأحداث والقدم … فصار عينك كالآثار تهتم
كأنّما رسمك السرّ الذي لهم … عندي ونؤيك صبري الدارس الهدم

كــأنّما ســعفة الأثفــيّ باقيــة بــين الريــاض كطاجونيّــة جــثم
أو حسـرة بقيـت في القلـب مظلمـة عن حاجة مـا قضـوها إذ هـم أُمـم
ألَا بكــاه ســحاب دمعــه همــع بالرغــد مزدفــر بــالبرق مبتســم
لِـمَ لم تجـدها سـحاب جودهـا ديـم مــن الــدموع لهــوامي كلهــنَّ دم
ليـت الطـول أجابـت مـن بـه أبـداً حبّــه صــحَّة في حــبّهم ســقم
أو علّهــا بلســان الحــال ناطقــة قد تفهم الحـال مـا لا تفهـم الكلـم
أمَـا تــرىٰ شـيبتي تنبيـك ناطقـة بــأنَّ حـدي الـذي اسـتدلقته ثلـم
الشـيب يوعـد والآمـال واعـدة والمــرء يغــترّ والأيّــام تنصــرم
مـا لي أرىٰ حكـم الأفعـال سـاقطة وأسـمع الـدهر قـولاً كلّـه حكـم
ما لي أرىٰ الفضل فضلاً يستهان بـه قد أُكرم النقص لـمَّا استنقص الكرم
جوَّلـت في هـذه الـدنيا وزخرفهـا عينــي فألفيــت داراً مــا بهــا أرم
كجيفــة دوَّدت فالــدود منشــؤه فيهــا ومنهالــة الأرزاء والطغــم
سـيّان عنـدي إن بـرّوا وإن فجـروا فلـيس يجـري علـىٰ أمثـالهم قلـم
لا تحســــدنَّهم إن جــــدَّ جــــدّهم فالمجد يجـدي ولكـن مـا لـه عصـم
ليسوا وإن نعموا عيشـاً سـوىٰ نعـم وربَّــما نعّمــت في عيشــها الــنعم
الواجـدون غنـىٰ العـادمون نهـىٰ ليس الذي وجدوا مثل الذي عدموا
خلقت فيهم وأيضاً قد خلطت بهـم كرهـاً فلـيس غنـىٰ عـنهم ولا لهـم
أسـكنت بيـنهم كالليـث في أجـم رأيـت ليثـاً لـه مـن جنسـه أجـم
إنّي وإن بـان عنّـي مـن بليـت بـه في عينــه كمّــه في أُذنــه صــمم
مميّــز مــن بــين الــدنيا يميّــزني أقـلّ مـا في لـيس الجلـد والعظـم

بـــأيّ مـــأثرة ينقـــا ســـبي أحـــد   بـــأيّ مكرمـــة تحكينـــي الأُمـــم
أمثـــل عنجهـــة شـــوهاء يلحـــق بي   أم مثـل شـغبر حـش عرضـه زيـم
فذا عجـوز ولكـن بعـد مـا قعـدت   وذاك جـود مسـاع الملـك مـتَّهم
إنّي وإن كانـــت الأقـــلام تخـــدمني   كـذاك يخدم كفـي الصـارم الخـذم
قـد أشـهد الـروع مرتاحـاً فاكشـفه   إذا تنـــاكر عـــن تيّـــاره الـــبهم
الضـــرب محتـدم والطعــن منـتظم   والـــدم مـــرتكم والبـــأس مغـــتلم
والحـــقّ يافوخـــه مـــن نقعهـــم قـــتر   والإفك قسطاسه عن سـفكهم قـتم
والبيض والسـمر حمـر تحـت عثيره   والمـوت يحكـم والأبطـال تختصـم
وأعـدل القسـم في حـربي وحـربهم   مـنهم لنـا غـنم منّـا لهـم عـرم
أمَّـا البلاغـة فاسـألني الخبـير بهـا   أنـا اللسـان قـديماً والزمـان فـم
لا يعلـم العلـم غـير معلِّـماً علـماً   لأهلـــه أنـــا ذاك المعلـــم العلـــم
كانـت قنـاة علـوم الحـقّ عاطلـة   حتَّىٰ جلاها بشـرحي البند والعلـم
نبيـد أرواحهـم بالرعـب نقذفـه   فيهم وأجسادهم بالقضب تلـتحم
ماتـت أنالـة ذا الـدهر اللقـاح علىٰ   عزائمـــي وأســـفت بي لهـــا الهـــيم
لو شئت كان الذي لو شـئت بحـت   ما الخوف أسكت بل أن تلزم الحشم
ولو وجدت طلاع الشـمس متَّسـعاً   لحـط رحـل عزيمـي كنـت أعتـزم
ولـو بكـت عزمـاتي دونهـا الحشـم   ولم يعـــم ســـبيلي نحوهـــا العمـــم
وكانـت البـيض ظلفـا للعمـود لـه   وقد تباعل عـرض الخيـل والحكـم
وظنَّ أن ليس تحجيـل سـوىٰ شـعر   وأنَّ للخيـــل في ميلادهـــا اللجـــم
وغشيت صـفحات الأرض معدّلـة   فالأسـد تنفـر عـن مرعـىٰ بـه غـنم

لكنَّها بقعة جفَّ لشقاء بها   فكلّ صاغ إليها صاغر سدم

وله أيضاً:

هو الشيب لا بدَّ وخطّه   فقرضه واخضبه أو غطّه
أأقلقك الطلّ من وبله   جزعت من البحر في شطّه
وكم منك سرّك غصن الشباب   وريقاً فلا بدَّ من حطّه
فلا تجزعنَّ لطريق سلكت   كم أنبت غيرك في وسطه
ولا تجشعنَّ فما أن ينال   من الرزق كلّ سوىٰ قسطه
وكم حاجة بذلت نفسها   ففوَّتها الحرص من فرطه
إذا أخصب المرء من عقله   نشا في الزمان علىٰ قحطه
ومن عاجل لحزم في عزمه   فإنَّ الندامة من شرطه
وكم ملق دونها غيلة   كما يمرط الشعر من مشطه
إذا ما أحال أخو زلَّة   علىٰ العذر فاعجل علىٰ بسطه
وما يتعب النفس تمييزه   فلا تعجلنَّ إلىٰ خلطه
ووقّر أخا الشيب والحّ الشباب   إذا ما تسعَّف في خبطه
ولا تبغ في العذل واقصد فكم   كتبت قديماً علىٰ خطّه
وكم عاند النصح ذو شيبة   عناد القتاد لدىٰ خرطه
تراه سريعاً إلىٰ مطمع   كما أنشط البكر عن نشطه
وكم رام ذو ملل حاشم   ليغصب حلمي فلم أعطه
وذي حسد أسقطته لغيّ   فما يأنف الدهر من لقطه
يحاول حطّي عن رتبتي   قد ارتفع النجم عن حطّه

يظـــلّ عـــلىٰ دهـــره ســـاخطاً ... وكم يضحك الـدهر مـن سـخطه

وقال أيضاً:

قفـا نجـزي معاهـدهم قلـيلا ... نغيـث بـدمعنا الربـع المحـيلا
تخونـــه العفـــاة كـــما تـــراه ... فـــأمس لا رســـوم ولا طلـــولا
لقـــد عشـــنا بهـــا زمنـــاً قصـــيراً ... نقـــاسي بعـــدهم زمنـــاً طـــويلا
ومـــن يســـتثبت الـــدنيا بحـــال ... يـــرم مـــن مســـتحيل مســـتحيلا
إذا مـا اسـتعرض الـدنيا اعتبـاراً ... تنحّـىٰ الحـرص عنهـا مسـتقيلا
خلـــيلي بلِّـــغ العـــذال إنّي ... هجـرت تجمّـلي هجـراً جمـيلا
وإنّي مـــن أُنـــاس مـــا أحلنـــا ... عـــلىٰ عـــزم فأعقبنـــا نـــزولا
مآقينـــا وأيـــدينا إذا مـــا ... همَـينَ رأيتنـا نعصـي العـذولا
وقفت دمـوع عيني دون سـعدىٰ ... علىٰ الأطـلال مـا وجـدت مسـيلا
عـلىٰ جفنـي لـدمعي فـرض دمـع ... أقمـت لـه بـه قلبـي كفـيلا
عقـدت لهـا الوفـاء وإن عقـدي ... هـو العقـد الـذي لـن يسـتحيلا
وكـم أُخـت لهـا خبطـت فـؤادي ... فـما وجـدت إلىٰ عـذري سـبيلا
أُعـاذل لسـت في شيء فأسـهب ... مـدىٰ الملـوين أو أقصـر قلـيلا
فلـم تـرَ مثلهـا قلبـي أُلوفـاً ... ولم تـرَ مثلهـا أُذني ملـولا
وعـذل الشـيب أولىٰ لي لـواني ... أطقـت وإن جهـدت لـه قبـولا
أجـل قـد كـررت هـذي الليـالي ... عـلىٰ لـيلي زمانـاً لـن يـزولا
أتنكـر ذرعة لمـا علتنـي ... تـزيّن كزينـة الأثـر النصـولا
تعـيّرني ذبـولي أو نحـولي ... كسـيت الـذبل والجسـد النحـيلا

كـما أنَّ الخفـيش أبـا وجـيم ... يعـيّرني بـأن لسـت البخـيلا
يقـول مبـذر لـيغض منّـي ... يعـدّ علـوّ ذي كـرم سـفولا
متىٰ وسعت لقصدي الأرض حتّىٰ ... أبـرز أو أنيـل بـه جـزيلا
يقـول بـه انخـراق الكـفّ جـدّاً ... وكـم خـرق رفعـت بـه منـيلا
فجل خلّل الأصابع منك واجهـد ... عسـىٰ أن لا تطـوف ولا تنـولا
بفحـش أنَّ مالـك فـوق مـالي ... نفـائس مـا تصـان بـها أذيـلا
حكـاك غبـاء مـا أفنـاه بـذلي ... يبـاع بـبعض مـا تحـوي كمـيلا
يحـذّرك الأحبَّـة وقـع كيـدي ... فلسـت بـذاك مـذعوراً مهـولا
سقطت عن اعتقـادي فيـك سـوءً ... فطـب نفسـاً ولا تفـرق قبـيلا
فأمَّـا أن أرعـك بغـير قصـدي ... فقـد مـا روع الفيـل الأفـيلا

وقال أيضاً:

أو ليتني نعمـة مـذ صرت تلحظنـي ... كـافي الكفـاة بعينـي مجمـل النظـر
كـذا اليواقيـت فـيها قبـل نشـأتها ... من حسن تأثير عين الشمس في القمر

وشكا إليه الوزير أبو طالب العلـوي آثـار بثـر بـدا علىٰ جبهتـه، ونظـم شكواه شعراً وأنفذه إليه وهو:

صـنيعة الشـيخ مولانـا وصـاحبه ... وغـرس انعـامه بـل نشـئ نعمتـه
يشـكو إليـه أدام الله مدَّتـه ... آثـار بثـر تبـدىٰ فـوق جبهتـه
فـامنن عليـه بحسـم لـداء مغتـنماً ... شـكر النبـيّ لـه مـع شـكر عزَّتـه

فأجـاب الشـيخ الـرئيس عـن أبياتـه، ووصـف في جوابـه مـا كـان بـه برؤه من ذلك، فقال:

الله يشـفي وينقـي مـا بجبهتـه   مـن الأذىٰ ويعافيـه برحمتـه
أمَّـا العـلاج فإسـهال يقدمـه   ختمـت آخـر أبيـاتي بنسـخته
وليرسل العقـل المصـاص يرشـف   دم القـذال ويغنـي عـن حجامتـه
واللحـم يهجـره إلَّا الخفيـف ولا   يـدني إليـه شرابـاً مـن مدامتـه
والوجه يطليه ماء الورد معتصـراً   فيه الخـلاف مـدافاً وقـت هجعتـه
ولا يضـيق منـه الـزر مختنقـاً   ولا يصـيحنَّ أيضـاً عنـد سـخطته
هذا العلاج ومن يعمل بـه سـيرىٰ   آثـار خـير ويكفـىٰ أمـر علَّتـه

وقال أيضاً:

خـير النفـوس العارفـات ذواتهـا   وحقيـق كمّيـات ماهياتهـا
وبِـمَ الـذي حلَّـت ومِـمَّ تكوَّنـت   أعضـاء بنيتهـا عـلىٰ هيئاتهـا
نفس النبـات ونفـس حسّ ركّبـا   هـلَّا كـذاك سـماته كسماتها
يـا للرجـال لعظـم رزء لم تـزل   منـه النفـوس تخـب في ظلماتهـا

وقال أيضاً:

هـذّب الـنفس بـالعلوم لترقـىٰ   وذر الكـلّ فهـي للكـلّ بيـت
إنَّـما الـنفس كالزجاجـة   والعلـم سراج وحكمـة الله زيـت
فـإذا أشرقـت فإنَّـك حـيّ   وإذا أظلمـت فإنَّـك ميّـت

وقال أيضاً:

عجبـاً لقـوم يحسـدون فضـائلي   مـا بـين غيـابي إلىٰ عـذالي
عتبوا علىٰ فضـلي وذمّـوا حكمتـي   واستوحشوا مـن نقصـهم وكمالي
إنّي وكيـدهم ومـا عتبـوا بـه   كـالطود يحقـر نطحـة الأوعـال

وإذا الفتىٰ عرف الرشاد لنفسه ... هانت عليه ملامة الجهّال

وقال أيضاً:

أكاد أجنّ فيما قد أجنّ ... فلم يرَ ما أرىٰ إنس وجنّ

رميت من الخطوب بمصميات ... نوافذ لا يقوم بها مجن

وجاورني أُناس لو أُريدوا ... علىٰ منفت ما أكلوه ضنّوا

فإن عنت مسائل مشكلات ... أجال سهامهم حدس وظنّ

وإن عرضت خطوب معضلات ... توادوا واستكانوا واستكنّوا

وقال أيضاً:

أشكو إلىٰ الله الزمان فصرفه ... أبلىٰ جديد قواي وهو جديد

محن إليَّ توجَّهت فكأنّني ... قد صرت مغناطيس وهي حديد

وقال أيضاً:

تنهنه وحاذر أن ينالك بغتة ... حسام كلامي أو كلام حسامي

وقال أيضاً: يقال: إنَّ هذه الأبيات إذا قيلت عند رؤية عطارد وقت شرفه، فإنَّها تفيد علماً وخيراً بإذن الله تعالىٰ:

عطارد قد والله طال تردّدي ... مساءً وصبحاً كي أراك فأغنما

فها أنت فامددني قوىٰ أدرك المنىٰ ... بها والعلوم الغامضات تكرّما

ووقّني المحذور والشرّ كلّه ... بأمر مليك خالق الأرض والسما

إلىٰ كثير ممَّا ذكر ابن أبي أصيبعة من شعره، وقد اكتفينا بهذا القدر الذي ذكرناه.

* * *

(١٦)

أبو الريحان
محمّد بن أحمد البيروني الخوارزمي[١]

جاء في فلاسفة الشيعة (ص ٣٦٩): وُلِدَ بخوارزم سنة (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) وتوفّي سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) بغزنة كما ذكر ياقوت، وقيل في وفاته غير ذلك.

وصفه السيّد الأمين، بأنّه (كان حكيماً رياضياً، عالماً بالنجوم، طبيباً، فيلسوفاً، ماهراً، جغرافياً، مؤرِّخاً، أديباً، شاعراً، لغوياً...).

ووصفه ابن أبي أصيبعة بقوله: (... كان مشتغلاً بالعلوم الحكمية، فاضلاً في علم الهيأة والنجوم، وله نظر جيّد في صناعة الطبّ).

ونعته الصلاح الصفدي بقوله: (... وحيد زمانه في فنون الحكمة والرياضي، وملمّ في صناعة الطبّ والنجوم).

أمَّا القمّي فقد وصفه في (الكنىٰ والألقاب) بأنّه الحكيم الرياضي، الطبيب المنجّم المعروف؛ بل قيل: إنَّه أشهر علماء النجوم والرياضيات من المسلمين...، سافر إلىٰ بلاد الهند أربعين سنة، اطَّلع فيها علىٰ علوم الهنود، وأقام مدَّة في خوارزم وأكثر اشتغاله في النجوم والرياضيات والتاريخ.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٣٦٩؛ معجم الأُدباء ١٧: ١٨٠؛ أعيان الشيعة ٤٣: ٢٣٢؛ روضات الجنّات ٧: ٣٥١؛ عيون الأنباء ٣: ٢٩؛ أعلام العرب في الكيمياء: ٢١٧؛ معجم أُدباء الأطبّاء ٢: ٥٠؛ تراث العرب العلمي: ٢٧٥؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٢٩٩؛ الكنىٰ والألقاب ١: ٧٦.

قال السيّد الأمين في (أعيان الشيعة)[١] نقلاً عن (معجم الأُدباء): ذكره محمّد بن محمود النيسابوري، فقال: له في الرياضيات السبق الذي لم يشقّ المحضرون غباره، ولم يلحق المضمرون المجيدون مضماره، وقد جعل الله الأقسام الأربعة له أرضاً خاشعة، سمك له لواقح مزّقها واهتزّت بهي وانع نبتها، فكم مجموع له يرف علىٰ روض النجوم ظلّه، ويرفرف علىٰ كبد السماء طلّه، وبلغني أنّه لـمّا صنّف القانون المسعودي أجازه السلطان بحمل فيل من نقده الفضّي، فردّه إلىٰ الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به، وكان ﵀ مع الفسحة في التعمير وجلالة الحال في عامّة الأُمور مكبّاً علىٰ تحصيل العلوم، منصبّاً إلىٰ تصنيف الكتب، يفتح أبوابها، ويحيط شواكلها وأقرابها، ولا يكاد يفارق يده القلم وعينه النظر وقلبه الفكر إلّا في يومي النيروز والمهرجان من السنة لإعداد ما تمسّ إليه الحاجة في المعاش من بلغة الطعام وعلقة الرياش، ثمّ هجيراه في سائر الأيّام من السنة. علم يسفر عن وجهه قناع الإشكال، ويحسر عن ذراعيه كمام الإغلاق.

حدَّث القاضي كثير بن يعقوب البغدادي النحوي في الستور عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسىٰ الولوالجي، قال: دخلت علىٰ أبي الريحان وهو يجود بنفسه قد حشرج نفسه وضاق صدره، فقال لي في ذلك الحال: كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحال؟ قال لي: يا هذا أُودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألَا يكون خيراً من أن أُخلّيها وأنا جاهل بها؟ فأعدت ذلك عليه حفظ

---

(١) أعيان الشيعة ٩: ٦٥/ الرقم ١٩١.

وعلَّمني ما وعد، وخرجت من عنده فسمعت الصراخ عليه وأنا في الطريق.

قال: وأمَّا نباهة قدره وجلالة خطره عند الملوك، فقد بلغني من حظوته لديهم أنَّ شمس المعالي قابوس بن وشمكير أراد أن يستخلصه لصحبته ويحتبسه في داره علىٰ أن تكون به الإمرة المطاعة في جميع ما يحويه ملكه ويشتمل عليه ملكه، فأبىٰ عليه ولم يطاوع، ولـمَّا سمحت مروءته بمثل ذلك للملوك الخوارزمشاهية، أسكنه خوارزمشاه في داره وأنزله في قصره، ودخل عليه خوارزمشاه يوماً وهو راكب علىٰ ظهر الدابّة، فأمر باستدعائه من الحجرة فأبطأ قليلاً، فتصوَّر الأمر علىٰ غير صورته (أي ظنَّ خوارزمشاه أنَّ ابطاءه أُنفة من المجيء إليه)، وثنىٰ العنان نحوه ورام النزول، فسبقه أبو الريحان إلىٰ البروز وناشده الله أن لا يفعل فتمثَّل خوارزمشاه:

العلم من أشرف الولايات يأتيه كلّ الورىٰ ولا يأتي

ثمّ قال: لولا الرسوم الدنياوية لما استدعيتك، فالعلم يعلو ولا يُعلىٰ عليه وكأنَّه سمع هذا في أخبار المعتضد، فإنَّه كان يوماً يطوف في البستان وهو آخذ بيد ثابت بن قرة الحرّاني، إذ جذبها دفعة وخلَّاها، فقال ثابت: ما بدا يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت يدي فوق يدك، والعلم يعلو ولا يُعلىٰ (عليه).

ولـمَّا استبقاه السلطان الماضي لخاصّة أمره وجوجاء (أي حاجة) صدره، كان يفاوضه فيما يسنح لخاطره من أمر السماء والنجوم.

فيحكىٰ أنَّه ورد عليه رسول من أقصىٰ بلاد الترك، وحدَّث بين يديه بما شاهد فيما وراء البحار نحو القطب الجنوبي من دور الشمس

عليه ظاهرة في كلّ دورها فوق الأرض، بحيث يبطل الليل، فتسارع علىٰ عادته في التشدّد في الدين إلىٰ نسبة الرجل إلىٰ الإلحاد والقرمطة علىٰ براءة أُولئك القوم عن هذه الآفات حتَّىٰ قال أبو نصر ابن مشكان: إنَّ هذا لا يذكر ذلك عن رأي يرتئيه، ولكن عن مشاهدة يحكيه، وتلا قوله ﷻ: ﴿وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً﴾ (الكهف: ٩٠).

فسأل أبا الريحان عنه فأخذ يصف له علىٰ وجه لاختصار ويقرّره علىٰ طريق الإقناع، وكان السلطان في بعض الأوقات يحسن الإصغاء ويبذل الانصاف، فقبل ذلك وانقطع الحديث بينه وبين السلطان وقتئذٍ.

وأمَّا ابنه السلطان مسعود فقد كان فقه إقبال علىٰ علم النجوم ومحبَّة لحقائق العلوم، ففاوضه يوماً في هذه المسألة، وفي سبب اختلاف مقادير الليل والنهار في الأرض، وأحبَّ أن يتَّضح له برهان ما لم يصحّ له من ذلك بعيان، فقال له أبو الريحان: (أنت المنفرد اليوم بامتلاك الخافقين، والمستحقّ بالحقيقة اسم ملك الأرض، فأخلق بهذه المرتبة إيثار الاطّلاع علىٰ مجاري الأُمور وتصاريف أحوال الليل والنهار ومقدارها في عامرها وغامرها)، وصنَّف له عند ذلك كتاباً في اعتبار مقدار الليل والنهار بطريق تبعّد عن مواضعات المنجّمين وألقابهم، ويقرّب تصوّره من فهم من لم يرتضِ بها ولم يعتدها، وكان السلطان الشهيد قد مهر بالعربية، فسهل وقوفه عليه وأجلَّ إحسانه إليه، وكذلك صنَّف كتابه في لوازم الحركتين بأمره، انتهىٰ.

وقال الأُستاذ قدري طوقان في (أنواع مجيدة من الثقافة الإسلاميّة): وامتاز البيروني علىٰ معاصريه بروحه العلمي وتسامحه وإخلاصه للحقيقة، كما امتازت كتابته بطابع خاصّ، فهو دائماً يدعم

أقواله وآراءه بالبراهين المادّية والحجج المنطقة، وكان ملمّاً بعلم المثلّثات، وتدلُّ كتبه علىٰ أنَّه كان يعرف قانون تناسب الجيوب، وقد عمل هو وبعض معاصريه الجداول الرياضية للجيب والظلّ.

واشتغل أبو ريحان بالفلك، وله فيه جولات موفَّقات، فقد أشار إلىٰ دورات الأرض علىٰ محورها، ووضع طريقة ثابتة جديدة لقياس طول الدرجة، وألَّف كتاباً في الفلك يُعَدُّ أشهر كتاب ظهر في القرن الحادي عشر، وهو كتاب التفهيم، موضَّح بالأشكال والرسوم.

وعمل البيروني تجربة في حساب الوزن النوعي، واستعمل جهازاً ووجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً، ومركَّباً بعضها من الأحجار الكريمة، وكانت حساباته دقيقة لا تختلف عن التي نعرفها الآن، وله كتاب في خواصّ العناصر والجواهر، وفي بعض آثاره شرح لصعود مياه الفوّارات والعيون إلىٰ الأعلىٰ، وكيف تتجمَّع مياه الآبار بالرشح من الجوانب، وكيف تفور العيون، وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلىٰ القلاع رؤوس المنارات، وقد شرح كلّ هذه المسائل بوضوح تامّ ودقَّة متناهية، وفي قالب سهل لا تعقيد فيه، وهو أوَّل من استنبط علم تسطيح الكرة، ووضع أُصول الرسم علىٰ سطح الكرة[1].

وقال طوقان في (تراث العرب العلمي): كان يحسن السريانية والسنسكريتية والفارسية عدا العربية، وكان أثناء إقامته في الهند يعلِّم الفلسفة اليونانية، ويتعلَّم هو بدوره الفلسفة الهندية.

وقال الأُستاذ عبد الحميد الدجيلي: له فوائد تاريخية في كتبه لا

---

(١) راجع: الآثار الباقية: ٣٥٧.

تُرىٰ في غيرها، وممَّا أفاد عن الترقيم في الهند: أنَّ صور الحروف وأرقام الحساب تختلف باختلاف المحلَّات، وأنَّ العرب أخذوا أحسن ما عند الهنود.

فلقد كان لدىٰ الهنود أشكال عديدة للأرقام، فهذَّب العرب بعضها وكوَّنوا من ذلك سلسلتين عُرِفَت إحداهما بالأرقام الهندية، وهي التي تُستَعمل في بلادنا وأكثر الأقطار الإسلاميّة، وعُرِفَت الثانية باسم الأرقام الغبارية، وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والأندلس، وعن طريق هذه البلاد دخلت الغبارية إلىٰ أُوربا وعُرِفَت عندهم بالأرقام العربية.

وذكر أبو الريحان المقالتين اللّتين حملهما أحد الهنود إلىٰ بغداد في منتصف القرن الثاني للهجرة، وكانت إحداهما في الرياضيات، والثانية في الفلك، وبواسطة الأُولىٰ دخلت الأرقام الهندية إلىٰ العربية واتُّخذت أساساً للعدد.

ودرس المستشرق الشهير سخور كتب أبي الريحان فخرج عنه بهذه النتيجة التي ذكرها: (إنَّ البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ الإسلامي).

وقال أيضاً: (إنَّ الذين كتبوا عن الهند قبل البيروني تُعَدُّ كتبهم كتب أطفال لم يتقنوا عملهم).

وقال: (لقد درس أبو الريحان اللغة الهندية في مدَّة قصيرة لا تتسنّىٰ لأحد في عصرنا في دراسة هذه اللغة السنسكريتية الصعبة، ولم يوجد أحد من علماء المسلمين درس لغة وثنية محضاً للعلم غير أبي الريحان.

ولا أُريد أن أُطيل الكلام في هذه الناحية الواسعة، فأبو الريحان نابغة من نوابغ العالم الإسلامي في العصر العبّاسي، وداهية من دواهي التفكير البشري، والمتتبّع لأبحاثه التي وضعها في فنون شتّىٰ، والتي ضمَّنها خيرة الآراء العلمية حينذاك في الفلك والطبيعيات والفلسفة وغيرها يعدّه من أعظم ما انتجت أرض خوارزم في تلك العصور.

وإنَّك إذا تتبَّعت تطوّر هذه العلوم بعده ترىٰ أمثال الفخر الرازي والخواجة نصير الطوسي ومحمّد بن مسعود الغزنوي وأبي الخير الرازي وغيرهم، قد تغذّوا بمائدته الغذاء الكافي، ولم يفتهم حتَّىٰ فتات المائدة، ولم تقتصر علومه علىٰ الرياضيات والفلك والفلسفة والنجوم؛ بل تناول الأدب والتاريخ واختصَّ بتدوين الأخبار الهندية.

مع أنَّ البيروني كتب أغلب كتبه بالعربية إلَّا أنَّه كان يتقن السنسكريتية، فترجم عنها جملة كتب إلىٰ العربية، كذلك كان يتقن الفارسية إتقان أديب بارع من أُدباء الفرس وعلماء لغتها القديمة حتَّىٰ أصبح كتابه التفهيم الذي كتبه باللغتين الفارسية والعربية مرجعاً في اللغة الفارسية وأساليب البيان لعلماء الفرس وأُدبائهم في العصر الحاضر.

ويمتاز البيروني بكتبه العلمية بالاهتمام بالرسوم والخطوط والأشكال ليوضِّح للقارئ ما يريد في كتابه بطريقة عملية تخطيطية، وهذه قابلية أُخرىٰ فنّية، والرجل كان عملياً مجرِّباً لا يقتصر علىٰ النظريات وقراءة الكتب، فإذا مرَّ ببحث مثلاً في الطول أو العرض لا يتركك حتَّىٰ يقول: لقد أخذت طول مدينة جرجان مثلاً في الوقت الفلاني وما إلىٰ ذلك، وهو في هذا واضح جدَّاً في كتابه تحديد نهايات

الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، فهو إذن لم يقعد في بيته ليسطر لك هذه النظريات العويصة من دون خبرة وتطبيق، وقد علمنا أنَّه ساح في الهند أربعين سنة فكتب كتبه عنهم علىٰ رغم ما كان يتشكّىٰ منه من طوارئ الحوادث الاجتماعية والحربية التي كانت تمنعه أحياناً من تتمَّة تجاربه، فيعيد الكرَّة مرَّة بعد مرَّة حتَّىٰ يظفر بغايته)[1].

وقال الأُستاذ الدجيلي أيضاً: لعلَّك تندهش حينما أُحدِّثك بناحية من نواحي أبي الريحان، تلك هي الناحية الأدبية، فأبو الريحان معروف بعلمه ونضجه الفلسفي، وباطّلاعه التاريخي، وبطبّه وصيدلته وباصطرلابه وهندسته.

أمَّا ناحيته الأدبية فهي بعيدة عن الباحثين والمترجمين له عدا القليل ممَّن تنبَّه لذلك، كياقوت والسيوطي في بغية الوعاة، هذان هما اللّذان سجَّلا هذه الناحية الأدبية وسجَّلا شيئاً من شعره.

حقَّاً أنَّ أبا الريحان أديب ناضج الأدب، لغوي بارع الاطّلاع علىٰ اللغة وفهم دقائق استعمالها، وشاعر وكاتب له في الأُسلوب طريقته الأدبية، ويظهر أُسلوبه الأدبي جيّداً في ثلاثة كتب له:

١ _ ما للهند من مقولة.

٢ _ الجماهر.

٣ _ تحديد نهايات الأماكن.

فكتابه الأوَّل يظهره أديباً دقيق التعبير كثير الارتباط في جملة الكلامية، جيّد التنسيق، فإذا حدَّثك فكأنَّه ابن المقفَّع في حبك الكلام وتناسق التعبير فلا تستطيع أن تستغني عن كلّ جملة من جمله، وكلامه

---

(١) راجع: تحديد نهايات الأماكن/ طبع الهند.

يتسلسل تسلسل المنطقي في مقدّماته ونتائجه حتَّىٰ تحتاج أن تقرأ ما بين السطور وما يحوم عليها من مفاهيم دقيقة.

وهو يظهر في أُسلوبه بشخصية قويّة مهذَّبة متمركزة، ذات إناقة في البيان، وهو أديب متجدّد من أُدباء العصر العبّاسي، يُدخِل الكلمة الجديدة والتعبير المبتكر، ويتساهل في تعابير الأعداد وعنعنة الجاهلية في ذلك، فكأنَّه يومي إليك بأنَّه جدير بذلك، أي أديباً خاصّاً منفرداً كالجاحظ من الأُدباء المتجدّدين ومن الذين لا يريدون أن تحول دونه ودون ثقافتهم العالية ارستقراطية الألفاظ الجاهلية وتراكيب الشنفري وامرئ القيس.

وهو في كتابه الجماهر لغوي واسع الاطّلاع علىٰ اللغة ومجازاتها وتطوّرها ومدىٰ بلاغتها، وهو أديب بديع الأُسلوب ممتنع التناول عليم بطرق الاستشهاد بالقرآن والأمثال العربية، ولعلَّك إذا قرأت الجماهر تتعجَّب ثمّ تتساءل: أهذا هو صاحب كتاب التفهيم في أوائل التنجيم، وهذا هو صاحب باتنجل والصيدنة والقانون المسعودي؟

وفي كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٣٧٠) ما نصّه: أمَّا العلماء المتأخّرون وبخاصّة المستشرقين، فقد أخذوا بأبي الريحان البيروني، وملأ أسماعهم وأبصارهم.

وقد درس العالم المستشرق سخلو كتب البيروني، فخرج عنها بهذه النتيجة وهي: (أنَّ البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ)[1].

ويعترف سمث في الجزء الأوَّل من كتابه (تاريخ الرياضيات) بأنَّ البيروني كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات، وأنَّ الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها في العلوم.

---

(١) أُنظر: تراث العرب العلمي: ٢٧٥.

ويعترف الدكتور سارطون بنبوغه وسعة اطّلاعه فيقول: (كان البيروني باحثاً فيلسوفاً، رياضياً جغرافياً، ومن أصحاب الثقافة الواسعة؛ بل من أعظم عظماء الإسلام، ومن أكبر علماء العالم).

ويقول المستشرق شخت: (... والحقّ إنَّ شجاعة البيروني الفكرية، وحبّه للاطّلاع العلمي، وبعده عن التوهّم، وحبّه للحقيقة، وتسامحه وإخلاصه، كلّ هذه الخصال كانت عديمة النظير في القرون الوسطىٰ، فقد كان البيروني في الواقع عبقرياً مبدعاً، ذا بصيرة شاملة نقّادة...).

ويكاد يتَّفق العلماء من متقدّمين ومتأخّرين علىٰ أنَّ البيروني كان أحد أعمدة الفكر العلمي والفلسفي، ذا عقلية جبّارة في أكثر الميادين العلمية، قد فاق علماء عصره، بما له من ابتكارات قيّمة، وبحوث مستفيضة نادرة في الرياضيات والفلك والتاريخ والفلسفة، وسواها.

ويمكن القول: إنَّه من أبرز علماء عصره، الذين بفضل إنتاجهم تقدَّمت العلوم ونمت واتَّسع أُفق التفكير العلمي.

والبيروني بالرغم من شمول ثقافته لم يبرز من جوانبه في دراسة العلماء له وبخاصّة المستشرقين سوىٰ الجانب الرياضي والفلكي، وكان ذلك بالطبع بعامل سيطرة الاتّجاهات المادّية وتحوّل الجهود العلمية إلىٰ الاختراعات والاكتشافات القائمة علىٰ الرياضيات والهندسة والفلك.

أمَّا جوانبه الأُخرىٰ كالعلوم النظرية الصرفة من الفلسفة وسواها فقد تكاد تختفي في دراساتهم له، ولا تبيَّن إلَّا عرضاً.

وربَّما كان السبب في ذلك أنَّه لم يكن جانبه الفلسفي بالمكانة الموثوقة لدىٰ العلماء، مثل مكانته في العلوم الرياضية والفلكية وغيرها،

التي برزت فيها مواهبه، وأصبح العلم المشار إليه فيها، ولذلك نجد شمس الدين الشهرزوري في تاريخ الحكماء يقول: ... وله (أي البيروني) مناظرات مع أبي علي (ويقصد به ابن سينا)، ولم يكن الخوض في بحار العلوم من شأنه، وكلّ ميسَّر لما خلق له...

شعره:

وقد كان البيروني علىٰ حظّ لا بأس به من الأدب والشعر، وقد روي له شعر، إن لم يكن في الطبقة العليا، فهو مقبول من عالم من طرازه.

ومن شعره قوله:

فلا يغررك منّي لين مسّ ... تراه في دروس واقتباس
فإنّي أسرع الثقلين طرّاً ... إلىٰ خوض الردىٰ في يوم باس

ومنه في ذكر صحبة الملوك، يمدح أبا الفتح البستي، من كتاب سرّ السرور:

مضىٰ أكثر الأيّام في ظلّ نعمة ... علىٰ رتب فيها علوت كراسيا
فآل عراق قد غذوني بدرهم ... ومنصور منهم قد تولّىٰ غراسيا
وشمس المعالي كان يرتاد خدمتي ... علىٰ نفرة منّي وقد كان قاسيا
وأولاد مأمون ومنهم عليهم ... تبدّىٰ بصنع صار للحال آسيا
وآخرهم مأمون رفَّه حالتي ... ونوَّه باسمي ثمّ رأس راسيا
ولم ينقبض محمود عنّي بنعمة ... فأغنىٰ وأقنىٰ مغضياً عن مكاسيا
عفا عن جهالاتي وأبدىٰ تكرّماً ... وطرىٰ بجاه رونقي ولباسيا
عفاء علىٰ دنياي بعد فراقهم ... ووا حزني إن لم أزر قبل آسيا

ولـمَّا مضوا واعتضت منهم عصابة / دعوا بالتنـاسي فاغتنمـت التناسـيا
وخلفـت في غـزنين لحـماً كمضـغة / عـلىٰ وضـم للطـير للعلـم ناسـيا
فأبـدلت أقوامـاً وليسـوا كمـثلكم / معـاذ إلهـي أن يكونـوا سواسـيا
بجهـد شـأوت الجـالبين أئمّـة / فما اقتبسوا في العلـم مثـل اقتباسـيا
فـما بركـوا للبحـث عنـد معـالم / ولا احتبسـوا في عقـدة كاحتباسـيا
فسائل بمقـداري هنـوداً بمشــرق / وبالغرب من قد قاس قدر عماسـيا
فلم يثنهم عن شكر جهدي نفاسـة / بل اعترفوا طـرَّاً وعـافوا انتكاسـيا
أبو الفتح في دنيـاي مالـك ربقتـي / فهــات بــذكراه الحميـدة كاسـيا
فـلا زال للـدنيا وللـدين عـامراً / ولا زال فيهـا للغـواة مواسـيا

قال: ومن أقوم شعره قوله لشاعر اجتداه:

يا شاعراً جاءني يخزىٰ علىٰ الأدب / وافىٰ ليمـدحني والـذمّ مـن أدبي
وذاكـراً في قـوافي شـعره حسـبي / ولسـت والله حقّـاً عارفـاً نسـبي
إذ لست أعرف جدّي حـقّ معرفـة / وكيف أعرف جدّي إذ جهلـت أبي
أبي أبــو لهــب شــيخ بــلا أدب / نعــم ووالــدتي حمّالــة الحطــب
المدح والذمّ عنـدي يـا أبـا حسـن / سيّان مثـل اسـتواء الجـدّ واللعـب
فـأعفني عـنهما لا تشـتغل بهـما / بـالله لا تـوقعنَّ مفسـاك في تعـب

وله:

من حام حـول المجـد غـير مجاهـد / ثـوىٰ طـاعماً للمكرمـات وكاسـيا
وبـات قريـر العـين في ظـلّ راحـة / ولكنَّـه عـن حلَّـة المجـد عاريـا

ومنه:

تـنغَّص بالتباعـد طيـب عيشـي فـلا شيء أمـرّ مـن الفـراق
كتابـك إذ هـو الفـرج المرجىٰ أطـب لمـا ألم مـن ألـف راقـي

وله:

أتـأذنون لصـب في زيـارتكم إن كان مجلسكم خلواً من النـاس
فـأنتم النـاس لا أبغـي بكـم بـدلاً وأنـتم الـرأس والإنسـان بـالرأس
وكـدكم لمعـال تنهضـون بهـا وغـيركم طـاعم مسـترجع كـاسي
فلـيس يعـرف مـن أيّـام عيشـته سوىٰ التلهـي بـأ... قـام أو كـاس
لـدىٰ المكائـد إن راجـت مكائـده ينسـىٰ الإلـه ولـيس الله بالنـاسي

تشيّعه:

تتظـافر الـدلائل وتشـير إلىٰ أنَّ البـيروني كـان شـيعياً، فقـد ترجمـه الأمـين في (أعيـان الشـيعة)، وذكـره الطهـراني في (الذريعـة) في مـؤلِّفي الشيعة، وأورد مؤلَّفاته في جميع أجزاء كتابه المذكور، ونصَّ علىٰ تشيّعه.

ويـنصّ الأُسـتاذ ول ديورانـت عـلىٰ ذلـك أيضـاً، ويقـول: (وكـان البيروني يميل إلىٰ مذهب الشيعة).

ويقـول الأُسـتاذ أبـو ريـده: إنَّـه (أي البـيروني) وإن كـان شـيعي النشأة، فإنَّه لم يعبأ بذلك، وانضمَّ إلىٰ مذهب أهل السُّنَّة[1].

وقـول أبـو ريـده: إنَّ البـيروني انضـمَّ إلىٰ مـذهب أهـل السُّـنَّة _ كـما ترىٰ _ خالٍ من الإشارة إلىٰ أيّ مستند.

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام: ٢٩١.

ويبدو ممَّا ذكره الأُستاذ رحيم زاده صفوي أنَّ أبا الريحان كان إسماعيلي المذهب.

ومهما يكن من شيء فإنَّ الأرجح أنَّ البيروني كان شيعياً، فقد نشأ في جرجان وطبرستان، وهي بيئة شيعية، وحكّامها شيعيون علىٰ ما يظهر.

ويؤيّد تشيّعه أنَّه أورد في كتابه الآثار الباقية (ص ١٠٠) فكرة تعدّد آدم في كلّ دور زمني، وهي فكرة ردَّدها أبو العلاء المعرّي مثل قوله:

جائز أن يكون آدم هذا   قبله آدم علىٰ إثر آدم

أقول: إنَّ هذه الفكرة وردت بعينها في كلام الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام، وخلاصته: أنَّ قبل آدمنا هذا ألف ألف آدم، وقبل عالمنا هذا ألف ألف عالم، ونحن في آخر الأوادم وآخر العالم[1].

ففكرة البيروني مأخوذة بعينها من قول الإمام، ممَّا يدلُّ علىٰ تفاعله الشيعي.

ويقول السيّد الأمين: ذكر في كتابه (الآثار الباقية) حديث الغدير، وفيه دلالة علىٰ تشيّعه، ويدلُّ عليه أيضاً تعبيره عن أمير المؤمنين، وعن الإمام الصادق عليه السلام كما يأتي.

لكن الظاهر أنَّه لم يكن اثنا عشرياً، ويقال: إنَّه كان إسماعيلياً، وربَّما دلَّ كلامه الآتي في (الآثار الباقية) علىٰ أنَّه كان زيدياً، قال فيه عند بيان عدَّة شعبان ورمضان والأحاديث الواقعة في الصوم والفطر ما لفظه: (... مع ما في كتب الشيعة الزيدية حرس الله جماعتهم من الآثار

---

(١) راجع: التوحيد للصدوق: ٢٧٧/ باب ذكر عظمة الله جلّ جلاله/ ح ٢.

التي صحَّحها أصحابهم رضوان الله عليهم، مثل ما روي أنَّ الناس صاموا علىٰ عهد أمير المؤمنين عليه السلام ثمانية وعشرين يوماً، فأمرهم بقضاء يوم واحد، فقضوه...)، إلىٰ أن قال: (وكمثل ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنَّه يصيب شهر رمضان ما يصيب سائر الشهور من الزيادة والنقصان...)، انتهىٰ.

ويدلُّ علىٰ تشيّعه أيضاً ما قاله في كتابه (الآثار الباقية): (وكانوا يعظّمون هذا اليوم (أي يوم عاشوراء) إلىٰ أن اتَّفق فيه قتل الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه، وفُعِلَ به وبهم ما لم يُفعَل في جميع الأُمم بأشرار الخلق، من القتل، والعطش والسيف والإحراق، وصلب الرؤوس، وإجراء الخيول علىٰ الأجساد، فتشاءموا به، فأمَّا بنو أُميّة فقد لبسوا فيه ما تجدَّد، وتزيَّنوا، واكتحلوا، وعيَّدوا، وأقاموا الولائم والضيافات، وأطعموا الحلاوات والطيّبات، وجرىٰ الرسم في العامّة علىٰ ذلك أيّام ملكهم، وبقي فيهم بعد زوالهم عنهم.

وأمَّا الشيعة فإنَّهم ينوحون ويبكون أسفاً لقتل سيّد الشهداء فيه، ويظهورن ذلك (بمدينة السلام) وأمثالها من المدن والبلاد، ويزورون فيه التربة المسعودة بكربلاء، ولذلك كره العامّة تجديد الأواني والأثاث...)[١].

ويؤكّد ذلك أيضاً في ديباجة كتابه (الآثار الباقية) من قوله بعد الحمد لله: (والصلاة علىٰ محمّد المصطفىٰ خير الخلق، وعلىٰ آله أئمّة الهدىٰ والحقّ...)، وهذه روح وتعابير اعتدنا أن نجدها عند الشيعة دون سواهم.

---

(١) راجع: الكنىٰ والألقاب ١: ٤١٧.

آراؤه واتّجاهاته:

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٣٧٧): كان أبو الريحان ذا عقلية كبيرة، وعبقرية خصبة في أنواع العلوم والفكر، فهو عالم واسع العلم، جغرافي وطبيعي، ورياضي فلكي، كما هو حاسب بنوع خاصّ.

وهو وإن لم يكن فيلسوفاً منهجّاً، حتَّىٰ قالوا عنه: (إنَّه لم يكن الخوض في بحار المعقولات من شأنه)، غير أنَّه كان مثقَّفاً ثقافة فلسفية جديرة بالاعتبار، تبدو من إشاراته في كثير من الأحيان _ عرضاً وفي كلمات قليلة _ إلىٰ بعض المشكلات الكلامية أو المذاهب الفلسفية، أُنظر مثلاً الآثار (ص ٢٦ و١١٢)، وتاريخ الهند (ص ٣ و٢١).

وهو كثيراً ما يقارن في كتاب الهند بين علوم اليونان والهند والعرب، وبين عقليات الأُمم المختلفة، مقارنة تدلُّ علىٰ أصالة معرفته الفلسفية، ونزعته العميقة.

وكثيراً ما يلاحظ ملاحظات صادقة، نافذة الأعمال، تدلُّ علىٰ طول تأمّل في الفلسفات والأديان والمنازع الفكرية، أُنظر كتاب الآثار (ص ٢٩٢)، والهند (ص ١٢، ١٣، ٢٢، ٢٥).

وتدلُّ كتبه بالإضافة إلىٰ جانب علمه بتاريخ الأُمم، علىٰ معرفته بكتب الأديان علىٰ تنوّعها، وبالفِرَق وبكتبها، لاسيّما النصرانية الشرقية، وفِرَق المانوية والديصانية وغيرها.

ومن أجل ذلك يقرّر بروكلمان أنَّه (أوسع العلماء شمول علم في داخل نطاق الحضارة التي ينتهي إليها).

والبيروني أولىٰ بأن يُعَدّ تلميذاً للمسعودي (باعتبار طريقته ومنهجه) من أن يعتبر تلميذاً للفارابي أو لابن سينا الذي هو أصغر منه

سنّاً، ومع هذا فيجدر بنا أن نذكر القليل من أمره في هذا المقام، لأنَّه يعبّر عن خصائص عصره...

كان أكبر همّ البيروني متّجهاً إلىٰ الرياضيات والفلك ومعرفة البلدان والأُمم، ولذلك نجد الكثرة الساحقة من مؤلّفاته في هذه المواضيع.

وكان باحثاً دقيق الملاحظة، وناقداً صائب النقد، وهو _ مع هذا _ مدين للفلسفة بما كشفت له من غوامض كثيرة، وكان يجعل لها حظّاً من عنايته، لأنَّه يعدّها ظاهرة من ظواهر الحضارة.

وليس لدينا للبيروني آراء فلسفية خاصّة، ذات منهج فلسفي معيَّن، كما هي طريقة الفارابي وابن سينا وغيرهما من الفلاسفة أُولي المناهج الفلسفية ذات الاتّجاه المعيَّن.

وإذا كان له آراء تُذكَر في كتبه فإنَّما هي آراء تدلُّ علىٰ أنَّه ذو ثقافة فلسفية، قد أخذ منها بحظّ وافر لا تستسيغ أن تسبغ عليه اسم فيلسوف بالمعنىٰ الأخصّ، وهو الذي له فلسفة ذات نهج محدَّد.

ومن هنا لا نجد له في المصادر التي بين أيدينا آراء فلسفية بالمعنىٰ الذي ذكرناه، بل يبدو أنَّ كتبه التي ألَّفها، ليس بينها كتاب مستقلّ بالفلسفة، وإن كان له اتّجاه إليها، وعلىٰ علم بها، فقد حدَّث مترجموه:

(إنَّه كان معاصراً للشيخ ابن سينا، وبينهما محادثات ومراسلات، وقد وجدت لابن سينا أجوبة مسائل سأله عنها أبو الريحان البيروني، وهي تحتوي علىٰ أُمور مفيدة).

بل إنَّ أكثر من تعرَّض له عبَّر عنه بـ (الحكيم أو الفيلسوف).

وأيّاً كان فإنَّ البيروني _ دون شكّ _ له فلسفة وإن كانت ليست

بذات نهج تتجلّىٰ في ثنايا مؤلّفاته وكلامه، وتبدو فيها شخصيته الفلسفية كاملة.

وقد عمد البيروني إلىٰ بيان وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية، والكثير من مذاهب الصوفية.

والبيروني يقرِّر أنَّ كلّ ما يتعلَّق ببدء الخليقة، وبأحوال الأُمم الغابرة، نظراً لبعد عهده وقلَّة الاعتناء بحفظه وضبطه، مشوب بأساطير وتزويرات بحيث ينطبق علىٰ أحوال الأُمم المنقرضة قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ... لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ (إبراهيم: ٩).

وهو مع هذا لا يبادر إلىٰ رفض كلّ ما في ذلك من الغريب لمجرَّد غرابته، بل هو يقف أمام ما يروىٰ من التاريخ موقف الباحث المحتاط، فيقرِّر أنَّه لا سبيل إلىٰ الحكم علىٰ تاريخ الغابرة وأحوالها باستعمال الاستدلال العقلي أو القياس علىٰ المشاهد، إلَّا بالاعتماد علىٰ الأخبار التي يشيد بها كتاب معتمد علىٰ صحَّته...، فإنَّ المشاهدة للمعتاد والتجربة المحدودة ليسا مقياسين صحيحين في الماضي، ذلك لأنَّ عمر الإنسان قصير لا يكفي لمعرفة كلّ الأحوال، وأنَّ عدم مشاهدتنا للشيء الغريب المحكي في الأخبار الماضية أو عدم وقوعه في زمان أو مكان معيَّنين لا يكفي مبرِّراً لإنكاره، مثل ما يحكىٰ عن طول أعمار القدماء أو كبر أجسامهم، ما دام غير مستحيل في العقل، لأنَّ الحوادث العظام ليست في كلّ وقت، وقد يكون في الماضي غرائب ليست في زماننا، فيجب أن لا نقيس علىٰ المشاهد المعتاد.

وهو يقرِّر أنَّ للطبيعة قوانين ثابتة لا تخطئ، حتَّىٰ أنَّه لا يفسِّر ظهور المخلوقات الشاذّة بأنَّه غلط الطبيعة، كما يزعم البعض، بل بأنَّه

ناشئ عن خروج المادّة عن حدّ الاعتدال في المقدار، وعلىٰ هذا الأساس يرفض ما يحكىٰ عن أنَّ الماء في مدينة من مدن اليهود يغيض يوم السبت، فتقف الأرحية حتَّىٰ ينقضي يوم السبت، وهو يستند في رفضه لذلك إلىٰ أنَّه لا يجد له في الطبيعيات مأخذاً، لأنَّ مداره علىٰ الأيّام وهي واحدة.

وهو يرىٰ أنَّ العلم اليقيني لا يحصل إلَّا من إحساسات يؤلِّف بينها العقل علىٰ نمط منطقي، وعنده أنَّ مطالب الحياة تجعلنا في حاجة إلىٰ فلسفة عملية، نميّز بها العدوّ من الصديق.

والبيروني نفسه يعتقد أنَّه بهذا لم يقل كلّ ما يقال، وآخر ما يمكن أن يقال. وقد أشار إلىٰ سلطان العادة والألف علىٰ أفكار الناس، بحيث يتعجَّب ممَّا يألفه، ويغفل عن القريب فيما يقع تحت عينيه.

ونجد عنده إلىٰ جانب هذا لمساً لبعض المسائل الفلسفية، لعلَّه كشف عن بعض الخطأ في تصوّرها، كالذي يقرِّره ونجده عند الغزالي من أن تقارن حركات الأفلاك واختلافها يقتضي تناهيها.

ويسجّل في كتابه (الآثار الباقية) فكرة تعدّد آدم في كلّ دور زمني، وهي الفكرة التي ردَّدها أبو العلاء المعرّي في مثل قوله:

جائز أن يكون آدم هذا   قبله آدم علىٰ إثر آدم

وقد أشرنا إلىٰ ذلك عند الكلام علىٰ تشيّعه.

ومن آراء أبي الريحان العلمية التي كانت تُعَدُّ إلىٰ أواخر القرن الخامس بدعة، حتَّىٰ أصبحت بفضل البراهين الصحيحة الملموسة حقيقة ثابتة:

أوَّلاً: نظرية (أنَّ شعاع النور يأتي من الجسم المرئي إلىٰ العين)، فقد كان هو وابن سينا من الذين شاركوا (ابن هيثم) في هذه النظرية.

ثانياً: (إنَّ الأرض تدور علىٰ محورها) بينما كانت آراء العلماء والفلاسفة معظمها إن لم يكن كلّها متَّفقة علىٰ سكون الأرض.

ثالثاً: (نظرية لاستخراج مقدار محيط الأرض) وردت في آخر كتابه (الإسطرلاب) واستعمل معادلة في حساب نصف قطر الأرض سمّاها بعض الإفرنج بـ (قاعدة البيروني) وقد شرح هذه النظرية الأُستاذ طوقان[1].

ويقول تللينو: وممَّا يستحقّ الذكر أنَّ البيروني بعد تأليف كتابه في الإسطرلاب، أخرج تلك الطريقة المذكورة من القوَّة إلىٰ الفعل، فروىٰ في كتابه المسمّىٰ بـ (القانون المسعودي) أنَّه أراد تحقيق قياس ارتفاع الجبل، فوجد (٢٠/ ١ ٦٥٢) دقيقة، وقاس الانحطاط، فوجده (٣٤) دقيقة، فاستنبط أنَّ مقدار درجة من خطّ نصف النهار (٥٨) ميلاً علىٰ التقريب، أي ما يساوي (٩٢/ ٥٦) ميلاً.

ويعترف تللينو بأنَّ قياس فلكي المأمون وقياس البيروني لمحيط الأرض، من الأعمال المجيدة المأثورة للعرب[2].

وكان للبيروني اتّجاه كبير نحو الطبيعة، وحاز شهرة عظيمة فيها وبخاصة في علم (الميكانيكا) و(الايدروستانيكا) ولجأ في بحوثه فيها إلىٰ التجربة، وجعلها محور استنتاجاته.

فقد عمل البيروني تجربة لحساب الوزن النوعي، واستعمل في ذلك وعاءً مصبه متجه إلىٰ أسفل، ومن الوزن الجسم في الهواء والماء، تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح، ومن هذا الأخير، ووزن الجسم في

---

(١) تراث العرب العلمي: ٩٧ و٢٧٩.

(٢) تراث العرب العلمي: ٢٧٩.

الهواء حسب الوزن النوعي، ووجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً ومركباً، بعضها من الأحجار الكريمة[1].

وتوضيح ذلك: أنّه كان يزن الجسم في الهواء أوّلاً، ثمّ يزن الجسم نفسه في الماء بعد أن يدخله في وعاء مخروطي الشكل مثقوب علىٰ علوّ معيَّن، وبعد ذلك يزن الماء الذي أزاحه ذلك الجسم، فمن الماء المزاح كان يعرف حجم الجسم، ومن قسمة وزن الجسم في الهواء علىٰ وزن الماء المزاح يخرج الثقل النوعي للجسم الموزون، أو لمادّة الجسم الموزون.

وإليك قائمة بمواد استخراج البيروني ثقلها النوعي، وقارن بينها وبين الأرقام الحديثة، وأنظر ما وصل إليه قبل علماء أُروبة المتأخّرين ببضعة قرون، يوم لم تكن الوسائل موجودة كما هي في العصور الأخيرة.

ويظنّ أنَّ البيروني قد استعمل طريقتين لاستخراج الثقل النوعي.

المادّة	أرقام البيروني	الأرقام الحديثة
الذهب	١٩/٢٦ ١٩/٠٥	١٩/٢٩
الزئبق	١٣/٧٤ ١٣/٥٩	١٣/٥٦
النحاس	٨/٩٢ ٨/٨٣	٨/٨٥
النحاس الأصفر	٨/٦٧ ٨/٥٨	٨/٤[2]

وإنَّك لترىٰ أنَّ التفاوت بين أرقام البيروني والأرقام الحديثة ضئيل جدَّاً.

---

(١) تراث العرب العلمي: ٢٧٨.

(٢) عبقرية العرب: ٧١.

وقــد ورد في بعــض مؤلَّفــات البــيروني شروح وتطبيقــات بعــض الظواهر التي تتعلَّق بضغط السوائل وتوازنها.

وشرح صـعود ميـاه الفـوّارات والعيـون إلىٰ أعـلا، كـما شرح تجمّـع مياه الآبار بالرشـح مـن الجوانـب، حيـث يكـون مأخـذها مـن الميـاه القريبـة إليها، وتكون سطوح ما يجتمـع فيهـا موازيـة لتلـك الميـاه، وبـيَّن كيـف تغـور العيون، وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلىٰ القلاع ورؤوس المنارات.

وقد شرح كـلّ ذلـك بوضـوح تـامّ، ودقَّـة متناهيـة، في قالـب سـهل لا تعقيد فيه ولا التواء.

ومن هنا يُستَدلّ أو يمكـن القـول عـلىٰ أنَّـه مـن الـذين وضـعوا بعـض القواعد الأساسية في علم (الميكانيكا) و(الايدروستاتيكا)[١].

ولا نريـد أن نـذكر كـلّ آلائـه، وكـلّ مـا ابتكـره فـإنَّ ذلـك يتطلَّـب جهـوداً أكثـر، وإنَّـما كانـت غايتنـا هـو العـرض لـبعض آرائـه وابتكاراتـه، ولاسـيّما البـيروني قـد حظـىٰ بـاهتمام عديـد مـن العلـماء الـذين تنـاولوه بالدراسة من مستشرقين وغير مستشرقين، لذلك نكتفي عنه بما أوردناه.

مؤلَّفاته وآثاره:

يُعتَـبر البـيروني مـن أكثـر العلـماء تأليفـاً وإنتاجـاً، حتَّـىٰ قيـل: إنَّ تصانيفه زادت علىٰ حمل بعير.

وقـال يـاقوت: (وأمَّـا تصـانيفه في النجـوم والهيـأة والمنطـق والحكمـة، فإنَّها تفـوق الحصـر، رأيـت فهرسـتها في وقـف الجـامع بــ (مـرو) في سـتّين ورقة)[٢]، (أُنظر: روضات الجنّات).

---

(١) تراث العرب العلمي: ٢٧٨.

(٢) معجم الأُدباء ١٧: ١٨٥.

ومؤلَّفاته تكوِّن مكتبة كبيرة، حافلة بأنواع الثقافة والمعرفة، من الفلسفة والتاريخ والرياضيات والفلك والأدب وسوىٰ ذلك، ويربو عددها علىٰ المائة والعشرين مؤلَّفاً، وقد نُقِلَ قسم منها إلىٰ اللاتينية، والإفرنسية، والإنكليزية، والألمانية، وأخذ عنها الغربيون واعتمدوا عليها.

ومن مؤلَّفاته:

١ _ الآثار الباقية عن القرون الخالية، وهو من أشهر كتبه، وأغزرها مادّة، طُبِعَ في ليبزع عام (١٨٧٨م)، وفيه مقدّمة باللغة الألمانية لسخاو عن البيروني، وأقوال المؤرِّخين العرب القدماء في مآثره في العلوم.

ثمّ أُعيد طبعه عام (١٩٢٢م) وقد شرحه علي قلي ميرزا، وقد ترجمه سخاو إلىٰ الإنكليزية وطُبِعَ عام (١٨٧٩م) في لندن.

وهو يبحث فيما هو الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأُمم القديمة، وفي التقاويم وما أصاب ذلك من التعديل والتغيير، وفيه جداول للأشهر الفارسية والعبرية والرومية والهندية والتركية، وأوضح كيفية استخراج التواريخ بعضها من بعض.

وفيه أيضاً جداول لملوك آشور وبابل والكلدان والقبط واليونان قبل النصرانية وبعدها. وكذلك لملوك الفرس قبل الإسلام، علىٰ اختلاف طبقاتهم، وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلَّق بأعياد لطوائف المختلفة، وأهل الأوثان والبدع.

وقد ألَّف هذا الكتاب لشمس المعالي قابوس بن وشمكير، وأتمَّه له عام (٣٩٠هـ) وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره.

ويتجلّىٰ البيروني في هذا الكتاب باحثاً علمياً مخلصاً للحقّ، نزيهاً، وبيَّن أنَّ التعصّب عند الكتّاب هو الذي يحول دون تقريرهم الحقّ، ويبدو ذلك جليّاً في مقدّمة كتابه المذكور.

٢ _ الاستشهاد باختلاف الأرصاد، ذكره صاحب (كشف الظنون)، وقال: إنَّه ذكره في (الآثار الباقية)، وقال: (إنَّ أهل الرصد عجزوا عن ضبط أجزاء الدائرة العظمىٰ بأجزاء الدائرة الصغرىٰ)، فوضع هذا الكتاب لإثبات هذا المدَّعىٰ.

٣ _ تجريد الشعاعات والأنوار، أَلَّفه لشمس المعالي قابوس، ذكره في (كشف الظنون).

٤ _ الشموس الثاقبة للنفوس.

٥ _ أخبار المبيضة والقرامطة.

٦ _ تاريخ الهند، وهو يقع في مجلَّدات، وقد ترجمه أيضاً سخاو إلىٰ الإنكليزية، وطُبعَ في لندن سنة (١٨٨٧م) والترجمة فيها أيضاً سنة (١٨٨٨م).

وفيه تناول أبو الريحان لغة أهل الهند وعاداتهم وعلومهم، واعتمد عليه سمث وغيره من المؤلِّفين عند بحثهم عن رياضيات الهند والعرب، وفيه كثير من المعلومات الهندسية والفلكية والجغرافية وسواها.

٧ _ كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، وقد تُرجِم إلىٰ الإنكليزية سنة (١٨٨٧م).

والبيروني يبيّن في هذا الكتاب أديان الهند وفلسفتهم، وأدبهم وتاريخهم، وعاداتهم وقوانينهم، وجملة معارفهم في التاريخ والفلك والتنجيم، وقد أتمَّه حوالي عام (٤٢٣هـ / ١٠٣١م) بعد وفاة السلطان محمود بن سبكتكين الغزوي بقليل.

وقد عرض فيه لنواحي أساطير الديانات الهندية، ولكنَّه في نفس الوقت أكثر الإسهاب في بيان الناحية الرياضية والفلكية، وهو كما يقول بروكلمان: (نظراً لما فيه من تصوير شامل، ومعرفة مستفيضة للأشياء يجب أن يعتبر أهمّ ما أنتجه علماء الإسلام في ميدان معرفة الأُمم).

وتبدو أهمّية هذا الكتاب في أنَّه صوَّر لنا حياة الهند في عصره تصويراً علمياً دقيقاً باقياً علىٰ الأزمان للعرب ولغير العرب، مصدراً لمعرفة الهند حتَّىٰ اليوم، وكان ذلك من أثر رحلته إلىٰ الهند وتجواله فيها الذي استمرَّ حوالي أربعين سنة.

٨ _ مقاليد الهيأة وما يحدث في بسيط الكرة، وفي هذا الكتاب بحث في شكل الظلّ، واعترف بأنَّ الفضل في استنباط الشكل الظلّي لأبي الوفاء بلا تنازع من غيره.

٩ _ القانون المسعودي في الهيأة والتنجيم، ألَّفه للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين وهو كما يقول صاحب (تتمّة صوان الحكمة): غرَّة في وجوه تصانيفه، وقد ألَّفه عام (٤٢١هـ)، وضمَّنه بياناً وافياً للفلك، حذا فيه حذو بطلينوس في كتابه (المجسطي).

والقانون المسعودي، من أبسط الكتب في هذا الفنّ، ومؤلِّفه يعالج فيه _ كما يقول _ كلّ نواحي علم الفلك علىٰ نحو لم يُسبَق إليه، وهو يضمّ إلىٰ ذلك بيان حسابات الأُمم وسنيّها، ويشمل الكثير من علم الجغرافيا العامّة والفلك، ولا يزال مخطوطاً ببرلين رقم (٥٦٦٧) والمتحف البريطاني رقم (٥٧٦)، أُنظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام (ص ٢٩٦ و٢٩٧).

وفي (أعيان الشيعة) أنَّه طُبِعَ في لايبسك عام (١٨٧٨م)، وأشرف علىٰ طبعه سخاو، وتُرجِم إلىٰ الإنكليزية، وطُبِعَت الترجمة عام (١٨٧٩م).

١٠ _ كتاب استيعاب الوجوه الممكنة في صفة الإصطرلاب.

١١ _ كتاب استخراج الأوتار في الدائرة، بخواصّ الخطّ المنحني فيها، وهو مسائل هندسية، أدخل فيها طريقته المبتكرة في حلّ بعض الأعمال.

١٢ _ كتاب العمل في الإسطرلاب.

١٣ _ كتاب جمع الطرق السائرة في معرفة أوتار الدائرة.

١٤ _ مقالة في التحليل والتقطيع للتعديل.

١٥ _ كتاب التطبيق إلىٰ تحقيق حركة الشمس.

١٦ _ كتاب في تحقيق منازل القمر.

١٧ _ تمهيد المستقرّ لتحقيق الممرّ.

١٨ _ كتاب ترجمة ما في براهين (سدهانة) من طرق الحساب المعروفة بـ (السند الهند).

١٩ _ كيفية رسوم الهند في تعليم الحساب.

٢٠ _ كتاب الصيدلة في الطبّ...، واستقصىٰ فيه _ كما يقول ابن أبي أصيبعة _ معرفة ماهيات الأدوية، ومعرفة أسمائها، واختلاف آراء المتقدّمين فيها...، وقد رتّبه علىٰ حروف المعجم.

٢١ _ الإرشاد في أحكام النجوم.

٢٢ _ كتاب تكميل زيج (حبش) بالعلل وتهذيب أعمال في الزلل.

٢٣ _ مقالة في نقل ضواحي الشكل القطاع إلىٰ ما يغني عنه.

٢٤ _ كتاب اختلاف الأقاويل لاستخراج التحاويل.

٢٥ _ كتاب مفتاح الهيأة.

٢٦ _ كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن.

٢٧ _ كتاب في تهذيب الأقوال في تصحيح العروض والأطوال.

٢٨ _ مقالة في تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور في الأرض.

٢٩ _ مقالة في تعيين البلد من العرض والطول كليهما.

٣٠ _ مقالة في استخراج قدر الأرض برصد انحطاط الأُفق عن قلل الجبال.

٣١ _ مقالة في اختلاف ذوي الفضل في استخراج العرض والميل.

٣٢ _ كتاب إيضاح الأدلة علىٰ كيفية سمت القبلة، ولعلَّه كتابه المسمىٰ (دلائل القبلة).

٣٣ _ كتاب تكميل صناعة التسطيح.

وبالتالي بلغت مؤلَّفاته (٥٨) مؤلَّفاً، ذكرها المترجمون له، أُنظر: فلاسفة الشيعة (ص ٣٨٣).

* * *

(١٧)

ابن مسكويه[1]

أحمد بن محمّد بن يعقوب مسكويه وهو لقب له، الخازن الرازي الأصل، الأصفهاني المسكن، والملقَّب بالمعلِّم الثالث.

توفّي في أصفهان عن سنّ عالية في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، ودُفِنَ في خاجو محلَّة من أصفهان، وقبره معروف هناك.

أقوال العلماء فيه:

قال السيّد الأمين في (أعيان الشيعة)[2]: هو العالم الحكيم الفيلسوف المشهور الرياضي المهندس المتكلِّم اللغوي المؤرِّخ الأخلاقي، الشاعر الأديب الكاتب النافذ الفهم، الكثير الاطّلاع علىٰ كتب الأقدمين ولغاتهم المتروكة، صاحب التصانيف الكثيرة في الفنون العقلية، ولاسيّما الحكمة النظرية والعملية.

وفي دائرة المعارف الإسلاميّة: (فيلسوف مؤرِّخ).

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١١٧؛ معجم الأدباء ٥: ٥؛ تاريخ فلاسفة الإسلام: ٣٠٤؛ إخبار العلماء: ٢١٧؛ معجم أدباء الأطباء ١: ٦٥؛ تأسيس الشيعة: ٣٨٥؛ روضات الجنّات ١: ٢٥٤؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٣٨؛ الكنىٰ والألقاب ١: ٤٠٢؛ أعيان الشيعة ١٠: ١٣٩؛ عيون الأنباء ٢: ٢٤٦.

(٢) أعيان الشيعة ٣: ١٥٩.

وأثنىٰ عليه الخواجة نصير الدين الطوسي في كتابه (الأخلاق الناصرية) الذي وضعه علىٰ نهج كتابه (طهارة الأعراق) وذكره بالتعظيم...

وفي تتمّة اليتيمة للثعالبي: (أبو علي مسكويه الخازن في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر، وكان في ريعان شبابه متّصلاً بابن العميد مختصّاً به، ثمّ تنقلت به أحوال جليلة في خدمة بني بويه، والاختصاص ببهاء الدولة، وعظم شأنه وارتفع مقداره...).

وفي عيون الأنباء: (مسكويه فاضل في العلوم الحكمية متميّز فيها، خبير بصناعة الطبّ جيّد في أُصولها وفروعها...).

وقال السيّد حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام (ص ٤١٥):

ابن مسكويه أبو علي أحمد بن محمّد بن مسكويه المتوفّي إحدىٰ وعشرين وأربعمائة، صنَّف في علم الأخلاق كتاب (طهارة النفس)، وربَّما قيل: تهذيب الأخلاق، وتطهير الأعراق، يشتمل علىٰ ستّ مقالات، كتاب لم يُصنَّف مثله في بابه، ذكره المحقِّق نصير الدين في أوَّل كتابه، وأثنا عليه ثناءً بليغاً، وذكر في مدحه أبياتاً نظمها ﵀ وهي هذه:

بنفسي كتاباً حاز كلّ فضيلة ... وصار لتكميل البرية ضامنا
مؤلِّفه قد أبرز الحقّ خالصاً ... بتأليفه من بعد ما كان كامنا
ووسمه باسم الطهارة قاضياً ... به حقّ معناه ولم يكُ ماينا
لقد بذل المجهود لله درّه ... فما كان في نصح الخلائق خاينا

وقال محمّد لطفي جمعة في كتابه تاريخ فلاسفة الإسلام (ص ٣٠٤): أبو علي الخازن أحمد بن محمّد بن يعقوب الملقَّب مسكويه، توفّي

في (٩/ سنة ٤٢١هـ)، كان من نوابغ المفكّرين العاملين الذين يندر ظهورهم في الأُمم، وكانت له معرفة تامّة بعلوم الأقدمين وألَّف فيها كتباً عدَّة.

وقال القمّي في (الكنىٰ والألقاب)[1]: الحكيم أبو علي أحمد بن محمّد بن يعقوب بن مسكويه الخازن الرازي الأصل الأصفهاني المسكن والخاتمة، كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء، معاصراً للشيخ ابن سينا.

قال القِفطي في (أخبار الحكماء): مسكويه أبو علي الخازن، من كبار فضلاء العجم وأجلَّاء فارس، له مشاركة في العلوم الأدبية، كان خازناً للملك عضد الدولة بن بويه، مأموناً لديه أثيراً عنده، وله مناظرات ومحاضرات وتصنيفات في العلوم...

وفي (روضات الجنّات): الحكيم الماهر والأُستاذ الكابر أبو علي أحمد بن محمّد بن يعقوب بن مسكويه الخازن الرازي الأصل الأصفهاني المسكن والخاتمة، كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء، صاحب المراتب الجليلة والدرجات الرفيعة، والأخلاق الحميدة والأقوال السديدة...، صنَّف في علوم الأوائل كثيراً، وله تعليقات في المنطق ومقالات جليلة في أقسام الحكمة والرياضي...

وفي كتاب فلاسفة الشيعة (ص ١١٨): هو من أعيان العلماء وأعيان الفلاسفة، جمع إلىٰ الحكمة والرياضيات والكلام والأخلاق، الطبّ واللغة والأدب والتاريخ وغيرها، وقد صنَّف في علوم الأوائل كثيراً، وله تعليقات في المنطق، ومقالات جليلة في أقسام الحكمة

---

(١) الكنىٰ والألقاب ١: ٤٠٨.

والرياضة...، وكان ناقداً فهماً، كثير الاطّلاع علىٰ كتب الأقدمين ولغاتهم المتروكة.

وكان من الكفاية في معرفة البهلوية بحيث ترجم كتاباً في الأخلاق من تلك اللغة إلىٰ العربية، وكان يجيد اللغة العربية أيضاً، وإنَّ أشعاره حازت استحسان ابن العميد الناقد، كذلك تدعم الشواهد المعاصرة اشتهاره بالنظم.

وقد أطراه كثيرون ممَّن عرضوا له بالترجمة والدراسة، وكالوا له مدحاً كثيراً ممَّا يدلُّ علىٰ مركزه العلمي، وشخصيته البارزة في جوانب من المعرفة، وعلىٰ أنَّه من ذوي العقول الثابتة في ذلك العصر.

وهو أحد الكوكبة العلمية الفلسفية، التي احتضنها القرن الخامس الهجري، من أمثال ابن سينا والبيروني وأبي سهل المسيحي وأبي الخير الخمّار وسواهم، الذين اجتمعوا في كوركنج يوم كان يحكمها علي بن المأمون الخوارزمي.

وهو أحد أُولئك الأفذاذ الذين ظهروا في هذه الحقبة، وتميَّز بهم عصرهم علىٰ ما سواهم من عصور، وبرزوا فيه قادة علم وفكر، وظلَّت أفكارهم من بعدهم في مكانة مرموقة...

أمَّا دراسته فيظهر أنَّه قرأ تاريخ الطبري علىٰ أبي أحمد بن كامل القاضي المتوفّىٰ عام (٣٥٠هـ) الذي كان صاحب أبي جعفر الطبري، وسمع منه شيئاً كثيراً، وكان ينزل في شارع عبد الصمد ببغداد، وطالما اجتمع به ابن مسكويه.

ودرس علوم الأوائل علىٰ ابن الخمّار، وهو الحسن بن سوار المولود عام (٣٣١هـ)، الذي كان واسع الاطّلاع علىٰ علوم الأوائل وبخاصّة المنطق والطبّ، حتَّىٰ سُمّي (بقراط الثاني).

وقد عاصره ابن سينا، واجتمع به كثيراً، ويقال: إنَّه دخل عليه ابن سينا في مجلس التدريس، فأراد ابن سينا أن يظهر عليه الفضل بحضرة من طلَّابه الكثيرين، فألقىٰ بين يديه جوزة كانت بيده، وقال متعرّضاً له: بيِّن لي المساحة من هذه الجوزة بالشعيرات، فقال له ابن مسكويه بعد أن نبذ إليه أوراقاً كانت عنده: أمَّا أنت فأصلح بهذه أخلاقك حتَّىٰ أُجيبك عمَّا تريده.

ويتناوله أبو حيّان التوحيدي بالنقد اللاذع، ويكثر من التحامل عليه بالكلمات النابية، فيقول في بعضها: (إنَّه منافق يعظ بما لا يتَّعظ هو به، ويدعو إلىٰ أخلاق لا يقدم هو عليها في سلوكه، يذمّ السلطان وهو يسارع إلىٰ خدمته ويحرص علىٰ طاعته، يمدح الكرم ويخالفه، ويذمّ الشحّ وهو مقارفه).

وما ندري إلىٰ أيّ مدىٰ يتَّصل وصف التوحيدي هذا بالواقع؟ هل هو وصف أديب متجرِّد يعكس صورة واقعية عن الرجال وأخلاقهم؟ أم هو كلام محدود بالمنافسة والغيرة علىٰ ما كان يتمتَّع به ابن مسكويه من جاه عريض وثراء كبير ونفوذ لدىٰ الوزراء والسلاطين؟ أم كان ذلك بعامل التعصّب الطائفي المذهبي، فقد كان ابن مسكويه شيعياً، علىٰ خلاف مذهب أبي حيّان الذي عُرِفَ عنه التعصّب علىٰ من يخالفه في مذهبه، وربَّما كان وضعه للرسائل والكتب علىٰ لسان أبي بكر وعمر وعلي التي ذكرها ابن أبي الحديد في شرح النهج توحي بهذه الروح.

وقد عرفنا أنَّ التوحيدي لم يكن يتورَّع عن ذكر معائب الناس، وكان متَّهماً بالزندقة، حتَّىٰ عدَّه ابن الجوزي أحد الزنادقة الثلاثة في الإسلام.

وقد وضع كتاباً في مثالب الوزيرين المهلبي والصاحب بن عبّاد، وتحامل فيه عليهما، وعزم هذان علىٰ قتله فاستتر، وتوفّي حوالي سنة (٣٨٠هـ).

مذهبه:

أمَّا مذهب ابن مسكويه فيلوح لنا من قرائن كثيرة أنَّه كان شيعياً، وهي بمجموعها تؤكّد بصورة واضحة تشيّعه، ومن تلك الإشارات:

١ _ تصريحه بوجوب عصمة الإمام في كتابه (الفوز الأصغر).

٢ _ قوله في كتابه (الإطلاق) في بحث الشجاعة: (واستمع كلام الإمام الأجلّ سلام الله عليه، الذي صدر عن حقيقة الشجاعة، فإنَّه قال لأصحابه: إنَّكم إن لم تقتلوا تموتوا، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف علىٰ الرأس أهون عليَّ من ميتة علىٰ الفراش).

٣ _ افتتح كتاب (جاويدان خِرَد) أو الحكمة الخالدة بقوله: (بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة علىٰ محمّد النبيّ وآله الطيّبين الأخيار)، ممَّا اعتدنا أن لا نسمعه أو نقرأه في غير كتب الشيعة.

٤ _ إنَّه حين يذكر الإمام علياً والحسن والحسين والصادق في كتابه المذكور، يتبعه بقوله: (عليه السلام)، وهي تعابير لا تجدها غالباً إلَّا عند الشيعة.

٥ _ لقد صحب كلَّاً من الوزير المهلبي، وعضد الدولة بن بويه، وابن العميد، وابنه أبا الفتح، وانقطع إليهم، وهؤلاء كلّهم من رجالات الشيعة.

٦ _ تصريح القاضي نور الله المرعشي في كتابه (الطبقات) بأنَّه شيعي المذهب.

٧ _ تصريح كلّ من الخونساري صاحب (الروضات)، والسيّد الصدر صاحب (تأسيس الشيعة) بتشيّعه، ونقلا عن الفيلسوف السيّد الداماد نصّه علىٰ تشيّعه.

٨ _ قد ذكره الطهراني في كتابه (الذريعة) في مؤلِّفي الشيعة، وأدرج مؤلَّفاته في أجزاء كتابه المذكور، ومن تظافر هذه القرائن يتأكّد لنا أنَّ ابن مسكويه كان شيعي المذهب.

٩ _ في أعيان الشيعة[1]: تصريحه (أي ابن مسكويه) في كتابه (الفوز الأصغر) علىٰ ما حكي باعتقاد إمام معصوم حيث ذكر في أواخره في بحث النبوَّة: إنَّ الإمام يشارك النبيّ في جميع الصفات إلَّا النبوَّة، أو ما هذا معناه.

نسخة وصيّة أبي علي بن مسكويه:

في (معجم الأُدباء) لياقوت[2]: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمّد، وهو يومئذٍ آمن في سربه، معافىٰ في جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه إلىٰ هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن، ولا يريد بها مراءآت مخلوق، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرَّة منهم، عاهده أن يجاهد نفسه، ويتفقَّد أمره، فيَعِفَّ ويشجع، ويُحكِمَ، وعلامة عفَّته أن يقتصد في مآرب بدنه حتَّىٰ لا يحمله الشره علىٰ ما يضرّ جسمه أو يُهتِك مروءتَه، وعلامة شجاعته أن يحارب دواعي نفسه الذميمة، حتَّىٰ لا تقهره شهوة قبيحة، ولا غضب في غير موضعه، وعلامة حكمته أن يستبصر في اعتقاداته حتَّىٰ لا يفوته بقدر طاقته شيء من

---

(١) أعيان الشيعة ٣: ١٥٩.

(٢) معجم الأُدباء ٥: ١٧.

العلوم والمعارف الصالحة، ليصلح أولاد نفسه ويهذّبها، ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة، وعلىٰ أن يتمسَّك بهذه التذكرة، ويجتهد في القيام بها، والعمل بموجبها، وهي خمسة عشر باباً:

إيثار الحقّ علىٰ الباطل في الاعتقادات، والصدق علىٰ الكذب في الأقوال، والخير علىٰ الشرّ في الأفعال، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه، والتمسّك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتَّىٰ يُنجزها، وأوَّل ذلك ما بيني وبين الله ﷻ، وقلَّة الثقة بالناس بترك الاسترسال، ومحبَّة الجميل لأنَّه جميل لا لغير ذلك، والصمتُ في أوقات حركات النفس للكلام حتَّىٰ يُستشارَ فيه العقلُ، وحفظُ الحال التي تحصل في شيء حتَّىٰ تصير ملكةً، ولا تفسد بالاسترسال، والإقدامُ علىٰ كلّ ما كان صواباً، والإشفاق علىٰ الزمان الذي هو العمر ليُستعمَلَ في المهمّ دون غيره، وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغي، وترك التواني، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشرّ والحسد، لئلَّا يشتغل بمقاتلتهم، وترك الانفعال لهم، وحسن احتمال الغنىٰ والفقر، والكرامة والهوان بجهةٍ وجِهَةٍ، وذكر المرض وقت الصحَّة، والهمّ وقت السرور، والرضا عند الغضب، ليقلّ الطغي والبغي، وقوَّة الأمل، وحسن الرجاء، والثقة بالله ﷻ، وصرف جميع البال إليه.

أشعاره:

في (أعيان الشيعة)[1] ما نصّه: أورد الثعالبي في تتمَّة اليتيمة قسماً صالحاً من شعره، فمنه قوله في ابن العميد حين دخل عليه وقد انتقل إلىٰ قصر جديد، قال: ووقعا في اليتمية بلا ثالث:

---

(١) أعيان الشيعة ٣: ١٧٣.

لا يعجبنَّك حسن القصر تنزله ... فضيلة الشمس ليست في منازلها
لو زيدت الشمس في أبراجها مائة ... ما زاد ذلك شيئاً في فضائلها

وقال يشكو نائبات الدهر:

من عذيري من حادثات الزمان ... وجفاء الإخوان والخلّان

وله من قصيدة في عميد الملك تفنَّن فيها وهنَّأه باتّفاق الأضحىٰ والمهرجان في يوم، وشكا سوء أثر الهرم وبلوغه أرذل العمر:

قل للعميد عميد الملك والأدب ... أسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحىٰ ... وذا يشير عشياً بابنة العنب
خلائق خيّرت في كلّ صالحة ... فلو دعاها لغير الخير لم تجب

ومنها:

هي التي غمستني في مودَّته ... بالجسم والروح أفديهنَّ لا بأبي
أعدن شرخ شباب لست أذكره ... بعداً وردَّت عليَّ العمر من كثب
فطاب لي هرمي والموت يلحظني ... لحظ المريب ولولاهنَّ لم يطب
فإن تمرَّس بي خصم تعصَّب لي ... وإن أساء إليَّ الدهر أحسن بي
أدركت بالقلم الخطي من قصب ... ما ليس يدرك بالخطي والقضب
ونلت بالجدّ والجدّ اللّذين هما ... أمنيّتا كلّ نفس كلّ مطلب
فلو أدرت رحىٰ الدنيا مفوَّضة ... إليك أقطارها دارت بلا قطب
وقد بلغت إلىٰ أقصىٰ مدىٰ عمري ... وكلّ غربي واستأنست بالنوب
إذا تملأت من غيظ علىٰ زمني ... وجدتني نافخاً في جذوة اللهب
ما الدهر إلَّا كيوم واحد غده ... كأمس يومك والماضي كمرتقب

فإن تمنَّيتَ عيشَ الدهر أجمَعَه ... وإن تُعاينَ ما ولّىٰ من الحِقَب
فانظُر إلىٰ سِيَرَ القوم الذين مضوا ... والحظ كتابتهم من باطِن الكتب
تجد تفاوتهم في الفضل مختلفاً ... وإن تَقاربت الأحوال في النَسَب
هذا كتاج علىٰ رأس يعظّمه ... وذاك كالشَعَر الجافي علىٰ الذنب
والناس في العين أشباه وبينهم ... ما بين عامر بيت الله والخرب
في العود ما يقرن المسك الذكي به ... طيباً وفيه لقىٰ ملقىٰ مع الحطب
لا تطلبوا المال من حول ومن حيل ... فربَّما جاء مطلوب بلا طلب
يأتي الفتىٰ رزقه المقسوم عن سبب ... بادٍ تراه وقد يأتي بلا سبب
واستخصموا الفلك الدوّار يلقكم ... بحجَّتي رغبٍ إن شاء أو رهب
أراه يسكن عيني وهو يركض بي ... ركض الفوارس بالتقريب والخبب
كالنار تأكل ما تحيا به لهباً ... وليس تفرّق بين النبع والغرب
أصبحت أجرد والأحداث تجرّدني ... دأب الجراد إذا استولىٰ علىٰ العشب
وصرت ديناً علىٰ الدنيا لآخرتي ... رسل المنايا تقاضاها وتمطل بي
قاسيت أحوال هذا الدهر مرتكباً ... أهوالها وصريعاً غير مرتكب
ومن تعوَّد عضَّ السيف هامته ... هانت علىٰ إليتيه عضة القتب

قال: وهي طويلة، وكأنَّه جمع إحسانه فيها، انتهىٰ.

وأورد منها في مجموعة الأمثال خمسة أبيات وهي: هذا كتاج... البيت، في العود... البيت، لا تطلبوا المال... البيت، يأتي الفتىٰ... البيت، ومن تعوَّد... البيت.

قال: وكتب إلىٰ أبي العلاء بن حسّول قصيدة، منها:

ولقد نفضت بهذه الدنيا ... يدي وحسمتَ دائي

ماذا يغرّني الزمان ... وقد قضيت به قضائي

أو بعد ما استوفيت عمري ... واطّلعت علىٰ فنائي

أصطاد بالدنيا وينصب ... لي بها شرك الرجائي

هيهاتَ قد أفضت من ... صبح الحياة إلىٰ المسائي

وبلغتُ من سفري إلىٰ ... أقصاه مذموم العناءِ

قال: وله من قصيدة في أبي العبّاس الضبي يهجوه، كأنّها قول ابن الرومي:

ما كان أغنىٰ أبا العبّاس عن شرّه ... إلىٰ لحوم سباع كنَّ في الأجم

يسترجع القوت أمضاه سواه لنا ... لوماً ويبذله للشاء والنعم

صبرت حولاً علىٰ مكروه نقمته ... فليصبر الآن لي حولاً علىٰ النقم

سيعلم الوغد إن لم تؤت فطنته ... من كثرة الهمّ أو من قلّة الفهم

إنّي لألقاه ممّا استعدّ له ... بكلّ عجراء لكن ليس من سلم

إذا خبطت بها عرض امرئ لحجت ... في سمعه يده شوقاً إلىٰ الصمم

إذا اضطجعت أتاني الشعر يقدح لي ... من ناره وأتاني الليل بالفحم

وصانع الشعر لا يرضىٰ سبيلته ... حتّىٰ يفرّغها في قالب الحكم

يصبُّ في مسمعيه ما أُذيب له ... كالقطر أفرغه الباني علىٰ الردم

إنّي وإن كنت لا أرضىٰ الخنىٰ لفمي ... ولا أحطّ لقول فاحش هممي

ليستريح إليَّ القول أحوجه ... حرّ السكوت إلىٰ الترويح بالنسم

إنَّ القــوافي كفتنــي نظــم أنفســها ... فهــنَّ يــنظمن لي مــن كــلّ منــتظم
تــدنو شــواردها حتَّــىٰ يغــصَّ بهــا ... هنــي فأنفضــها منــه عــلىٰ قلمــي
خــذها إليــك أبــا العبّــاس جامعــة ... شــنعاء توقــد نــار الهجــر في علــم
لقيتنـــي بوقـــار العلـــم محتشـــماً ... وهجتني فــالقَ جهــلي غــير محتشــم

قــال يــاقوت في (معجــم الأُدبــاء)[1]: وللبــديع الهمــداني إلىٰ أبي عــلي مسكويه، يعتذر مـن شيء بلغـه عنـه، بعـد مـودَّة كانـت بيـنهما...، والرسـالة مطوَّلة نثراً، إلىٰ قوله شعراً:

مــولاي إن عــدت ولم تَــرْضَ لي ... أن أشربَ البــــــارد لم أشربِ
امــتَطِ خــدّي وانتعــل نــاظري ... وصِـــدْ بكفـــي حُمَـــةَ العقـــربِ
بـــالله مـــا أنطـــق عـــن كـــاذب ... فيـــك ولا أبـــرقُ عـــن خُلَّـــبِ
فالصَـــفوُ بعـــد الكـــدر المُفـــتَرىٰ ... كالصَـــحو بعـــد المطـــر الصـــيّبِ
إن أجتنـــي الغِلظَـــةَ مـــن ســـيّدي ... فالشـــوك عنـــد الثمـــر الطيّـــبِ
أو نَفـــقَ الـــزَورُ عـــلىٰ ناقـــدٍ ... فـــالخمرَ قـــد تَغضَـــبُ بالثيـــبِ

وجاء الجواب من أبي علي:

وإذا الـــواشي أتـــىٰ يســـعىٰ لهـــا ... نَفَـــع الـــواشي بـــما جـــاء يَضُـــرُّ

فهمتُ خطاب الشيخ الفاضـل، الأديـب البـارع، الـذي لـو قلـتُ: إنَّـه السـحرُ الحـلال، والعـذب الـزلال، لنقَصـتُهُ حظّـه، ولم أوفِـهِ حقّـه، أمَّـا البلاغات التي أوَمأ إليها فـوَالله مـا أذِنـتُ لهـا، ولا أذِنـتُ فيهـا، ومـا أذهبنـي عـن هـذه الطريقـة وأبعـدني عنهـا، وقـد نـزَّه الله لسـانَهُ عـن الفحشـاء،

---

(١) معجم الأُدباء ٥: ١١.

وسمعي عن الإصغاء، وما يتَّخذ العدوّ بينهما مجالاً، وأمَّا الأبيات فقد تكلَّفت الجواب عنها لا مساجلةً له، ولكن لأبلُغَ المجهود في قضاء حقّه:

يا بارعاً في الأدب المجتنىٰ ... منه ضروب الثمر الطيّبِ
لو قلت إنَّ البحر مُستغرقٌ ... في بحرك الفيّاض لم أكذبِ
إذا تبوَّأتَ محلّاً فما ... نزلت إلَّا منزل الكوكبِ
أحمدتني الشعر وأعتبتني ... فيه ولم أذمم ولم أعتِبِ
والعذر يمحو ذنب فعّاله ... فكيف يمحوه ولم يُذنبِ
أنا الذي آتيك مستغفِراً ... من زلَّة لم تكُ من مذهبي
وأنت لا تمنع مستوهباً ... مالاً فهب ذنباً لمستَوهِبِ

فلسفة ابن مسكويه:

جاء في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ١٢٩) ما نصّه: ومذهبه الأخلاقي الفلسفي الذي لا يزال له شأن في الشرق إلىٰ يومنا هذا، مزيج من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس، ومن أحكام الشريعة الإسلاميّة، غير أنَّ نزعة أرسطو غالبة عليه.

ويلتقي ابن مسكويه بأرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة الإسلام في تعريف النفس حين يقول: (إنَّ النفس جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواسّ)، وهو يبرهن علىٰ أنَّها ليست جسماً، ولا جزءاً من جسم، وأنَّها ليست عرضاً أيضاً، ويقول: إنَّها تدرك ذاتها، وتعلم أنَّها تعلم، وأنَّها تعمل.

ويستدلُّ علىٰ أنَّ النفس ليست جسماً، بأنَّها تقبل صور الأشياء المتضادّة أشدّ التضادّ في وقت معاً، كقبولها معنىٰ الأبيض والأسود مثلاً،

علىٰ حين أنَّ الجسم لا يقبل في وقت إلَّا السواد أو البياض، ثمّ إنَّ النفس تقبل صور كلّ من المحسوسات والمعقولات علىٰ السوية، فصورة الطول لا تحدث طولاً في النفس، ويزيد فيها معنىٰ الطول، فلا تصير به أطول.

وإنَّ معارف النفس وقدرتها أوسع مدىٰ من الجسم؛ بل إنَّ العالم المحسوس كلّه لا يقنعها، وفوق هذا ففي النفس عقلية أوَّلية، لا يمكن أن تكون قد أتت لها عن طريق الحواسّ، لأنَّ النفس تستطيع بهذه المعرفة أن تميّز الصادق من الكاذب فيما يأتي إليها من الحواسّ، وذلك بمقارنة المدركات الحسّية والتمييز بينها، فهي بهذا تشرف علىٰ عمل الحواسّ وتصحّح خطأها.

ثمّ إنَّ وحدتها العقلية تتجلّىٰ أوضح ما تكون في أنَّها تدرك ذاتها وتعلم أنَّها تعلم، وهي وحدة تكون فيها (العقل، والعاقل، والمعقول شيئاً واحداً).

وتمتاز نفس الإنسان علىٰ نفس الحيوان برويّة عقلية، يصدر عنها الإنسان في أفعاله، وهي رويّة متَّجهة إلىٰ الخير.

ويمكن أن تعتبر فلسفته الأخلاقية من بين جوانبه الفلسفية هي الفلسفة المهجَّنة التي برزت علىٰ تفكيره ومؤلَّفاته، واشتهر بها دون سواها، وأعطاها جهده وعقله.

وكتابه (تهذيب الأخلاق) هو انعكاس واضح لفلسفته الأخلاقية، وعليه يقوم العنصر الكبير من شخصيته ومكانته العلمية، وقد ضمَّنه آراءه الأخلاقية التي منها:

١ _ أنَّ الخير هو ما يبلغ الكائن المريد غاية وجوده.

٢ _ أنَّ الفرق بين الخير والسعادة، هو أنَّ الخير ما يقصده الكلّ بالشوق إليه، وهو الخير العامّ للناس من حيث هم ناس، أمَّا السعادة فهي خير ما لواحد من الناس، فالفرق بينهما إضافي.

٣ _ أنَّ الفرق بين الإسراف والتبذير هو أنَّ الأوَّل مرجعه إلىٰ الجهل بمقادير الحقوق، والثاني هو الجهل بمواضع الحقوق.

٤ _ يفسِّر الصداقة بأنَّها تضييق لدائرة حبّ الذات، علىٰ خلاف ما فسَّرها أرسطو من أنَّها امتداد في حبّ الإنسان لذاته.

فالصداقة عنده ضرب من محبَّة الإنسان للإنسان، لا تظهر آثارها إلَّا في جماعة أو مدينة، ولا تظهر في عزلة الراهب الناسك الذي يفرُّ من الدنيا، والمنعزل الذي يعتزل الناس، ويحسب أنَّه من أهل الخير والاعتدال، وأنَّ كلّ هؤلاء مخدوع لا يعرف حقيقة أفعاله.

٥ _ إنَّ من يذهب إلىٰ التزهّد يجور علىٰ غيره، لأنَّه يعتمد في ضروراته علىٰ الناس، ويطلب معاونتهم إيّاه، ثمّ هو لا يعاونهم، وإنَّ هذا هو الظلم والعدوان، وأنَّه يجب علىٰ الإنسان أن يعطي عوض ما يأخذ.

٦ _ أنَّ أحكام الشريعة لو فُهِمَت علىٰ وجهها لكانت مذهباً خلقياً أساسه محبَّة الإنسان للإنسان، والدين رياضة خلقية لنفوس الناس، وغاية الشعائر الدينية، مثل صلاة الجماعة والأعياد والحجّ، هي أن تغرس الفضائل في نفوس الناس، فهي تعلمهم المحبَّة في أوسع صورها.

ومع هذا كلّه فقد قيل: إنَّ ابن مسكويه لم يفلح من حيث التفاصيل في التوفيق بين مختلف النظريات اليونانية الأخلاقية، التي

أدخلها في مذهبه، ولم يفلح أيضاً في التوفيق بينها وبين أحكام الشريعة الإسلاميّة.

ولكن مع ذلك فقد نجح في وضع مذهبه في الأخلاق الذي لم يتقيَّد فيه بآراء مذهب خاصّ، ولا بنزعة معيَّنة، كما ينبغي الاعتراف بأنَّه قد أظهر في بسط مذهبه سلامة في التفكير وسعة في العلم، انتهىٰ.

وأمَّا ما ذكره محمّد لطفي جمعة في كتابه تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب (ص ٣١٠/ ط سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م)، قال:

إنَّ مذهبه الفلسفي أرسطي محض، وأنَّه كأسلافه ومعاصريه، ومن جاء بعدهم من فلاسفة الإسلام يمجّدون الفلسفة اليونانية، ويرفعون من شأن المعلِّم الأوَّل حتَّىٰ درجة العبادة، وأنَّ معظم كتاب السعادة لابن مسكويه يدور علىٰ مؤلَّفات أرسطو وترتيبها وتبويبها، وحكمة وضعها وتصنيفها علىٰ النمط الذي اتَّبعه ابن الهيثم في اعترافه، فكان أرسطو هو المثل الأعلىٰ لهؤلاء الفلاسفة الإسلاميّين، كما كان العدوّ اللدود للأئمّة المتصوّفين أمثال الغزالي وأصحاب الفلسفة العملية أمثال ابن خلدون.

وظاهر لكلّ متأمّل في مؤلَّفات ابن مسكويه التي تستفاد منها فلسفته أنَّه تأثَّر جدّ التأثّر بالجانب الخلقي من مؤلَّفات أرسطو بعد أن وقف علىٰ النظام الفلسفي بصفة عامّة، وكان اهتمامه بعلم النفس أكبر من اهتمامه بسواه، وكانت الغاية التي يرمي إليها تهذيب النفس عن ريق درس أحوالها وتقلّبها، وقد بلغ أثر هذا الميل في تعاليم ابن مسكويه إلىٰ درجة أنَّه أراد أن يعكس طرق التعليم الفلسفي، فبدلاً من أن يبدأ السالك في طريق الفلسفة بدرس المنطق والبرهان والأقيسة التي هي

وسائل الفهم وأدوات الإدراك، يرىٰ ابن مسكويه عكس ذلك فيقول في كتاب السعادة (ص ٢٦): (وقد رأىٰ بعض أصحاب أرسطوطاليس من مدرّسي كتبه أن يبتدئ المتعلّم لها بكتب الأخلاق لتتهذَّب نفسه وتصفو من كدر الشهوات، ويخف عنها أثقال عوارضها فيتمكَّن من قبول الحكمة ويعترف بعض الاعتراف بترك الانهماك في الشهوات وهجران الملاذ الجسمية، ويعلم أنَّ أكثرها خساسات ورذائل فيتنزَّه عنها، ثمّ ينظر في شيء من التعاليم ليعرف طريق البرهان ويتدرَّب بها ويأنس بطرقها، ويترك الإيغال فيها إلىٰ وقت آخر).

المثل الأعلى عند ابن مسكويه:

ثمّ إنَّ ابن مسكويه جعل للإنسان مثلاً أعلىٰ هو أشبه الأشياء بما كان يرمي إليه ابن باجة في رسالة (تدبير المتوحّد)، وابن طفيل في (حيّ بن يقظان)، ولكن ابن مسكويه مرَّ بمثله الأعلىٰ مرور الطيف، فوصفه بأنَّه هو الحاصل علىٰ السعادة القصوىٰ، وأنَّ هذا السعيد السعادة القصوىٰ (مغتبط بذاته لأنَّه يشاهد أُموراً لا تتغيَّر ولا تستحيل أبداً ولا يجوز عليها أن تتغيَّر أو تستحيل، وأنَّه يرىٰ جميع ما يراه بعين لا تغلط ولا تخطئ ولا تدبر ولا تقبل الفساد، ويتعيَّن أنه صائر من أحد وجوديه (الحياة الدنيوية) إلىٰ الوجود الآخر (الموت) الأكمل، فهو كمن سلك طريقاً إلىٰ وطن يعرفه وثيق بأهله وروحه وطيبه).

ثمّ يتوغل ابن مسكويه في الوصف فيلمس أدقّ عقائد الصوفية في السلوك والوصول حيث يقول: (وكلَّما قطع إليه منزلاً أوحل دونه في درجة تقرّب منه ازداد نشاطاً وطمأنينةً وجذلاً، وهذه الحال من الثقة

واليقين لا تحصل بالخبر دون المعاينة، ولا تتمّ بالحكاية دون المشاهدة، ولا تسكن النفس إليها إلَّا بعد الظفر علىٰ الحقيقة، والواصلون إليها علىٰ طبقات، ومثال ذلك الناظر بعين الرأس، فإنَّ هذه العين يتفاوت الناس في النظر بها، فمنهم من يرىٰ الأشياء البعيدة رؤية بيّنة، ومنهم من لا يراها من القرب أيضاً إلَّا كمن يرىٰ الشيء من وراء ستر، إلَّا أنَّ الفرق بين تلك الحال وهذه الحال أنَّ العين الحسّية كلَّما أمعنت في النظر وأدامت التحقيق إلىٰ محسوساتها كلَّت وضعفت، وتلك العين الأُخرىٰ هي بالضدّ لأنَّها تقوىٰ بالإمعان في النظر وتزداد بالإدمان جلاءً وسرعة إدراك، ولا تزال تزداد بصيرةً ونفاذاً حتَّىٰ تدرك ما كانت تظنّه غير مدرك ولا معقول).

الفرق بين الحكمة والفلسفة:

يميّز ابن مسكويه بين الحكمة والفلسفة، فهو يرىٰ أنَّ الحكمة هي فضيلة النفس الناطقة المميّزة، وهي: أن تعلم الموجودات كلّها من حيث هي موجودة، وإن شئت فقل: أن تعلم الأُمور الإلهية والأُمور الإنسانية، وثمر علمها بذلك أن تعرف المعقولات أيّها يجب أن يُفعَل، وأيّها يجب أن يُغفَل.

أمَّا الفلسفة فلم يضع لها ابن مسكويه تعريفاً، ولكنَّه قسَّمها إلىٰ قسمين:

١ _ الجزء النظري.

٢ _ الجزء العملي.

فإذا كمل الإنسان بالجزئين فقد سعد السعادة التامّة.

والجزء النظري ينطوي علىٰ كمال الإنسان الأوَّل بالقوَّة العالمة فيصير في العلم بحيث يصدق نظره، فلا يغلط في اعتقاد ولا يشكّ في حقيقة، وينتهي في العلم إلىٰ العلم الإلهي ويثق به ويسكن إليه.

والكمال الثاني للإنسان، يكون بالقوّة العاملة، وهو الكمال الخلقي، ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصّة بها حتّىٰ تصدر تلك الأفعال كلّها بحسب قوّته المميَّزة مرتبة كما ينبغي، وينتهي إلىٰ التدبير المدني بين الناس حتّىٰ تنتظم ويسعدوا سعادة مشتركة...

وغاية الكمال الإنساني في فلسفة ابن مسكويه أن يعلم الموجودات كلّها بكلّياتها وحدودها التي هي ذواتها لا أعراضها وخواصّها التي تصيّرها بلا نهاية.

ويعتقد ابن مسكويه أنَّ من ينتهي إلىٰ هذه الرتبة من العلم والعمل فقد صار عالماً وحده واستحقَّ أن يُسمّىٰ عالماً صغيراً؛ لأنَّ صور الموجودات كلّها قد حصلت في ذاته فصار هو هي بنحوٍ ما، ثمّ نظَّمها بأفعاله علىٰ نحو استطاعته، فصار فيها خليفة لمولاه خالق الكلّ جلَّت عظمته، فلم يخطئ ولا يخرج عن نظامه الأوَّل الحكمي، فيصير حينئذٍ عالماً تامَّاً، دائم الوجود، سرمدي البقاء، مستعدَّاً لقبول الفيض من المولىٰ دائماً أبداً، وقد قرب منه القرب الذي لا يجوز أن يحول بينهما حجاب.

ولولا أنَّ الشخص الواحد من أشخاص الناس يمكنه تحصيل هذه المنزلة في ذاته لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات الأُخر، أو كسبيل أشخاص النبات في مصيرها إلىٰ الفناء.

ومن لا يتصوَّر هذه الحالة ولا ينتهي إلىٰ علمها من المتوسّطين في العلم تقع له شكوك في البعث والخلود وانتهاء حياة الإنسانية بالموت، فحينئذٍ يستحقّ اسم الإلحاد ويخرج عن سمة الحكمة وسُنَّة الشريعة.

فالفلسفة في رأي ابن مسكويه، هي غاية الحياة الإنسانية، وهي مزيج من العلم والعمل لسلوك سبيل الترقّي الدائم، فهي الغرض

الأسمىٰ للوجود والوسيلة الوحيدة للاتّصال العقلي والروحاني بين الخالق والمخلوق، والاستعداد لقبول الفيض الربّاني، وعلىٰ ذلك تكون هذه المرتبة هي مرتبة الأنبياء والحكماء والعلماء الذين هم عوالم تامّة وخلفاء للخالق.

الملوك في فلسفة ابن مسكويه:

يقول ابن مسكويه: لقد حكمنا أنَّ الملوك منّا هم أشدُّ الناس فقراً لكثرة حاجتهم إلىٰ الأشياء.

ثمّ يشير ابن مسكويه إلىٰ قول أبي بكر في خطبته حيث قال: (أشقىٰ الناس في الدنيا والآخرة الملوك).

واسترسل ابن مسكويه في وصف الملوك فقال: إنَّ الملك إذا ملك زهَّده الله فيما في يده، ورغَّبه فيما في يد غيره، وانتقصه شطر أجله، وأشرب قلبه الإشفاق، فهو يحسد علىٰ القليل ويتسخَّط بالكثير، ويسأم الرخاء، وإن انقطعت عنه اللذَّة لا يستعمل الغيرة ولا يسكن إلىٰ الثقة، فهو كالدرهم الغش والسراب الخادع، جلد الظاهر حزين الباطن، فإذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحىٰ ظلّه، فأشدّ حسابه وأقلّ عفوه، ألَا إنَّ الملوك هم المرحومون.

قال ابن مسكويه: لقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك يستعيد هذا الكلام...، ثمّ يستعير لموافقته ما في قلبه وصدقه عن حاله وصورته، ولعلَّ من يرىٰ ظاهر الملوك من الأسرّة والفرش والزينة والأثاث، ويشاهدهم في مواكبهم محفوفين محشودين بين أيديهم الجنائب والمراكب والعبيد والخدم والحجاب والحشم، يروعه ذلك فيظنّ أنَّهم مسرورون بما يراه لهم، لا! والذي خلقهم! وكفانا شغلهم! إنَّهم لفي

هـذه الأحـوال ذاهلـون عـمَّا يـراه البعيـد لهـم، مشـغولون بالأفكـار التـي تعتورهم وتعتريهم فيما قلناه من ضروراتهم.

الكلام على النفس:

تكلَّم ابن مسكويه علىٰ قوىٰ النفس الثلاث:

١ _ النفس البهيمية، وهي أدونها.

٢ _ النفس السبعية (نسبة إلىٰ السبع مفرد سباع)، وهي أوسطها.

٣ _ النفس الناطقة، وهي أشرفها.

وإنَّ هـذه القـوىٰ الـثلاث يصـفها ابـن مسـكويه بـالأنفس الـثلاث إذا اتَّصلت صارت شيئاً واحـداً، وتبقـىٰ في الوقـت ذاتـه عـلىٰ تغايرهـا وثورتهـا واستجدائها كأنَّها لم تتَّصل.

ثـمّ تكلَّـم عـلىٰ سياسـة الـنفس العاقلـة، وأنَّ مثـل مـن أهملهـا وتـرك سلطان الشهوة يستولي عليهـا كمـن معـه ياقوتـة حمـراء شريفـة فرمـىٰ بهـا في نـار تضـطرم، ثـمّ انتقـل إلىٰ رأي أرسـطو في بقـاء الـنفس والمعـاد اسـتدلالاً مـن قولـه في كتـاب الأخـلاق، عـلىٰ أنَّ الكـلام الـذي أورده ابـن مسـكويه نقلاً عن أرسطوطاليس في هذا الباب لا يؤدّي إلىٰ القول بالمعاد.

ثمّ انتقـل إلىٰ دواء النفـوس، قـال: يجـب أن تتفقَّـد مبـدأ الأمـراض إذا كان مـن نفوسـنا، فـإن كـان مبـدءها مـن ذاتهـا كـالفكر في الأشـياء الرديئـة، وإجالـة الـرأي فيهـا كاستشـعار الخـوف، والخـوف مـن الأُمـور العارضـة والمترقبة، والشهوات الهائجة، قصدنا علاجها بما يخصّها.

وإن كـان مبـدؤها مـن المـزاج ومـن الحـواسّ كـالخور الـذي مبـدأه ضعف حرارة القلب مـع الكسـل والرفاهيـة، وكالعشـق الـذي مبـدأه النظـر مع الفراغ والبطالة، قصدنا أيضاً علاجه بما يخصّ هذه.

وتكلَّم بعد ذلك علىٰ (حافظ الصحَّة علىٰ نفسه) و(معرفة المرء عيوب نفسه) و(ردّ الصحة علىٰ النفس)، وأسهب ابن مسكويه في الكلام علىٰ العدالة والفضائل التي تحت العفَّة والشجاعة والسخاء والعدالة ومراتب الفضائل الإنسانية، وألمَّ بموضوع السعادة في رأي أرسطوطاليس، ولذَّة السعادة والخير والسعادة، وكثير من هذه الفصول تذكّرنا بما دوَّنه اللورد آثبري في كتبه التي من قبيل (مسرّات الحياة) فهي مزيج من علم الأخلاق والآداب الخاصّة والعامّة، وعلم النفس والحكمة الإنسانية.

وتكلَّم ابن مسكويه علىٰ التعاون والاتّحاد والصداقة والمحبَّة، وأنواع المحبَّة وأجناسها وأسبابها، والمحبَّة التي لا تطرأ عليها الآفات.

وكما تكلَّم علىٰ أنواع الفضائل التي تزهو بها النفس، كذلك أفاض في ذكر الرذائل التي تكون بها عيوب النفس وأسباب ضعفها مثل التهوّر، والجبن، والعجب، والافتخار، والمزاح، والتيه، والاستهزاء، والغدر، والضيم، وأسباب الغضب، والجبن والخور، والخوف وأسبابه وعلاجه، وعلاج الخوف من الموت، وعلاج الحزن.

ونعتقد أنَّ أجمل نبذة في فلسفة ابن مسكويه التي ينطوي عليها كتاب تهذيب الأخلاق، هو الفصل البديع الذي دبجته براعته في موضوع (علاج الخوف من الموت) وهو شبيه بالفصل الذي ختم به جيو الفيلسوف الفرنسي في كتابه (عقيدة المستقبل)، قال ابن مسكويه:

(إنَّ الخوف من الموت ليس يعرض إلَّا لمن لا يدري ما الموت علىٰ الحقيقة، أو لا يعلم إلىٰ أين تصير نفسه، أو لأنَّه يظنّ أنَّ بدنه إذا انحلَّ وبطل تركيبه فقد انحلَّت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور، أو لأنَّه يظنّ أنَّ للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربَّما تقدَّمته وأدَّت إليه

وكانت سبب حلوله، أو لأنَّه يعتقد عقوبة تحلُّ به بعد الموت، أو لأنَّه متحيّر لا يدري علىٰ أيّ شيء يقدم بعد الموت، أو لأنَّه يأسف علىٰ ما يخلفه من المال والمتبقّيات، وهذه كلّها ظنون باطلة لا حقيقة لها).

ولم تخلُ فلسفة ابن مسكويه من جزء خاصّ بالشريعة وبما يجب علىٰ الإنسان لخالقة، وأسباب الانقطاع عن الله، وأنَّ الشريعة تأمر بالعدالة وتدعو إلىٰ الأُنس والمحبَّة، ولزوم الشريعة في المعاملات، والواجب علىٰ الحاكم نحو الرعيّة.

وجملة القول في فلسفة ابن مسكويه الخلقية، أنَّها مزيج متقن السبك متناسب الأجزاء من الفلسفة اليونانية، حسب تعاليم أرسطو، لاسيّما ما كان منها خاصّاً بعلم النفس والأخلاق، ومن الآداب الفلسفية الإسلاميّة التي بها رائحة من التصوّف العقلي والديني، ومن حكمة الحياة والآداب العامّة والخاصّة.

ونحن نعد ابن مسكويه فيلسوفاً قائماً بذاته، لم ينسج علىٰ منوال أحد من سابقيه ولم يتعرَّض في (تهذيب الأخلاق) للمسائل الجوهرية في الفلسفة، وهي العقل والروح والخالق وسرّ الوجود الإنساني، وغاية الحياة العقلية والعقائد الدينية التي لها مساس بحياة الإنسان من حيث الكفر والإيمان، بل هو رجل حكيم ملمّ بفلسفة أرسطو، يقدّسه ويمجّده، ويحاول كما حاول آرثور شوبنهور في كتابه... (حكمة الحياة) أن يوجد للفرد مثلاً أعلىٰ يسعىٰ للوصول إليه، ويعمل لأجله فإذا وصل إليه بلغ النهاية القصوىٰ من الكمال، فالفكرة الأساسية الأصيلة في فلسفة ابن مسكويه في كتاب (تهذيب الأخلاق) هي فكرة عملية محضة ذات نفع مباشر للإنسان الذي يسير علىٰ خطَّتها الحكيمة.

فلسفة ابن مسكويه في إثبات الصانع والنفس والنبوّة:

يُعَدُّ هذا الجزء من فلسفة ابن مسكويه خاصّاً بما وراء الطبيعة، وهو مبني علىٰ أُصول الفلاسفة الإلهيّين، ومذهب ابن مسكويه فيه هو الانتصار للعقائد الدينية.

وقد قسَّم ابن مسكويه فلسفته الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) إلىٰ ثلاث مسائل في ثلاثين فصلاً، وكلّ مسألة عشرة فصول:

المسألة الأُولىٰ: في إثبات الصانع، وهو محاولة في إقامة الدليل العقلي علىٰ وجود الله سبحانه وتعالىٰ، وقد قدَّم لها الفيلسوف بمقدّمة وجيزة في أنَّ هذا الأمر سهل من وجه وصعب من وجه، وأمَّا سهولته فمن قِبَل الحقّ نفسه لأنَّه نيّر، وأمَّا صعوبته أو غموضه فلأجل ضعف عقولنا وعجزها وكلالها، ولكن من التمس أمراً لا بدَّ له من الوصول إليه، صبر علىٰ الطريق وما يلحقه في من صعوبة ومشقَّة، ونحن محتاجون إلىٰ أن نعظّم أنفسنا عن الأوهام المأخوذة من الحواسّ التي تغالطنا عن المعقولات الصحيحة، وهو نظام عسير شديد لأنَّه مفارقة العادة ومباينة العامّة في كثير من نظرها، وجاءت في عرض هذا الفصل الأوَّل من المسألة الأُولىٰ عبارة شاد بذكرها بعض أُدباء العرب، وزعم أنَّها تدلُّ علىٰ وقوف ابن مسكويه علىٰ نظرية النشوء والارتقاء، قال: (إنَّ الإنسان آخر الموجودات، وإنَّ التركيبات تناهت إليه ووقفت عنده وتكثَّرت الأغشية واللبوسات الهيولانية علىٰ جوهره النيّر أعني العقل، ولـمَّا حصل الإنسان آخر الموجودات صارت الأشياء التي هي في أنفسها أوائل آخرة عنده).

والفصل الثاني من المسألة الأُولىٰ خاصّ باتّفاق الأوائل علىٰ إثبات

الصانع جلَّ ذكره، وأنَّه لم يمتنع أحد منهم عن ذلك، وخلاصته أنَّ الحكماء أمروا بالتوحيد ولزوم أحكام العدل، وإقامة السياسات الإلهية بالأزمنة والأحوال، ثمّ تكلَّم في الاستدلال بالحركة علىٰ الصانع وأنَّها أظهر الأشياء وأولاها بالدلالة عليه ﷻ، ويقصد بالحركة ستَّة أشياء: (حركة الكون، الفسا، النموّ، النقصان، الاستحالة، النقلة)، وانتقل بعد ذلك إلىٰ الكلام علىٰ أنَّ كلّ متحرّك إنَّما يتحرَّك من محرّك غيره، وإنَّ محرّك جميع الأشياء غير متحرّك، ثمّ تدرَّج إلىٰ الكلام في أنَّ الصانع واحد وأنَّه ليس بجسم، وأنَّه تعالىٰ أزليّ.

وأغرب فصل في هذا الباب هو الثامن الذي به أنَّ الصانع يُعرَف بطريق السلب دون الإيجاب.

وفي الفصل التاسع بيان أنَّ وجودات الأشياء كلّها إنَّما هي بالله ﷻ، وقد تناول هذا الفصل القول علىٰ الجوهر والعرض، ثمّ تلاه كلام في أنَّ الله تعالىٰ أبدع الأشياء كلّها لا من شيء وأنَّها تتبدَّل بالصورة حسب، وهذا ختام كلام ابن مسكويه في المسألة الأُولىٰ الخاصّة بإثبات الصانع.

ثمّ انتقل إلىٰ الكلام في المسألة الثانية في النفس وأحوالها، وفي إثبات النفس وأنَّها ليست بجسم ولا عرض، وأنَّها تدرك الموجودات كلّها غائبها وحاضرها، ومعقولها ومحسوسها، وبحث في مسألة عويصة وهي كيفية إدراك النفس للمدركات وهل ذلك منها بأجزاء كثيرة، أم بأنحاء مختلفة، أم هناك مدركات بعدد المركَّبات...

ثمّ تكلَّم علىٰ الفرق بين الجهة التي تعقل بها النفس والجهة التي تحسُّ بها، والأشياء التي تشترك فيها والأشياء التي تتباين فيها.

وتنـاول الكـلام علىٰ خلـود الـنفس فأثبـت علىٰ طريقتـه أنَّ الـنفس جوهر حيّ باقٍ لا يقبل الموت ولا الفناء، وأنَّها ليست الحياة بعينها بل تعطي الحياة لكلّ ما توجد فيه.

وانتقل بعد ذلك إلىٰ الكلام علىٰ حجج أفلاطون في بقاء النفس، وأنَّ للنفس حالاً من الكمال يُسمّىٰ سعادة، وآخر من النقصان يُسمّىٰ شقاوة، وفي حال النفس بعد مفارقتها البدن، وما الذي يحصل لها بعد موت الإنسان.

وقد استطرد في فصل إلىٰ الكلام علىٰ تحصيل السعادة والسبيل التي تؤدّي إليها، وهذه لازمة ابن مسكويه في فلسفته، فأفاض فيها في كتاب (تهذيب الأخلاق)، وأفرد لها كتاباً...، انتهىٰ.

آثاره ومؤلّفاته:

ولابن مسكويه آثار كثيرة، في جوانب من الثقافة والمعرفة، أهمّها في علم الأخلاق والتاريخ، فقد كتب في الفلسفة والأخلاق والطبّ والتاريخ والكلام والرياضيات، وقد قالوا: إنَّه صنَّف في علوم الأوائل كثيراً، وله تعليقات في المنطق، ومقالات جليلة في أقسام الحكمة والرياضي.

ومن آثاره في مختلف العلوم:

١ _ الفوز الأكبر، في الأخلاق.

٢ _ الفوز الأصغر، وهذا الكتاب في أُصول الديانات، وحقائق النفوس، وصرَّح في الفوز الأصغر بوجوب عصمة الإمام.

٣ _ نور السعادة.

٤ _ كتاب أقسام الحكمة والرياضي.

٥ _ تعليق في المنطق.

٦ _ أدب الدنيا والدين، وفي هذا الكتاب يفرِّق بين السرف والتبذير، بأنَّ السرف هو الجهل بمقادير الحقوق، والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق.

٧ _ كتاب أُنس الفريد، يقول القِفطي: إنَّه أحسن كتاب صُنِّفَ في الحكايات القصار والفوائد اللطاف، ولعلَّ هذا هو نفس كتابه (نديم الفريد).

٨ _ كتاب نزهة نامه علائي، وضعه لعلاء الدين الديلمي.

٩ _ جاويدان خرد، ومعناه (العقل الأزلي) أو (العقل الخالد) يوجد علىٰ هامش كتاب (نزهة الأرواح وروضة الأفراح) للشهرزوري المصوَّر بمكتبة الجامعة.

وأخرجه أخيراً وعلَّق عليه الأُستاذ عبد الرحمن بدوي وطبعه سنة (١٩٥٢م)، كما قدَّم له مقدّمة نفيسة.

وقد جمع ابن مسكويه في هذا الكتاب حكم الفرس والهند والعرب والروم، ليدلَّ بذلك علىٰ اتّفاق العقول في جميع الأزمان والأُمم علىٰ أُصول الحكم، وينتفع به الناس جميعاً.

١٠ _ كتاب آداب العرب والعجم.

١١ _ كتاب السياسة السلطانية، وربَّما كان هذا هو كتابه (السياسة للملك).

١٢ _ أحوال الحكماء السلف، وهي رسالة وضعها في أحوال الحكماء المقدّمين، وقد قال في صدرها: (حقيق بنا بعد أن تسمَّينا بالحكمة إظهار آثار الحكماء في الموجودات).

وقد عرض فيه أيضاً لبعض صفات الأنبياء وأحوالهم، ونقل عن السيّد المسيح عليه السلام قوله: (من لم يترك داره خراباً، وامرأته أرملة، وولده يتيماً لم يظفر بملكوت السماوات).

وقد أقام فيه البرهان علىٰ علم الواجب تعالىٰ وحكمته، وعلىٰ عينية الذات معها بهذه العبارة: (المتقدّم علىٰ الأشياء كلّها يجب أن يكون هو الحكمة، إذ لو كان المتقدّم شيئاً سوىٰ الحكمة، لبطلت الحكمة).

١٣ _ كتاب مختار الأشعار، ولعلَّه كتابه المسمّىٰ بـ (المستوفىٰ) الآتي.

١٤ _ كتاب أنيس الخاطر.

١٥ _ كتاب الأشربة، وقد اختصره هبة الله بن صاعد الحكيم الطبيب المعروف بابن التلميذ النصراني.

١٦ _ كتاب البطّيخ.

١٧ _ كتاب الأدوية المفردة.

١٨ _ كتاب في تركيب الباجات من الأطعمة، أحكمه _ كما يقول القِفطي _ غاية الإحكام، وأتىٰ من أُصول علم الطبيخ وفروعه بكلّ غريب حسن.

وهذه الكتب الأربعة كلّها في الطبّ.

١٩ _ كتاب ترتيب السعادات.

٢٠ _ جواب أبي حيّان التوحيدي، وهو علي بن محمّد بن العبّاس الشيرازي النيسابوري الرازي توفّي عام (٤٠٠هـ)، سأله أبو حيّان عن العدل، فأجابه ابن مسكويه، ولهذا يقال لها: (رسالة العدل)، أوّلها: قال أدام الله تأييده: (العدل ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: طبيعي، ووصفي، وإلهي...)، توجد منه نسخة في المكتبة الرضوية.

٢١ _ كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، وربَّما سُمّي بـ (طهارة النفس)، وقد نسج نصير الدين الطوسي كتابه (أخلاق ناصري) علىٰ منواله، وتأثَّر به كثيراً، وأثنىٰ عليه ثناءً بليغاً، ومدحه بأبيات، وهي:

بنفسي كتاباً حاز كلّ فضيلة وصار لتكميل البريّة ضامنا

هذا الكتاب يُمثِّل مذهبه الفلسفي في الأخلاق، الذي لا يزال له شأن في الشرق إلىٰ يومنا هذا، وهو مزيج من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ومن أحكام الشريعة الإسلاميّة، غير أنَّ نزعة أرسطو غالبة عليه كما يقول الأُستاذ أبو ريدة، باعتبار أنَّ ظلالاً كثيرة لكتاب (أخلاق أرسطو) تجدها علىٰ كتب ابن مسكويه الأخلاقية وبخاصّة هذا الكتاب.

٢٢ _ تجارب الأُمم وتعاقب الهمم، في التاريخ، بلغ فيه إلىٰ سنة (٣٧٢هـ)، وهي السنة التي مات فيها عضد الدولة البويهي، وهو جميل كبير يشتمل علىٰ كلّ ما ورد في التاريخ ممَّا أوجبته التجربة، وتفريط من فرَّط، وحزم من استعمل الحزم.

وقد كتب عنه المستشرق مارغوليوس فصلاً في كتابه (دراسات عن المؤرِّخين العرب، انتهىٰ فيه إلىٰ أنَّ ابن مسكويه كان يتَّسم في كتابة التاريخ بسمة الحياد التامّ فيما يعطيه من أحكام، رغم أنَّه عاش في بلاط بني بويه ووزرائهم، وكان المفروض فيه أن يكيل المدح لهؤلاء بغير حساب، وأن لا يسترسل في نقده لأفعال هؤلاء السلاطين ووزرائهم، ولكنَّه بالرغم من كلّ ذلك ليس فيه أيّ أثر لمثل هذا التحيّز. وانتهىٰ إلىٰ أنَّ ابن مسكويه من أُولئك الذين يعتبر حيادهم فيما يكتبون سمة مدهشة في كتبهم.

فهو لم يحاول إخفاء جرائم من عاش في ظلّهم، وصمّمهم باتّهامات كثيرة.

٢٣ _ ترتيب العادات، في الأخلاق والسياسة.

٢٤ _ المستوفىٰ، وهو أشعار مختارة.

٢٥ _ كتاب الجامع.

٢٦ _ كتاب السير، ذكر فيه ما يسيّر به الرجل نفسه من أُمور دنياه، مزجه بالأثر والحكمة والشعر.

٢٧ _ رسالة في اللذّات والآلام في جوهر النفس، توجد منه نسخة في مكتبة راغب باستنبول.

٢٨ _ الجواب في المسائل الثلاث، توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة المجلس في طهران، مذكورة في فهرست المكتبة المذكورة (ج ٢/ رقم ٦٣٤ ورقم ٣١).

٢٩ _ طهارة النفس، منه نسخة مصوَّرة في دار الكتب المصرية بالقاهرة. (انتهىٰ ما جاء في فلاسفة الشيعة).

خبر كتاب جاويدان خرد:

ومختصر كتاب (جاويدان خرد) وما فيه من حكم العرب والفرس والروم والهند، وقد ذكر السيّد الأمين في (أعيان الشيعة)[1] جميع هذه الحكم والآداب، مع خبر كتاب (جاويدان خرد) فقال:

خبر كتاب جاويدان خِرَد:

وجدنا ملحقاً بالمختصر المشار إليه ما هذا لفظه: حكىٰ أبو عثمان الجاحظ خبر هذا الكتاب في كتابه المسمّىٰ (استطالت الفهم) وقال: حدَّثني الواقدي، قال: قال لي الفضل بن سهل: لـمّا دعي للمأمون بكور

---

(١) أعيان الشيعة ٣: ١٦٠.

خراسان بخلافة جائتنا هدايا الملوك، ووجَّه ملك كابلسان بشيخ يقال له: ذوبان، وكتب يذكر أنَّه وجَّه بهدية ليس في الأرض أسنىٰ ولا أرفع ولا أنبل ولا أفخر منها، فعجب المأمون وقال: مثل الشيخ ما معه من الهدايا، فسألته فقال: ما معي أكبر من علمي! قلت: فأيّ شيء علمك؟ فقال: تدبير ورأي ودلالة، فأمر المأمون بإنزاله وإكرامه وكتمان أمره، فلمَّا أجمع علىٰ التوجيه إلىٰ العراق لقتال أخيه محمّد دعا بذوبان وقال: ما ترىٰ في التوجيه إلىٰ العراق لقتال محمّد؟ فقال: رأي مصيب وملك قريب.

ثمّ حكىٰ الجاحظ عن ذوبان بإسناده: أنَّه كان يسجِّع سجاعة الكهّان، ويصيب في كلّ ما يسأله المأمون، فلمَّا ورد عليه كتاب فتح العراق، دعا ذوبان وأكرمه وأمر له بمائة ألف درهم فلم يقبلها.

وقال: أيّها الملك إنَّ مَلِكي لم يوجّهني إليك لأنتقصك، فلا تجعل ردّي نعمتك مسخطاً فإنّي لست أردّها عن استصغار لقدرها، وسوف أقبل منك ما يفي بهذا المال ويزيد.

وهو كتاب يوجد بالعراق فيه مكارم الأخلاق وعلوم الآفاق، من كتب عظيم الفرس يوجد في الخزائن تحت الإيوان بالمدائن، فلمَّا قدم المأمون بغداد واستقرَّت به دار ملكه اقتضاه ذوبان حاجته، فأمر بأن تُكتَب الصفة ويذكر الموضع، فكتبه ذوبان وعيَّن علىٰ الموضع وقال: إذا بلغت الحجر ووصلت إلىٰ الساجة فاقلعها تجد الحاجة فخذها ولا تعرض لغيرها فيلزمك غبّ ضيرها.

فوجَّه المأمون في ذلك رسولاً حصيفاً، فوجد هناك صندوقاً صغيراً من زجاج أسود وعليه قفل، فحمله وردَّ الحفرة إلىٰ حالها.

قال: فحدَّثني الحسن بن سهل، قال: إنّي عند المأمون إذ أُدخل

ذلك الصندوق فجعل يعجب منه، ثمّ دعا بذوبان. فقال: هذه بغيتك؟ قال: نعم!

قال: خذه وانصرف ولا تظنّنّ أنَّ الرغبة فيها لعلَّه يوجد فيه حملتنا علىٰ مسألتك فتحه بين أيدينا.

فقال: أيّها الملك لست ممَّن تنقض رغبته ذمام عهده، ثمّ فتح القفل وأدخل يده فأخرج خرقة ديباج ونشرها فسقط منها أوراق فعدَّها فإذا هي مائة ورقة، ثمّ نفض الصندوق فلم يكن فيه سوىٰ الأوراق، فردَّ الأوراق إلىٰ الخرقة وحملها ونهض. ثمّ قال: أيّها الملك هذا الصندوق يلح لجنبات خزائنك، فأمر به فرُفِعَ.

قال الحسن بن سهل: فقلت: يرىٰ أمير المؤمنين أن أسأله ما في الكتاب؟ فقال: يا حسن، أفرّ من اللؤم ثمّ أرجع إليه؟ فلمَّا خرج صرت إليه في منزله فسألته عنه فقال: هذا كتاب (جاويدان خرد) أخرجه كنجور وزير ملك إيرانشهر من الحكمة القديمة، فقلت: أعطني ورقة منه أنظر فيها، فأعطاني فأجلت فيها نظري وأحضرت لها ذهني فلم أزدد ممَّا فيها إلَّا بعداً، فدعوت بالخضر بن علي وذلك في صدر النهار فلم ينتصف حتَّىٰ فرغ من قراءتها بينه وبين نفسه، ثمّ أخذ يفسِّرها وأنا أكتب، ثمّ رددت الورقة وأخذت منه أُخرىٰ والخضر عندي فجعل يفسِّر وأنا أكتب حتَّىٰ أخذت منه نحواً من ثلاثين ورقة وانصرفت في ذلك اليوم، ثمّ دخلت يوماً عليه فقلت: يا ذوبان! هل يكون في الدنيا أحسن من هذا العلم؟ فقال: لولا أنَّ العلم مضنون به وهو سبيل الدنيا والآخرة لرأيت أن أدفعه إليك بتمامه ولكن لا سبيل إلىٰ أكثر ممَّا أخذت.

ولم تكن الأوراق التي أخذتها علىٰ التأليف لأنَّها تتضمَّن أُموراً لا يمكن إخراجها.

فحدَّثني الحسن بن سهل، قال: قال لي المأمون يوماً: أيُّ كتب العرب أنبل وأفضل؟ فجعلت أُعدِّد كتب المغازي والتواريخ حتَّىٰ ذكرت تفسير القرآن وقال: كلام الله لا يشبهه شيء، ثمّ قال: أيُّ كتب العجم أشرف؟ فذكرت كثيراً منها ثمّ قلت: كتاب (جاويدان خرد) يا أمير المؤمنين، فدعا بفهرست كتبه وجعل يقلّبه فلم يَرَ لهذا الكتاب ذكراً، فقال: كيف سقط ذكر هذا الكتاب عن الفهرست؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا هو كتاب ذوبان وقد كتبت بعضه، قال: فأتني به الساعة، فوجَّهت في حمله، فوافاه الرسول وقد نهض للصلاة، فلمَّا رآني مقبلاً والكتاب معي انحرف عن القبلة وأخذ يقرأ الكتاب وكلَّما فرغ من فصل قال: لا إله إلَّا الله، فلمَّا طال ذلك قلت: يا أمير المؤمنين الصلاة تفوت وهذا لا يفوت، فقال: صدقت ولكنّي أخاف السهو في صلاتي لاشتغال قلبي، ثمّ صلّىٰ وعاود قراءته. ثمّ قال: أين تمامه؟ قلت: لم يدفعه إليَّ، فقال: لولا أنَّ العهد حبل طرفه بيد الله وطرفه بيدي لأخذته منه، فهذا والله الحكمة لا ما نحن فيه من ألسنتنا في أشداقنا.

هذا ما وجدنا في النسخة في آخر المختصر المذكور من خبر هذا الكتاب، فلنعد إلىٰ ذكر المختصر وهو هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم، نتفٌ وآدابٌ انتخبت من كتاب (جاويدان خرد) الذي ألَّفه أحمد بن محمّد مسكويه، وهي تشتمل علىٰ حكم الفرس والروم والهند والعرب.

وصيّة أوشيهنج لولده وللملوك من خلفه:

وهذا الملك كان بعيد الطوفان وليس يوجد لمن كان قبله سيرة ولا أدب مستفاد، قال أوشيهنج: من الله المبتدا وإليه المنتهىٰ، وبه التوفيق، وهو المحمود، من عرف الابتداء شكر، ومن عرف الانتهاء أخلص، ومن عرف التوفيق خضع، ومن عرف الإفضال أناب بالاستسلام والموافقة.

أمَّا بعد، فإنَّ أفضل ما أُعطي العبد في الدنيا الحكمة، وأفضل ما أُعطي في الآخرة المغفرة، وأفضل ما أُعطي في نفسه الموعظة، وأفضل ما سأل العبد العافية، وأفضل ما قال كلمة التوحيد، رأس الغنىٰ المعرفة، وملاك العلم العمل، وملاك العمل السُّنَّة، وإصابة السُّنَّة لزوم القصد، الدين بشُعَبِه كالحصن بأركانه فإذا تداعىٰ واحد منها تتابع بعده سائرها، أعمال البرّ علىٰ أربع شُعَب: العلم والعمل وسلامة الصدر والزهد، فالعلم بالسنن، والعمل بإصابة السنن، وسلامة الصدر بأمانة الحسد، والزهد بالصبر.

جماع أمر العباد في أربع خصال: العلم، والحلم، والعفاف، والعدالة، فالعلم بالخير للاكتساب وبالشرّ للاجتناب، والحلم في الدين للإصلاح وفي الدنيا للكرم، والعفاف في الشهوة للرزانة وفي الحاجة للصيانة، والعدالة في الرضىٰ والغضب للقسط.

العلم علىٰ أربعة أوجه: أن تعلم أصل الحقّ الذي لا تقوم إلَّا به، وفروعه التي لا بدَّ منها، وقصده الذي لا نفع إلَّا فيه، وضدّه الذي لا يفسده إلَّا هو.

العلم والعمل قرينان كمقارنة الروح للجسد لا ينفع أحدهما إلَّا بالآخر.

الحقّ يُعرَف من وجهين: ظاهر يُعرَف بنفسه، وغامض يُعرَف بالاستنباط من الدليل وكذلك الباطل.

أربعة أشياء يتقوّىٰ بها علىٰ العمل: الصحَّة، والغنىٰ، والعزم، والتوفيق.

طرق النجاة ثلاث: سبيل الهدىٰ، وكمال التقوىٰ، وطيب الغذاء _ يعني الحلال _، العلم روح والعمل بدن، والعلم أصل والعمل فرع، العلم والد والعمل مولود، وكان العمل لمكان العلم، ولم يكن العلم لمكان العمل، الغنىٰ في القناعة، والسلامة في العزلة، والحرّية في رفض الشهوة، والمحبَّة في ترك الطمع والرغبة.

واعلم أنَّ التمتّع في أيّام طويلة يوجد بالصبر علىٰ أيّام قليلة، الغنىٰ الأكبر في ثلاثة أشياء: نفس عالمة تستعين بها علىٰ دينك، وبدن صابر تستعين به في طاعة ربّك، وتتزوَّد به لمعادك وليوم فقرك، وقناعة بما رزق الله باليأس عمَّا عند الناس.

أخرج الطمع عن قلبك تحلّ القيد من رجلك وتروِّح بذلك، الظالم نادم وإن مدحه قوم، والمظلوم سالم وإن ذمَّه قوم، والمقتنع غنيّ وإن جاع وعري، والحريص فقير وإن ملك الدنيا.

الشجاعة سعة الصدر بالإقدام علىٰ الأُمور المؤلمة والمكاره الحادثة.

والسخاء سماحة النفس لمستحقّ البذل، وبذل الرغائب الجليلة في موضعها.

والحلم ترك الانتقام مع إمكان القدرة.

والحزم انتهاز الفرصة.

الدنيا دار عمل والآخرة دار ثواب، وزمام العافية بيد البلاء،

ورأس السلامة تحت جناح العطب، وباب الأمن مستور بالخوف، فلا تكوننَّ في حال من هذه الثلاثة غير متوقّع لأضدادها، ولا تجعل نفسك غرضاً للسهام المهلكة فإنَّ الزمان عدوّ لابن آدم فاحترز من عدوّك بغاية الاستعداد، وإذا فكَّرت في نفسك وعدوّها استغنيت عن الوعظ.

أجل قريب في يد غيرك، وسوق حثيث من الليل والنهار، وإذا انتهت المدَّة حيل بينك وبين العدَّة فاحتل قبل المنع، وأكرم أجلك بصحبة السابقين.

إذا آنستك السلامة فاستوحش من العطب، وإذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء فإليه تكون الرجعة، وإذا بسطك الأمل فاقبض نفسك بقرب الأجل فهو الموعد.

الحيلة خير من السدة، والتأنّي أفضل من العجلة، والجهل في الحرب خير من العقل، والتفكّر هناك في العاقبة مادّة الجزع؛ أيّها المقاتل احتل تغنم، ولا تفكّر في العاقبة فتنهزم، التأنّي فيما لا تخاف عليه الفوت أفضل من العجلة إلىٰ إدراك الأمل، أضعف الحيلة أنفع من أقوىٰ الشدَّة، وأقلُّ التأنّي أجدىٰ من أكثر العجلة، والدولة رسول القضاء المبرم، وإذا استبدَّ الملك برأيه عميت عليه المراشد.

يحرم علىٰ السامع تكذيب القائل إلَّا في ثلاث هنَّ غير الحقّ: صبر الجاهل علىٰ مضض المصيبة، وعاقل أبغض من أحسن إليه، وحماة أحببت كنَّة.

ثلاث لا يستصلح فسادهنَّ بشيء من الحيل: العداوة بين الأقارب، وتحاسد الأكفّاء، والركاكة في الملوك، وثلاثة لا يستفسد صلاحهنَّ بنوع من المكر: العبادة في العلماء، والقناعة في المستبصرين، والسخاء في ذوي الأخطار.

وثلاثة لا مشبع منهنَّ: العافية، والحياة، والمال.

إذا كان الداء من السماء بطل الدواء، وإذا قدَّر الربّ بطل حذر المربوب.

ونعم الدواء الأجل، وبئس الداء الأمل، والمال ثلاث هنَّ سرور الدنيا وثلاث غمّها، أمَّا السرور فالرضىٰ بالقسم، والعمل بالطاعة في النعم، ونفي الاهتمام لرزق غد، وأمَّا الغمّ فحرص مسرف، وسؤال مُلحِف، وتمنّي ما يلهف.

الدنيا أربعة أشياء: البناء، والنساء، والطلاء، والغناء.

أربعة من جهد البلاء: كثرة العيال، وقلَّة المال، والجار السوء، وزوجة خائنة.

شدائد الدنيا في أربعة: الشيخوخة مع الوحدة، والمرض في الغربة، كثرة الدين مع القلَّة، وبعد الشقَّة مع الرجلة.

والمرأة الصالحة عماد الدين، وعمارة البيت، وعون علىٰ الطاعة.

ليس بكامل من غزا ولم يبن علىٰ امرأة تزوَّجها، أو بنىٰ بناءً ولم يكمله، أو زرع زرعاً ولم يحصده.

ثلاث ليس للعاقل أن ينساهنَّ: فناء الدار، وتصرّف أحوالها، والآفات التي لا أمان منها.

ثلاث لا تُدرَك بثلاث: الغنىٰ بالمنىٰ، والشباب بالخضاب، والصحَّة بالأدوية.

أربع خصال إذا أعطيتهنَّ فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا: عفاف طعمة، وحسن خلقة، وصدق حديث، وحفظ أمانة.

ستَّة أشياء تعدل الدنيا: الطعام المرئ، والسيّد الرؤوف، والولد البرّ، والزوجة الموافقة، والكلام المحكم، وكمال العقل.

صقلك السيف وليس له من سنخه جوهر خطأ، ونثرك الحَب قبل أوانه في الأرض السبخة جهل، وحملك الصعب المسنّ علىٰ الرياضة عناءٌ.

الناصح غريزة الطبع، القائد المشفق حسن المنطق، العناء المعين تطبع من لا طبع له، الداء العياء رهونة مولودة، الجرح الدويّ المرأة السوء، الحمل الثقيل الغضب.

ثلاثة أشياء حسنها في ثلاثة مواضع: المواساة عند الجوع، والصدق عند السخط، والعفو عند القدرة.

العاقل لا يرجو ما يُعنَّف برجائه، ولا يسأله ما يخاف منعه، ولا يضمن ما لا يثق بالقدرة عليه.

ثلاث ليس معهنَّ غربة: حسن الأدب، وكفّ الأذىٰ، واجتناب الريب.

ثمان خصال من طباع الجهّال: الغضب في غير معنىٰ، والإعطاء في غير حقّ، وإتعاب البدن في الباطل، وقلَّة معرفة الرجل بصديقه من عدوّه، ووضعه السرّ في غير أهله، وثقته بمن لم يجرّبه، وحسن ظنّه بمن لا عقل له ولا وفاء، وكثرة الكلام بغير نفع.

من ظلم من الملوك فقد خرج من كرم الملك والحرّية، وصار إلىٰ دناءة الشره والنقيصة، والشبه بالعبيد والرعيّة.

إذا ذهب الوفاء نزل البلاء، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام.

إذا ظهرت الخيانات استخفت البركات.

الهزل آفة الجدّ، والكذب عدوّ الصدق، والجور مفسد العدل، فإذا استعمل الملك الهزل ذهبت هيبته، وإذا استصحب الكذب استخفَّ به، وإذا أظهر الجور فسد سلطانه.

الحزم انتهاز الفرصة عند القدرة، وترك الدين فيما يخاف عليه الفوت.

الرياسة لا تتمُّ إلَّا بحسن السياسة، ومن طلبها صبر علىٰ مضضها.

باحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالإفضال تعظم الأخطار، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال.

إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه، ضاعت الأُمور.

علىٰ الملك أن يعمل بثلاث خصال: تأخير العقوبة في سلطان الغضب، وتعجيل مكافاة المحسن، والأناة فيما يحدث، فإنَّ له في تأخير العقوبة إمكان العفو، وفي تعجيل المكافاة بالإحسان المسارعة بالطاعة من الرعيّة والجند، وفي الأناة انفساح الرأي وإيضاح الصواب.

الحازم فيما أشكل عليه من الرأي بمنزلة من أضلَّ لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها من التراب فنخله حتَّىٰ وجدها، كذلك الحازم جامع جميع الرأي في الأمر المشكل ثمّ يخلصه ويسقط بعضه حتَّىٰ يخلص منه الرأي الخالص.

لا ضعة مع حزم، ولا شرف مع عجز، الحزم مطيّة النجح، والعجز مورث الحرمان.

أربعة خصال ضعة في الملوك والأشراف: التعظّم ومجالسة الأحداث والصبيان والنساء ومشاورتهنَّ، وترك ما يحتاج إليه من الأُمور فيما يفعله بيده ويحضره بنفسه.

لا يكون الملك ملكاً حتَّىٰ يأكل من غرسه، ويلبس من طرازه، وينكح من تلاده، ويركب من نتاجه.

إحكام هذه الأُمور بالتدبير، والتدبير بالمشورة، والمشورة بالوزراء الناصحين المستحقّين لرتبهم.

استظهر علىٰ من دونك بالفضل وعلىٰ نظراتك بالانصاف وعلىٰ من فوقك بالإجلال، تأخذ بوثائق أزمة التدبير.

يجب علىٰ العاقل من حقّ الله ﷻ التعظيم والشكر، ومن حقّ السلطان الطاعة والنصيحة، ومن حقّه علىٰ نفسه الاجتهاد في الخيرات واجتناب السيّئات، ومن حقّ الخلطاء الوفاء بالودّ والبذل للمعونة، ومن حقّ العامّة كفّ الأذىٰ وحسن المعاشرة.

لا يكمل المرء إلَّا بأربع: قديم في شرف، وحديث في نفس، وإحظاء عند مال، وصدق عند بأس.

من لم يبطره الغنىٰ ولم يستكن في الفاقة ولم تهده المصائب ولم يأمن الدوائر ولم ينسَ العواقب، فذاك الكامل.

الكمال في ثلاث: الفقه في الدين، والصبر علىٰ النوائب، وحسن التقدير في المعيشة.

ويستدلُّ علىٰ تقوىٰ المرء بثلاث: التوكّل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر عمَّا فات.

ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص بالتوكّل، والاستسلام للربّ.

ليس للدين عوض، ولا للأيّام بدل، ولا للنفس خلف.

من كان مطيَّته الليل والنهار فإنَّه يساربه وإن لم يسر.

من جمع السخاء والحياة فقد استجاد الإزار والرداء.

من لم يبالِ بالشكاية فقد اعترف بالدناءة.

من استرجع هبته فقد استحكم اللؤم.

أربعة أشياء القليل منها كثير: الوجع، والفقر، والعار، والعداوة.

من جهل قدر نفسه فهو لقدر غيره أجهل.

من أنف من عمل نفسه اضطرَّ إلىٰ عمل غيره.

من استنكف من أبويه فقد انتفىٰ من الرشدة.

ومن لم يتَّضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

أُذكر مع كلّ نعمة زوالها، ومع كلّ بليّة كشفها، فإنَّ ذلك أبقىٰ للنعمة، وأسلم من البطر، وأقرب إلىٰ الفرج.

إذا لم يكن العدل غالباً علىٰ الجور لم يزل يحدث ألوان البلاء والآفات.

ليس شيء لتغيير نعمة وتعجيل نقمة أقرب من الإقامة علىٰ الظلم.

الأمل قاطع من كلّ خير، وترك الطمع مانع من كلّ خوف، والصبر صائر إلىٰ كلّ ظفر، والنفس داعية إلىٰ كلّ شرّ، متصالح المعاش يصلح أمر العباد، وبصدق التوكّل يستحقّ الرزق، وبالاستخلاص يستحقّ الجزاء، وبسلامة الصدر توضع المحبَّة في القلب، وبالكفّ عن المحارم ينال رضىٰ الربّ، وبالحِكَم يكشف غطاء العلم، ومع الرضا يطيب العيش.

وبالعقول تنال ذروة الأُمور، وعند نزول البلاء تظهر فضائل الإنسان، وعند طول الغيبة تظهر مواساة الإخوان، وعند الحيرة تستكشف عقول الرجال، وبالأسفار تُختبَر الأخلاق، ومع الضيق يبدو السخاء، وفي الغضب يُعرَف صدق الرجال، وبالإيثار علىٰ النفس تُملَك الرقاب، وبالأدب الصالح يلهم العلم، وبترك الخطأ يسلم من العيوب، وبالزهد تقام الحكمة، وبالتوفيق تحرّر الأعمال، وعند الغايات تظهر قوىٰ العزائم، وبصاحب الصدق يتقوّىٰ علىٰ الأُمور.

وبالملاقـاة يكـون ازديـاد المـودّات، ومـع الزهـد في الـدنيا تثبـت المؤاخاة، ومن الوفـاء دوام المواصـلة، ومـن قبـول رشـد العـالم ركـوب مطيَّـة العلـم، ومـن اسـتقامة النيَّـة اختيـار صـحبة الأبـرار، ومـن مصـاحبة الغَـرر ركوب البحر، ومن عزّ الـنفس لـزوم القناعـة، ومـن سـلطان الـنفس التجلّـد علىٰ من يطمـع في دينـك، ومـن الـدخول في كـامن الصـدق الوقـوع علىٰ مـا لا تعرفه العوامّ، ومن حـبّ الصـحَّة الانقطـاع عـن الشـهوات، ومـن خـوف المعـاد الانصـراف عـن السيّئات، ومـن طلـب الفضـول الوقـوع في البلايـا، ومن لم يجد للإساءة إليه مضضاً لم يجد للإحسان عنده موقعاً.

قطيعـة الجاهـل تعـدل صـلة العاقـل، الحسـود لا يسـود، منـازع الحـقّ مخصـوم، أولىٰ النـاس بالفضـل أعـودهم بفضـله، أعـون الأشـياء علىٰ تذكيـة العقـل الـتعلّم، وأدلُّ الأشـياء علىٰ عقـل العاقـل حسـن التـدبير، المستشـير متحصّـن عـن السـقط، المستبدّ في الـرأي متهـوّر الغلـط، مـن ألبسـه الحيـاء ثوبـه غطّـىٰ عـن النـاس عيبـه، أحسـن الآداب أن لا يفخـر المـرء بأدبـه، ولا يظهر القدرة علىٰ من لا قدرة له عليه، ولا يتوانىٰ في العلم إذا طلبه.

ثلاثـة ضروب مـن النـاس لا يستوحشـون في غربـة ولا يقصـر بهـم عن مكرمة: الشـجاع حيثما توجَّـه فـإنَّ بالنـاس حاجـة إلىٰ شـجاعته وبأسـه، والعـالم فـإنَّ بالنـاس حاجـة إلىٰ علمـه، والحلـو اللسـان الظـاهر البيـان فـإنَّ الكلمة تحوز له بحلاوة لسـانه ولـين كلامـه، فـإن لم تعطـوا في القسـمة رباطـة الجأش وجرأة الصدر فـلا يفـوتنَّكم العلـم وقـراءة الكتـب، فإنَّـه أدب وعلـم قد قيَّده لكم من مضىٰ من قبلكم لتزدادوا به عقلاً.

اجعل الحلم عدَّة للسفيه.

تمّ الكتاب والحمد لله وحده، (هذا آخر المختصر).

ثـمّ ذكـر بعـده خـبر الكتـاب وقـد تقـدَّم، ثـمّ قـال أحمـد بـن محمّـد مسكويه:

فهذا آخر كتاب أوشيهنج وخبره مع ذوبان، وقد سمعت شغف المأمون به وستسمع ممَّا أضفناه إليه ما لا تخفىٰ زيادة حسنة عليه من قرائح الحكماء ونتائج أفكارهم واتّفاقهم مع تباعد أقطارهم فأقول:

كلّ إنسان يحبّ نفسه، وكلّ من أحبَّ شيئاً أحبَّ أن يُحسِن إليه، فليت شعري عمَّن لا يعرف نفسه كيف يُحسِن إليها، ومن لا يعرف طريق الإحسان كيف يسلكه، ولقد سمعت وزيراً من وزراء عصرنا وقد أقام لنفسه وظيفة ليستفره فيها طبّاخه وصاحب شرابه، وزيَّن مجلسه كلّ يوم بريحان الوقت وفاكهته، وأحضر اليوم الذي دعاني فيه من أغانيه ما كان يعجبه ويطرب له، فقال في عرض كلامه: إن عشت فسأحسن إلىٰ نفسي، فتدبَّرت كلامه وفعاله وإذا هو لا يدري كيف يُحسِن إلىٰ نفسه ولا يُفرِّق بين الإحسان إلىٰ بدنه بركوب الشهوات، وبين الإحسان إلىٰ نفسه بمعرفة الحقائق والتقرّب إلىٰ الله ﷻ بأنواع القربات.

فكان من عاقبة أمره أن حسده نظراؤه فأزالوه عن موضعه ونكبوه في نعمته، وأشمتوا به أعداءه، ثمّ وقع في أمراض لم يجنها عليها إلَّا انهماكه في مطعمه ومشربه، وتمكّنه من نيل لذّاته.

ثمّ أقول أيضاً: لو كانت معرفة النفس أمراً سهلاً ما تعبت بها الحكماء، ولا تبرَّمت بها الجهّال، ولما أُنزل في الوحي القديم: (يا إنسان اعرف ذاتك)، وقد قال الله عزَّ من قائل في محكم كتابه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ...﴾ الآية (الفجر: ٢٧ و٢٨)، وروينا في الخبر الصحيح أنَّ «من عرف نفسه عرف ربَّه»، وفي حديث

آخر: «من عرف ربَّه لم يشقَ»، وقال المسيح عليه السلام: (بماذا نفع امرؤ نفسه باعها بجميع ما في الدنيا ثمّ ترك ما باعها ميراثاً لغيره وأهلك نفسه، ولكن طوبىٰ لامرئ خلص نفسه واختارها علىٰ الدنيا).

وفي الوحي القديم: من لم يعرف نفسه ما دامت في جسده فلا سبيل له إلىٰ معرفتها بعد مفارقتها جسده، ومن لم يتفكَّر في كلّ شيء خفي عليه كلّ شيء.

ومن لم يعرف معدن الشرّ لم يقدر علىٰ النجاة منه، نظر النفس للنفس هو العناية بالنفس، ردع النفس للنفس هو العلاج للنفس، عشق النفس للنفس هو الممرّض للنفس، النفس العزيزة هي التي لا تؤثّر فيها النكبات، النفس الكريمة هي التي لا تثقل عليها المؤنات.

حكم للفرس:

قال أذرياذ لابنه يعظه: يا بني اقتصد في القِرىٰ تكن مضيافاً، وتمسَّك بالقناعة تكن رخيّ البال، واستشعر الرضا تكن وادعاً، واجتهد في الطلب تكن واجداً، وتجنَّب الذنوب تكن آمناً، والزم القصد تكن أميناً، وحالف الأدب تكن عالماً، وثابر علىٰ الشكر تكن مستوجباً، والزم التواضع تكن كثير الإخوان، وكن لروحك مصافياً برّاً طاهراً.

لا تدعنَّ من أجل اكتساب المال ما هو أفضل من المال، لا تتركنَّ من أجل حظوظ الدنيا الفانية طلب الفوز بحظوظ الآخرة الباقية، وليكن العلم أحظىٰ الأشياء وأكرمها عليك، أنعم الوعي عن العلماء وأحسن الطاعة لأهل القدرة، عاشر الأصدقاء بما لا تحتاج معه إلىٰ حاكم، درِّب نفسك علىٰ التواضع للناس فلن يضع ذلك منك بل يرفعك ويزيد في مقدارك.

لا تستعمل اليقين في الأُمور التي يعرض فيها الشكّ، ليكن ذكر المعاد وخوف العقاب منك علىٰ بال، لا تثقنَّ بالشفعاء، لا تستعمل الثقة بالنساء ولا تفش إليهنَّ سرَّاً، لا تهتمّ بما لم يحدث ولا تذكرنَّ ما مضىٰ لك من قول وعمل، واستشعر الرضا والتسليم لما قد حدث، لا تُغرِّمنَّ بافتتاح المنطق في المجالس قبل كلّ أحد، لا تداين الرجل القويّ فيلحقك التعب عند محاولتك استرجاع ذلك منه، لا تنازع الأكفّاء في المتّكأ ولا في المراتب، لا تطلعنَّ الحسود علىٰ جدبك، لا تخاطرنَّ أحداً، لا تثقنَّ بشيء في عالم الكون والفساد أصلاً، لا تطاعم الشره الوقح، لا تعاشر الرجل السكّير السيّئ الخلق، لا تنازع الأديب المفوَّه، لا تماش الأثيم، استعمل الرجل العفيف بوَّاباً والحرّ الذكي رسولاً والحرّ الكريم صديقاً لئلَّا يخذلك ولا يخونك، لا تستعمل الغشّ والتمويه في شيء من أُمورك.

تنكَّب البطر والاستكانة فإنَّ العالم الأديب لا تسكره النعمة ولا تكرثه النكبة، إذا رأيتم الأمر المنكر الغريب فلا يتداخلنَّكم الارتياب بربّكم، ولا تندموا علىٰ ما قدَّمتم من الخير والبرّ، لا تأسفنَّ علىٰ ما فاتك من الثراء فإنَّه المال شبيه بطائر ينتقل من نشز إلىٰ نشز فهو عند إقباله سريع الإقبال وعند إدباره حثيث الانتقال، لا تؤانسنَّ المعجب الكفور الذي يعيب الناس فإنَّك منه بعرض غرم مجحف بها لا تعدم علىٰ بابك شفيعاً ممَّن يثقل عليك ردّه وتصعب مخالفته فيما يسألك.

حكم تؤثر عن أنوشروان:

تجنَّب الحلف في حال الصدق فأمَّا الخلاف فاجتنبه، وإن كنت حاذقاً بالرقىٰ فلا تبادر إلىٰ تناول الحيّات، تعهَّد مالك بالتشمير وشدَّة التفقّد وإنعام المحاسبة لئلَّا يلحقك المثل السائر: (متىٰ حضر المال عزب العقل، ومتىٰ حضر العقل عزب المال)، كلّ شيء أنفقته في

شهوتك وأصبته منها فاعلم أنَّك لم تصبه وإنَّما أصابك وهلك به بعضك، فالعاقل من ترك الهوىٰ ليكون كتارك أكلة ليصل إلىٰ أكلات، وكمجتنب فاحشة ظاهرة لتخفىٰ له فواحش باطنة.

وقال: من عُدِمَ العقل فلن يزيده السلطان عزّاً، ومن عُدِمَ القناعة فلن يزيده المال غنىً، ومن عُدِمَ الإيمان فلن تزيده الرواية فقهاً، وإنَّما الإنسان عقل في صورة فمن أخطأه العقل ولزمته الصورة لم يكن إنساناً تامَّاً ولم يكن إلَّا كتمثال لا روح فيه.

سُئِلَ: ما أغنىٰ الغنىٰ؟ قال: نزاهة النفس، وملك الهوىٰ.

سُئِلَ: أيُّ هيبة تكون أنفع للسلطان في سلطانه وأعمُّ نفعاً في رعيَّته؟ قال: هيبة العدل والنزاهة، وحسم بوائق الأشرار وأهل الريب.

سُئِلَ: ما السرور الذي يجب أن يغتبط به الملك؟ قال: السرور للملك وغير الملك ما كان معه رجاء لحسن معاده، فأمَّا ما سوىٰ ذلك فهو مطرح عند ذوي الألباب.

وقيل له: ما القناعة؟ وما التواضع؟ قال: أمَّا القناعة فالرضا بالقسم وسخاء النفس عمَّا لا ينبغي الرغبة فيه، وأمَّا التواضع فاحتمال الأذىٰ عن كلّ أحد ولين الجانب لمن هو دونك.

قيل: وما ثمرة القناعة؟ وما ثمرة التواضع؟ قال: ثمرة التواضع المحبَّة، وثمرة القناعة الراحة.

سُئِلَ: ما العجب؟ وما الرياء؟ قال: العجب أن يظنَّ المرء بنفسه ما ليس عنده حتَّىٰ يرىٰ رأيه صواباً ورأي غيره خطأً، والرياء أن يتصنَّع للناس ويظهر لهم الصلاح وهو خلو منه.

قيل: فأيّهما أشدُّ ضرراً؟ قال: أمَّا علىٰ نفسه فالعجب، وأمَّا علىٰ

خلطائه فالرياء، لطمأنينتهم إليه في مهمّاتهم بما يظهر لهم من نفسه، وليس تؤمن منه الخيانة.

قيل له: ما بذر جميع الفضائل؟ قال: العقل والعلم.

قيل: فهل فوق العقل والعلم شيء؟ قال: التوفيق يزيّنهما والخذلان يشينهما.

قيل: ما الصبر المحمود؟ قال: علىٰ كلّ أمر كريم وزمّ الهوىٰ عن كلّ أمر لئيم.

قيل: ثمّ ماذا؟ قال: القوَّة علىٰ الهوىٰ عند إشراف الطمع، والقهر للغضب في حال غليان الغيظ.

قيل: ثمّ ماذا؟ قال: احتمال كلّ كريهة في ما حيز به الفضل.

والصبر له أربعة مواطن: ثبات وكفّ واحتمال وإقدام، فالثبات علىٰ الكرائم، والكفّ عن المحارم والمآثم، والاحتمال للوازم فيما يوجب الفضل ويظهر المروءة، والإقدام علىٰ الجلائل التي فيها النجاة والفوز.

وقال: الصبر من الشكر، والشكر من الفضيلة، وهما نوعان: صبر علىٰ طاعة الله، وصبر عن معصية الله، فالصبر علىٰ طاعة الله أداء الفرائض، والصبر عن معصية الله اجتناب المحارم.

قيل: ما محض الكرم؟ قال: الوفاء بالذمم.

قيل: ما محض اللؤم؟ قال: التجنّي بمنزلة الذئب الذي همَّ بأكل السخلة لعامها، فقال لها: أنت شتمتني عاماً أوَّل.

قيل: فما الأدب النافع؟ قال: أن تتَّعظ بغيرك، ولا يتَّعظ غيرك بك.

قيل: ما توفير العقل؟ قال: أن تطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر.

قيل: ما بالكم مطرحون من المدح ما لم يكن مطرحاً عند غيرك

من الملـوك؟ قـال: لكثـرة مـا رأينـا مـن الممـدوحين الـذين كـانوا بالـذمّ أولىٰ منهم بالمدح.

قيل: أيُّ الأشياء أمـرُّ مـرارة؟ قـال: الحاجـة إلىٰ النـاس إذا طُلِبَـت مـن غير أهلها.

قيل: أيُّ الأشياء أخلف؟ قال: مشورة الجاهل.

قيـل: أيُّ التفريطـات التـي تبتلـون بهـا أشـدُّ علـيكم؟ قـال: أن نقـدر علىٰ خير نعمله فنؤخّره وربَّما كانت ساعة فلا تعود.

قيل: فأيُّ الحالات أنـتم فيهـا أخـوف لعـدوّكم؟ قـال: أشـدُّ مـا نكـون ثقةً فيه بأنفسنا، وأقلُّ ما نكون فيه ثقةً بربّنا، واتّكالاً علىٰ ملكنا وجدّنا.

قيل له: سـمعناكم تقولـون: ثلاثـة أشـياء لم نرَهـا كاملـة في أحـد قـطّ، فما هي؟ قال: اليقين، والعقل، والمعرفة.

قيـل: سـمعناكم تقولـون: أربعـة أشـياء لـيس ينبغـي للعاقـل أن ينساهنَّ علىٰ حـال، فأحببنـا أن نعلـم مـا هـي؟ قـال: نعـم سـأفتوكم بهـا فـلا تغفلوهـا: فنـاء الـدنيا، والاعتبـار بهـا، والـتحفّظ بتصـرّف أحوالهـا، والآفات التي لا أمان منها.

قيـل: سـمعناكم تقولـون: مـن اسـتطاع أن يمنـع نفسـه مـن أربعـة أشياء فهـو خليـق أن لا ينـزل بـه مكـروه يكـون هـو الجـاني فيـه علـىٰ نفسـه، فأردنـا أن نعلـم مـا تلـك الأشـياء؟ قـال: العجلـة والعجـب واللجاجـة والتواني، فثمرة العجلـة الندامـة، وثمـرة العجـب البِغضـة، وثمـرة اللجاجـة الحيرة والهلكة، وثمرة التواني الفاقة والضرّ.

سُئِلَ: هل يقدر الإنسان علىٰ عمل البِرّ في كلّ حين؟ قال: نعم لأنَّه لا بِـرَّ أبلغ من الإخلاص في الشكر لله جلَّ ثناؤه، وتطهير النيَّة من الفساد.

قيل: هل يقدر أحد أن يعمَّ الناس بخيره ومعروفه؟ قال: أمَّا بكثرة ماله فلا، ولكن إذا أحبَّ لهم الخير بنيَّته وقلبه فقد عمَّهم بخيره.

سُئِلَ: كيف للمرء أن يعيش آمناً؟ قال: أن يكون للذنوب خائفاً ولا يحزن من المقدور الذي لا بدَّ أن يصيبه.

سُئِلَ: ما الرأي الجيّد في أمر المعاش؟ قال: من كان يريد عيش السرور فالقناعة، ومن كان يريد عيش الذكر فالاجتهاد في الصلاح وعموم الناس بالخير، ومن أراد سعة الدنيا وفضولها فليوطن نفسه علىٰ الإثم والغمّ والنصب.

قيل: فأيُّ الاجتهاد أعون علىٰ اكتساب محمود الذكر، وأيُّهُ أعون علىٰ إصلاح المعيشة، وأيُّهُ أعون علىٰ الأمن؟ قال: أعونه علىٰ الذكر المحمود الانصاف من النفس، ثمّ اجتناب الظلم، وأعونه علىٰ الأمن ترك الذنوب، وأعونه علىٰ إصلاح المعيشة الاجتهاد في الحقّ ورفض الشره والحرص.

قيل: أيُّ الرجال العاقل؟ وأيّهم الكيّس؟ وأيّهم الداهي؟ قال: العاقل هو البصير بما يحتاج إليه في أمر معاده، المنفذ لبصيرته بعزيمته، والكيّس هو العالم بما لا غنىٰ عنه في أمر دنياه، والداهي ذو الفطنة في التلطّف لما يحتاج إليه من أبواب المداراة فيما بينه وبين جميع الناس.

قيل: أيُّ الدعة أهنأ؟ قال: ما كان منها بعد إحكام المهمّات.

قيل: أيُّ الناس أكمل سروراً؟ قال: أمَّا في الدنيا فمن لم يكن به حاجة إلىٰ غيره فيما يعنيه، ولم تملك رقبته من غير ملك، وأمَّا في الآخرة فأوفرهم حسنات.

قيل: أيُّ الناس أسكن؟ قال: من لم يكن به إلىٰ هلاك أحد، ولا بأحد إلىٰ هلاكه استعجال.

سُئِلَ: أيُّ علم الوالي أنفع له؟ قال: أن يعلم أنَّه لا قدرة له علىٰ سدّ أفواه الناس عن عيوبه ومساويه، فعند ذلك لا يلتمس إسكاتهم بالوعيد والغلظة، ولا يلتمس رضاهم وانتقالهم عن ذكر مساويه وعيوبه إلَّا بإصلاح تلك العيوب من نفسه.

سُئِلَ: ما ثمرة العقل؟ قال: ثماره الشريفة الكريمة كثيرة؛ ولكن أُحصي لكم ما يحضرني منها.

فمن ذلك: أن لا يضيع التحفّظ والاحتراس من المعاصي، ومنها: أن لا يسكن من الدنيا إلىٰ حال ولا يطمعها في التفريط من الاستعداد، ومنها: أن لا يكون لشيء من الشرّ مقتنياً، ومنها: أن لا يترك ألطافه لمبغضه، ومنها: أن لا يقتدي بالجهّال ولو في منفعة جسيمة من منافع الدنيا؛ فأمَّا منفعة الآخرة فلا حظَّ للجاهل فيها، ومنها: أن لا تبلغ السرّاء به بطراً ولا الضرّاء استكانةً. ومنها: أن يسير بينه وبين عدوّه السيرة التي لا يخاف معها حكم الحاكم، وفيما بينه وبين صديقه بالسيرة التي لا يحتاج معها إلىٰ العتاب، ومنها: أن لا يستصغر أحداً عن التواضع له، ولا ينقص أهل الفقر عن أهل الغنىٰ إلَّا أن يكون الغني عالماً والفقير جاهلاً، ومنها: أن لا يكون مبتدءاً بالأذىٰ ولا مكافياً به، وإن انتصر لم يجاوز في الانتصار حدّ العقل والحقّ، ومنها: أن يكون الهوىٰ عنده في جنب العقل لغواً، ومنها: أن لا يفرح بمدح المادح بما يعلم أنَّه خلو منه، ومنها: أن لا يحقد علىٰ من عابه بما يعرفه من نفسه، ومنها: أن لا يقدم علىٰ أمر يخاف أن يعقبه ندامة.

سُئِلَ: ما الذي يجب علىٰ الملوك للرعيّة، وما الذي يجب للرعيّة علىٰ الملوك؟ قال: للرعيّة علىٰ الملوك أن ينصفوهم وينتصفوا لهم،

ويؤمنوا سربهم، ويحرسوا ثغورهم، وعلىٰ الرعيّة للملوك النصيحة والشكر.

سُئِلَ: ما السرور؟ وما اللذَّة؟ قال: السرور ما كان معه رجاء الآخرة، وما سوىٰ ذلك من السرور لهو وزوال وهو إلىٰ الاضمحلال.

سُئِلَ: ما الذي يرد اشتعال الغضب؟ قال: ذكر غضب الربّ ﷻ عند عصيان المربوب، وتعاطيه الفواحش وحلمه عنه.

قيل: ما أربع خلال قلتم: ليس ينبغي أن يرتاب بهنَّ؟ قال: طاعة الله تعالىٰ، وإيثار الآخرة علىٰ الدنيا، وطاعة الملك فيما يوافق الحقّ، وأن لا يشكّ في ثواب المحسن، ويفوّض أمر المسيء إلىٰ خالقه.

قيل: سمعناكم تقولون: هلاك الملوك في الدنيا والآخرة في خصلة لا ترتفع معها حسنة، فيجب أن نعرف هذه الخصلة حقّ معرفتها؟ قال: استصغار أهل العلم والفضل.

قيل: سمعناكم تقولون: من كره العار فليجتنب خمس خصال، فما هي؟ قال: الحرص، والشحّ، واحتقار الناس، واتّباع الهوىٰ، والمطل بالعدة.

قيل: أيُّ العيش أنعم وأرغد؟ قال: عيش في رخاء، وكفاف لا فقر ولا غنىٰ.

سُئِلَ: كيف للمرء أن يعيش آمناً؟ قال: يصبح مطيعاً لله ويمسي مجتهداً في طاعته راغباً في عبادته.

وكان يقول: البخل أحسن من المطل؛ لأنَّ اليأس يقطع الأمل والطمع، والمطل يكدّر العطاء وإن جلَّت منفعته.

سُئِلَ: ما الذي يحتاج إليه صاحب الدنيا؟ قال: السعة من غير تبعة، والسرور من غير مأثم، والدعة من غير توان ولا تضييع.

وقال: موت الأبرار راحة لهم، وموت الأشرار راحة للعالم.

قيل: أيُّ الأشياء أحقُّ أن لا ينسىٰ؟ قال: أمَّا عند أهل العقل فاقترافهم الذنوب، وأمَّا عند أهل الجهل فالأوتار.

قيل: ما الذي يجمع للملوك الحمد، وما الذي يجمع لهم الحزم، وما الذي يجمع لهم الذمّ؟ قال: أمَّا الأُمور المحمودة ففي خصلة واحدة وهي: إذا همّوا بخير أمضوه، وأمَّا الحزم ففي خصلة واحدة وهي: الاستظهار في الأُمور، وأمَّا الأُمور المذمومة ففي خصلة واحدة وهي: إذا غضبوا أقدموا.

قيل: أيُّ مناقب المرء أزين له؟ قال: الحلم عند الغضب، والعفو عند القدرة، والجود لغير طلب الثواب، والاجتهاد للدار الباقية لا الفانية.

قيل: أيُّ الأشياء أحقُّ بالاتّقاء؟ قال: السلطان الغشوم، والعدوّ القويّ، والصديق المخادع.

قيل: أيُّ العيوب أعسر إصلاحاً؟ قال: العجب، واللجاجة.

قيل: أيُّ الأشياء أقلّ؟ قال: الواد الناصح.

لـمَّا استتم أنوشروان كتاب المسائل قال في آخره: قد كنت للعقل في الحداثة مؤثراً، وللعلم محبَّاً، وعن كلّ تعليم مفتّشاً، فرأيت العقل أكبر الأشياء وأجلّها، والخيم الصالح خير الأُمور، والحلم أزين الخصال، والمواساة أفضل الأعمال، والاقتصاد أحسن الأفعال، والتواضع أحمد الخصال.

كان بهمن الملك سأل خلطاءه أن يخبروه عن أعزّ الأشياء وأرفعها لخساسة الخسيس، فأجمعوا أنَّه الصلاح والعلم، وأنَّهما يزيدان في شرف الشريف، ويقعدان العبيد مقعد الملوك.

فقال الملك: هذا رأس أُمور الدين والدنيا إذا كان بمساعدة العقل، فإنَّ البناء بأُسّه لأنَّ الأساس الفهم، وقوامه الرأي الأصيل، ولا رأي إلَّا بمعرفة العلم، ولا أساس للعلم إلَّا بالعقل.

وقال بعضهم: من استصغر كبير ما يولي من المعروف وستره واستكثر قليل الشكر من المصطنع إليه، فقد استوجب الثناء وأحسن مجاورة النعم.

وقال: أحسن الكلمة الجامعة للمكارم من لم تبطره النعمة إذا أصابته، ولم يحسد عليها إذا أخطأته.

وقال: الملك من أخذ بمجامع المروَّة، واحتوىٰ علىٰ الشرف، فليترك الانتصار وهو قادر، وأبلغ من ذلك احتمال الكلمة الموجعة عن أهل القلَّة، والحلم عن أهل الذلَّة، والعفو عند القدرة.

وكان من سيرة قدماء الفرس أن يكتبوا في نواحي مجالسهم أربعة أسطر أوَّلها: عندنا الشدَّة من غير عنف، واللين في غير ضعف، والثاني: المحسن يجازىٰ بإحسانه والمسيء يكافىٰ بإساءته، والثالث: العطيات والأرزاق في حينها وأوقاتها، والرابع: لا حجاب عن صاحب ثغر وطارق ليل.

وفي عهد ملك الفرس لابنه: لا تحقرنَّ ذنباً ولا تطلبنَّ أثراً، ولا تمالئنَّ عدوَّاً ولا حسوداً، ولا تصدِّقنَّ نمَّاماً، ولا تغنينَّ لئيماً فيبطر، ولا تسلِّطنَّ دنيَّاً، ولا تفرِّطنَّ في طلب الأجر، ولا تعيننَّ غاوياً، ولا تركننَّ إلىٰ شبهة، ولا تردَّنَّ سائلاً، ولا ترضينَّ للناس إلَّا ما ترضاه لنفسك.

واعلم أنَّ للأعمال جزاء وللأُمور بغتات فكن علىٰ حذر، ولا يغرَّنَّك المرتقىٰ السهل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تعدنَّ وعداً ليس في يدك وفاؤه.

ولـمَّا جلس جمشيد علىٰ سرير ملكه، ووقف وفود الملوك حوله وأرادوا أن يمتحنوا عقله وسيرته، فقام الوزراء والعظماء فقالوا: أيّها الملك عشت الدهر وملكت الأقاليم، إن رأيت أن تمثّل لنا مثالاً نعمل عليه ونقتصر في إنفاذ الأُمور عليه.

فقال لكاتب رسائله: إنَّ كتابك لساني والمخبر عن غائب أمري، فاختصر الطريق إلىٰ الفطنة، وأحط بحدود الأُمور وابدأ بالأولىٰ فالأولىٰ.

وقال لصاحب خراجه: إنَّك عدل فيما بيني وبين رعيَّتي، فأجر الأُمور علىٰ واردها، ولا تقصّر عن إتقانها، ولا تكل إلىٰ غيرك ما يحيط به نظرك ويبلغه علمك.

وقال لصاحب جيشه: إنَّك الحصن من العدوّ، والمؤتمن علىٰ عدة الملك، فاستدع المناصحة بالرغبة، والطاعة بالرهبة، واحترس بالتيقّظ وعاجل مواضع الفرص.

وقال لصاحب حرسه: إنَّك جُنَّتي التي أجتنُّ فيها، وعيني التي أنظر بها، فلا تدع التحفّظ، ولا تكن أبداً إلَّا علىٰ أُهبَّة، ولا تستبطن مريّباً.

وقال لصاحب شرطته: إنَّك ظلّي في رعيَّتي، والقائم بسوط أدبي، فألبسهم الأمن بالبراءة وأشعرهم المخافة بالريبة، ولا تخف في إيثار الحقّ لومة لائم.

وقال لحاجبه: إنَّك عدل علىٰ مراتب خاصَّتي والحافظ لمكاناتهم منّي، فانظر إليهم بعيني، واجعلهم علىٰ قدر منازلهم عندي، وضعهم في كلّ حالاتهم في التلوّم والإبطاء عن بابي، ثمّ ازرع في قلوب الجميع محبَّتي.

ثمّ قال لخازنه: إنَّك أمين علىٰ ما به حياة الرعيّة، وبصلاحه صلاح الملك والأجناد، فاحفظ الوارد واستبطئ الغائب وعجّل الجاري اللازم ووامر في غير اللازم.

وقال لصاحب الختم: إنَّ التدبير إنَّما يصدر عنك، والأمر إنَّما ينفذ بك، فاقتصر بحدود كتبي علىٰ مواقع أمري، ولا تنفذ منها شيئاً إلَّا عن علمي.

وقال لصاحب ديوان النفقات: إنَّك والي خاصّة كلّ ما يعنيني، والقائم بما يعود نفعه وضرّه عليَّ، فاحتط علىٰ أحكام ما تدعو إليه الحاجة في النفقة واحذف نوازع ما تتوقَّ إليه الشهوة.

وقال لصاحب الزمام: أنت مستودع سري وذو أزمة أمري وبمكان من رأيي فأمت بالكتمان سرّي، وتحمَّل ثقل مخالفتي ولا تأخذك بأحد رأفة في حظّي.

وقال حكيم الفرس أذرياذ: أُمور الدنيا مقسومة علىٰ خمسة وعشرين سهماً: خمسة منها بالقضاء والقدر، وخمسة منها بالاجتهاد والعمل، وخمسة منها بالعادة، وخمسة منها بالجوهر، وخمسة منها بالوراثة. فأمَّا الخمسة التي بالقضاء والقدر: فالأهل والولد والمال والسلطان والعمر. وأمَّا الخمسة التي بالاجتهاد: فالعلوم وأشرفها العلم بالله ﷻ وجوده، ثمّ العمارة، ثمّ الصناعات وأشرفها الكتابة، ثمّ الفروسية والفقه. وأمَّا الخمسة التي بالعادة: فالأكل والنوم والمشي والجماع والتغوّط. وأمَّا الخمسة التي بالجوهر: فالخيرية والتواصل والسخاء والثقة والاستقامة. وأمَّا الخمسة التي بالوراثة: فالذهن والحفظ والشجاعة والجمال والبهاء.

وقال أيضاً: التأنّي فيما لا يخاف عليه الفوت أفضل من العجلة إلىٰ إدراك الأمل.

قد قيل: لكلّ شيء داعية وسبب، فسبب طيب العيش مداراة الناس، وسبب مداراة الناس وفور العقل، وسبب المزيد الشكر، وسبب زوال النعمة البطر، وسبب العفَّة غضّ البصر، وسبب النشب الطلب، وسبب العطب الغضب، وسبب الزينة الأدب، وسبب الفجور الخلوة، وسبب البغضة الحدَّة، وسبب المقت الخلف، وسبب الهوان الطمع، وسبب المحبَّة الهدية، وسبب المودَّة والأُخوَّة البشاشة والبشر، وسبب القطيعة كثرة المعاتبة، وسبب الفقر السرف، وسبب الثروة حسن التدبير، وسبب البلاء المراء، وسبب الثناء السخاء، وسبب النجاة الصدق، وسبب النجاح الرفق، وسبب الحرمان الكسل، وسبب النبل بذل المرزأة، وسبب البغضة الصلف، وسبب الخير كلّه ما قيل ولم يقل العقل.

وقال: لا تستهن بالمال وتثميره، فإنَّ المال آلة للمكارم، وعون علىٰ الدهر، وقوَّة علىٰ الدين، ومتألّف للإخوان، وفقد المال معه قلَّة الاكتراث من الناس ويتبعه قلَّة الرغبة إليه والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استخفَّ له الناس.

وصيّة أُخرىٰ: كن صدوقاً لتؤمن علىٰ ما تقول، وكن ذا عهد ليوفّىٰ بعهدك، وكن شكوراً لتستوجب الزيادة، وكن جواداً لتكون للخير أهلاً، وكن رحيماً بالمضرورين لئلَّا تبتلىٰ بالضرّ، وكن ودوداً لئلَّا تكون معدناً لأخلاق الشياطين، وكن مقبلاً علىٰ شأنك لئلَّا تؤخذ بما لم تجترم، وكن متواضعاً ليفرح لك بالخير، وكن قانعاً لتقرّ عينك بما أُوتيت، وسنّ

للناس الخير لئلَّا يؤذيك الحسد، أحسن تقدير معاشك ومعدك تقديراً لا يفسد عليك أحدهما الآخر، فإن أعياك ذلك فارفض الأدنىٰ وآثر الأعظم.

أفضل البرّ ثلاث خصال: الصدق في الغضب، والجود في العسرة، والعفو في القدرة.

وقّر من فوقك، ولِنْ لمن دونك، وأحسن مواتاة أكفّاءك.

خمسة مفرّطون في خمسة أشياء وكلّهم متندّمون أبداً: الواهن المفرّط إذا فاته العمل، والمنقطع من إخوانه وأصدقائه إذا نابتهم النوائب، والمستمكن منه عدوّه لسوء رأيه إذا ذكره حقده، والمفارق الزوجة الصالحة إذا ابتلي بالطالحة، والجريء علىٰ الذنوب إذا حضر الموت.

أُمور لا تصلح إلَّا بقرائنها: لا ينفع العقل بغير ورع، ولا شدَّة البطش بغير شدَّة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا الحسب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن، ولا غنىٰ بغير جود، ولا العلم بغير عمل، ولا المروءة بغير تواضع، ولا الخفض بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق.

أُمور تبعٌ لأُمور: فالمروءات كلّها تبع للعقل، والرأي تبع للتجربة، والغبطة تبع لحسن الثناء، والقرابة تبع للمودَّة، والعمل تبع للقدر، والإنفاق للجدة.

لا تفرح بالبطالة وإن كان فيها راحة، لا تجبن من العمل وإن كان فيه تعب، لا يوجد الفخور محموداً، ولا الغضوب مسروراً، ولا الحرّ حريصاً، ولا الكريم حسوداً، ولا الشره غنيَّاً، ولا الملول ذا إخوان.

الكريم يمنح أخاه مودَّته عن لقاة واحدة، أو معرفة يوم، واللئيم لا يواصل أحداً إلَّا عن رغبة أو رهبة.

خمسة أشياء لا بقاء لها ولا ثبات: ظلّ الغمام، وخلَّة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والمال الكثير.

ليس يفرح العاقل بالمال الكثير ولا يحزن لقلَّته، ولكن ماله عقله، وما قدَّم من صالح عمله.

ربَّما كان الفقر نوعاً من آداب الله تعالىٰ وخيرة في العواقب، والحظوظ لها أوقات، فلا تعجل علىٰ ثمرة لم تُدرَك، فإنَّك تنالها في أوانها عذبة، والمدبّر لك أعلم بالوقت التي تصلح فيه لما تؤمل فتثق بخبرته في أُمورك، ولا تجعل حوائجك طول عمرك في يومك الذي أنت فيه، فيضيق عليك قلبك، ويثقلك القنوط.

حكم للهند:

اثنان من الناس ينبغي أن يتباعد منهما: أحدهما الذي يقول: لا ثواب ولا عقاب ولا معاد ولا برّ ولا إثم، والآخر: الذي لا يملك شهوته ولا يستطيع أن يصرف قلبه وبصره عن شهوة ما ليس له فيرتكب الإثم ويقوده الحرص إلىٰ الخزي والندامة في الدنيا مع المصير إلىٰ الجحيم والعذاب الأليم في الآخرة.

ثلاثة لا يلبث ودّهم أن يتصرَّم: الصديق الذي لا يقوم نحو صديقه عند النوائب ويطيل غيبته عنه، ويتوانىٰ عن زيارته ولا يكاد يصير إليه إلَّا علىٰ كره، فإذا صار إليه ما رآه في كلّ ما نطق به، والمداخل لأصدقائه في النعم والفرح حتَّىٰ إذا نابتهم نائبة قطعهم، والرجل يريدك لأمر حتَّىٰ إذا وصل إليه استغنىٰ عنك فزال ودّه بزواله.

أربعة لا ينبغي لهم أن يحزنوا: العاقل الذي يرميه الجاهل بما يكره ولا حقيقة له، والرجل الرغيب النطق إذا كان غنيًّاً كثير المال، والرجل المقتصد الذي لا عيال له، والعالم الذي لا يحتاج إلىٰ السعي في الازدياد.

أربعة لا ينبغي أن يمازحوا ولا يضاحكوا: الرجل العظيم الشأن الجبّار، والعالم الناسك، والدنيء الطبع اللئيم، والحزين الثاكل.

أربعة يفسدون أعمالهم وحكمتهم: عامل الحسنات الذي ينشرها للناس فيقول: فعلت وفعلت كأنَّه يمنن بها، وواضع المعروف عند السفل المصطنع من لا يستأهل الصنيعة، والمكرم للعبد المتواني الفظّ الذي لا رحمة له، والأُمّ التي تصنع الخير بولد السوء.

سبعة لا ينامون: الذي يهمّ بدم يسفكه، وذو المال الكثير الحريص الخائف عليه، والمديون الفقير، والمأخوذ بما لا يقدر عليه، والمريض المدنف الذي لا طبيب له، وصاحب الزوجة الفاسدة، والجار السوء الحاسد لجاره، والمفارق الإلف الذي كان أحبُّ الخلق إليه.

ستَّة لا تخطئهم الكآبة: فقير قريب عهد بالغنىٰ، ومكثر يخاف علىٰ ماله، وطالب مرتبة فوق قدره، وحسود علىٰ رزق غيره، وحقود علىٰ من لا ينتصر منه.

أربعة أشياء تعين علىٰ العمل: الصحَّة والغنىٰ والعلم والتوفيق.

وقال آخر: أحقُّ الناس أن يَحذر: العدوّ الفاجر، والصديق الغادر، والسلطان الجائر.

حكم العرب:

يروىٰ عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «لئن أكون في شدَّة أتوقَّع رخاء أحبُّ إليَّ من أن أكون في رخاء أتوقَّع شدَّة».

وقال ﷺ: «من قال: قبَّح الله الدنيا، قالت الدنيا: قبَّح الله أعصانا لربه».

وقال ﷺ: «بشِّر مال البخيل بحادث أو وارث».

وقال ﷺ: «صلة الرحم منماة للولد مثراة للحال».

وقال ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة».

وقال لعبد الله بن عبّاس: «احفظ الله يحفظك، تعرَّف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، وإن استطعت أن تعمل لله بالصدق في اليقين فافعل، وإن لم تستطع ذلك فإنَّ في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج بعد الكرب».

وقال ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأمَّا المنجيات: فخشية الله في السرّ والعلانية، والاقتصاد في الفقر والغنىٰ، والحكم بالعدل في الرضا والغضب، والمهلكات: شحّ مطاع، وهوىٰ متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وقال ﷺ: «أيّها الناس، لا تخالفوا علىٰ الله أمره فإنَّ من الخلاف أن تسعوا في عمران ما قضىٰ الله فيه بالخراب».

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «نعمة الجاهل كروضة علىٰ مزبلة».

وقال عليه السلام: «قيام الدنيا بأربع تبقىٰ ما بقيت: عالم يستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلَّم، وغنيّ يجود بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. فإذا ضيَّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يأخذ من علمه، وإذا بخل الغنيّ بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه، فإذا فعلوا ذلك تعسوا وانتكسوا، فهناك الويل لهم ثمّ العويل عليهم».

وقال عليه السلام: «احذروا الدنيا فإنّها عدوّة أولياء الله وعدوّة أعدائه، أمّا أولياؤه فغمّتهم، وأمّا أعداؤه فغرّتهم».

وقال: «كلّ شيء يُعَزُّ حيث ينزر، والعلم يُعَزُّ حيث يغزر».

وقال: «أُطلب الرزق من حيث كُفِلَ لك به فإنَّ المتكفّل لا يبخس به، ولا تطلبه من طالب مثلك لا ضمان لك عليه، إن وعدك أخلف وإن ضمن لك خاس بك».

وروىٰ الحسن بن علي، عن أبيه، عن رسول الله صلّىٰ الله عليهم أجمعين، قال: «يقول الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم إذا عملت بما افترضت عليك فأنت من أعبد الناس، وإذا اجتنبت ما نهيتك عنه فأنت أورع الناس، وإذا قنعت بما رزقتك فأنت من أغنىٰ الناس».

وسُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام عن النعيم، فقال: «من أكل خبز البر، وشرب ماءً فراتاً، وآوىٰ إلىٰ ظلّ فهو في نعيم».

وقال: «في الوحي القديم: مسكين عبدي يسمّره ما يضرّه».

ووصّىٰ حكيم ابنه فقال: إذا أردت أن تواخي إنساناً فاغضبه قبل ذلك ثمّ عامله، فإن أنصفك وإلّا فاحذره.

وسُئِلَ بعضهم عن المروءة، فقال: إفاضة المعروف إمّا بلسانك أو بمالك أو بجاهك.

وقيل: أصاب متأمّل أو كاد، وأخطأ مستعجل أو كاد.

وقيل لبعضهم: لِمَ تجمع المال وأنت حكيم؟ قال: لأصون به العرض، وأُؤدّي منه الفرض، واستغني به عن القرض.

وقال حكيم: لو رأيتم مسير الأجل لأعرضتم عن غرور الأمل.

وسبَّ رجل حكيماً فأعرض عنه، فقال: لك أقول، فقال: وعنك أعرض.

كلَّم رجل بعض السلاطين بغليظ الكلام، فقال: لقد أقدمت عليَّ بكلامك، فقال: لأنّي كلَّمتك بعزّ اليأس لا بذلّ الطمع.

وقيل لحكيم: هل تعرف أجلّ من الذهب؟ قال: نعم، المستغني عنه.

إنَّ الماضي قبلك أنت المأجور فيه، وإنَّ الباقي بعدك هو المأجور فيك.

وقال آخر: أفضل الناس من تواضع عن رفعة، وتزهَّد عن ثروة، وأنصف عن قوَّة.

سُئِلَ عن قول النبيّ ﷺ: «إذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت»؟ فقال: قوتها معرفة الله ﷻ.

وقال آخر: لو أنَّ الدنيا مملوءة حيّات وعقارب وسباعاً وأفاعي ما خفتها، ولو بقي في من البشر واحد لخفته؛ لأنَّ البشر شرّ منها.

وقال آخر: إلهي إن قصدتك أتعبتني، وإن هربت منك طلبتني، ليس معك راحة ولا في سواك أُنس، فالمستغاث بك ومنك.

وهذا يشبه قول الآخر: يا عجباً كلّ العجب أشكو إليه منه، وأهرب منه إليه، وأستعين به عليه، وأتوب منه إليه، وأطيعه به، فكلّه هو.

وقال: في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف: ٢٤)، فقال: أوجده الهمَّة ليذوق طعم العصمة.

ونظر بعض الملوك إلىٰ ملكه فأعجبه، فقال: إنَّه للملك لو لا أنَّ بعده هلك.

روي أنَّ بعض الأنبياء أتاه مَلَك فقال: قد جئتك بالعقل والدين والعلم فاختر أيّها شئت، فاختار العقل، فقال المَلَك للدين والعلم: ارتفعا، فقالا: أُمرنا أن لا نفارق العقل.

وقال محمّد بن الحنفية رضي الله عنه في قوله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ (المعارج: ٥)، قال: صبراً لا تشوبه الشكوىٰ إلىٰ الناس.

قال عبد الله بن أبي صالح: دخل عليَّ طاووس وأنا مريض، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن أُدْعُ لي، فقال: أُدْعُ لنفسك فإنَّه يجيب المضطرّ إذا دعاه.

وكان مكتوب في محراب غمدان بالمسند في صدره: سلِّط السكوت علىٰ لسانك إن كانت العافية من شأنك.

وقيل لعيسىٰ عليه السلام: دلّنا علىٰ عمل صالح نستحقّ به الثواب، فقال: (لا تنطقوا أبداً). فقالوا: وكيف نستطيع ذلك؟ فقال: (فلا تنطقوا إلَّا بخير).

وقال حكيم: إنَّما حمد الناس السكوت لأنَّه وعاء الاختيار.

وقيل لوهيب بن مصقلة: إنَّك لتنشر الشكّ في الحديث، فقال: محامات علىٰ اليقين.

وقال المسيح عليه السلام: (أبغض العلماء إلىٰ الله تعالىٰ الذي يحبّ الذكر، وأن يوسَّع له في مجالس العظماء، ويُدعىٰ إلىٰ الطعام، وحقّاً أقول: لقد تعجَّلوا أُجورهم في الدنيا).

وقيل: أشدُّ الناس عند الموت ندامةً العلماء المفرّطون.

وقال سهل بن أسلم في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ (الضحىٰ: ١٠): ليس بسائل طعام ولكنَّه سائل العلم.

وقال أبو الدرداء يوماً لأهل دمشق: أوَما تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون.

وقيل لابن سيرين: كيف أصبحت؟ فقال: كيف يصبح من يرحل كلّ يوم إلىٰ الآخرة مرحلة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ازهد في الدنيا يحبّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس».

وصيّة لقمان لابنه:

أُغلب غضبك بحلمك، ونزقك بوقارك، وهواك بتقواك، وشكّك بيقينك، وباطلك بحقّك، وشحّك بمعروفك، كن في الشدَّة وقوراً، وفي المكاره صبوراً، وفي الرخاء شكوراً، وفي الصلاة متخشّعاً، وإلىٰ الصدقة متسرّعاً، لا تُهِنْ من أطاع الله، ولا تُكرِم من عصىٰ الله، ولا تدع ما ليس لك، ولا تجحد ما عليك، لا تعترض الباطل، ولا تستحي من الحقّ، ولا تقل ما لا تعلم، ولا تتكلَّف ما لا تطيق، ولا تتعظَّم ولا تختل، ولا تفحش، ولا تضجر، ولا تقطع الرحم، ولا تبلس الجار، ولا تشمت بالمصائب، ولا تذع السرّ، ولا تغتب، ولا تحسد، ولا تنبز، ولا تهمز، وإن أُسيء إليك فاغفر، وإن أُحسن إليك فاشكر، وإن ابتليت فاصبر، احفظ العبر واحذر الغير، انصح المؤمنين، وعد مرضاهم، واشهد جنائزهم، وأَعِنْ فقراءهم، تخلَّق بأخلاق الكرام، واجتنب أخلاق اللئام.

اعلم يا بني إنَّ المقام في الدنيا قليل، والركون إليها غرور، والغبطة فيها حلم، وكن سمحاً سهلاً حزيناً أميناً، وكلمة جامعة: اتَّق الله في جميع أحوالك، ولا تعصه في شيء من أُمورك.

قال خالد بن صفوان: رأيت رجلاً شتم عمرو بن عبيد فما أبقىٰ شيئاً، فلمَّا سكت قال له عمرو: آجرك الله علىٰ الصواب وغفر لك الخطأ.

وسُئِلَ الحسن عن قوله تعالىٰ جدّه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ (آل عمران: ٧٧)، ما الثمن القليل؟ قال: الدنيا بحذافيرها.

وحكي أنَّ بعض أهل البطالة مرَّ بالمسيح عليه السلام وقد توسَّد حجراً، فقال: يا عيسىٰ قد رضيت من الدنيا بهذا الحجر؟ فقذف به إليه وقال: (هذا لك مع الدنيا لا حاجة لي فيه).

وقال آخر: من ذا الذي بلغ جسيماً فلم يبطر، واتَّبع الهوىٰ فلم يعطب، وجاور النساء فلم يفتن، وطلب إلىٰ اللئام فلم يهن، وواصل الأشرار فلم يندم، وصحب السلطان فدامت سلامته؟

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أخيب الناس سعياً وأخسرهم صفقةً رجل أتعب بدنه في آماله وشغل بها عن معاده، فلم تساعده المقادر علىٰ إرادته، وخرج من الدنيا بحسرته، وقدم علىٰ آخرته بغير زاد».

وقال عليه السلام: «قبَّح الله الدنيا فإنَّها إذا أقبلت علىٰ إنسان أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه».

وقال المسيح عليه السلام لقوم غلوا فيه: (إنّي أصبحت لا أملك ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أجد، وأنا مرتهن بعملي، والخير كلّه بيد غيري، فأيُّ فقير أفقر منّي، وأيُّ عبد أحوج إلىٰ مولاه منّي؟).

أسمع رجل الأحنف فأكثر، فلـمَّا سكت قال الأحنف: يا هذا، ما ستر الله أكثر.

وقال الأحنف: العجلة في خمسة أشياء محمودة: في الكريمة إذا خطبها كفوء أن تَزِفَّها، وفي الميّت حتَّىٰ تُخْرِجَه، وفي عيادة المرضىٰ حتَّىٰ تخرج من عنده، وفي الصلاة إذا حضر وقتها حتَّىٰ تؤدّيها، وفي الضيف إذا نزل حتَّىٰ تدني إليه الطعام.

وقيل للحصين: ما السرور؟ قال: عقل يقيمك، وعلم يزينك، وولد يسرّك، ومال يسعك، وأمن يريحك، وعافية تجمع لك المسرّات.

سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يغتاب رجلاً عند ابنه الحسن عليه السلام فقال: «يا بنيّ، نزِّه سمعك عنه، فإنَّه نظر إلىٰ أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك».

وقال سفيان الثوري: إذا لم يكن لله في العبد حاجة، خلّىٰ بينه وبين الدنيا.

وقال بعض النسّاك: الوحدة رأس العبادة.

وقال ذو النون: من أنس بالوحدة كان الحقّ مؤنسه.

وقال آخر: من أنس بالوحدة فقد اعتقد الإخلاص.

وقال قيس بن عاصم: السؤدد هو بذل الندىٰ، وكفّ الأذىٰ، ونصرة المولىٰ.

تزوَّج أعرابي امرأة جميلة، وكان الأعرابي دميماً، فقالت له يوماً: إنّي أرجو أن أكون أنا وأنت من أهل الجنَّة، فقال: ومن أين حكمت لنا بها؟ قالت: لأنَّك أُعطيت مثلي فشكرت، وأُعطيت مثلك فصبرت.

وقيل: ليس من شريطة العقل أن يتعجَّل الإنسان غمّ ما لم يصبه، فيجعل ساعة السرور غمّاً، وساعة الراحة تعباً، فيضاعف بذلك علىٰ نفسه الغموم.

وسُئِلَ بعضهم: من الحكيم؟ فقال: من عرف معائب الدنيا، وذلك أنَّ من عرف معائبها لم يغترّ بها ولم يركن إليها.

وقال بعضهم وكان مرَّ بباب دار وأهلها يبكون ميّتاً، فقال: عجباً لقوم يبكون مسافراً قد بلغ منزله.

وقيل لزاهد: من الزاهد في الدنيا؟ قال: الذي لا يطلب المفقود حتَّىٰ يفقد الموجود.

أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه السلام: «بشِّر المذنبين، وأنذر الصدّيقين»، فكأنه عَجِبَ وقال: أُبشِّر المذنبين وأنذر الصديقين؟! فقال: «نعم، بشِّر المذنبين أنَّه لا يتعاظمني ذنب أغفره، وأنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم».

وقال آخر: أربعة أشياء لا ينبغي أن يستقلّ قليلها: الذنب الصغير، والدين اليسير، والعدوّ الحقير، والحرص القليل.

اعلم أنَّ رأيك لا يتَّسع لكلّ شيء ففرِّغه للمهمّ، وأنَّ مالك لا يغني الناس كلّهم فاخصص به أهل الحقّ، وأنَّ كرامتك لا تطبع العامّة فتوخَّ بها أهل الفضل، وأنَّ الليل والنهار لا يستوعبان حاجتك فبادر بأجداها عليك.

أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود: «طهِّر ثيابك الباطنة، فإنَّ الظاهرة لا تنفعك عندي، يا داود لو رأيت الجنَّة وما أعددت فيها لقلَّ نظرك إلىٰ الدنيا، وأفضل من الجنَّة أن أرفع حجبي عنّي وأقول: أين المشتاقون؟».

وقيل: إنَّ العجز عجزان: التقصير في طلب الأمر وقد أمكن، والجدّ في طلبه وقد فات.

وكان الأصمعي يقول: أحضر الناس جواباً من لم يغضب.

وقال جعفر الصادق عليه السلام: «إيّاك وسقطة الاسترسال فإنَّها لا تستقال».

وأجمعت الحكماء علىٰ أنَّ أوضع الناس من عمل علىٰ الرهبة، وأجمعت علىٰ أنَّ من عاتب ووبَّخ فقد استوفىٰ حقّه، وأجمعت علىٰ أنَّ خير الناس من نفع الناس، وأذلّ الناس من تاه علىٰ الناس.

وبلغ المنذر أنَّ شيخاً في بعض الأحياء أتت عليه مائة وعشرون سنة، في اعتدال من جسمه، ونضارة في لونه، وقوَّة في نفسه، مع نشاط وشهوة.

فبعث إليه وأحضره ثمّ سأله عن سيرته، فقال: ما احتملت همَّاً يبعد عليَّ مدافعته، ولا طاولت قرينةً أكرهها، ولا اجتمع في جوفي طعامان، وإذا أردت شرب شراب شربته رقيقاً طيّباً لا أثمل معه، وإذا اجتمع في بدني خلط استفرغته، وخلَّة واحدة وجدتها من أنفع الخلال في صحَّة البدن ما استدعيت الباه بحركة إلَّا أن تهيج به الطبيعة، فإذا كان ذلك أقللت الحركة بقيّة يومي وأخذت من الغذاء والنوم بحظّ.

وقيل في حفظ الصحَّة: لا ينبغي أن تأكل إلَّا علىٰ نقاء تامّ وجوع صادق من طعام موافق وتكفّ عن الطعام وأنت تشتهيه، ولا تبادر إلىٰ شرب الماء حتَّىٰ تستوفي غذاءك، واصبر بعده ساعة، وترتاض قبله بحركة معتدلة، ولا تأكلنَّ في ظلمة، ولا تنم تحت شجرة مجهولة، ولا تُطعم ما لا تعرفه، ولا من طعام حارّ جدَّاً ولا محترق ولا دسم جدَّاً، وليكن طعامك خبز البر واللحم الرخص، وشرابك ماء الكرم الرقيق الصافي، وجماعك للشابّة، وخدمك الولدان، ورفقاؤك المساعدون من أهل الفضل.

أنفاس المرء خطاه إلىٰ أجله، وأمله خادع له عن عمله.

وكان الحسن البصري يقول: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة فأدّوها إلىٰ من ائتمنهم عليها وراحوا خفافاً.

وقال: قد رأينا من أُعطي الدنيا بعمل الآخرة، وما رأينا من أُعطي الآخرة بعمل الدنيا.

وقال يحيىٰ بن معاذ: عجبت ممَّن يبقىٰ له مال وربّ العرش يستقرضه.

سأل إبراهيم بن أدهم راهباً: من أين تأكل؟ فقال: ليس لهذا جواب عندي، ولكن سل ربّي من أين يُطعمني.

وقال آخر: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنَّة كما رغب في الغنىٰ لوصل إليهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما خاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين.

وقال شقيق: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة: أمَّا الفقراء فاختاروا اليقين وفراغ القلب وخفَّة الحساب، وأمَّا الأغنياء فاختاروا تعب النفس وشغل القلب وشدَّة الحساب.

وقال يحيىٰ بن معاذ: إنَّ العالم إذا لم يكن زاهداً فهو عقوبة لأهل زمانه.

شرُّ الأُمراء أبعدهم من القرّاء، وشرُّ القرّاء أقربهم من الأُمراء.

قيل لابن المبارك: لو أنَّ الله سبحانه أوحىٰ إليك أنَّك ميّت العشية ما كنت صانعاً اليوم؟ قال: أطلب فيه العلم.

وقال يحيىٰ بن معاذ: من لم يكن مستعدَّاً لموته فموته موت فجأة، وإن كان صاحب فراش سنة.

وقال آخر: طلب الخير شديد وترك الشرّ أشدّ، لأنَّه ليس كلّ خير يلزمك عمله، والشرّ كلّه يلزمك تركه.

وقيل للعبّاس ابن مرداس: لِمَ تركت الشراب؟ قال: أكره أن أُصبح سيّد قوم وأُمسي سفيههم.

وقال الخليل بن أحمد: العزلة توقي العرض، وتبقي الجلالة، وتستر الفاقة، وترفع مؤونة المكافاة في الحقوق اللازمة.

وقال التيمي: لا تطلبوا الحوائج إلىٰ ثلاثة: إلىٰ عبد يقول الأمر لغيري، وإلىٰ رجل حديث عهد بالغنىٰ، وإلىٰ صيرفي همَّته أن يسرق أو يسترجع في كلّ مائة دينار حبَّة.

قال الحسن: يا ابن آدم، إنَّما أنت أيّام مجموعة، فإذا مضىٰ يوم فقد مضىٰ بعضك.

ومرَّ عيسىٰ عليه السلام بقوم يبكون فقال: (ما لهم يبكون؟)، قالوا: هؤلاء قوم يبكون علىٰ ذنوبهم، قال: فليتركوها تُغفَر لهم.

وقال الفضيل: لا تطلبوا في هذا الزمان ثلاثة أشياء فإنَّكم لا تجدوها: لا تطلبوا عالماً مستعملاً لعلمه فإنَّكم تبقون بلا علم، ولا تطلبوا طعاماً من غير شبهة فإنَّكم تبقون بلا طعام، ولا تطلبوا صديقاً بلا عيب فإنَّكم تبقون بلا صديق.

وقيل: ليس من احتجب بالخلق كمن احتجب بالله عنهم.

وقيل: الرجاء لله أقوىٰ من خوفه؛ لأنَّك تخافه لذنبك وترجوه لجوده.

وقال حكيم: الدليل علىٰ أنَّ ما في يدك ليس هو لك، علمك أنَّه كان قبلك لغيرك.

وصيّة قس بن ساعدة لابنه: اعلم يا بني: أنَّ المعاءَ تكفيه البقلة وترويه المذقة، ومن عيَّرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه، ومتىٰ عدلت علىٰ نفسك وعلىٰ من دونك عدل عليك من فوقك، وإذا نهيت عن شيء فابدأ بنفسك، ولا تجمع ما لا تأكل ولا تأكل ما لا تحتاج إليه فيوبيك، وإذا ادَّخرت فلا يكوننَّ كنزك إلَّا العمل الصالح، وكن عفّ العيلة مشترك الغنىٰ تسد قومك، ولا تشاورنَّ مشغولاً وإن كان حازماً لبيباً، ولا خائفاً وإن كان فهماً عليماً، ولا تضع في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعه إلَّا بشيء منك، وإذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فاقصد، ولا تستودعنَّ دمك أحداً وإن قربت قرابته فإنَّك إذا فعلت

ذلك لم تزل وكيلاً (ذليلاً)، وكان المستودع بالخيار في الوفاء والغدر، وكنت عبداً ما بقيت، فإن جنىٰ عليك كنت أولىٰ بذلك، وإن وفّىٰ كان الممدوح دونك.

وقال آخر: الدنيا دار تجارة، فالويل لمن تزوَّد منها الخسارة.

دعاء: اللّهمّ كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصن وجهي عن مسألة غيرك.

العدوّ إذا صالحته فاحترز منه كما تحترز من الحيّة إذا حملتها في كمّك.

وقال آخر: طوبىٰ لمن إذا كان ضعيفاً عن الخير كان ضعيفاً عن الشرّ، عيش في الأمن مع الفقر أمثل من العيش في غنىٰ مع الخوف.

وقال المسيح عليه السلام: (ليحذر من يستبطئ الله في الرزق أن يغضب عليه فيفتح الدنيا عليه).

وقال: أقرب ما يكون العبد إلىٰ الله تعالىٰ إذا سأله، وأقرب ما يكون إلىٰ الناس إذا لم يسألهم.

وقال ذو النون: إلهي كيف أُحِبُّ نفسي وقد عصيتك، وكيف لا أُحِبُّها وقد عرفتك.

ويقال: ما عفا عن الذنب من قرع به.

ثلاث من علامات الرقاعة: مداومة عشرة النساء، والدالّة علىٰ السلطان، والقصص علىٰ الكراسي.

دعاء: اللّهمّ لا تكثر لي من الدنيا فأطغىٰ، ولا تقلّ لي منها فأنسىٰ، اللّهمّ اجعل لي في الخير حظّاً وجدّاً، ولا تجعل معيشتي ضنكاً وكدّاً...

قيل لبعضهم: كيف أنت؟ قال: أحمد الله إلىٰ الناس، وأذمّ الناس إلىٰ الله.

قـال الحسـن: يـا ابـن آدم شـيبك يعظـك، ومرضـك ينـذرك، فاسـمع ممَّن يعظك، واحذر ممَّن ينذرك.

قال يحيىٰ بن معاذ: مـن شـبع عوقـب بـثلاث عقوبـات: يلقـىٰ الغطـاء علىٰ قلبه، والنعاس علىٰ عينيه، والكسل علىٰ بدنه.

دخـل مكفـوف عـلىٰ النبـيّ ﷺ فقـال لمـن حضـر مـن نسـائه: «قمنَ»، فقلنَ: إنَّه أعمىٰ، فقال: «أفعميٌ أنتنَّ؟».

كـان رجـلان يختلفـان إلىٰ مجلـس يـونس بـن حبيـب فغـاب أحـدهما فسأل الآخر عنه، فقال: مات. قال: وما سبب موته؟ فقال: كونه.

وحكـي عـن أبي يزيـد البسـطامي أنَّـه لـمَّا حـجَّ لقيـه بالباديـة رجـل أسود، فقال له: يا أبا يزيـد إلىٰ أيـن؟ قلـت: إلىٰ مكّـة، فقـال: يـا عجبـاً تركتـه ببسطام وجئت تطلبه بمكّة، فبهت ثمّ التفت فلم أرَه.

قـال رجـل لمحمّـد بـن واسـع: أوصـني، فقـال: أُوصـيك أن تكـون ملكاً في الـدنيا والآخـرة. قـال الرجـل: وكيـف أكـون ملكـاً؟ قـال: ازهـد في الدنيا.

وقـال آخـر: مـا أصـنع بـدنيا إن بقيـت لهـا لم تبـقَ لي، وإن بقيـت لي لم أبقَ لها.

وقـال داود عليه السلام: (لا تـدعوا ربّكـم والخطايـا بـين أضـلاعكم، ألقوها عنكم ثمّ أُدعوه يستجب لكم).

وقـال الحسـن: رحـم الله امـرءً كسـب طيّبـاً، وأنفـق قصـداً، وقـدَّم فضـلاً، ألَا إنَّ هـذا المـوت قـد أضرَّ بالـدنيا وفضـحها، ولا والله مـا وجـد ذو لـبّ فيهـا فرحـاً، فإيّـاكم وهـذه السـبل المفرَّقـة التـي جماعهـا الضـلالة وميعادها النار. رحـم الله امـرءً نظـر فتفكَّـر وتفكَّـر فـاعتبر واعتـبر فأبصـر،

وأبصر فصبر، فقد أبصر قوم ثمّ لم يصبروا، فتمكّن الجزع من قلوبهم فلم يدركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلىٰ ما فارقوا.

قال رجل لبشر: إنَّك مهموم، قال: لأنّي مطلوب.

قيل لملك وقد زال ملكه: ما الذي أزال ملكك؟ قال: ثقتي بدولتي، وإعجابي بشدَّتي، واستبدادي بمعرفتي، وتركي تعرّف أخبار مملكتي.

قال معمّر: أنهاكم عن الطعام الذي يفسد الذهن وينقص العقل، وكان لا يتعرَّض للباذنجان والبصل والباقلّا والعدس والكزبرة.

وقال إسماعيل بن غزوان: كلّ علم لا يكون في مغرس عقل، وكلّ بيان لا يكون في نصاب علم، وكلّ خلق لا يجري علىٰ عرق، فليس بذي ثبات.

وقال آخر: إذا أردت لباس المحبَّة فكن عالماً كجاهل.

وقيل: ليس الحكيم الكثير العلم، ولكن الحكيم المنتفع بما يعلم.

وقال بعض العلماء: من ازداد في العلم رشداً فلم يزدد في الدنيا زهداً، ازداد من الله بعداً.

وقال: الحلم حلمان فأشرفهما حلمك عمَّن دونك، والصدق صدقان فأعظمهما صدقك فيما يضرّك، والوفاء وفاءان فأسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه.

وقال: إنَّ استصغارك نعمتك يكبّرها عند ذوي العقل، وسترك لها نشر عندهم، فانشرها بسترها وكبّرها باستصغارها.

قال بعضهم: العاقل خادم الأحمق أبداً. قيل: وكيف؟ قال: إن كان فوقه لم يجد من مداراته بدّاً، وإن كان دونه لم يجد من احتماله بدّاً.

وقالوا: احترس من ذكر العلم عند من لا علم له، وعند من لا يرغب فيه، فإنَّ ذلك أحرىٰ أن يتَّخذه سُلَّماً إلىٰ عدواتك.

قال الفضل: لا يكون الرجل من الأبرار حتَّىٰ يأمنه عدوّه. ثمّ قال: هيهاتَ ذهب هؤلاء كيف يأمنك عدوّك وصديقك يخافك؟

سُئِلَ سفيان: من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهّاد، قيل: فمن الأشراف؟ قال: المتَّقون، قيل: فمن الغوغاء؟ قال: القصّاص، قيل: فمن السفل؟ قال: الظلمة.

قال خالد بن عبد الله القسري: لا يحتجب الوالي إلَّا لثلاث خصال: إمَّا رجل غييّ يكره أن يطلع الناس علىٰ عيّه، وإمَّا رجل مشتمل علىٰ سوأة فهو يكره أن يرىٰ الناس منه ذلك، وإمَّا رجل بخيل يكره أن يسأل.

كتب عمر بن الخطّاب إلىٰ ابنه: اتَّق الله فإنَّه لا عمل لمن لا نيَّة له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا حرمة لمن لا دين له.

وقال: النساء عورات فاستروهنَّ بالبيوت، وداووا ضعفهنَّ بالسكوت، وأخيفوهنَّ بالضرب، وباعدوهنَّ من الرجال، ولا تسكنوهنَّ الغرف، ولا تعلِّموهنَّ الكتابة، وعوّدوهنَّ العري فإنَّهنَّ إذا عرين لم يخرجن من بيوتهن، وأكثروا عليهنَّ من قول: لا، فإنَّ نعم يغريهنَّ بالمسألة.

وقال غيره: الأيادي ثلاث: يد بيضاء وهي الابتداء بالمعروف، ويد خضراء وهي طلب المكافاة، ويد سوداء وهي المنُّ بالمعروف.

قال محمّد بن واسع لصديق له رآه حريصاً علىٰ الدنيا: يا أخي، أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته، وتطلب ما قد كفيته،

وكأنَّك بما غاب عنك قد كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه، كأنَّك لم تَرَ حريصاً محروماً، ولا زاهداً مرزوقاً.

وقال عمر بن الخطّاب: كفىٰ بك عيباً أن يبدو لك من أخيك ما يخفىٰ عليك من نفسك، أو تؤذي جليسك فيما لا يعنيك، أو تعيب شيئاً وتأتي مثله.

وقال غيره: أوَّل العلم الصمت والاستماع، ثمّ الحفظ، ثمّ المذاكرة، ثمّ التعليم، ثمّ النشر، من عاش متعلِّماً مات عالماً.

وقال أبو عمرو بن العلاء: كلّ شيء طلبته في وقت فقد فات وقته.

وقال: صاحب الصمت لا يجوز نفعه نفسه، وصاحب النطق يتكلَّم فينفع نفسه وغيره.

قال المسيح عليه السلام: (ما زهد في الدنيا من جزع من المصائب فيها).

وقال أيضاً: (حتَّىٰ متىٰ تصفون الطريق للمدلِّجين وأنتم مقيمون في محلَّة المتحيّرين، تصفون من البعوض شرابم، وتبتلعون الجمال بأحمالها. إنَّ الزقّ إذا نغل لم يصلح أن يكون وعاءً للعسل، وإنَّ قلوبكم قد نغلت فلا تصلح للحكمة، وكم مذكّر بالله ناس لله، وكم مخوِّفٍ بالله جرئ علىٰ الله، وكم داعٍ إلىٰ الله هارب من الله، وكم تالٍ لكتاب الله منسلخ من آيات الله).

أمر بعض الملوك أن يُستخرَج له كلمات من الحكمة ليعمل بها، فاستخرجت له أربعون ألف كلمة فاستكثرها، فاختير منها أربعة آلاف كلمة، ثمّ لم يزل ينقص منها حتَّىٰ رجعت إلىٰ أربع كلمات وهي: لا تثقنَّ بامرأة، لا تحملنَّ معدتك فوق طاقتها، احفظ لسانك، خذ من كلّ شيء ما كفاك.

وقال الصادق عليه السلام: «إنّي لأملق فأُتاجر الله بالصدقة فأتّسع».

قيل للحسن بن صالح: لِمَ لا تخضب؟ فقال: الخضاب زينة ونحن في مأتم.

وقال أبو حازم: الدنيا جيفة فإن رضيت بها فاصبر علىٰ مقارنة الكلاب فيها.

وقال آخر: اتَّقوا الله عباد الله فإنَّه ليس يتمنّىٰ المتقدّمون قبلكم إلَّا المهل المبسوط لكم، يا قوم استغنموا نفس الأجل، وإمكان العمل، واقطعوا ذكر المعاذير والعلل، فإنَّكم في أجل محدود وعمر غير ممدود.

اعتلَّ بعض الزهّاد فكان الناس يعودونه، فقال يوماً: اللّهمّ كما أنسيتني الناس فأنسهم إيّاي.

ونظر الفضيل إلىٰ رجل يشكو إلىٰ صديق له ما هو فيه من الضرّ والإضاقة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلىٰ من لا يرحمك.

قال مبارك بن فضالة: سمعت الحجّاج يقول في خطبته: إنَّ الله عزّ وجلّ أمرنا بطلب الآخرة وضمن لنا مؤونة الدنيا، فيا ليته ضمن لنا الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا. قال: فذكرت ذلك للحسن البصري فقال: ضالَّة مؤمن عند فاسق فخذها...

قال العلَّامة الأمين في (أعيان الشيعة): هذا آخر ما وجدنا في كتاب أحمد بن مسكويه.

* * *

(١٨)

الشريف المرتضى علم الهدى[١]

فرد الزمان، ووحيد الدهر، ونادرة الفلك، فيلسوف عصره، وحكيم دهره، سيّد علماء الأُمَّة، ومحيي آثار الأئمّة، ذو المجدين أبو القاسم علي بن الحسين بن موسىٰ بن محمّد بن موسىٰ بن إبراهيم بن الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام، المشهور بالسيّد المرتضىٰ.

قال علي خان المدني في (الدرجات الرفيعة): كان الشريف المرتضىٰ رحمه الله أوحد زمانه، فضلاً وعلماً وفقهاً وكلاماً وحديثاً، وشعراً وخطابةً وكرماً وجاهاً، إلىٰ غير ذلك.

قال ابن بسّام الأندلسي في أواخر كتاب (الذخيرة) في وصفه: كان هذا الشريف إمام أئمّة العراق بين الاختلاف والاتّفاق، إليه فزع علماؤها، وعنه أخذ عظماؤها، صاحب مدارسها وجمّاع شاردها وآنسها، ممَّن سارت أخباره وعُرِفَت به أشعاره، وحُمِدَت في دين الله مأثوره وآثاره، إلىٰ تواليفه في الدين، وتصانيفه في أحكام المسلمين، ما يشهد أنَّه فرع ذلك الأصل الأصيل، ومن أهل ذلك البيت الجليل.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٣٠٢؛ روضات الجنّات ٤: ٢٨٧؛ أعيان الشيعة ٤١: ١٨٨؛ معجم الأُدباء ١٣: ١٤٦؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٤٤٥؛ معجم أعلام المورد: ٢٦٠؛ تاريخ بغداد ١١: ٤٠٢؛ الفوائد الرضوية ١: ٢٨٢؛ نزهة الجليس ٢: ٥٩٩؛ الدرجات الرفيعة: ٤٥٨.

وُلِدَ رحمه الله في رجب سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وقرأ هو وأخوه الرضي علىٰ ابن نباتة صاحب الخطب، وهما طفلان، ثمّ قرأ كلاهما علىٰ الشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان.

وكان المفيد رحمه الله رأىٰ في منامه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، دخلت عليه وهو في مسجد بالكرخ، ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين فسلَّمتهما إليه وقالت له: علِّمهما الفقه، فانتبه متعجّباً من ذلك، فلمَّا تعالىٰ النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأىٰ فيها الرؤيا، دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر وحولها جواريها وبين يديها ابناها علي المرتضىٰ ومحمّد الرضي صغيرين، فقام إليها وسلَّم عليها، فقالت له: أيّها الشيخ هذان ولداي قد أحضرتهما إليك لتعلِّمهما الفقه، فبكىٰ الشيخ وقصَّ عليها المنام، وتولّىٰ تعليمهما، وأنعم الله عليهما وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باقٍ ما بقي الدهر.

قال القميّ في (الكنىٰ والألقاب): إنَّه جمع من العلوم ما لم يجمعه أحد، وحاز من الفضائل ما تفرَّد به وتوحَّد، وأجمع علىٰ فضله المخالف والمؤالف، كيف لا وقد أخذ من المجد طرفيه، واكتسىٰ بثوبيه، وتردّىٰ ببرديه، متوحِّد في علوم كثيرة، مجمع علىٰ فضله، مقدَّم في العلوم: مثل علم الكلام، والفقه، وأُصول الفقه، والأدب والنحو، والشعر واللغة، وغير ذلك...

قال آية الله العلَّامة: وبكتبه استفادت الإمامية منذ زمنه رحمه الله إلىٰ زماننا هذا وهو سنة (٦٩٣هـ) وهو ركنهم ومعلِّمهم، قدَّس الله روحه وجزاه عن أجداده خيراً[١].

---

(١) خلاصة الأقوال: ١٧٩/ قسم ١/ فصل ١٨/ باب ١/ الرقم ٢٢.

وذكره الخطيب في تاريخ بغداد وأثنىٰ عليه، وقال: (كتبت عنه)[١]، وعن جامع الأُصول أنَّه عدَّه ابن الأثير من مجدّدي مذهب الإمامية في رأس المائة الرابعة.

قال ابن خلّكان في وصف علم الهدىٰ: كان نقيب الطالبيين، وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر، وهو أخو الشريف الرضي، وله تصانيف علىٰ مذهب الشيعة، ومقالة في أُصول الدين، وله الكتاب الذي سمّاه الغرر والدرر، وهي مجالس أملاها تشتمل علىٰ فنون من معاني الأدب، تكلَّم فيها علىٰ النحو واللغة وغير ذلك، وهو كتاب ممتع يدلُّ علىٰ فضل كثير وتوسّع في الاطّلاع علىٰ العلوم[٢].

ونقل عن الشيخ عزّ الدين أحمد بن مقبل يقول: لو حلف إنسان أنَّ السيّد المرتضىٰ، كان أعلم بالعربية من العرب لم يكن عندي آثماً، وقد بلغني عن شيخ من شيوخ الأدب بمصر أنَّه قال: إنّي استفدت من كتاب الغرر مسائل لم أجدها في كتاب سيبويه ولا غيره من كتب النحو.

وكان نصير الدين الطوسي رحمه الله إذا جرىٰ ذكره في درسه يقول: صلوات الله عليه ويلتفت إلىٰ القضاة والمدرّسين الحاضرين درسه، ويقول: كيف لا يُصلّىٰ علىٰ المرتضىٰ؟

وقد ذكر المعرّي اسم المرتضىٰ والرضي، ومدحهما في طيّ مرثيته لوالدهما في ديوان السقط، ومن أبيات تلك المرثية:

أبقيت فينا كوكبين سناهما ... في الصبح والظلماء ليس بخاف

---

(١) تاريخ بغداد ١١: ٤٠١/ الرقم ٦٢٨٨.

(٢) وفيات الأعيان ٣: ٣١٣/ الرقم ٤٤٣.

وقال أيضاً:

ساوىٰ الرضي والمرتضىٰ وتقاسما　　　خطط العلىٰ بتناصف وتصاف

قال الشيخ عبد الله نعمة في كتابه (فلاسفة الشيعة): هو أكبر شخصية شيعية ظهر في القرن الخامس الهجري، بالعلم والفقه والآثار والكلام والأدب والشعر واللغة وغيرها، وكان فقيهاً انتهت إليه زعامة الإمامية في عصره، كما اشتهر في علم الكلام والفلسفة الإسلاميّة، وفي علم النحو، كما برز في غير ذلك من جوانب الفكر والمعرفة.

كما كان حاذقاً في المناظرة والجدل، حاجَّ النظراء والمتكلِّمين، وناظر العلماء والمخالفين، وتعتبر آراء الشريف المرتضىٰ وآثاره سجلّاً كاملاً لآراء الشيعة الإمامية وأقوالهم، وفي كتبه حفظت عقائدهم ونظرياتهم الإسلاميّة.

وكتبه الشافي في الإمامة، وتنزيه الأنبياء والأمالي تمثّل اتّجاهات الإمامية الكلامية تمثيلاً صحيحاً علىٰ الأكثر.

وقال أيضاً: وللشريف المرتضىٰ اتّجاه فكري كبير، يتمثَّل في كتبه الكلامية الكثيرة، كما له اتّجاه أدبي بارز، فهو يُعَدُّ من الأُدباء الكبار، ومن طليعة الشعراء البارزين في رقَّة ديباجته ومتانة الأُسلوب، وغوصه علىٰ المعاني الشاردة.

وله مساجلات أدبية مع أُدباء زمانه، وشعر رائق، وقد ضمن كتاب الأمالي طائفة كبيرة من ذلك، انتهىٰ.

ويقول الدكتور مصطفىٰ جواد: الشريف المرتضىٰ، علم الهدىٰ ذي المجدين أبي القاسم علي بن الحسين العلوي الموسوي البغدادي، نقيب نقباء الطالبيين، وفقيه الشيعة الإمامية الأوحد في عصره، وعلّامة

المفسّرين المتصرّفين بفنون القول، وشيخ الأُدباء في دهره ومرجعهم في أدبهم وحاجاتهم، والقائم بأُمور دار العلم التي كانت أعظم معهد للعلوم والآداب إذ ذاك.

ثمّ يعود ثانية فيقول: السيّد المرتضىٰ علم الهدىٰ، الفقيه النظّار، سيّد الشيعة وإمامهم، كان له برّ وصدقة وتفقّد في السرّ، عُرِفَ ذلك بعد موته رحمه الله، ولي النقابة سنة ستّ وأربعمائة وتوفّي سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة، كان أسنّ من أخيه، ولم يُرَ أخوان مثلهما شرفاً وفضلاً ونبلاً وجلالةً ورئاسةً وتوادّاً.

إلىٰ كثير وكثير من المدائح الواردة في حقّه من المؤالف والمخالف التي استغنينا عن ذكرها بهذه النبذة القصيرة.

لقبه بعلم الهدى:

هذا اللقب وضعه له جدّه المرتضىٰ علي أمير المؤمنين عليه السلام، ففي الدرجات الرفيعة: وذكر الشيخ الشهيد في أربعينه، قال: نقلت من خطّ الفاضل السيّد العالم صفي الدين محمّد بن محمّد الموسوي رحمه الله في المشهد المقدَّس الكاظمي في سبب تسمية الشريف المرتضىٰ بعلم الهدىٰ:

أنَّه مرض الزبير أبو سعيد محمّد بن آشين بن عبد الصمد، سنة عشرين وأربعمائة، فرأىٰ في منامه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول له: قل لعلم الهدىٰ يقرأ عليك حتَّىٰ تبرأ.

فقال: يا أمير المؤمنين، ومن علم الهدىٰ؟ فقال: علي بن الحسين الموسوي، فكتب الوزير إليه بذلك، فقال المرتضىٰ: الله الله في أمري فإنَّ قبولي لهذا اللقب شناعة عليَّ.

فقال الوزير: ما كتبت إليك إلَّا بما لقَّبك به جدّك أمير المؤمنين عليه السلام، فعلم القادر الخليفة بذلك فكتب إلىٰ المرتضىٰ تقبَّل يا علي بن الحسين ما لقَّبك به جدّك أمير المؤمنين، قال: فقبل وأسمع الناس.

وكان يُلقَّب بالثمانيني أيضاً؛ لأنَّه أحرز من كلّ شيء ثمانين، حتَّىٰ أنَّ مدة عمره كانت ثمانين سنة وثمانية أشهر.

سماته الخلقية وصفاته الخُلُقية:

في شرح ديوان السيّد المرتضىٰ لمؤلِّفه رشيد الصفّار المحامي: كان الشريف رحمه الله ربعَ القامة، نحيف الجسم، أبيض اللون، حسن الصورة، اشتهر بالبذل والسخاء، والإغضاء عن الحسّاد والأعداء، وقد مُنِيَ بكثير من هؤلاء، وديوانه طافح بالشكوىٰ منهم والايصاء بالتجاوز عنهم والكفّ عن مقارعتهم:

تَجافَ عن الأعداء بَقياً فربَّما كَفِيتَ فلم تجرح بنابٍ ولا ظفر
ولا تَبرِ منهم كلّ عودٍ تخافه فإنَّ الأعادي ينبتون مع الدَهر

إلَّا أنَّ أعداءه ومناوئيه وحاسدي نعمته، وصموه بالبخل وقلّة الإنفاق بهتاناً وحسداً، وكلّ ذي نعمة محسود، وإنّا لم نجد فيها كُتِبَ عنه في التراجم من وسمه بهذه الصفة المنزَّه عنها، إلَّا ما نقله بعض المؤرِّخين بروايات متضاربة وأسانيد مضطربة، ملخصها:

أنَّ أحد الوزراء _ قيل: هو محمّد بن خلف _ قد وَزَّعَ ضريبة علىٰ الأملاك ببادورَيا، وذلك لصرفها في حفر النهر المعروف بنهر عيسىٰ، فأصاب ملكاً للشريف المرتضىٰ بالناحية المعروفة بالداهرية، فوقع عليه من التقسيط عشرون درهماً، فكتب المرتضىٰ إلىٰ الوزير يسأله

إسقاط ذلك عنه، والقضيّة مذكورة في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، يرويها أبو حامد أحمد بن محمّد الإسفراييني الفقيه الشافعي.

قال: كنت يوماً عند الوزير فخر الملك أبي غالب محمّد بن خلف، وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضي أبو الحسن فأعظمه وأجلَّه ورفع منزلته...، ثمّ دخل بعد ذلك عليه المرتضىٰ أبو القاسم رضي الله عنه، فلم يعظّمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يوقّع بها، فجلس قليلاً وسأله أمراً فقضاه ثمّ انصرف.

قال أبو حامد: فتقدَّمت إليه وقلت: أصلح الله الوزير هذا المرتضىٰ هو الفقيه المتكلِّم صاحب الفنون، وهو الأمثل الأفضل منهما، وإنَّما أبو الحسن (يعني الرضي) شاعر، قال: وكنت مجمعاً علىٰ الانصراف فجاءني أمر لم يكن في الحساب، فدعت الضرورة إلىٰ ملازمة المجلس إلىٰ أن تقوَّض الناس واحداً فواحداً ولم يبقَ غيري، ثمّ سرد القصَّة وقضيّة الضريبة بما يشعر بالغض من منزلة المرتضىٰ، هذا ما ذكره ابن أبي الحديد.

والرواية تختلف بسندها ومتنها مع رواية صاحب عمدة الطالب حيث أسندها إلىٰ أبي إسحاق الصابي إبراهيم بن هلال الكاتب المشهور.

قال: كنت عند الوزير أبي محمّد المهلبي _ وليس محمّد بن خلف _ ذات يوم، فدخل الحاجب واستأذنه للشريف المرتضىٰ فأذن له، فلمَّا دخل قام إليه وأكرمه وأجلسه معه في دسته، وأقبل عليه يُحدِّثه حتَّىٰ فرغ من حكايته ومهمّاته، ثمّ قام إليه وودَّعه وخرج، فلم يكن ساعة حتَّىٰ دخل عليه الحاجب واستأذن للشريف الرضي، ثمّ أورد القصَّة بفروق في المتن أيضاً.

فنحن نقف إزاء هذه الرواية المضطربة في متنها وسندها موقف الارتياب والاستغراب، فبينما نجد ابن أبي الحديد يسندها لأبي حامد الاسفراييني مع الوزير محمّد بن خلف، نجد رواية ابن مهنا صاحب العمدة مسندة إلىٰ أبي إسحاق الصابي مع الوزير المهلبي مع فروق في المتن كما أسلفنا.

فإذا علمنا أنَّ الوزير المهلبي أبا أحمد الحسن بن محمّد بن هارون _ وزير معزّ الدولة البويهي _ قد توفّي سنة (٣٥٢هـ) وهاتيك السنة هي قبل مولد المرتضىٰ بثلاث سنين حيث كان مولده ﵀ سنة (٣٥٥هـ)، هان علينا تفنيد الرواية بداهة.

زيادة علىٰ ذلك أنَّ الرواية الأُولىٰ تجعل الداخل الأوَّل علىٰ الوزير هو الشريف الرضي، بينما الرواية الثانية تجعله المرتضىٰ، هذا ما يشير إمَّا إلىٰ اختلاق الرواية ووضعها من الأساس، أو إلىٰ تحريفها أو المبالغة فيها علىٰ أقرب الاحتمالات لما سنوضّحه قريباً.

فالمرتضىٰ في سعة عن التوسّل بهذه الوسائل الركيكة التي لا تناسب منزلته ومقامه لدىٰ الوزير ولدىٰ الخلفاء أنفسهم، لرفع هذه الضريبة اليسيرة، وذلك لما رُزِقَ من عزَّة في النفس وحظّ وافر من الجاه، زيادة علىٰ النعمة والثراء المصحوب بالبذل والسخاء الذي دلَّتنا عليه سيرته الحميدة وكرمه المعروف وبذله الفذّ، حتَّىٰ ليم علىٰ كثرة الإنفاق والعطاء مراراً، فقال في ذلك مجيباً لهم قصائد مذكورة في هذا الديوان نذكر منها علىٰ سبيل الشاهد قوله من قصيدة حسنة:

دعي منظري إن لم أكن لك رائعاً ... ولا تنظري إلَّا علىٰ حسن مخبري

فإنّي وخيرُ القول ما كان صادقاً ... لدىٰ الفخر سبّاقٌ إلىٰ كلّ مفخر

منها:

وأعلـم أنَّ الـدهر يعبـث صرفـه   بـما شـاء مـن مـال البخيـل المُقـتّر

منها:

عَذِلتُ علىٰ تبذير مالي وهـل تـرىٰ   نجمّـــع إلَّا للجـــؤور المُبـــذّر

أُفرِّقـه مـن قبـل أن أُحـال دونـه   رحـــيليَ عنـــه بـــالحِمام المُقـــدّر

مضىٰ قيصر من بعد كسـرىٰ وخَلَّيا   التلاعبَ في أموال كسـرىٰ وقيصـر

وغير ذلك ممَّا سيأتي ذكره.

وقـد اسـتفاض عنـه إنفاقـه عـلىٰ مدرسـته العلميـة التـي تعهَّـد بكفايـة طلَّابها مؤونـةً ومعاشـاً، حتَّـىٰ أنَّـه وقَّـف قريـة مـن قـراه تُصـرَف مواردهـا علىٰ قـراطيس الفقهـاء والتلاميـذ، وأنَّـه كـان يجـري المجريـات والمشـاهرات الكافيـة عـلىٰ تلامذتـه وملازمـي درسـه، مثـل الشـيخ الطـوسي، فقـد كـان يعطيه اثني عشـر ديناراً في الشـهر، ويعطـي للقـاضي عبـد العزيـز بـن الـبرّاج ثمانية عشـر ديناراً وغيرهمـا، وذلـك بفضـل مـا يـرد عليـه مـن دخـل أملاكـه الخاصّـة الـذي قُـدِّرَ بأربعـة وعشـرين ألـف دينـار بالسـنة، عـلىٰ مـا ذكـره (معجـم الأُدبـاء ليـاقوت)(١)، ولمـا يمتلكـه مـن قـرىٰ وضـياع، قيـل: إنَّهـا ثمانون قرية بـين بغـداد وكـربلاء، يجـري خلالهـا نهـر لـه، غُرِسَـت الأشـجار الوارفـة عـلىٰ حافَّتيـه، فتهـدَّلت غصـونها بثمارهـا اليانعـة، فكـان ذلـك الانعطـاف يسـهل عـلىٰ أصـحاب السـفن والسـابلة العـابرين قطـف تلـك الأثمار التي أباحها المرتضىٰ لهم.

وقـد أعطـىٰ المرتضـىٰ مـع أخيـه الـرضي مـن أموالهـا الخاصّـة لابـن

---

(١) معجم الأُدباء ١٣: ١٤٦/ الرقم ١٩.

البرّاج الطائي عندما اعتقلهما في طريق الحجّ سنة (٣٨٩هـ) تسعة آلاف دينار فأطلقهما.

ولا أدلُّ علىٰ سماحته وبذله وكرمه، من قصَّته المشهورة مع ذلك اليهودي الذي أفلس عندما أصاب الناس قحط شديد، فاحتال لتحصيل قوت يحفظ نفسه، فحضر يوماً مجلس المرتضىٰ فاستأذنه أن يقرأ عليه شيئاً من علم النجوم (يعني علم رياضيات الفلك، لا ما يذهب إليه المنجّمون من التنبّؤات والتخريفات، فللمرتضىٰ عليهم حملة شديدة في ذلك ستعرَّض لها في هذه الترجمة)، فأذن له وأمر له بجائزة تجري عليه كلّ يوم، فقرأ عليه برهة ثمّ أسلم علىٰ يده.

وحكىٰ ابن خلّكان عن أبي زكريا الخطيب التبريزي، أنَّ أبا الحسن علي بن أحمد بن سلّك الفالي الأديب، كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلىٰ بيعها، فاشتراها الشريف المرتضىٰ بستّين ديناراً، وتصفَّحها فوجد بها أبياتاً بخطّ بايعها أبي الحسن الفالي المذكور، وهي:

أنِستُ بها عشرين حولاً وبعتها ... لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظنّي أنّني سأُبيعها ... ولو خلَّدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقار وصبيةٍ ... صغار عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلت ولم أملك سوابقَ عبرةٍ ... مقالةَ مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجاتُ يا أُمَّ مالكٍ ... كرائمَ من ربٍّ بهنَّ ضنين

فرجَّع النسخة إليه وترك الدنانير.

وللمرتضىٰ في ذمّ الحرص والطمع، قصائد ومقطوعات في هذا الديوان نذكر منها قوله:

إن كنـــت ترغـــب بـــالثواء بهـــذه الـــدنيا عزيـــزا
فاحـــذر منـــىٰ الأطـــماع أن تَعنـــىٰ بهـــا أو أن تجـــوزا
لا ترعهـــا ســـمعاً فـــإنَّ لهـــا القعـــاقع والأزيـــزا
كـــم آمـــن أضـــحىٰ المطـــاحَ بهـــا وقـــد أمـــس الحريـــزا
لم يفـــده مـــن صـــولة الأيّـــام أن جمـــع الكنـــوزا
كانـــت لـــه نِعَـــمٌ فَـــررنَ فعـــاد قاطنهـــا نَشـــوزا
كـــم ذا نحـــوز وقـــد رأينـــا حـــائزاً تـــرك المحـــوزا

وله أيضاً:

لا دَرّ دَرّ الحـــرص والطمِـــع ومذلّـــة تأتيـــك مـــن نُجَـــع
وإذا انتفعـــت بـــما ذَللـــتَ بـــه فَلأنـــتَ حقّـــاً غـــيرَ منتفـــع
ومصـــارع الأحيـــاء كلّهِـــمُ في الـــدهر بـــين الـــريّ والشَـــبَع
وإذا علمـــت بفرقتـــي جِـــدَتي فعـــلامَ فـــيما فـــاتني جَزعـــي؟

وبعد هـذا فالروايـة إن لم تكـن موضـوعة ومفتعلـة مـن أصـلها، فهـي محرَّفـة، أو مبـالغ فيهـا عـلىٰ أقـرب الاحـتمالات، لمـا رأيـت مـن اخـتلال أسانيدها ومتونها.

وعلىٰ فـرض القـول بصـحَّتها، فـإنَّ للشـريف المرتضـىٰ مخرجاً منهـا ومندوحة عنها، يحملها علىٰ محامل التعديل ومخارج التأويل.

أفـلا يحتمـل أن يكـون الشـريف قـد رأىٰ بثاقـب رأيـه وسـديد اجتهاده، أنَّ مـا أُلقـيَ عليـه مـن ضريبـة لحفـر النهـر، إنَّـما هـو مـن المصـالح العامّة التي يتحتَّم علىٰ الدولة القيام بها، والإنفاق عليها؟

ولم يـرد الشـريف بـدفعها عنـه سـوىٰ دفـع مظلمـة أو إزالـة ضرر،

وكلاهما يجب أن يدفعا كبيرين كانا أو صغيرين، وقد يكون السكوت عنهما يجرُّ إلىٰ مغارم، والرضا بهما يؤدّي إلىٰ مآثم، والكلّ محظور في الشريعة، والراضي بعمل قوم كالداخل معهم فيه...

اتّهامه بالاعتزال:

كان الشريف المرتضىٰ رحمه الله يذهب في أُصول عقائده مذهب سائر الشيعة الإمامية من قولهم بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وعدله، وامتناع صدور الظلم منه، وهم ينهجون بذلك منهج أغلب المعتزلة الذين يسمّون أنفسهم بالعدلية أو أهل العدل، ويقولون بنفي الصفات الزائدة علىٰ الذات، إذ يرون أنَّ صفاته سبحانه هي عين ذاته، ويذهبون إلىٰ أنَّ تحسين الشيء أو تقبيحه أمر عقلي، أي يُدرَك بالعقل، كعلمنا بحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضارّ وغيرهما من الأُمور البديهية، وإن كانت بعض الأحكام التكليفية كالعبادات مثلاً لا يمكن استقلال العقل بالحكم فيها بالحسن أو القبيح إلَّا عن طريق الشرع، فما ورد الشرع بحسنه أو قبحه أمر لا مجال للعقل في تحسينه أو تقبيحه، فمرتبة العقل بعد مرتبة الشرع بلا جدال.

فأجمعت الإمامية علىٰ أنَّ العقل يحتاج في علمه ونتائجه إلىٰ السمع (أي المسموع من الشرع)، وأنَّه غير منفكّ عن سمع ينبّه الغافل علىٰ كيفية الاستدلال، وأنَّه لا بدَّ في أوَّل التكليف وابتدائه في العالم من رسول ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)، ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥)، وخالفهم في جميع ذلك المعتزلة والخوارج والزيدية، وزعموا أنَّ العقول تعمل بمجرَّدها من السمع والتوقيف.

إلَّا أنَّ البغداديين من المعتزلة خاصّة يوجبون الرسالة في أوَّل التكليف، ويخالفون الإمامية في علَّتهم لذلك، وذهبوا إلىٰ أنَّ الإنسان المكلَّف محاسب علىٰ أعماله المكلَّف بها علىٰ قدر اختياره لها وقدرته عليها، ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

واتَّفقت الإمامية علىٰ أنَّ الوعيد بالخلود في النار، متوجِّه علىٰ الكفّار خاصّة، دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالىٰ والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة.

كما اتَّفقوا علىٰ أنَّ من عذَّب بذنبه من هؤلاء لا يُخلَّد في العذاب، وأجمع المعتزلة علىٰ خلاف ذلك وهو التخليد في العذاب، وهو ما يعرف عندهم (أي المعتزلة) بالوعيد.

واتَّفقت الإمامية علىٰ أنَّ مرتكب الكبائر من أهل المعرفة والإقرار لا يخرج بذلك عن الإسلام، وأنَّه مسلم وإن كان فاسقاً بما فعله من الكبائر والآثام.

وأجمعت المعتزلة علىٰ خلاف ذلك، وزعموا أنَّ مرتكب الكبائر ممَّن ذكرناه فاسق ليس بمؤمن ولا كافر، وهذا القول يُعرَف عندهم بـ (المنزلة بين المنزلتين) التي ميَّزت المعتزلة في أوَّل أمرهم عن سائر فِرَق الإسلام، وأوَّل من قال بهذه المقالة منه هو واصل بن عطاء الغزّال.

ويذهب الإمامية في الإمامة _ بأجمعهم _ إلىٰ أنَّها بالنصّ الجليّ علىٰ الأئمّة الاثني عشر، أوَّلهم علي بن أبي طالب، وآخرهم محمّد بن الحسن المهدي المنتظر، وقالوا بعصمتهم جميعاً، وخالفهم في جميع ذلك المعتزلة، إلَّا ما نُسِبَ إلىٰ إبراهيم بن سيّار النظّام من موافقتهم بذلك.

والإمامية يختلفون مع المعتزلة في مسائل أُخر، وكان ما ذكرناه أهمّها، ويتّفقون معهم في مسائل أُخر غيرها، من قولهم بخلق القرآن، وإنَّه كلام الله محدَث وليس بقديم، وقولهم: إنَّ الله تعالىٰ لا يُرىٰ لا في الدنيا ولا في الآخرة، وغير ذلك.

إلَّا أنَّ اشتراكهم مع المعتزلة في بعض المقالات والاعتقادات لا يبرِّر القول بأنَّهم منهم، فللمعتزلة آراء وعقائد يتشاركون بها مع كافّة فِرَق الإسلام، ويتفرَّدون عنهم بعقائد وآراء أُخر، كما يتمايزون بعضهم عن بعض في كثير من الآراء.

وعلىٰ ذلك فالمرتضىٰ لم يكن معتزلياً ولا رأساً في الاعتزال، علىٰ ما يزعم الخطيب البغدادي، ولا فيه ميل أو تظاهر في الاعتزال، أو هو داعية إليه علىٰ ما يذهب إليه ابن الجوزي وابن حزم الظاهري.

قال الصفدي في (الوافي بالوفيات) نقلاً عن الخطيب البغدادي: قال (يعني الخطيب): كتبت عنه (أي عن المرتضىٰ) وكان رأساً في الاعتزال، كثير الاطّلاع والجدال[1].

وقال ابن الجوزي في المنتظم (ج ٨/ ص ١٢٠): كان إمامياً فيه ميل للاعتزال.

وقال ابن حزم في (الملل والنحل)، علىٰ ما نقله عنه صاحب روضات الجنّات (ص ٣٨٧): ومن قول الإمامية كلّها قديماً وحديثاً: إنَّ القرآن مبدَّل، زيد فيه ونقص، حاشا علي بن الحسين موسىٰ (يعني الشريف المرتضىٰ) وكان إمامياً فيه تظاهر بالاعتزال، ومع ذلك كان

(١) الوافي بالوفيات ٢٠: ٢٣١/ الرقم ٣٢٢.

ينكر هذا القول، وكفَّر من قال به، وكذلك صاحباه أبو يعلىٰ الطوسي، وأبو القاسم الرازي.

أقول: وأكثر الشيعة الإمامية علىٰ القول بتمام القرآن بلا زيادة ولا نقصان، وهو ما بين الدفَّتين، وهذا قول صادقهم.

ويكفينا في الدلالة علىٰ خلاف الإمامية مع المعتزلة، أن نذكر أنَّ للمرتضىٰ نفسه ولأُستاذه الشيخ المفيد، ولتلامذته كالشيخ الطوسي وغيره كتباً ومناظرات مع رؤساء المعتزلة وأكابرهم كواصل بن عطاء، وإبراهيم بن سيّار النظّام، والقاضي عبد الجبّار ابن أحمد وغيرهم.

ويحسن بنا أن نأتي بجملة موجزة للوقوف علىٰ مجمل عقيدة المرتضىٰ من بعض كتبه، لتكون شاهد صدق علىٰ لحابة معتقده.

يقول في كتابه (إنقاذ البشر من الجبر والقدر): (فأوَّل ذلك نقول: إنَّ الله ربّنا، ومحمّداً نبيّنا، والإسلام ديننا، والقرآن إمامنا، والكعبة قبلتنا، والمسلمين إخواننا، والعترة الطاهرة من آل الرسول ﷺ وصحابته والتابعين لهم بإحسان سلفنا وقادتنا، والمتمسّكون بهديهم من القرون بعدهم جماعتنا وأولياؤنا، نحبّ من أحبَّ الله، نبغض من أبغض الله، ونوالي من والىٰ الله ونعادي من عادىٰ الله...)[1].

براعته في المناظرة وعلم الكلام وثناء العلماء عليه:

كان الشريف المرتضىٰ رضي الله عنه خليفة أُستاذه العلَّامة الشيخ المفيد في علم الكلام وفنّ المناظرة، وكان مجلسه كمجلس شيخه المفيد، يحضره أقطاب العلماء من كافّة المذاهب، بل وسائر الملل، وقد مرَّ عليك

---

(١) رسائل الشريف المرتضىٰ ٢: ١٨٧.

دراسة اليهودي عليه وكثرة اختلاف الصابي وتردّده إليه، وما قاله ابن الجوزي في أوّل الترجمة بأنَّ المرتضىٰ كان يناظَر عنده في كلّ المذاهب، وهذا يدلُّ علىٰ فضل اطّلاعه علىٰ فوارق المذاهب ومواد الخلاف فيما بينهم، وهو مع ذلك كان محترماً لدىٰ جميعهم، معظَّماً عندهم، إلَّا عند حسّاده ومناوئيه، فقد ذكر الشيخ أبي جعفر محمّد بن يحيىٰ بن مبارك ابن مقبل (كذا ولعلَّه ابن معقل) الغسّاني الحمصي أنَّه قال: ما رأيت رجلاً من العامّة إلَّا وهو يثني عليه، وما رأيت من يبخسه حقّه، وما رأيت إلَّا من يزعم أنَّه من طائفته.

وقال عنه الصفدي في (الوافي بالوفيات): إنَّه كان فاضلاً ماهراً، أديباً متكلِّماً، له مصنَّفات علىٰ مذهب الشيعة.

وقال الثعالبي صاحب (يتيمة الدهر): وقد انتهت الرياسة اليوم ببغداد إلىٰ المرتضىٰ في المجد والشرف والعلم والأدب، والفضل والكرم...

وقد سُئِلَ عنه فيلسوف المعرَّة أبو العلاء، بعد أن حضر مجلسه فقال:

يا سائلي عنه لما جئت أسأله ... فإنَّه الرجل العاري عن العار
لو جئته لرأيت الناس في رجل ... والدهر في ساعة والأرض في دار

علمه باللغة وغريبها:

العلم بغريب اللغة يدلُّ علىٰ اطّلاع واسع علىٰ لغة العرب بدراسة علومها، ومعرفة لسانها في مختلف ديارها ومواطنها، وقد كان الشيخ عزّ الدين أحمد بن مقبل يقول: لو حلف إنسان أنَّ السيّد المرتضىٰ كان أعلم بالعربية من العرب، لم يكن عندي آثماً، وكتابه الأمالي المعروف بـ (غرر الفوائد ودرر القلائد)، يشتمل علىٰ محاسن فنون تكلَّم فيها في

النحو واللغة والشعر والتفسير والكلام وغير ذلك، حتَّىٰ أنَّ شيخاً من شيوخ الأدب بمصر قال فيه: والله إنّي استفدت من كتاب الغرر مسائل لم أجدها في كتاب سيبويه وغيره من كتب النحو.

فلسفته:

للمرتضىٰ فلسفة إسلاميّة خاصّة في تفسير الأشياء وظاهراتها تختلف عن تفسير كافّة فلاسفة المسلمين المتأثّرين بالفلسفة اليونانية وقواعدها المنطقية المبنيّة علىٰ منطق أرسطو وإلهيات أفلاطون، ومطالعات بروتاغوراس، وغيرهم، هذا إذا فسَّرنا الفلسفة بأنَّها النظر العملي في الأشياء، فهو يفسِّر ظواهر الكون وفعّاليات الأحياء، مستنداً إلىٰ ثلاث دعائم أساسية: هي السماع والعقل وجريان العادة، وأقصد بالسماع ما وردت به آية محكمة أو خبر صحيح، وبالعقل ما أثبتته الأدلَّة العقلية بالبرهان العقلي، غير المستند علىٰ أوهام الفلاسفة وسفسطاتهم.

فهو عندما يعوزه الدليل السمعي يلجأ إلىٰ التعليل العقلي، فإن أعياه هذا ركن إلىٰ القول بجريان العادة التي يسندها إلىٰ الله تعالىٰ، ويريد بالعادة ما نسمّيه بالسُّنَّة الكونية أو الناموس الطبيعي، سواء أكان ذلك الناموس حياتياً يتعلَّق بالأحياء وفعّاليتهم، أو كيميائياً حيوياً ممتزجاً، أو فيزيائياً صِرفاً.

ففلسفته من لون خاصّ تمتزج فيها أحياناً الروحية مع المادّية، وتنفرد إحداهما عن الأُخرىٰ أحياناً أُخر، أَلَا ترىٰ إلىٰ قوله في تفسير نزول الماء من السحّارة، وهي ظاهرة طبيعية فيزيائية: (فأمَّا ما جرَّبناه فنتكلَّم علىٰ العلَّة المفرَّقة بين الزنبق والماء، والذي يجب أن يعتمد في نقض الاستدلال من القائلين بذلك في الماء والسَحّارة أن يقال لهم: ما

أنكرتم أن يكون الله تعالىٰ أجرىٰ العادة بأن يفعل في الماء السكون والوقوف مع سدّ رأسها، فلا ينزل من أسفلها، وإذا فتحنا رأسها لم يفعل ذلك السكن فيجري الماء منها من الثقوب.

والعادة حسبما استقريناه من فلسفته نوعان: نوع منها يكون ثابتاً كأغلب النواميس الطبيعية والظواهر الكونية، كقانون الجذب الأرضي والمغناطيسية القطبية والظواهر الفيزيائية، كحرارة الشمس وآثارها، وحجر المغناطيس وفعله.

ومنها ما يكون نسبياً يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، وهذه هي العادة المكتسبة أو غير المستقرّة)، فانظر إلىٰ قوله بعد تعليله نزول الماء من السحّارة مباشرة: (وليس ينبغي أن ينكر أصحابنا خاصّة أن يكون هذا بالعادة، ونحن كلّنا نقول: إنَّ انجذاب الحديد إلىٰ حجر المغناطيس إنَّما هو بالعادة، وإلَّا فالمغناطيس وسائر الأحجار سواء! وإنَّ بالعادة وقع الشبع عند تناول الخبز واللحم، وارتفع عند غيرهما، والجنس واحد، وما تقول جماعتنا بالعادة أكثر من أن تُحصىٰ).

ثمّ أُنظر إلىٰ قوله: (فإذا قيل لنا: فما طريقة العادة يجوز فيه الاختلاف. قلنا لهم: نحن نجوِّز ذلك ولا نمنع أن تختلف العادة فيه، كما لا نمنع أن يستمرّ في كلّ بلد وعند كلّ أحد، ولا يخرج هذا الحكم مع استمراره عن أن يكون مستنداً إلىٰ العادة). ثمّ يقول: (وإذا أنكر الفلاسفة الملحدون تعليقنا ذلك بالعادة لجحدهم الصانع).

ثمّ نراه يُفيض بعد ذلك في تفسير العادة وتعليلها، واختلاف آثارها باختلاف المكان والزمان، فليراجع أمالي المرتضىٰ (ج ٢/ ص ٣٢٧ _ ٣٣٢).

رأيه في النفس وعدم تجرّدها:

يرىٰ المرتضىٰ ذات الإنسان واحدة، لا نفس له مجرَّدة عنه ومفارقة له، وبذلك يفارق كافّة الفلاسفة الإسلاميّين، ومن سبقهم من القائلين بتجرّد النفس عن الجسد ومفارقتها له بعد فنائه، ويُسمّي فلسفة القائلين بذلك هذياناً.

تأمَّل قوله: (والذي تهذي به الفلاسفة من أنَّ النفس جوهر بسيط، وينسبون الأفعال إليها ممَّا لا محصول له، وبيَّنا فساده في مواضع كثيرة من كتبنا، ودللنا علىٰ أنَّ الفاعل المميّز الحيّ الناطق، هو الإنسان الذي هو هذا الشخص المشاهد، دون جزء فيه، أو جوهر بسيط يتعلَّق به، وليس هذا موضع بيان ذلك والكلام فيه...).

ثمّ يقول في شرحه وتعليقاته علىٰ بعض أبياته في طيف الخيال (ص ٨٣): (الأرواح لا يصحُّ عليها في الحقيقة التلاقي والتزاور، لكن الشعراء لـمَّا رأوا أنَّ الأجساد في طيف الخيال لم تتلاق، ولا تدانت، نسبوا التلاقي إلىٰ الأرواح، تعويلاً علىٰ من جعل النفس لها قيام بنفسها، وأنَّها غير الجسد، وأنَّ التصرّف لها، فجرينا علىٰ هذه الطريقة، وإن كان ذلك باطلاً في التحقيق).

ثمّ نراه يزري بالفلاسفة ويذهب في تسخيفهم وتهجينهم إلىٰ أبعد الحدود عند تعرّضه لقولهم في المنامات ونسبتها إلىٰ النفس بما يأتي:

قوله في المنامات والأحلام ونفيه نسبتها إلى النفس:

يذهب المرتضىٰ في تعليله المنامات وأسبابها، مذهباً يتَّفق في بعض أقسامه مع رأي علماء الطبيعة المحدثين في ذلك، وينكر ما تقوله

الفلاسفة في هذا الباب من نسبتهم المنامات إلىٰ النفس وما تطّلع عليه من عالم الغيب.

أُنظر إلىٰ قوله: (فأمَّا ما تهذي به الفلاسفة في هذا الباب، ممَّا يضحك الثكلىٰ، لأنَّهم ينسبون ما صحَّ من المنامات لـمَّا أعيتهم الحيل في ذكر سببه، إلىٰ أنَّ النفس اطَّلعت إلىٰ عالمها فأشرفت علىٰ ما يكون، وهذا الذي يذهبون إليه في حقيقة النفس غير مفهوم ولا مضبوط، فكيف إذا أُضيف إليه الاطّلاع علىٰ عالمها؟ وما هذا الاطّلاع؟ وإلىٰ أيّ شيء يشيرون بعالم النفس؟ ولِـمَ يجب أن تعرف الكائنات عن هذا الاطّلاع؟ وكلّ هذا زخرفة ومخرقة، وتهاويل لا يتحصَّل منها شيء).

ثمّ هو ينكر ما يقوله أصحاب الطبائع في المنامات ويفنّد آرائهم، ونحن لا نريد أن نعلّق أو نبسط القول في هذه المقدّمة الموجزة علىٰ ما يقوله في النفس، إذ له ما يشير أو تصرّح بوجود روح في الإنسان بها قوام الجسد[1].

كما أنَّ له من القول في شعره ما يُشعِر ببقائها بعد تلاشي الجسد:

ومن أين البقاء والجسم تُربٌ   يتلاشىٰ وإنَّما الروح روحُ

إلَّا أنَّنا لم نقف له علىٰ قول يبيّن لنا كنه تلك الروح أو صفاتها، والظاهر من كلامه المارّ أنَّها لم تكن جوهراً بسيطاً مجرَّداً تتعلَّق بالبدن في حياته، وتفارقه عند مماته، كما يقول الأكثرون، أو يصوّره الفلاسفة الأقدمون، ولعلَّها مادّة موجودة في البدن متىٰ وُجِدَت أسبغت عليه صفة الحياة، فإن اختلَّت أو فُقِدَت، اتَّصف البدن بالممات، أو هي علىٰ

(١) راجع: أمالي المرتضىٰ ١: ١٢.

الأصحّ نسمة من أمر الله كما عبَّر عنها القرآن الكريم _ إن أُريد بمعنىٰ الروح ذلك _، وعلىٰ كلّ فليس في قول المرتضىٰ ما يستفاد منه إنكار الروح أصلاً، ولكنَّه ينكر ما يصوّره الفلاسفة من أوصافها من الجوهرية والتجرّد والبساطة...، وما ينسبون إليها من أعمال، وليس في قوله هذا ما يستفاد منه إنكار البعث كما توهَّم أو يتوهَّم البعض، إذ لا ملازمة بين إنكارها وإنكاره.

رأيه في المنجّمين:

يذهب المرتضىٰ إلىٰ تخريف المنجّمين وتسخيفهم، وإلىٰ أنَّهم مشعوذون دجّالون، وأنَّ ما يقولون به من تأثيرات النجوم سير الكواكب وأثر الطالع ونحس الأيّام ويُمنها، كلّ ذلك لا طائل تحته ولا حقيقة فيه، وقد كان يجب لو كان قد صحَّ القول بالنجوم وأحكامها، أن تكون سلامة المنجّمين أكثر ومصائبهم أقلّ؛ لأنَّهم يتوقّون المِحَن لعلمهم بها قبل كونها.

قال المرتضىٰ: (كان بعض الرؤساء، بل الوزراء ممَّن كان فاضلاً في الأدب والكتابة ومشغوفاً بالنجوم، عاملاً عليها، قال لي يوماً وقد جرىٰ حديث يتعلَّق بأحكام النجوم، ورأىٰ من مخايلي التعجّب ممَّن يتشاغل بذلك، ويفني زمانه به: أُريد أن أسالك عن شيء في نفسي، فقلت: سل عمَّا بدا لك.

قال: أُريد أن تعرّفني هل بلغ بك التكذيب بأحكام النجوم إلىٰ ألَّا تختار يوماً لسفر، ولبس ثوب جديد، وتوجّه في حاجة؟ فقلت: قد بلغت ذلك والحمد لله وزيادة عليه، وما في داري تقويم، ولا أنظر فيه وما رأيت إلَّا خيراً).

ثمّ يقول المرتضىٰ: (فأمَّا إصابتهم في الأخبار عن الكسوفات واقتران الكواكب وانفصالها، فطريقه الحساب وتسيير الكواكب، وله

أُصول صحيحة، وقواعد سديدة، وليس كذلك ما يدَّعونه من تأثيرات الكواكب في الخير والشرّ، والنفع والضرّ، والفرق بين الأمرين ظاهر معلوم)، هذا وللمرتضىٰ مجالات في الفلسفة أُخر.

بين المرتضى وأبي العلاء المعرّي:

محاورة فلسفية _ قصَّة تعصّب أبي العلاء للمتنبّئ _، ذكر أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي صاحب الاحتجاج قال فيه:

دخل أبو العلاء المعرّي علىٰ السيّد المرتضىٰ قدَّس الله روحه، فقال: أيّها السيّد ما قولك في الكلّ؟ فقال السيّد: ما قولك في الجزء؟ فقال: ما قولك في الشعرىٰ؟ فقال: ما قولك في التدوير؟ فقال: ما قولك في عدم الانتهاء؟ فقال: ما قولك في التحيّز والناعورة؟ فقال: ما قولك في السبع؟ فقال: ما قولك في الزائد البري علىٰ السبع؟ فقال: ما قولك في الأربع؟ فقال: ما قولك في الواحد والاثنين؟ فقال: ما قولك في المؤثّر؟ فقال: ما قولك في المؤثّرات؟ فقال: ما قولك في النّحسَين؟ فقال: ما قولك في السَّعدَين؟ فبهت أبو العلاء. فقال السيّد قدَّس الله روحه عند ذلك: ألَا كلّ ملحدٍ مُلهِد. فقال أبو العلاء: من أين أخذته؟ قال: من كتابه الله ﷻ: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، فقام فخرج، فقال السيّد: قد غاب عنّا الرجل، وبعد هذا لا يرانا.

فسُئِلَ السيّد عن شرح هذه الرموز والإشارات، فقال: سألني عن الكلّ، وعنده الكلّ قديم، ويشير بذلك إلىٰ عالم سمّاه العالم الكبير، فقال لي: ما قولك فيه؟ أراد أنَّه قديم، فأجبته عن ذلك، فقلت له: ما قولك في الجزء؟ لأنَّ عندهم الجزء محدَث، وهو متولِّد عن العالم الكبير، وهذا الجزء عندهم هو العالم الصغير...، وكان مرادي بذلك أنَّه إذا صحَّ أنَّ

هذا العالم محدَث، فذلك الذي أشار إليه إن صحَّ فهو محدَث أيضاً، لأنَّ هذا من جنسه علىٰ زعمه، والشيء الواحد والجنس الواحد لا يكون بعضه قديماً وبعضه محدَث، فسكت لـمَّا سمع ما قلته.

وأمَّا الشعرىٰ، أراد بها أنَّها ليست من الكواكب السيّارة، فقلت له: ما قولك في التدوير؟ أردت أنَّ الفلك في التدوير والدوران، والشعرىٰ لا يقدح في ذلك.

وأمَّا عدم الانتهاء، أراد بذلك أنَّ العالم لا ينتهي لأنَّه قديم، فقلت له: قد صحَّ عندي التحيّز والتدوير، وكلاهما يدلّان علىٰ الانتهاء.

وأمَّا السبع، أراد بذلك النجوم السيّارة التي هي عنده ذوات الأحكام، فقلت له: هذا باطل بالزائد البري الذي يحكم فيه بحكم لا يكون ذلك الحكم منوطاً بهذه النجوم السيّارة التي هي الزهرة والمشتري والمرّيخ وعطارد والشمس والقمر وزحل.

وأمَّا الأربع، أراد بها الطبائع، فقلت له: ما قولك في الطبيعة الواحدة النارية يتولَّد منها دابّة بجلدها تمسّ الأيدي (كذا)، ثمّ يطرح ذلك الجلد علىٰ النار فتحرق الزهومات فيبقىٰ الجلد صحيحاً؛ لأنَّ الدابّة خلقها الله علىٰ طبيعة النار، والنار لا تحرق النار. والثلج أيضاً تتولَّد فيه الديدان، وهو علىٰ طبيعة واحدة، والماء في البحر علىٰ طبيعتين يتولَّد منه السموك والضفادع والحيّات والسلاحف وغيرها، وعنده لا يحصل الحيوان إلَّا بالأربع، فهذا مناقض بهذا.

وأمَّا المؤثّر، أراد به زحل، فقلت له: ما قولك في المؤثّرات؟ أردت به أنَّ المؤثّرات كلهنَّ عنده مؤثّرات، فالمؤثّر القديم كيف يكون مؤثّراً؟

وأمَّا النحسان، أراد بهما أنَّهما من النجوم السيّارة، إذا اجتمعا يخرج

من بينهما سعد، فقلت له: ما قولك في السعدين إذا اجتمعا يخرج من بينهما نحس، هذا حكم أبطله الله تعالىٰ، ليعلم الناظر أنَّ الأحكام لا تتعلَّق بالمسخّرات، لأنَّ الشاهد يشهد أنَّ العسل والسكر إذا اجتمعا لا يحصل منهما الحنظل والعلقم، والحنظل والعلقم إذا اجتمعا لا يحصل منهما الدبس والسكّر، هذا دليل علىٰ بطلان قولهم.

أمَّا قولي: ألَا كلّ ملحد ملهد، أردت أنَّ كلّ مشرك ظالم؛ لأنَّ في اللغة: اَلْحَدَ الرجل إذا عدل عن الدين وأَلْهَدَ إذا ظلم، فعلم أبو العلاء ذلك وأخبرني عن علمه بذلك، فقرأت: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ ...﴾ الآية.

القول على شاعرية المرتضى وديوان شعره:

كنّا في غنىٰ عن ذكر هذا الباب، لولا ما علمنا من جهل كثير من متأدّبي هذا العصر، بأن يكون الشريف المرتضىٰ الفقيه المتكلِّم شاعراً، ومن عدم علم، حتَّىٰ بعض الأُدباء، بأن يكون له ديوان شعر، أو أنَّ بعضهم علم بشاعريته، وقد يكون رأىٰ ديوان شعره، ولكنَّه تجاهل من كونه من الشعراء المفلقين الذين قد لا تقلّ مرتبتهم عن مرتبة مثل أخيه الشريف الرضي في الشعر، وفارةً وإجادةً وصناعةً وتنوّع أغراض، وحسن أداءٍ للمعنىٰ المقصود والغرض المطلوب؛ حتَّىٰ جرَّ القول أن يقول أحدهم:

إنَّ من محاسن شعر المرتضىٰ كان في أداته لا في صناعته، وفي توفّره علىٰ مادّة الشعر وقرضه لا في الإجادة في تنقية تلك المادّة... الخ.

وإنَّ شعره كانت تنقصه المهارة في صناعته وحسن الرويّة في بديهته، وفضل الاختيار لمفردات اللغة، واستعمال المعنىٰ في مكانه المناسب... الخ.

وإنَّه أخيراً ليس بالشاعر المحسن في الانتفاع بمادّة لغته، ومخزون معانيه، في اختيار أنسبها وأفضلها جرياً مع الجرس وطباقاً مع المناسبة، وإنَّه وإن كان شاعراً مهيَّأ الأدوات موفوراً الأسباب، واسع المخزون من الألفاظ والمعاني، لكنَّه لم يحسن الانتفاع بهما في محلّه الغني، ولم يصب منها كبير جدوىٰ في صناعة الشعر...

ونحن لا نريد أن نطيل القول في تفنيد هذه الآراء والمزاعم أو تأييدها بعد أن يكون الديوان قد حصل في يدي القارئ الأديب، فله النظر فيه والحكم له أو عليه، ولكلّ رأي محترم.

ولكن عنَّ لنا أن نفتح هذا القسم من الديوان علىٰ غير اختيار أو تعيين لنتلو علىٰ القارئ الأديب شيئاً قد يتَّضح منه إبطال ما سلف من التجنّي علىٰ المرتضىٰ وشعره، وأنَّه كان حقَّاً من المتفعين بمفردات لغته، وناضجات فطائره، المتصرّفين بفنون المعاني والألفاظ الموضوعة في محالها والمصوغة علىٰ أفضل ما يمكن صياغتها.

ومن محاسن الاتّفاق أن يقع نظرنا في أوَّل ما يقع... من هذا القسم من الديوان، وهي أبيات من جملة قصيدة قالها المرتضىٰ علىٰ لسان صديقه الوزير أبي علي الحسن بن حمد، بعد أن التمسه نظمها ليبعثها إلىٰ الملك بهاء الدولة، يذكّره بسالف حقوقه وجليل مواقفه، ويطلب منه العتبىٰ بالعتاب اللطيف، بعد جفوة يسيرة حصلت بينهما، فلينظر اللبيب فهل يرىٰ في هذه القصيدة من آثار التعمّل والتكلّف والصنعة المستجلبة في الألفاظ أو المعاني شيئاً، أو ليرىٰ هل أبياتها مستقلَّة بمعانيها غير منسجمة مع نظائرها من أخواتها كما قد يحصل في أغلب القصائد المتعملة والمقولة علىٰ لسان غير قائلها؟

خـــذوا منّـــا التحيّـــة واقرءوهـــا وإن لم تَســـمعوا عنهـــا جوابـــا
عـــلىٰ ملـــكٍ تنـــزّه أن يحـــابي وأغنتـــه المحامـــد أن يُحـــابىٰ
ولـــــمّا أن تحجَّـــب بالمعـــالي عـــلىٰ أعدائـــه رفـــع الحجابـــا
وقولـــوا للـــذين رضـــوا زمانـــاً فـــردّهم الوشـــاة بنـــا غضـــابا
عـــدَتنا عـــن ديـــاركم العـــوادي وراب مـــن الزيـــارة مـــا أرابـــا
فـــلا جـــوٌّ نشـــيم بـــه بروقـــاً ولا أرضٌ نشـــمّ لهـــا ترابـــا
ومـــا كنّـــا نخـــاف وإن جنينـــا بـــأنَّ الهجـــر كـــان لنـــا عقابـــا
أقيلونـــا الـــذنوب فـــإنَّ فـــيكم وعنـــدكُمُ لمجـــرمكم متابـــا
ولا تســـتبدعوا خطـــأ المـــوالي فـــإنَّ العبـــد يُبـــدع إن أصـــابا
بعـــدنا عـــنكم ولنـــا أعـــادٍ يزيـــدهُمُ تباعـــدنا اقترابـــا
فَرونـــا بالشّـــفار فـــما أكلّـــوا لهـــم في فرينـــا ظَفـــراً ونابـــا
وكنّـــا إذ أمنّـــاهم علينـــا رعـــاة الـــبَهِم إذ أنـــوا الـــذئابا

منها:

وقـــل للمجلبـــين عـــليَّ مهـــلاً فقـــد أدركـــتُمُ فيـــه الطِلَّابـــا

منها:

وأنـــت أريتنـــا في كـــلّ بـــاغ غفـــرت ذنوبـــه العَجَـــبَ العُجابـــا
فـــما لي لا تســـوّيني بقـــوم رَقَـــوا في كيـــد دولتـــك الهضـــابا

منها:

ولـــمّا أن عـــوىٰ بالســـيف كلـــبٌ وجـــرَّ إلىٰ ضـــلالته كلابـــا
وظنّـــك لاهيـــاً عنـــه ويَرمـــىٰ قـــديماً بالغبـــاوة مـــن تغـــابىٰ

رأىٰ ليناً فظَنَّ عليه خيراً ويلقَىٰ اللَينَ من لمس الحُبابا

دلفتَ إليه في عصب المنايا إذا أمّوا طعاماً أو ضرابا

جوهاً في نَدىٰ تلفىٰ رقاقاً وعند ردىٰ تلاقيها صِلابا

وأبصرها علىٰ الأهواز شَعثاً تخال بهنَّ من كَلَبٍ ذئابا

عليها كلّ أروع شمّري يهاب من الحميّةِ أن يهابا

فولّىٰ في رهيطٍ كان دهراً يمنّيهم فأوردهم سرابا

ثمّ يتبعها بأبياتٍ أشدُّ حماسة ممَّا سلف، وأكثر تعانقاً وتماسكاً بين أبياتها، فكأنّها سلاسل الذهب حقّاً، حتَّىٰ يختمها بهذا البيت:

وطابت لي حياتك ثمّ طالت فخير العيش ما إن طال طابا

أترىٰ هذه القصيدة يقال عنها وعن أمثالها ما قيل...؟ (انتهىٰ ما اخترناه من شرح ديوان الشريف لمؤلِّفه رشيد الصفّار المحامي).

قال السيّد علي خان المدني في (الدرجات الرفيعة) بعد أن استعرض ترجمة الشريف المرتضىٰ: ولنورد الآن من منظوم كلامه الرفيع الشأن، ما يهزُّ له السامع عِطف الاستحسان، فمن ذلك قوله من قصيدة، قال الثعالبي: وهو ممَّا يُسكِر بلا شرب، ويُطرِب بلا سماع:

أحبُّ ثرىٰ نجدٍ ونجدٌ بعيدة ألَا حبَّذا نجد وإن لم تفد قربا

يقولون نجد لست من شعب أهلها وقد صدقوا لكنَّني منهم حبا

كأنّي وقد فارقت نجداً شقاوةً فتىٰ ضلَّ عنه قلبه ينشد القلبا

وقوله في أُخرىٰ:

ولقد زادني عشيّة جمع منكم زائر علىٰ الآكام

بات أشهىٰ إلىٰ الجفون وأحلىٰ في منامي غب السرىٰ من منامي

كـدت لمـا حللـت بـين تراقيـه ... حرامـاً أحـلُّ مـن إحرامـي
وسـقاني مـن ريقـه فسـقاني ... مـن زلال مصـفق بمـدام
صـدَّعني بـالنزر إذ أنـا يقظـان ... وأعطـىٰ كثـيره في المنـام
والتقينـا كـما اشـتهينا ولا عيـب ... سـوىٰ أنَّ ذاك في الأحـلام
وإذا كانـت الملاقـاة لـيلاً ... فالليـالي خـير مـن الأيّـام

وقوله في قصيدة طويلة:

أتـرىٰ يـؤدّب لنـا الأبَـيرقُ ... والمنـىٰ للمـرء شـغلُ
طلـل لعـزَّةَ لا يـزال ... عـلىٰ ثـراهُ دمٌ يُطـلُّ
قتلـوا ومـا قتلـوا وعنـد ... هـم لنـا قَـودٌ وعقـلُ
قـل للـذين عـلىٰ مواعـدهم ... لنـا خُلـفٌ ومطـلُ
كـم ضـامني مـن لا أضـيم ... وملَّنـي مـن لا أمـلُّ
يـا عـاذلاً لملامـه ... كـلٌّ عـلىٰ سـمعي وثقـلُ
إن كنـت تـأمر بالسـلوّ ... فقـل لقلبـي كيـف يسـلو
قلبـي رهـين في الهـوىٰ ... إن كـان قلبـك منـه يخلـو
ولقـد علمـتُ عـلىٰ الهـوىٰ ... إنَّ الهـوىٰ سـقم وذلُّ
وتعجَّبـت جُمـلٌ لشـيبِ ... مفـارقي وتشـيب جُمـلُ
ورأت بياضـاً في سـوادٍ ... مـا رأتـه هنـاك قبـلُ
كذُبالـةٍ رَفِعـت عـلىٰ ... الهضـبات للسـارين ضـلّوا
لا تنكريـه سـويب غـيرك ... فهـو للجهـلات غـلُّ
ومَعَـرّس أيقظتُـه ... والليـلُ للآفـاق كحـلُ

في ليلـــــــةٍ مضـــــــــروبة والقَـــرُّ في الأطـــراف نَمـــلُ
نـــزع الكـــرىٰ ثـــمّ استوىٰ فكأنَّـــه للركـــب جِـــذلُ

وله ﷺ:

مـولاي يـا بـدر كـلّ داجيـة خـذ بيـدي قـد وقعـت في اللجـج
حسـنك مـا تنقضـي عجائبـه كـالبحر حـدث عنـه بـلا حـرج
بحـقّ مـن خـطّ عارضيـك ومـن سـلَّط سـلطانها عـلىٰ المهـج
مُـدْ يَـدَيكَ الكـريمتين معـاً ثـمّ ادعُ لي مـن هـواك بـالفرج

وله من قصيدة:

ولـمَّا تفرقنـا كـما شـاءت النـوىٰ تبـيَّن ودٌ خـالص وتـودّد
كـأنّي وقـد سـار الخليـط عشـية أخـو جنَّـةٍ ممَّـا أقـوم وأقعـد

وله من قصيدة:

ألَا يا نسيم الريح مـن أرض بابـل تحمّـل إلىٰ أهـل الخيـام سـلامي
وقـل لحبيـب فيـك بعـض نسـيمه أمَـا آنَ أن تسـطيع رجـع كلامـي
رضـيت ولـولا مـا علمـتهم مـن لمـا كنـت أرضىٰ مـنكم بلـمام
وإنّي لأرضىٰ أن أكـون بأرضـكم علىٰ أنَّني منهـا اسـتفدت سـقامي

وقوله:

بينـــي وبـــين عـــواذلي في الحـبّ أطـراف الرمـاح
أنـــا خـــارجي في الهـــوىٰ لا حكـــم إلَّا للمـــلاح

وقوله:

قـل لمـن خـدّه مـن اللحـظ دام رقّ لي مـن جـوانح فيـك تـدمىٰ

يا سقيم الجفون من غير سقم   لا تلمني إن متُّ منهنَّ سقما
أنا خاطرت في هواك بقلب   ركب البحر فيك أمَّا وأمَّا

وقوله من قصيدة:

قل لمعزّ بالصبر وهو خلّي   وجميل العذول ليس جميلا
ما جهلنا أنَّ السلوّ مريح   لو وجدنا إلىٰ السلوّ سبيلا

وقوله من مقطوعة في الشيب:

يقولون لا تجزع من الشيب ضلة   وأسهمه إيّاي دونهم تهمي
وقالوا أتاه الشيب بالحلم والحجىٰ   فقلت بها يبري ويعرف من لحمي
وما سرَّني حلم يفيء إلىٰ الردىٰ   كفاني ما قبل المشيب من الحلم
إذا كان يعطيني من الحزم سالباً   حياتي فقل لي كيف ينفعني حزمي
وقد جرَّبت نفسي الغداة وقاره   فما شدَّ من وهني وما سدَّ من ثلمي
وإنّي مذ أضحىٰ عذارىٰ قراره   أعاد بلا سقم وأجفىٰ بلا جرم
وسيّان بعد الشيب عند جنائبي   وقفن عليه أم وقفن علىٰ رسمي

وفي هذا المقدار من محاسن شعره كفاية، إذ كان جميعاً ليس له نهاية.

مؤلّفاته:

١ _ إبطال القياس، ذكره الذهبي في سير النبلاء.

٢ _ الانتصار، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب، وسمّياه (الإنفرادات في الفقه).

٣ _ إنقاذ البشر من القضاء والقدر، ذكره ابن شهر آشوب.

٤ _ البرق، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب، وسمّياه (المرموق في أوصاف البروق).

٥ _ تتبّع الأبيات التي تكلّم عليها ابن جنّي في إثبات المعاني للمتنبّي، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٦ _ تتمّة أنواع الأعراض من جمع أبي رشيد النيسابوري، ذكره ابن شهر آشوب.

٧ _ تفسير الخطبة الشقشقية، نقله صاحب (روضات الجنّات)، عن كتاب (رياض العلماء).

٨ _ تفسير قصيدة السيّد الحميري المعروفة بالقصيدة المذهَّبة، وهي القصيدة البائية في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وتبلغ (١١٣) بيتاً كما في ديوانه، مطلعها:

هلّا وقفت علىٰ المكان المُعشبِ بين الطُّويلع فاللّوىٰ من كوكب

ذكرها أبو جعفر لطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب، وطُبِعَت مع الشرح بمصر سنة (١٣١٣هـ) بعنوان (القصيدة الذهبية).

٩ _ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ (المائدة: ٩٣)، ذكره النجاشي.

١٠ _ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ...﴾ (الأنعام: ١٥١)، ذكره النجاشي.

١١ _ تفسير سورة الحمد وقطعة من سورة البقرة، ذكره النجاشي.

١٢ _ تقريب الأُصول، ذكره النجاشي.

١٣ _ تكملة الغرر والدرر، ذكره ابن شهر آشوب.

١٤ _ تنزيه الأنبياء، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

١٥ _ جمل العلم والعمل، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

١٦ _ جواب الملحدة في قِدَم العالم من أقوال المنجّمين، ذكره ابن شهر آشوب.

١٧ _ الحدود والحقائق، ذكره ابن شهر آشوب.

١٨ _ الخطبة المقمَّصة، ذكره ابن شهر آشوب.

١٩ _ الخلاف في أُصول الفقه، ذكره النجاشي، وابن شهر آشوب.

٢٠ _ ديوان شعره، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب، وذكر بروكلمان المستشرق أنَّ منه نسخة مخطوطة في مكتبة مشهد.

٢١ _ الذخيرة في الأُصول، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

٢٢ _ الذريعة في أُصول الفقه، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

٢٣ _ الردّ علىٰ يحيىٰ بن عدي في اعتراض دليل الموحّد في حدوث الأجسام، ذكره النجاشي، وابن شهر آشوب.

٢٤ _ الردّ علىٰ يحيىٰ بن عدي في مسألة سمّاها طبيعة المسلمين، ذكره النجاشي.

٢٥ _ الرسالة الباهرة في العترة الطاهرة، ذكره ابن شهر آشوب.

٢٦ _ رسالة في المحكم والمتشابه، منقول من تفسير النعماني، ذكره ابن شهر آشوب.

٢٧ _ الشافي في الإمامة والنقض علىٰ كتاب المغني للقاضي عبد الجبّار بن أحمد، ذكره أبو جعفر الطوسي، وقال: (إنَّه لم يُؤلَّف مثله في الإمامة)، وذكره أيضاً النجاشي، وابن شهر آشوب، وقد اختصره أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (تلميذ المرتضىٰ وصاحب الفهرست المذكور) والمعروف هنا بالطوسي، المتوفّىٰ سنة (٤٦٠هـ).

٢٨ _ شرح مسائل الخلاف، ذكره النجاشي.

٢٩ _ الشهاب في الشيب والشباب، ذكر أبو جعفر الطوسي.

٣٠ _ طيف الخيال، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٣١ _ غرر الفوائد ودرر القلائد، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

٣٢ _ الفرائض في نصر الرواية وإبطال القول بالعدد، ذكره ابن شهر آشوب.

٣٣ _ الفقه الملكي، ذكره ابن شهر آشوب.

٣٤ _ الكلام علىٰ من تعلَّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ ...﴾ (الإسراء: ٧٠)، ذكره النجاشي.

٣٥ _ ما تفرَّد به الإمامية، ذكره النجاشي، وابن شهر آشوب.

٣٦ _ مسائل آيات، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٣٧ _ مسائل أهل مصر الأُولىٰ والأخيرة، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي.

٣٨ _ مسائل البادريات، ذكره النجاشي.

٣٩ _ مسائل التبانيات، ذكره النجاشي، وابن شهر آشوب.

٤٠ _ المسائل الجرجانية، ذكره الطوسي، وابن شهر آشوب.

٤١ _ المسائل الحلبية الأُولىٰ والأخيرة، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٤٢ _ مسائل الخلاف في الفقه، لم يتمّه؛ ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب، وذكر بروكلمان أنَّ منه نسخة في مكتبة مشهد ضمن مجموعة.

٤٣ _ المسائل الرازية، (١٤) مسألة، ذكره ابن شهر آشوب.

٤٤ _ المسائل الرمليات، ذكره النجاشي.

٤٥ _ المسائل السلَّارية، ذكره ابن شهر آشوب، وذكر بروكلمان أنَّ منه نسخة مخطوطة في مكتبة مشهد ضمن مجموعة.

٤٦ _ المسائل الصيداوية، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٤٧ _ المسائل الطبرية، ذكر بروكلمان أنَّ منه نسخة في مكتبة مشهد، وذكره أيضاً الكنتوري في (كشف الحجب).

٤٨ _ المسائل الطرابلسية الأُولىٰ والأخيرة، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٤٩ _ المسائل الطوسية، لم يتمّ، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٥٠ _ المسائل المحمّديات، ذكره النجاشي.

٥١ _ مسائل مفردات، نحو مائة مسألة في فنون شتّىٰ، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٥٢ _ مسائل مفردات في أُصول الفقه، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٥٣ _ المسائل الموصلية الثلاثة، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب، وذكر بروكلمان أنَّ منها نسخة مخطوطة في مكتبة مشهد ضمن مجموعة.

٥٤ _ مسائل ميافارقين، ذكره ابن شهر آشوب، وذكر بروكلمان أنَّ منه نسخة مخطوطة في النجف في مكتبة خاصّة، وأُخرىٰ في مكتبة مشهد ضمن مجموعة.

٥٥ _ المسائل الناصرية في الفقه، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٥٦ _ مسألة في الإرادة، ذكره النجاشي.

٥٧ _ مسألة في دليل الخطاب، ذكره النجاشي.

٥٨ _ مسألة في التأكيد، ذكره النجاشي.

٥٩ _ مسألة في التوبة، ذكره النجاشي.

٦٠ _ مسألة في قتل السلطان، ذكره النجاشي.

٦١ _ مسألة في كونه تعالىٰ عالماً، ذكره النجاشي.

٦٢ _ مسألة المتعة، ذكره النجاشي.

٦٣ _ المصباح في أُصول الفقه، لم يتمّه؛ ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

٦٤ _ المقنع في الغيبة، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

٦٥ _ المخلص في الأُصول، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

٦٦ _ المنع من تفضيل الملائكة علىٰ الأنبياء، ذكره ابن شهر آشوب.

٦٧ _ الموضّح عن وجه إعجاز القرآن، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وسمّياه (كتاب الصرفة)، وذكره أيضاً ابن شهر آشوب.

٦٨ _ نقض الرواية وإبطال القول بالعدد، ذكره أبو جعفر الطوسي، وذكره أيضاً ابن شهر آشوب، وسمّاه (مختصر الفرائض في قصر الرواية وإبطال القول بالعدد)، وذكر بروكلمان أنَّ منه نسخة مخطوطة في مكتبة مشهد ضمن مجموعة.

٦٩ _ النقض علىٰ ابن جنّي في الحكاية والمحكي، ذكره أبو جعفر الطوسي، وابن شهر آشوب.

٧٠ _ نكاح أمير المؤمنين ابنته من عمر، ذكره ابن شهر آشوب.

٧١ _ الوعيد، ذكره النجاشي.

وفاته ومدفنه:

توفّي المرتضىٰ رضي الله عنه لخمس بقين من شهر ربيع الأوّل سنة (٤٣٦هـ) ببغداد، وله من العمر سبع وتسعون سنة.

وقيل: ثمانون سنة، وصلّىٰ عليه ابنه في داره، ودُفِنَ فيها عشية ذلك اليوم، ثمّ نُقِلَ بعد ذلك إلىٰ كربلاء، ودُفِنَ بجوار أجداده عند قبر أبيه وأخيه الرضي وجدّه إبراهيم ابن الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام.

قال النجاشي: (وتوليت غسله ومعي الشريف أبو يعلىٰ محمّد بن الحسن الجعفري وسلّار بن عبد العزيز)[1].

ونُقِلَ عنه أنَّه قال عند وفاته:

لئن كان حظّي عاقني عن سعادتي ... فإنَّ رجائي واثق بحليم

وإن كنت في زاد التقيّة والتقىٰ ... فقيراً فقد أمسيت ضيف كريم

وجاءت له ترجمة وافية في كتاب (أعيان الشيعة)[2] لمؤلّفه العلّامة السيّد محسن الأمين.

* * *

(١) رجال النجاشي: ٢٧١/ الرقم ٧٠٨.

(٢) أعيان الشيعة ٨: ٢١٣ - ٢١٩.

(١٩)
الفردوسي الشاعر(١)

في (الكنىٰ والألقاب): الفردوسي سحبان العجم الحكيم أبو القاسم الحسن بن محمّد الطوسي، الشاعر المعروف، له يد في تمام فنون الكلام: في التشبيب والغزل والحكمة، والاعذار والإنذار، والمدح والهجاء والرثاء والافتخار والعتاب وغيرها من أغراض الشعر.

ولذلك يُعَدُّ من أكبر شعراء إيران وأشهرهم، لا لأنَّه أتىٰ بالشعر الحماسي الذي أحيىٰ به القومية الإيرانية، ولذلك قيل في وصف الشاهنامة: هي المرجع المهمّ في التاريخ والأدب الفارسي لجميع الأُدباء والمؤرِّخين، وهو كنز اللغة الفارسية وقاموسها، فليس هو كتاباً تاريخياً يشتمل علىٰ ذكر الملوك والأبطال وقضايا إيران وحوادثها الماضية فحسب؛ بل هو محتو علىٰ أغلب فنون الأدب، ففيه حكمة وغزل وأخلاق وموعظة وتزهيد، في أُسلوب قريب وطراز بديع.

قيل: كان من دهاقين طوس، نظم كتاب (شاهنامه) من أوَّل زمان كيومرث إلىٰ زمان يزدجرد بن شهريار في ستّين ألف بيت في مدَّة ثلاثين سنة آخرها سنة (٣٨٤هـ)، ذكره السيّد الشهيد القاضي نور الله في مجالسه ومدحه بقوله:

---

(١) الكنىٰ والألقاب ٣: ٢٠؛ أعيان الشيعة ٢١: ٦٤.

يگانــه فــارس ميــدان فــرس فردوســی
كه در محاربـه غريـده همچـو شـير عـرين
بر آن زمين كه قدم رانده شخص فطرت او
ســخنوران ازل تــا ابــد نهــاده چنــين

وقـال: اسـمه حسـن بـن إسـحاق بـن شرفشـاه، ونقـل منـه هـذه الأشعار التي تدلُّ علىٰ تشيّعه:

بگفتــــار پيغمــــبرت راه جــــوی
دل از تيرگيهــــا بــــدين آب شــــوی
چــه گفــت آن خداونــد تنزيــل وحــی
خداونــــد امــــر و خداونــــد نهــــی
كــه مــن شــهر علمــم عليّم در اســت
درست ايـن سـخن گفـت پيغمـبر اسـت
گـواهي دهـم كـاين سـخن را زاوسـت
تـو گـوئي دو گوشـم بـر آواز اوسـت
مــــنم بنــــده اهــــل بيــــت نبــــی
ســــتاينده خــــاک پــــای وصی
اگــــر چشــــم داری بــــديگر سرای
بنــــزد نبــــی و وصی گــــير جــــای
گـرت زيـن بـد آيـد گنـاه مـن اسـت
چنين است و اين رسـم و راه مـن اسـت

بـــدين زادهـــم و هـــم بـــدين بگـــذرم
چنـــان دان كـــه خـــاک پـــی حيـــدرم
ابـــا ديگـــران مـــر مـــرا كـــار نيســـت
جـــزايم در مـــرا هـــيچ گفتـــار نيســـت
نبـــی وعـــلى دخـــتر و هـــر دو پـــور
گزيـــــدم و زان ديگـــــرانم نفـــــور
دلـــت گـــر بـــراه خطـــا مايـــل اســـت
تـــو را دشـــمن انـــدر خـــود دل اســـت
هر آنكس كه در دلـش بغـض عـلى اسـت
ا ز او خـــوارتر در جهـــان زار كيســـت
نباشـــد مگـــر بـــی پـــدر دشـــمنش
كـــه يـــزدان بـــآتش بســـوزد تـــنش

توفّي بطوس سنة (٤١١هـ)، انتهىٰ.

وذكـره الشـيخ أغـا بـزرك الطهـراني في (الذريعـة)[1] وقـال مـا نصّـه: (شاهنامه) فارسي منظوم في ستّين ألـف بيت، للشـاعر الحكـيم أبي القاسـم الحسن بن إسحاق بن شرفشاه الوزاني الطوسي الشهير بالفردوسي.

من أشهر شعراء الفرس وأخلـدهم، وُلِـدَ سـنة (٣٢٣هــ) وتـوفّي سـنة (٤١١هـ)، وهو من قرية وزان من قرىٰ طوس، وكان من تلاميذ الشاعر الحكيم أبي منصور (أبي نصـر خ ل) علي بن أحمد الأسدي الطوسي.

---

(١) الذريعة ١٣: ١٦ - ٢١/ الرقم ٤٩.

والشاهنامة نظم لطيف تضمَّن تواريخ سلاطين الفرس من أوَّل زمان كيومرث إلىٰ زمان يزدجرد بن شهريار، ولم تقتصر علىٰ ذلك بل احتوت علىٰ كثير من الحكم والمواعظ والنصائح والترغيب والفلسفة والأخلاق، والغزل والأمثال، وغير ذلك من فنون الشعر وأبوابه.

وهي عند الفرس كالإلياذة عند اليونان، فهم يعتبرونها من كنوز اللغة الفارسية وذخائرها، وقد جاء في كتاب (سخن وسخنوران) الفارسي ما ترجمته: إنَّ ربعها من الشعر العالي، وربعها من الشعر الجيّد، ونصفها من الشعر المتوسّط، وأنَّها من خزائن الفصاحة واللغة، وهي دليل قوي علىٰ سعة معرفة الفردوسي وقوَّة تفكيره وقدرته العجيبة علىٰ النظم وتمكّنه من إخضاع أصعب القوافي، فإنَّ استقامته في النظم دليل ثابت علىٰ قدرته البيانية وتمكّنه من التعبير عمَّا يخالجه، فقد ضمَّن العبارات السهلة معانٍ صعبة ومادّة غزيرة.

والحقيقة أنَّ هذه الملحمة الكبيرة والسفر التاريخي الخالد، من جلائل الآثار ومهامّها، فهي كتاب تاريخ اشتمل علىٰ ذكر ملوك إيران وأبطالها وحوادثها وحروبها وقصصها، وقضاياها وآدابها وأخلاقها وما هنالك، وديوان أدب احتوىٰ علىٰ أغلب الفنون وأظرفها، وأجمع أطراف معظم المواضيع والعلوم والمعارف، وقد أجمعت آراء الشرق والغرب من النقّاد علىٰ أنَّها من الأدب العالي والشعر السامي.

ولم يتعرَّض لها بالنقد أحد غير المستر براون فقد قال في كتابه (تاريخ أدبيات إيران) ما ترجمته: إنَّها ليست في المستوىٰ العظيم من الشعر. مع أنَّه لم يجحد مكانتها في اللغة والتاريخ والأدب، ويعتبر هذا الرأي شذوذاً وخروجاً علىٰ إجماع النقّاد علىٰ تباين أذواقهم ونزعاتهم، فقد أسلفنا أنَّهم أجمعوا علىٰ تقديرها والثناء عليها.

إنَّه ليس من السهل علىٰ شاعر لا يكتفي بسرد الحوادث، بل يحرص علىٰ الإشارة إلىٰ عوامل الطبيعة في القضايا، ويربط الآثار بمؤثّراتها والعلل بمعلولاتها، ويتحدَّث عن الخصائص الاجتماعية التي لها بموضوعه أدنىٰ علاقة، بل يصعب علىٰ مثل هذا الشاعر الفخم الذي يسلسل القصص المهمّة والأحداث الرائعة، ويربط أفكاره كالسلسلة أن يعتني برصف الألفاظ وزخرفة الكلمات، وأن يأتي بالأبيات المنظومة قريبة الشبهة بعضها من بعض، لاسيّما إذا علمنا أنَّ الفردوسي نظم الشاهنامة في مدَّة ثلاثين سنة كما يأتي تفصيله.

فهل يمكنه أن يساوي بين ما نظمه في ساعته وما نظمه قبلها بعشرين سنة، لذلك فلا غرابة إذا ما وجدنا الشاعر يعلو ويهبط في بعض المواضع، ويسمو نظمه في موضع ويكون متوسّطاً أو عادياً في موضع آخر، فإنَّ اختلاف المواضيع والقضايا التي يطرقها بالنظم من جهة، والحوادث الزمنية المحيطة به من جهة أُخرىٰ لها الأثر التامّ في هذا المقام.

وإنَّ الكتاب الجامع الذي يحوي حوادث وقصص واسعة الأطراف لا بدَّ وأن يكون بعض أشعاره خيراً من بعض، لذلك فإنَّنا لا نعتبر رأي براون لما تجلّىٰ لنا من عظمة الشاعر ودرجة نبوغه، فالشعب أعرف بأدبه وشعره وخصائصه ومميّزاته، وقد حاول شعراء عديدون من الفرس تقليد الفردوسي ونظموا الملاحم فلم يبلغوا شأوه ولم يظفروا بطائل.

نظم الفردوسي الشاهنامة باسم السلطان محمود سبكتكين الغزنوي ولذلك سمّاها بالشاهنامة، وفي (سخن وسخنوران) أنَّه نظمها بأمره في سنة (٣٨٩ _ ٤٢١هـ) وبقي في نظمها زيادة علىٰ ثلاثين سنة،

ولكن هذا القول بعيد عن الصواب كما يبدو لأنَّها تمَّت في سنة (٤٠٠هـ) كما صرَّح به الفردوسي نفسه بقوله:

زهجرت شده پنج هشتاد بار	كه گفتم من اين نامه شاهوار

ومعناه أنَّه بضرب خمسة في ثمانين من الهجرة أي (٤٠٠)، وهذه السنة هي الثانية عشرة من سلطنة محمود.

أمَّا كونه بقي مشغولاً في نظمها ثلاثين سنة فهو ثابت بنصّ الفردوسي أيضاً، وعليه فلم يكن نظمه بأمر محمود، بل كان نظم القسم الأوَّل منه في زمن السامانيين، والمظنون قويَّاً أنَّه بدأ بنظمها مختصرة إلىٰ سنة (٣٨٤هـ)، وفي هذه السنة سافر إلىٰ العراق والتقىٰ بموفَّق الدين أبي علي الحسن بن محمّد بن إسماعيل الإسكافي وزير بهاء الدولة الديلمي ونظم له (يوسف وزليخا)، ثمّ عاد إلىٰ خراسان واشتغل جديداً نظمه وجعله باسم محمود الغزنوي، وكان محبَّاً للعلم والأدب، وقد وعد الفردوسي بأن يكافئه بستّين ألف دينار، وكان الفردوسي يأمل أن يحظىٰ بتلك الجائزة لتكون عوناً له في شيخوخته، ولـمَّا أتمَّ الشاهنامة قصد السلطان محمود للحصول علىٰ الجائزة، ولـمَّا ظهر للسلطان تشيّعه لم يفِ له بوعده ثمّ أبدل الدنانير بالدراهم، فغضب الفردوسي ولم يأخذها بل قسَّمها علىٰ حاملها وحمّامي وبايع شراب، وهجا السلطان هجاءً مرَّاً وهرب من غزنة إلىٰ هراة، فبقي فيها ستّة أشهر مختفياً في دكّان إسماعيل الورّاق والد الأزرقي الشاعر، ويقال: إنَّه ذهب إلىٰ طوس ووضع نسخة الشاهنامة عند أسبهبد طبرستان وأراد أن يجعلها باسمه، وهجا محموداً بمائة بيت اشتراها منه أسبهبد بمائة ألف درهم، وبقي مختفياً إلىٰ أن توفّي في سنة (٤١١هـ).

ويقال: إنَّ السلطان محمود ندم بعد ذلك علىٰ خلفه للوعد علىٰ أثر رسالة كتبها له (ناصر الملك ظ) أحد حكّام عصره، وكان وعظه فيها ونصحه، وذكره بفناء الدنيا وبقاء الذكر الحسن، وبتعب الفردوسي وما كان يؤمّله منه، فأمر السلطان له بستّين ألف دينار فحملت إليه، ووصل الرسول إلىٰ باب داره فرأىٰ الناس يخرجون منها وهم يحملون جنازة الفردوسي رحمه الله.

توجد نسخ من الشاهنامة في مكتبات الآستانة، ومكتبة حالت أفندي وغيرها كما في فهارسها، وطُبِعَت في بمبئي وغيرها، وطُبِعَت خلاصتها في سنة (١٣١٣ش) في المهرجان الألفي الذي أُقيم للفردوسي، والاختصار للميرزا محمّد علي خان ابن الميرزا محمّد حسين خان ذكاء الملك الفروغي، وترجمها إلىٰ العربية نثراً الأديب المصري عبد الوهّاب عزام، وطُبِعَت الترجمة في مجلَّدين بمصر في سنة (١٣٥١هـ)، وترجمت إلىٰ الإفرنجية سنة (١٩٠٣م) وطُبِعَت الترجمة أيضاً، وكتب المستشرق الألماني وولف المولود عام (١٩٠٠م) كشف كلمات الشاهنامة في ألفي صفحة بقطع (معجم المطبوعات) وطبع، وترجم مؤلِّفه في خاور شناسان (ص ٣٣٢)، وحكي فيه (ص ٤٩) عند ترجمة (أردمان) عن فهرست الكتب الفارسية المخطوطة في برلن تأليف ويلهلم پرج أنَّ أردمان هذا حقَّق أنَّ النسخة العتيقة من الشاهنامة الموجودة في مكتبة موسكوم مأخوذة من النسخة الأصلية منه.

وكتب الأديب المؤرِّخ المعروف سعيد النفيسي الأُستاذ بجامعة طهران مقالة مبسوطة في شرح أحوال الفردوسي وما يتعلَّق بكتابه (الشاهنامة)، ونقل هذه المقالة الأمير مجاهد في المجلَّد العاشر من (سالنامه پارس).

ويقال: إنَّ أُستاذه الحكيم الشاعر أبا منصور الأسدي الطوسي نظم أربعة آلاف بيت من أوَّل (الشاهنامة)، من أوَّل استيلاء العرب علىٰ العجم ومجيء المغيرة إلىٰ يزدجرد، وحرب سعد بن أبي وقّاص.

وللفردوسي قصائد في مدح أمير المؤمنين علي عليه السلام يظهر منها إخلاصه في التشيّع، منها قوله في قصيدة:

شهي كه زد بدو انگشت مرة را بدو نيم

زبهر قتل عدو ساخت ذو الفقار انگشت

شهى كه تا بدو انگشت در زخيبر كند

بر آمد از پى اسلام صد هزار انگشت

إلىٰ أن يقول:

غلام و چاكر و مداح تو است (فردوسى)

هميشه با قلمش گشته دست يار انگشت

انتهىٰ نقلاً عن (الذريعة)، وذكره العلَّامة السيّد الأمين العاملي.

* * *

(٢٠)

الرحّالة الحكيم ناصر خسرو القبادياني العلوي البلخي المروزي[١]

في (أعيان الشيعة): وُلِدَ في ذي القعدة سنة (٣٩٤هـ) في قصبة قباديان، وتوفّي سنة (٤٨١هـ) في غار (يمكان).

هو أبو معين الدين السيّد ناصر بن خسرو بن الحارث بن عيسىٰ بن حسن بن محمّد (الأعرج) بن أحمد بن موسىٰ (المبرقع) ابن الإمام محمّد الجواد ابن الإمام علي الرضا عليهما السلام، الرحّالة والشاعر الفارسي المعروف والحكيم الشهير.

وذكر المترجم تاريخ ميلاده في البيت التالي من شعره الفارسي:

بگذشت زهجرت بس سيصد نود و چار
بنهاد مرا مادر بر مركز اغبر

فهو خراساني الأصل بلخي المنشأ، وكانت أُسرته من الأُسر الغنيّة ذات الشرف والأملاك الواسعة والعقارات الوفيرة في قباديان وبلخ، وقد اهتمَّ والد المترجَم بتربية ابنه وتعليمه منذ نعومة أظفاره.

فحفظ القرآن وهو لم يبلغ بعد التاسعة من العمر، ودرس اللغة

---

(١) أعيان الشيعة ٤٩: ١١٣؛ روضات الجنّات ٨ : ١٦٢؛ معجم المؤلّفين ١٣: ٧٠؛ الذريعة ٩: ١١٥٤.

العربيـة وآدابهـا، والعلـوم الإسـلاميّة وفنونهـا، وعلـوم النجـوم والفلـك والحسـاب والهندسـة والجـبر، وتضـلَّع في الفلسـفة وخاصّـة الفلسـفتين اليونانية والإسلاميّة، بحيث أُطلق عليه اسم (الحكيم)، وتفقَّه في الدين وبالأخصّ في المذهب الإسماعيلي الفاطمي، وتفوَّق في العلوم العقلية والنقلية والحكمة الإلهية والمنطق.

وكانت له اليد الطولىٰ في الطبّ والموسيقىٰ، وكان شاعراً فحلاً في الفارسية، كما كان يتقن فنّ التصوير ويتبع آثار السلف، ويبحث في أُصول الملل والنحل والأديان والمذاهب، وله دراسات في أديان الهند والصابئة والمانوية واليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقبيل بلوغه السادسة والعشرين من عمره التحق ببعض الوظائف الديوانية العالية في بلاطي كلّ من السلطان محمود الغزنوي، وابنه السلطان مسعود الغزنوي، ثمّ في ديوان أبو سليمان جفري بك داود بن مكائيل بن سلجوق من أمراء السلاجقة الذين استولوا علىٰ بلخ سنة (٤٢٣هـ)، وكانت تُعهَد إليه في الغالب الشؤون المالية في البلاد.

وانتقل المترجَم من بلخ إلىٰ مرو التي كان يحكمها أبو سليمان المذكور، وكان من المقرَّبين للسلاطين والأُمراء فيجالسهم ويحضر محافل أُنسهم وطربهم، وكان السلطان يسمّيه عادةً (خواجة خطير).

وكان يُعَدُّ من أثرياء زمانه، وقضىٰ عهد شبابه كلّه متنقّلاً من وظائف دواوين وبلاطات الملوك والسلاطين والأُمراء حتّىٰ بلغ الثالثة والأربعين من عمره حيث اعتزل الوظائف إثر رؤيا حلم بها، وهي أنَّه رأىٰ فيما يرىٰ النائم من يدعوه إلىٰ ترك شرب الخمر التي كان يدمنها، والبحث عن الحقيقة والتزهّد في الحياة، والقيام برحلة إلىٰ مكّة لأداء فريضة الحجّ.

لذلك ترك الإقامة في موطنه واعتزم القيام برحلات في بعض الأمصار قاصداً فيها مكّة، يرافقه أخوه أبو سعيد خسرو العلوي وغلام هندي.

ففي الثالث من شهر شعبان (٤٣٧هـ) ترك مرو وسافر إلىٰ إقليم أذربيجان مارّاً بنيسابور ودامغان وسمنان والريّ وقزوين ثمّ تبريز حاضرة إقليم أذربيجان حيث وصلها في (٢٠) صفر سنة (٤٣٨هـ)، وكان أميرها سيف الدولة أبو منصور وهو دان بن محمّد مولىٰ أمير المؤمنين.

وبعد أن مكث فيها مدَّة من الزمن بارحها إلىٰ مرند وخوي وانتقل منها إلىٰ بعض أرمينية مثل وان وأفلاط وبطليس وآمد، ومنها سافر إلىٰ آسية الصغرىٰ ثمّ حرّان والبلاد السورية، ومرَّ بمعرَّة النعمان حيث كان أبو العلاء المعرّي حيّاً فيها لكنَّه لم يجتمع به.

وزار حلب وطرابلس الشام وصيدا وصور وبيروت ودمشق، ومنها سافر إلىٰ القدس التي وصلها في الخامس من شهر رمضان (٤٣٨هـ) ومكث فيها مدَّة تنوف علىٰ الشهرين، وفي حوالي منتصف شهر ذي القعدة من السنة نفسها رحل منها إلىٰ مكّة لأداء فريضة الحجّ، وبعد الانتهاء منها عاد إلىٰ القدس...

وقد لقي ناصر خسرو في هذه الرحلة أهوالاً جساماً ومشاق كثيرة ومتاعب وفيرة خاصّة أثناء إجتيازه جزيرة العرب، وقد ذكرها كلّها في رحلته المعروفة باسم (سفرنامه ناصر خسرو) التي ضمَّنها وصفاً ضافياً لما شاهده في هذه الرحلة من مدن وقرىٰ وأديرة ومعابد وقصور وبلاطات، ولمن اجتمع بهم من العلماء والفقهاء والشعراء والأُمراء والملوك والحكّام والزهّاد وغيرهم.

وأثناء إقامة ناصر خسرو في مصر وخاصّة القاهرة حوالي ثلاث سنوات توطَّدت الصلات بينه وبين الخليفة الفاطمي بمصر المستنصر بالله أبو تميم معد بن علي الذي حكم مصر من سنة (٤٢٧هـ) إلىٰ سنة (٤٨٧هـ)، كما تعزَّزت العلاقات بينه وبين علماء المذهب الإسماعيلي الفاطمي وقادته.

وقد أثَّرت فيه دعوتهم له لاعتناق مذهبهم، فاعتنقه علىٰ يد أحد حجّاب الدعوة في القاهرة الذي لم يذكر المترجَم اسمه، وكان يسمّيه (الباب)، وكان أحد النقباء في هذا المذهب.

واجتاح المترجَم المقامات والدرجات الخاصّة بكبار قادة هذا المذهب حتَّىٰ بلغ درجة (الحجَّة)، واعتبر أحد الحجج الاثني عشر الذي أُنيط به أمر نشر الدعوة للخلفاء الفاطميين في إحدىٰ الجزر الاثني عشر حسب تقسيمات الفاطميين عهدئذٍ.

وعُيِّنَ من قِبَل المستنصر بالله الفاطمي (حجَّة) علىٰ جزيرة خراسان، وأصبح من الداعين له ومن المتحمّسين في هذا المذهب، وتعهَّد بالدعوة له في إيران وخاصّة خراسان وما وراء النهر، ولذلك نجده يطلق علىٰ نفسه في بعض مؤلَّفاته اسم الحجَّة أو حجَّة خراسان أو حجَّة ابن النبيّ أو الحجَّة المستنصرية أو حجَّة نائب النبيّ أو سفير أو مأمور أو أمين إمام الزمان أو مختار إمام العصر أو المستعين بمحمّد أو المنتخب من علي المرتضىٰ.

وحين عودة المترجَم إلىٰ بلخ أخذ يدعو علناً للمذهب الإسماعيلي الفاطمي، ويناقش العلماء وخاصّة علماء المذهب السُّنّي فيه، ممَّا دعا هؤلاء إلىٰ معارضته ومحاجته ورفع راية الخلاف ضدّه، الأمر الذي حدا بسلاطين السلاجقة وأُمراء خراسان لمطاردته أينما وُجِدَ.

فهرب من بلخ قبيل سنة (٤٥٣هـ) وأصبح من جرّاء ذلك مشرَّداً متنقّلاً سرّاً من مدينة إلىٰ أُخرىٰ ومن قصبة إلىٰ قرية في أقاليم خراسان ومازندران إلىٰ أن انتهىٰ به المطاف سنة (٤٥٦هـ) إلىٰ غار يمكان الواقع قرب مدينة بدخشان وهي اليوم من مدن أفغانستان، وأقام فيه مختفياً بعيداً عن الأنظار إلىٰ أن توفّاه الله في غار يمكان حيث دُفِنَ فيه، ومزاره الآن معروف هناك يُزار لاسيّما من قِبَل الإسماعيليين.

وقد قضىٰ المترجَم الشطر الأخير من عمره في التأليف والتصنيف نظم الشعر بلغته الفارسية وبأُسلوبه الخاصّ به، كما أنَّه زهد في الحياة واتَّخذ جانب العزلة، ولكنَّه لم يترك دعوته للفاطميين حيث واصل جهاده في الدعوة لهم بحرارة، وفي إرسال دعاته إلىٰ الأطراف لبثّ دعوته.

وكان قويّ الحجَّة بارعاً في الجدل العلمي والنقاش الديني، وأوقف معظم وقته في عزلته للمناقشات الدينية والمذهبية، وتعتبر المدَّة التي قضاها في هذا الغار من أنشط أيّام حياته الذهنية.

مؤلَّفاته:

مؤلَّفاته كثيرة وقد كتبها كلّها إلَّا ما ندر باللغة الفارسية، وعُرِفَ منها حتَّىٰ الآن:

١ _ رحلته، التي ألَّفها بعد عودته من مصر إلىٰ بلخ مباشرة، قد طُبِعَت عدَّة مرَّات.

٢ _ زاد المسافرين، الذي انتهىٰ منه في سنة (٤٥٣هـ) وهو من أعظم مؤلَّفاته، مطبوع.

٣ _ وجه دين، مطبوع.

٤ _ خوان إخوان، مطبوع.

٥ _ روشنائي نامه، مطبوع.

٦ _ سعادت نامه، مطبوع.

٧ _ دليل المتحيّرين، الذي أراد أن يثبت فيه أحقّية المذهب الفاطمي، مخطوط ونادر.

٨ _ ديوان شعره، الذي قيل: إنَّه كان يضمّ بين دفَّتيه (٣٠) ألف بيت من الشعر الفارسي، ولكن المطبوع منه لا يحتوي إلَّا علىٰ (١١) ألف بيت بقليل.

٩ _ دبستان العقول، مخطوط نادر.

وقد نُسِبَت إليه كتب أُخرىٰ ورد ذكرها في بعض المخطوطات القديمة ولم يُعثَر عليها، منها:

١٠ _ إكسير أعظم، في المنطق أو الفلسفة.

١١ _ قانون أعظم، في السحر وعلوم ما وراء الطبيعة.

١٢ _ رسالة المستوفي، في الفقه.

١٣ _ رسالة في علم اليونان.

١٤ _ رسالة دستور أعظم.

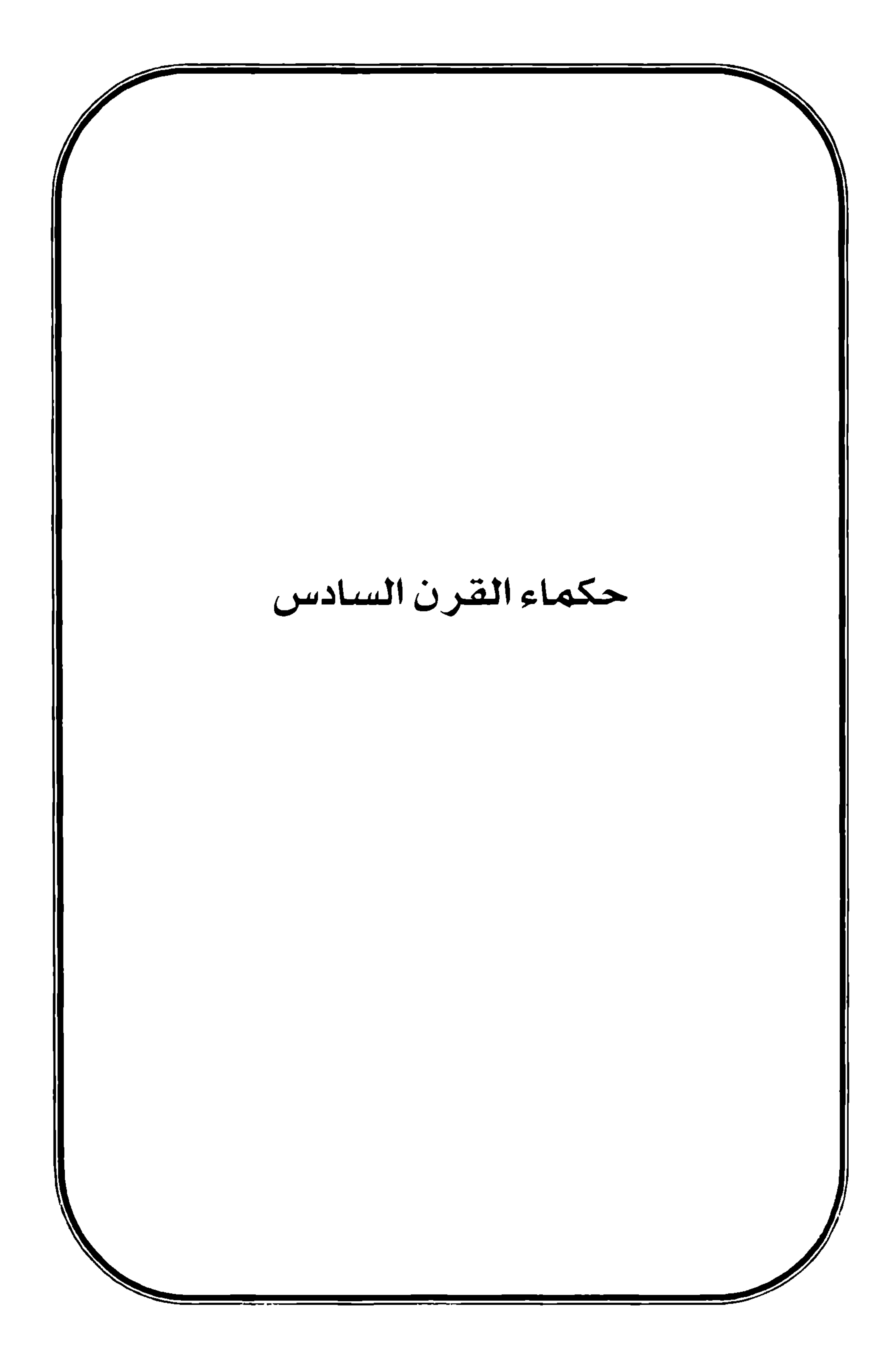
١٥ _ رسالة كنز الحقائق.

١٦ _ تفسير القرآن.

ورغم أنَّه ذكر في بعض أبياته الفارسية، أنَّه نظم الشعر باللغة العربية أيضاً، ولكنَّه لم يُعثَر حتَّىٰ الآن علىٰ نظم له بالعربية ولا علىٰ ديوان له بهذه اللغة، في حين أنَّه قال: إنَّ له ديوان شعر بهذه اللغة.

هـذا وقـد ذكـرت بعـض المصـادر أنَّ (نـاصر خســرو) جـاب الهنـد ورحـل إلىٰ الأفغـان في شرخ شـبابه عـلىٰ زمـن السـلطانين محمـود ومسـعود الغزنوي، ولكنَّه نفسه لم يشر إلىٰ هذا الأمر في انشاءاته.

* * *



حكماء القرن السادس

(٢١)

الشيخ جمال الدين علي بن سليمان السترى البحراني[١]

في (أعيان الشيعة)[٢]: في أنوار البدرين عن الشيخ سليمان الماحوزي أنَّه قال في حقّه: الفيلسوف الحكيم الشيخ جمال الدين علي بن سليمان البحراني، أثنىٰ عليه آية الله العلَّامة في رسالته التي أفردها لإجازته لأولاد زهرة، وذكر أنَّه عارف بقواعد الحكماء وأنَّه يروي عنه بواسطة ولده الشيخ حسين، وأثنىٰ عليه الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن المعلّىٰ في بعض مصنَّفاته، وابن أبي جمهور الأحسائي.

ورأيت من مصنَّفاته رسالة الإشارات في الإلهيات علىٰ طريق الحكماء المتألّهين. قال: وقال تلميذه المحدِّث عبد الله بن صالح في الإجازة المذكورة:

وعن العلَّامة (يعني العلَّامة الحلّي)، عن الشيخ العالم الربّاني الشيخ ميثم بن علي البحراني، عن شيخه الشيخ علي بن سليمان البحراني، وكان هذا الديّن عالماً جليلاً متكلِّماً حكيماً، وهو أُستاذ الشيخ ميثم المذكور، وقبره في سترة من البحرين حميت من حوادث الملوين.

---

(١) طبقات أعلام الشيعة (الأنوار الساطعة): ١٠٥؛ تأسيس الشيعة: ٣٩٥؛ الذريعة ١٣: ٢٨٧؛ أمل الآمل ٢: ١٨٩؛ الفوائد الرضوية ١: ٣٠١؛ معجم المؤلِّفين ٧: ١٠٣.

(٢) أعيان الشيعة ٨: ٢٤٧.

ولـه تصـانيف في الحكمـة، منهـا: الإشـارات، ومنهـا رسـالة الطـير شرح أبيات الشيخ علي بن سينا في وصف الروح وهي: (هبطت إليك من المحلّ الأرفع) المذكورة في مولد النبيّ ﷺ.

ووجدنا مجموعة في مكتبة الشيخ فضل الله النوري في طهران، وفيها معراج السلامة ومنهاج الكرامة، كتب عليه: من إملاء الإمام العالم العلّامة ملك ملوك العلماء لسان المتكلِّمين والحكماء، ذي النفس القدسية والرياسة الإنسية جمال الملَّة شمس الإسلام والمسلمين علي بن سليمان البحراني، بلغه الله أقصىٰ مراتب الصدّيقين وأسنىٰ مناصب المقرَّبين بمحمّد وآله الطاهرين.

في كتاب (تأسيس الشيعة): الشيخ السعيد علي بن سليمان البحراني، صاحب الإشارات، وصفه المحقّق البحراني بالعالم الربّاني، قدوة الحكماء وإمام الفضلاء، وهو أُستاذ الشيخ كمال الدين بن ميثم البحراني صاحب الترجمة المتقدّمة، وكان وحيد عصره وفريد دهره في العلوم العقلية والنقلية، صنَّف الإشارات في الكلام وشرحها تلميذه المحقّق البحراني الشيخ ميثم، وكان من شيوخ المائة السادسة، وله رسالة العلم التي شرحها المحقّق نصير الدين الطوسي.

* * *

(٢٢)

إبراهيم بن علي الشرواني الخاقاني[1]

في (الكنىٰ والألقاب) تأليف الشيخ عبّاس القمّي: أفضل الدين حسّان العجم، إبراهيم بن علي الشرواني الشاعر الأديب الحكيم العارف المشهور.

همان شهنشه اقليم نظم خاقانى

كه صيت فضل زشروانش رفته تا در چين

كان معاصراً للحكيم النظامي الشاعر، والمستضيء العبّاسي، ويظهر من بعض أشعاره أنّه كان من الشيعة الإمامية ولكن كان يتّقي، ويدلُّ علىٰ ذلك قوله في حقّ نفسه:

گفتند كجا است آن سخندان   گفتم كه بعرصه گاه شروان

خاقانى مدح خوانش گويند   مدحتگر خاندانش گويند

ويقول في وصف أُمّه:

آن پير زنى كه پير معنى است   و آن رابعه كه ثانيش نيست

كدبانو خاندان حكمت   مستوره دودمان عصمت

صافى دم و صوفى اعتقاد است   مؤمن دل و مؤمن اعتقاد است

(١) الكنىٰ والألقاب ٢: ١٨٤؛ أعيان الشيعة ٥: ٧٣٧؛ الذريعة ٩: ٢٨٠.

ومن شعره الذي يدلُّ علىٰ تشيّعه قوله:

خطـى مجهـول ديـدم در مدينـه   بدانستم كـه آن خـط آشـنا نيسـت

در آن خط اولـين سـطرى نوشـته   كه جوز نزد خورشيد سـما نيسـت

بجـان پادشـه سـوگند خـوردم   كه نزد پادشـه جـز پادشـا نيسـت

لـه ديـوان شـعر كبـير مطبـوع، ومـن شـعره القصـيدة الإيوانيـة في الزهد والموعظة بالفارسية:

هان اى دل عبرت بين از ديده نظر كن هان

ايـوان مـدائن را آئينـه عـبرت دان

قيـل في حقّـه: كـان حكـيماً شـاعراً مـن فحـول الشـعراء، قـادراً عـلىٰ نظـم القـريض، محـترزاً عـن الرذائـل التـي يرتكبهـا الشـعراء، دخـل في كـلّ بـاب مـن أبـواب الشـعر وخـرج مـن عهدتـه، مثـل التوحيـد والمـواعظ والنصـائح والفخـر والحماسـة والتواضـع وكسـر الـنفس والمـدح والقـدح، والغزل والرثـاء وغـير ذلـك، وتشـرَّف إلىٰ الحـجّ مـرَّتين، تـوفّي بتبريـز سـنة (٥٨٢هـ)، ودُفِنَ بمقبرة سرخاب المشهورة بمقبرة الشعراء.

والشـرواني نسـبة إلىٰ شِرْوان بكسـر الشـين وسـكون الـراء اسـم لناحيـة بقـرب بـاب الأبـواب مـن بـلاد تركسـتان، عمَّرهـا أنـوشروان، سُمّيت باسمه، قيل: إنَّ قصَّة موسىٰ والخضر عليهما السلام كانت بها.

وذكـره السـيّد الأمـين العـاملي في كتابـه (أعيـان الشـيعة)[1]: أفضـل الدين إبراهيم بـن نجيـب الـدين عـلي النجّـار الشـرواني المعـروف بالخاقـاني الملقَّب بحسّان العجم.

---

(١) أعيان الشيعة ٢: ١٩٦/ الرقم ٢٩٩.

مولده ووفاته:

بحسب رواية مؤلِّف (گلستان ارم)، إنَّه وُلِدَ في قرية ملهملو الواقعة فوق شماخي، في أوائل القرن السادس الهجري، ويُفهَم من شعره الذي قاله في هذا الباب أنَّه وُلِدَ في الخمسمائة من الهجرة.

وتوفّي علىٰ قول صاحب (روضة أُولي الألباب)، في أيّام المستضيء العبّاسي سنة (٥٨٢هـ)، وقال عبد الرشيد في (تلخيص الآثار): توفّي سنة (٥٨١هـ) في تبريز، وعلىٰ رواية صاحب (نتائج الأفكار) أنَّه توفّي سنة (٥٩٥هـ) في تبريز، ودُفِنَ بمقبرة الشعراء سرخاب قريب مزار بابا حسن.

أقوال العلماء فيه:

قال عبد الرشيد في (تلخيص الآثار) عند ذكر شروان: ويُنسَب إليها الحكيم الفاضل أفضل الدين الخاقاني، كان رجلاً حكيماً شاعراً اخترع صنفاً من الكلام انفرد به، وكان قادراً علىٰ نظم القريض جدَّاً، محترزاً عن الرذائل التي يرتكبها الشعراء.

وكان من فحول شعراء إيران ومشاهير علماء أذربيجان، معزَّزاً محترماً عند سلاطين شروان ووزراء أذربيجان والخوارزم شاهية والسلجوقيين وملوك العراق وخلفاء بغداد الذين كانوا في زمانه، وكان مدَّاحاً لهم وله مكاتبات ومراسلات ومناظرات مع مشاهير القرن السادس الهجري، ونظم في حقّ بعضهم مدائح عالية.

وهو أحد مشاهير أُدباء عصره وله بصيرة واطّلاع في أكثر العلوم المتداولة في ذلك الزمان خصوصاً علم الحكمة والهيأة وأحكام النجوم،

والموسيقىٰ، ولذلك أدخل اصطلاحات هذه العلوم في أشعاره، وله وقوف علىٰ السير والتواريخ والقصص والأخبار القديمة وأشار في شعره إلىٰ بعض الحوادث والوقائع المشهورة، وله تشبيهات عجيبة أبدعها.

وبالجملة مجموعة أشعاره بمنزلة سفينة وحرب، وفيها نوادر وأمثال وقاموس تعبيرات ومصطلحات كانت معروفة ومتداولة في القرن السادس ولكن غالبها لم يضبط في مكان، ولهذا كتب أصحاب التتبّع والتحقيق وتفسير غوامض الكلمات واللغات حواشي وتعليقات علىٰ بعض أشعاره المشكلة، أشهرهم حسن الدهلوي، والشيخ الآذري، وعبد الوهّاب الأصفهاني، ومحمّد بن داود الشادآبادي وغيرهم.

والخاقاني دخل في كلّ باب من أبواب الشعر وخرج من عهدته مثل: التوحيد والتجرّد والمواعظ والنصائح والفخر والحماسة والتواضع، وكسر النفس والمدح والقدح والغزل والنسيب والرثاء وغير ذلك، وقصائده الشينية والرائية من غرر منظوماته، وقد عارض الشينية عدَّة من مشاهير الشعراء، من ذلك قصائد مرآة الصفا للأمير خسرو، وأنيس القلوب للفضولي، وعمّان الجواهر للعرفي، وفردوس الرضا للضميري، وقد عارض بقصيدته الرائية رائية السنائي، ورائية المترجَم قريب (٢٠٠) بيت.

وممدوح الخاقاني فيها كما يُعلَم من مقدّمتها التمهيدية شخصان: أحدهما الأمير جعفر ابن الأمير عيسىٰ الدنبلي، وجاء الخاقاني غير مرَّة رسولاً إليه من قِبَل سلاطين شروان، وكان قد حُبِسَ، وبعد خلاصه من الحبس تشرَّف مرَّة ثانية بحجّ بيت الله الحرام ثمّ عاد إلىٰ تبريز وسكنها إلىٰ أن مات.

مؤلَّفاته:

١ _ كلّيات الخاقاني، قريب عشرين ألف بيت، طُبِعَ في لكهنو في مجلَّدين سنة (١٩٠٨م).

٢ _ تحفة العراقين، شعر مثنوي نظمه في الطريق، طُبِعَ في أكبرآباد الهند، له قصائد سمّاها بأسماء مخصوصة من أُمَّهات قصائده، وهي:

٣ _ نهزة الأرواح ونزهة الأشباح.

٤ _ تحفة الحرمين وتفّاحة الثقلين.

٥ _ باكورة الأسفار ومذكورة الأسحار.

٦ _ كنز الركاز.

٧ _ حرز الحجاز في زيارة بيت الله الحرام وزيارة مرقد خير الأنام، فقد تشرَّف بزيارته مرَّتين.

٨ _ قصيدة خرابات المدائن.

٩ _ القصائد الحبسية.

(انتهىٰ عن أعيان الشيعة).

* * *

(٢٣)
موفَّق الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جرجيس المطران الدمشقي[١]

في (أعيان الشيعة)[٢]: موفَّق الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جرجيس المطران الدمشقي، وُلِدَ بدمشق ونشأ بها، وتوفّي في ربيع الأوَّل سنة (٥٨٧هـ) بدمشق.

ذكر له ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء) ترجمة طويلة قال فيها: هو الحكيم الإمام العالم الفاضل، كان سيّد الحكماء وأوحد العلماء، وافر الآلاء جزيل النعماء، أمير أهل زمانه في علم صناعة الطبّ وعملها، وأكثرهم تحصيلاً لأُصولها وحملها، جيّد المداواة لطيف المداراة، عارفاً بالعلوم الحكمية متعيّناً في الفنون الأدبية، وكان أبوه أيضاً طبيباً متقدّماً.

وكان موفَّق الدين حادّ الذهن فصيح اللسان، كثير الاشتغال، وكان جميل الصورة كثير التخصّص محبّاً للبس الفاخر المثمن، وكان يغلب عليه الزهو بنفسه والتكبّر، وحدَّثني أبو الطاهر إسماعيل أنَّه لم يكن علىٰ شيء من ذلك أيّام طلبه للعلم، فكان إذا فرغ من دار السلطان يأتي وحوله كثير من المماليك، فإذا قرب من الجامع ترجَّل وأخذ الكتاب بيده ودخل وحده إلىٰ حلقة الشيخ فسلَّم عليه وقعد بين يديه، وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك في أكثر أوقاته، وكان

---

(١) أعيان الشيعة ١١: ١٨٨؛ عيون الأنباء: ٦٥١؛ النجوم الزاهرة ٦: ١١٣؛ معجم المؤلِّفين ٢: ٢٤٥؛ الروضتين في أخبار الدولتين ٤: ٢٩٣؛ شذرات الذهب ٢: ٢٨٨.

(٢) أعيان الشيعة ٣: ٢٩٥/ الرقم ٩٣٧.

أبداً لا يفارق في كمّه مجلَّداً يطالعه علىٰ باب دار السلطان أو أين توجَّه، وكان كثير المروءة كريم النفس، ويهب لتلامذته الكتب ويحسن إليهم، وإذا جلس أحد منهم لمعالجة المرضىٰ يخلع عليه ولم يزل معتنياً بأمره.

وفي (النجوم الزاهرة): الموفَّق أسعد بن إلياس بن جرجيس المطران الطبيب، كان نصرانياً فأسلم علىٰ يد السلطان، وكان غزير المروءة حسن الأخلاق كريم العشرة.

تشيّعه:

ليس في ترجمته التي في (عيون الأنباء) علىٰ طولها ما يُشعِر بتشيّعه، ولكن في (النجوم الزاهرة) ما يدلُّ علىٰ تشيّعه، وهذا غريب مع كونه في خدمة صلاح الدين، وأسلم في زمانه.

قال: وكان يصحبه صبيّ حسن الصورة اسمه عمر، وكان الموفَّق يحبّ أهل البيت ويبغض ابن عنين الشاعر لخبث لسانه، وكان يحرّض السلطان صلاح الدين عليه ويقول له: أليس هو القائل:

سلطانها أعرج وكاتبه ... أعمش والوزير منحدب

فهجاه ابن عنين بقوله:

قالوا الموفَّق شيعيٌّ فقلت لهم ... هذا خلاف الذي للناس منه ظهر

فكيف يجعل دين الرفض مذهبه ... وما دعاه إلىٰ الإسلام غير عمر

إحسانه إلى أهل صناعة الطبّ وعطفه عليهم:

في (عيون الأنباء): إنَّه كان كثير الاشتمال علىٰ أهل هذه الصناعة الطبّية والحكمية، يقدّمهم ويتوسَّط في أرزاقهم.

أخبرني الفقيه إسماعيل بن صالح بن البنا القِفطي خطيب

عيذاب، قال: لـمَّا فتح صلاح الدين الساحل، أتيت لزيارة البيت المقدس، فلـمَّا حصلت بالشام رأيت جبالاً مشجَّرة بعدَّة بواري عيذاب المصحرة، فاشتقت إلىٰ سكنىٰ الشام، وتحيَّلت في الرزق به، فأتيت القاضي الفاضل عبد الرحيم فكتب لي كتاباً إلىٰ السلطان بتوليتي خطابة قلعة الكرك.

فلمَّا أتيت دمشق أُشير عليَّ بعرضه علىٰ ابن المطران، فدخلت عليه بإذن فرأيته حسن الخلقة والخلق، لطيف الاستماع والجواب، ورأيت داره في غاية الحسن والتجمّل حتَّىٰ أنَّ أنابيب الماء فيها من ذهب، ورأيت له غلاماً يتحجَّب بين يديه اسمه عمر في غاية جمال الصورة، وسألته حاجتي فأنعم بإنجازها.

ولـمَّا فتح صلاح الدين الكرك، أتىٰ إلىٰ دمشق الحكيم يعقوب ابن سقلاب النصراني وهو بزيّ أطبّاء الفرنج، فقصد ابن المطران لعلَّه ينفعه، فأشار عليه أن يغيِّر زيَّه إلىٰ زيّ أطبّاء بلاد الإسلام، وأعطاه ما يلبسه وقال له: إنَّ هاهنا أميراً كبيراً اسمه ميمون القصري وهو مريض وأنا أُداويه فتعال معي، فقال للأمير: هذا طبيب فاضل وأنا أعتمد عليه فيكون يلزمك إلىٰ أن تبرأ إن شاء الله، فلازمه إلىٰ أن برئ فأعطاه خمسمائة دينار، فأحضرها إلىٰ ابن المطران، فقال له ابن المطران: ما أردت إلَّا نفعك فخذها، فأخذها ودعا له.

من مكارم أخلاقه:

في (عيون الأنباء): حدَّثني الحكيم إبراهيم بن محمّد السويدي قال: كان ابن المطران جالساً علىٰ باب داره، فجاء شاب وأعطاه ورقة فيها اثنا عشر بيتاً من الشعر يمدحه بها، فقال له: أنت شاعر؟ قال: لا

ولكنَّني من أهل البيوت وقد ضاقت يدي فقصدتك، فأدخله داره وقدَّم له طعاماً فأكل، وقال له: قد مرض عزّ الدين فرخشاه صاحب صرخد، وهذا المرض يعتاده وأنا أعرف دواءه وقد رأيت أن أبعثك فتداويه بما أقول لك، وأعطاه ثياباً لائقة وفرساً ومائتي درهم وكتب معه إلىٰ فرخشاه، فذهب وداواه بما قال له ابن المطران، فبرئ وأجازه بألف دينار وخلع عليه وطلب منه أن يَبقىٰ عنده ويكون طبيبه، فقال: حتَّىٰ أُشاور شيخي ابن المطران، فقال: وهل هو إلَّا غلام أخي لا سبيل إلىٰ خروجك، فلمَّا ألحَّ عليه أحضر الجائزة وأخبره بقصَّته، فقال: لا عليك تكون حاجباً عندي.

اتِّصاله بصلاح الدين بن أيّوب:

في (عيون الأنباء): إنَّه خدم بصناعة الطبّ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب وحظي في أيّامه، وكان رفيع المنزلة عنده عظيم الجاه، وكان يتحجَّب عنده ويقضي أشغال الناس، ونال من جهته من المال مبلغاً كثيراً، وكان صلاح الدين كريم النفس كثير العطاء لمن هو في خدمته، وكان له حسن اعتقاد في ابن المطران لا يفارقه في سفر أو حضر، وكان يغلب علىٰ ابن المطران الزهو بنفسه والتكبّر حتَّىٰ علىٰ الملوك، وكان صلاح الدين قد عرف ذلك منه ويحترمه لعلمه، وأسلم ابن المطران في أيّام صلاح الدين.

حدَّثني بعض من كان يعرف ابن المطران أنَّه كان مع صلاح الدين في بعض غزواته، وكان عادة صلاح الدين في حروبه أن تُنصَب له خيمة حمراء وكذلك دهليزها وشقَّتها، فنظر يوماً إلىٰ خيمة حمراء شقَّتها ومستراحها، فسأل

عنها فأخبر أنَّها لابن المطران الطبيب، فقال: لقد عرفت أنَّ هذا من حماقة ابن المطران وضحك وأمر بمستراحها فرمي، فصعب ذلك علىٰ ابن المطران وبقي يومين لم يقرب الخدمة، فاسترضاه السلطان ووهب له مالاً.

وحدَّثني أيضاً أنَّه كان في خدمة صلاح الدين طبيب يقال له: أبو الفرج النصراني، فقال يوماً للسلطان: إنَّ عنده بنات ويحتاج إلىٰ تجهيزهن، فقال صلاح الدين: أُكتب ما تحتاج إليه في ذلك، فكتب ما قيمته ثلاثون ألف درهم فأمر بشراء ذلك له، فلمَّا بلغ ذلك ابن المطران قصَّر في ملازمة الخدمة وتبيَّن التغيّر في وجهه، فأمر له صلاح الدين من المال بمثل تلك القيمة.

وقال جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم القِفطي: إنَّ موفَّق الدين كما أسلم وكان نصرانياً حسن إسلامه وزوَّجه صلاح الدين إحدىٰ خطاياه وكانت جارية زوجة صلاح الدين وأعطتها الكثير من حليّها وذخائرها فرتّبت أُموره وصار له ذكر سام في الدولة وحصلت له أموال جمَّة من أُمراء الدولة في حال مباشرته لهم في أمراضهم، وترقَّت حاله عند سلطانه إلىٰ أن كاد يكون وزيراً.

أخباره في معالجة المرضى:

في (عيون الأنباء): حدَّثني شيخنا مهذَّب الدين، قال: كان أسد الدين شيركوه صاحب حمص قد طلب ابن المطران فتوجَّه إليه وكنت معه فاستقبله في الطريق رجل مجذوم وقد تغيَّرت خلقته، فاستوصفه دواء، فقال: كُلْ لحوم الأفاعي، فعاوده المسألة فقال: كُلْ لحوم الأفاعي، فلمَّا رجعنا وإذا بشاب حسن الصورة قد سلَّم علينا فلم نعرفه فأخبر أنَّه هو المجذوم أكل لحوم الأفاعي فصلح.

وحدَّثني أيضاً أنَّه كان معه في البيمارستان الذي أنشأه نور الدين بن زنكي، فكان من جملة المرضىٰ رجل به استسقاء زقي ففصد إلىٰ بزله فخرج منه ماء أصفر وابن المطران يتفقَّد نبضه، فلـمَّا رأىٰ أنَّ قوَّته لا تفي بإخراج أكثر من ذلك، أمر بشدّ الموضع وأن يستلقي المريض ولا يغيّر الرباط وأوصىٰ زوجته بعدم تغييره إلىٰ اليوم الثاني فلـمَّا انصرفنا قال المريض لزوجته: قد وجدت العافية وما بقي شيء وطلب منها حلّ الرباط فامتنعت فعاودها إلىٰ أن حلَّت الرباط وخرجت بقيّة الماء فهلك.

وحدَّثني أيضاً أنَّه رأىٰ في البيمارستان مع ابن المطران رجلاً قد فلجت يده من أحد شقّي البدن ورجله من الشقّ الآخر، فعالجه بالأدوية الموضعية فصلح.

مشايخه:

في (عيون الأنباء): قرأ علم النحو واللغة والأدب علىٰ الشيخ الإمام تاج الدين أبي زيد بن الحسن الكندي، وتميَّز في ذلك واشتغل بالطبّ علىٰ مهذَّب الدين ابن النقّاش.

تلاميذه:

في (عيون الأنباء): كان أجلّ تلامذته شيخنا مهذَّب الدين عبد الرحيم بن علي، وكان كثير الملازمة له والاشتغال عليه، وسافر معه عدَّة مرَّات في غزوات صلاح الدين لـمَّا فتح الساحل.

مؤلَّفاته:

١ _ بستان الأطبّاء وروضة الألبّاء، جزءان جمع فيه ما يجده من ملح ونوادر وتعريفات مستحسنة، لم يتمّ.

٢ _ المقالة الناصرية في حفظ الأُمور الصحّية، جعلها باسم الملك الناصر صلاح الدين.

٣ _ مختصر كتاب الأدوار للكدانيين إخراج أبي بكر أحمد بن علي بن وحشية، فرغ من اختصاره في رجب سنة (٥٨١هـ).

٤ _ لغز في الحكمة.

٥ _ كتاب علىٰ مذهب دعوة الأطبّاء.

٦ _ كتاب الأدوية المفردة، لم يتمّ.

٧ _ كتاب آداب طبّ الملوك.

* * *

(٢٤)

الحسن بن محمّد الإربلي الفيلسوف[١]

جاء في (أعيان الشيعة)[٢]: الحسن بن محمّد بن أحمد بن نجا الإربلي الفيلسوف عزّ الدين الضرير. ولد بنصيبين سنة (٥٨٦هـ)، وتوفّي في شهر ربيع الآخر بدمشق سنة (٦٦٠هـ) عن (٧٤) سنة، ودُفِنَ بسفح قاسيون.

عن الذهبي أنَّه قال: كان بارعاً في العربية والأدب، رأساً في علوم الأوائل، وكان منقطعاً في منزله بدمشق يقري المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة، وله حرمة وافرة، إلَّا أنَّه كان رافضياً تارك الصلاة قذراً قبيح الشكل لا يتوقّىٰ النجاسات، ابتلي مع العمىٰ بقروح وطالوعات، وله شعر خبيث الهجو، وكان ذكيًّاً جيّد الذهن حسن المحاضرة جيّد النظم، ولـمَّا قدم القاضي شمس الدين بن خلّكان ذهب إليه فلم يحفل به فتركه القاضي وأهمله.

روىٰ عنه الدمياطي شيئاً من شعره وأدبه، وتوفّي في ربيع الآخر سنة (٦٦٠هـ)، ولـمَّا قرب خروج الروح تلا: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٢٩٦؛ أعيان الشيعة ٢٣: ٦٥؛ طبقات أعلام الشيعة (الأنوار الساطعة): ٤٣؛ نكت الهميان: ١٤٢؛ معجم أُدباء الأطبّاء ١: ١٠٩؛ فوات الوفيات ١: ٣٦٢.

(٢) أعيان الشيعة ٥: ٢٣٧/ الرقم ٦١٥.

اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، ثمّ قال: صدق الله العظيم، وكذب ابن سينا، ومولده بنصيبين سنة (٥٨٦هـ)[1]، انتهىٰ.

وذكره الصفدي في (نكت الهميان) ووصفه بالرافضي الفيلسوف، وذكره الكتبي في فوات الوفيات ونقلا بعض ما مرَّ عن الذهبي، وقالا: وله حرمة وافرة، وكان يهين الرؤساء وأولادهم بالقول، كان مجرماً تارك الصلاة.

يبدو منه ما يشعر بانحلاله وكان يصرِّح بتفضيل علي، وكان حسن المناظرة والجدال، له نظم وهو خبيث الهجو، روىٰ عنه من شعره وأدبه الدمياطي وابن أبي الهيجاء وغيرهما.

وقال عز الدين بن أبي الهيجاء: لازمت العزّ الضرير يوم موته فقال: هذه البنية قد تحلَّلت (انحلت) وما بقي يرجىٰ بقاؤها، وأشتهي أُرزاً بلبن فعُمِلَ له وأكل منه، فلمَّا أحسَّ بشروع خروج الروح منه قال: قد خرجت الروح من رجلي، ثمّ قال: قد وصلت إلىٰ صدري، فلمَّا أرادت المفارقة بالكلّية تلا هذه الآية: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ثمّ قال: صدق الله العظيم، وكذب ابن سينا ثمّ مات، انتهىٰ.

وفي هذه الترجمة من الأُمور المتناقضة ما لا يكاد يخفىٰ علىٰ ذي بصيرة، فإنَّ قولهم: كان مجرماً تارك الصلاة أو مخلّاً بالصلوات، يبدو منه ما يُشعِر بانحلاله. وقول الذهبي: كان لا يتوقّىٰ من النجاسات، يناقض قوله: له حرمة وافرة، وكيف يكون وافر الحرمة إلىٰ حدّ يهين الرؤساء وأولادهم بالقول ويحتملون ذلك منه، مَن يكون تارك الصلاة منحلّ العقيدة لا يتوقّىٰ من النجاسات في بلد إسلامي مثل دمشق؟ ولو كان كذلك لنُبِذَ وهُجِرَ ولم تكن له حرمة، وقد بلغ من وفور حرمته أن يزوره القاضي ابن خلّكان فلا يحفل به، ويغلب علىٰ الظنّ أنَّ

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٨: ٤١١ - ٤١٣/ الرقم ٥٢٧.

الرجل كان يُصلّي في خفاء اتّقاءً علىٰ نفسه فنُسِبَ إلىٰ ترك الصلاة، وكان ضريراً ربَّما تصيب بدنه أو ثيابه نجاسة لا يراها فنُسِبَ إلىٰ عدم التوقّي من النجاسات، ويناقض ذلك أيضاً تلاوته الآية عند خروج روحه، وقوله: صدق الله العظيم وكذب ابن سينا، فإنَّه صريح في اعتقاده بالله تعالىٰ وبكتابه، وفي تديّنه وأنَّه صحيح العقيدة. ووصف الذهبي والصفدي له بالرفض علىٰ العادة السيّئة المتَّبعة لتفضيله عليّاً عليه السلام فيه شيء من النصب، ولكن البلاء قد جاءه من قِبَل هؤلاء لتفضيله عليّاً، وقذارة الظاهر لا تضرُّ مع طهارة الباطن، وزراءة الشكل ليست شيئاً مع جمال الفعل، وقبح المنظر يحتمل مع حسن المخبر، وابتلاؤه مع العمىٰ بالقروح والطالوعات لعلَّه لخير آجل أراده الله به كما ابتلي الأنبياء عليهم السلام في الدنيا وكما ابتلي أيّوب عليه السلام.

شعره:

قال الصفدي: أنشدني العلَّامة أثير الدين أبو حيّان من لفظه، قال: أنشدني الشيخ علاء الدين علي بن خطّاب الباجي، قال: أنشدني لنفسه عزّ الدين حسن الضرير الإربلي:

لو كان لي الصبر من الأنصار ... ما كان عليك هتكت أستاري
ما ضرَّك يا أسمر لو بتَّ لنا ... في دهرك ليلة من السمار

وبالسند المذكور له:

لو ينصرني علىٰ هواه صبري ... ما كنت ألذ فيه هتك الستر
حرمت علىٰ السمع سوىٰ ذكرهم ... ما لي سمر سوىٰ حديث السمر

ومن شعره:

إن أجف تكلّفاً وفىٰ لي طبعاً ... أو خنت عهوده عهودي يرعىٰ

يبغــــــــي لي في ذاك دوام الأسر ... هـــــذا ضرر تحســـــبه لي نفعـــا

ومن شعره:

تـــوهَّم واشـــينا بليـــل مزارنـــا ... فهـــمَّ ليســـعىٰ بيننـــا بالتباعـــد

فعانقتـــه حتَّـــىٰ اتَّحـــدنا تلازمـــاً ... فلـــمَّا أتانـــا مـــا رأىٰ غـــير واحـــد

قال الكتبي: قال القـاضي كـمال الـدين بـن العـديم: لـمَّا سـمع هـذين البيتين مَسَكه مِسَكة أعمىٰ، وقال الصفدي: لأنَّه أمسكه إمساكة أعمىٰ.

ومن شعره:

ذهبت بشاشة ما عهدت من الجوىٰ ... وتغـــيَّرت أحوالـــه وتنكّـــرا

وسلوت حتَّىٰ لو سرىٰ من نحوكم ... طيـف لما حيّـاه طيفـي في الكـرىٰ

ومنه:

قـم يـا نـديم إلىٰ الإبريـق والقـدح ... هات الثلاث وسل ما شئت واقترح

وغنِّ إن غـادرتني الكـأس مطرحـاً ... وأنت يـا صـاح صـاح غـير مطـرح

عليـك سـقي ثـلاث غـير مازجهـا ... ومـا عليـك إذا منّـي ومـن قـدحي

إنّي لأفهـــم في الأوتـــار ترجمـــة ... مـا لـيس يفهمـه النسّـاك في السبح

قال الصفدي: الرابع مضمن.

ومن شعره في العماد بن أبي زهران:

تعمَّـــم بـــالظرف مـــن ظرفـــه ... وقـــام خطيبـــاً لندمانـــه

وقـــال الســـلام عـــلىٰ مـــن ... ... و... و... لإخوانـــــــــه

فـــردّوا جميعـــاً عليـــه الســـلام ... وكـــل يـــترجم عـــن شـــانه

وقـــال يجـــوز التـــداوي بهـــا ... وكـــلّ عليـــل بأشـــجانه

فـــــأفتىٰ بحـــــلّ ... و... فقيــه الزمـــان بـــن زهرانـــه

وقال فيه: وكان لقبه شجاع الدين فنُقِلَ إلىٰ عماد الدين:

شـــجاع الـــدين عمـــدتنا فهـــلَّا كنـــت شمســـتا
خطيبـــاً قمـــت ســـكرانا وبـــالزكرة عممتـــا

وقوله:

وكاعـــب قالـــت لأترابهـــا يا قـوم مـا عجـب هـذا الضـرير
هـل تعشـق العينـان مـا لا تـرىٰ فقلـت والـدمع بعينـي غزيـر
إن كـان طـرفي لا يـرىٰ شخصـها فإنَّهـا قـد صـوّرت في الضـمير

وقوله:

قـالوا عشـقت وأنـت أعمـىٰ ظبيـاً كحيـل الطـرف ألمـىٰ
وحـــلاه مـــا عاينتهـــا فنقـول قـد شـغفتك وهمـا
وخيالـــه بـــك في المنـــام فـــما أطـــاف ولا ألمـــا
مـــن أيـــن أرســـل للفـــؤاد ولا تـــراه العـــين ســـهما
فأجبـــت إنّي موســـوي العشـــق انصـــاتاً وفهـــما
أهـــوىٰ بجارحـــة الســـما ع ولا أرىٰ ذات المســـمّىٰ

قال الكتبي: وشعر العزّ الإربلي كلّه جيّد، انتهىٰ.

وجاء ذكره أيضاً في الأعيان[1] فقال: عزّ الدين حسين بن محمّد الإربلي الشاعر الضرير، توفّي سنة (٦٦٠هـ).

وفي كتاب (الفلاكة والمفلوكون) أنَّه تلميذ أفضل الدين بن الخلنجي،

---

(١) أعيان الشيعة ٦: ١٤٢.

وقال: كان الشاعر المذكور بصيراً بالعربية، رأساً في العقليات كلّها، إلَّا أنَّه كان فيلسوفاً رافضياً، تاركاً للصلاة، قذراً لا يتوقّىٰ النجاسات، رثّ الهيأة، زري الشكل، قبيح المنظر، يصدر منه ما يُشعِر بفساد العقيدة والإخلال، وابتلي مع العمىٰ بطلوعات وقروح، وكان يهين الأكابر إذا حضر مجلسهم، ولا يعتني بهم، مع ذلك كان له هيبة وحرمة، انتهىٰ.

قوله: إنَّه كان فيلسوفاً رافضياً مخرجاً ذلك في مخرج الذمّ، أمَّا الفيلسوف فممدوح ما لم يخلّ بشيء من العقائد الحقّة ولا يلزمه الإخلال، وأمَّا الرافضي فحقّ أن يتمثَّل له بقول العبدي شاعر أهل البيت عليهم السلام:

لُقِّبت بالرفض لـمَّا أن منحتهم ... ودّي وأحسن ما أُدعىٰ به لقبي

وأمَّا ترك الصلاة فشهادة علىٰ النفي، ولعلَّه صلّىٰ ولم يرَه، وأمَّا رثاثة الهيأة وما إليها فلا يُستغرب حصوله من أعمىٰ به طلوعات وقروح لاسيّما إن كان فقيراً، وأمَّا صدور ما يُشعِر بفساد العقيدة والانحلال فلم يذكره لتُعلم صحَّته.

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

واعترافه بأنَّ له هيبة وحرمة ينافي ما نسبه إليه.

* * *

(٢٥)

أوحد الدين علي الأنوري[١]

في (أعيان الشيعة)[٢]: أوحد الدين علي بن إسحاق الملقَّب في شعره بأنوري الأبيوردي الخاوراني الشاعر الحكيم المعروف، توفّي سنة (٥٥١هـ).

ذكره في الرياض في باب الألقاب وقال: إنَّه نصَّ علىٰ تشيّعه جماعة، وذكر أبياته الصريحة فيه، وهو من أفاضل الحكماء في عصره، الذي انتقلت السلطنة فيه إلىٰ چنكيزخان ملك التتار.

وصرَّح في الرياض بأنَّه من مشاهير حكماء الشيعة، له كتاب البشارات في شرح الإشارات للرئيس ابن سينا في المنطق والحكمة، رأىٰ صاحب الرياض نسخته في تبريز، وله ديون شعر يُعرَف بـ (ديوان أنوري).

* * *

(١) أعيان الشيعة ٤١: ٦٤؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٥١؛ الذريعة ٩: ١٠٩؛ فلاسفة الشيعة: ٣٠١؛ تأسيس الشيعة: ١٨١.

(٢) أعيان الشيعة ٨: ١٦٢.

(٢٦)

البديع الإسطرلابي[1]

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٥٦٠): أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادي المعروف بالبديع الإسطرلابي.

وصفه ابن أبي أصيبعة بأنَّه من الحكماء الفضلاء، والأُدباء النبلاء، طبيب عالم، وفيلسوف متكلِّم، غلبت عليه الحكمة وعلم الكلام والرياضي، وكان متقناً لعلم النجوم والرصد.

عن (عيون الأنباء): كان وحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية، وقد اطَّلع علىٰ أسرارها، وعرف بها مقدار مسير أنوارها، وأقام علىٰ صحَّة أعماله الحجج الهندسية، وأثبت ما صنعه منها بالقوانين الأقليديسية، وصغَّر قدر من تقدَّمه من صناعتها...، بل أغرب في طريق استنباطها وابتداعها...

فمن ذلك ما زاده في (الكرة ذات الكرسي) ممَّا كمَّل عملها الذي مرَّت عليه السنون علىٰ نقصه...، وعمل لذلك رسالة أقام فيها الحجج والبراهين...، وذلك أنَّ مبدعها (الخجندي) جعلها لعرض واحد، وأقام الدليل اللغطي علىٰ أنَّه لا يمكن أن يكون لعروض متعدّدة...

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٥٦٠؛ إخبار العلماء: ٢٢٢؛ الذريعة ٩: ١٣٠؛ معجم الأدباء ١٩: ٢٧٣؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٦٧؛ خريدة القصر ٢/ ٣: ١٣٧؛ تراث العرب العلمي: ٣٤١.

فأمَّا غير ذلك ممَّا كان يعانيه في المساطر والبواكير وغير ذلك فقد صارت في أيدي الناس من ذخائر الجواهر، وعلىٰ عمل الطلسمات ورصد ما يوافقها من مختار الأوقات...، وجرَّبوها فصحَّت تجربتها وحصلت له بما كان من صنائعه الأموال الكثيرة، وذلك في أيّام المسترشد، ولـمَّا مضىٰ لسبيله تحقَّق أهل الفضيلة أنَّه لم يخلف مثله، وله شعر فائق رائق.

عن (أخبار الحكماء): كان البديع الإصطرلابي أوحد زمانه في علم الإصطرلاب وعمله وإتقان صنعته، فعُرِفَ بذلك.

وجاء عنه في (فوات الوفيات): كان أحد الأُدباء ووحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية، متقناً لهذه الصناعة.

وقد أثنىٰ عليه أيضاً العماد الأصبهاني في كتاب (الخريدة)، وأبو المعالي الحضيري في كتابه (زينة الدهر).

ويعترف (سارطون) و(سوتر) وغيرهما من باحثي الغرب بأنَّ البديع الإصطرلابي من أعظم معاصريه في إنشاء الإسطرلابات وأكثرهم بروزاً في صناعة الآلات الفلكية الأُخرىٰ.

وقد نشأ في أصفهان، ثمّ رحل إلىٰ بغداد، حيث اشتغل هناك بالفلك، وأفاد منه مالاً وفيراً.

وعمل سنة (١١٢٩ _ ١١٣٠م) جداول فلكية في قصر السلطان السلجوقي ببغداد، وقد وصفها في كتاب أسماه (الزيج المحمودي) نسبة إلىٰ محمود أبي القاسم ابن محمّد.

وقد ذكر الطهراني في كتابه (الذريعة) ديوان شعر البديع الإسطرلابي، وذلك يعني أنَّ الإسطرلابي شيعي، وقد يؤكّد ذلك أنَّ

الإسطرلابي قد اختصر ديوان (الحسين بن الحجّاج) وسمّاه (درَّة التاج في شعر ابن الحجاج) وابن الحجاج شيعي معروف بطريقته الخاصّة.

وفي (الكنىٰ والألقاب) للشيخ عبّاس القمّي: البديع الإسطرلابي أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف الشاعر المشهور، كان وحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية، متقناً لهذه الصناعة، وحصل له من جهة علمها مال جزيل في خلافة المسترشد بالله، توفّي ببغداد سنة (٥٣٤هـ)...

* * *

حكماء القرن السابع

(٢٧)
الخواجة نصير الدين الطوسي[١]

الحكيم الفيلسوف، أُستاذ الحكماء والمتكلِّمين أبو جعفر محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي المعروف بالمحقّق الطوسي، وبالخواجة نصير الدين الطوسي.

ولادته ووفاته:

وُلِدَ في طوس، واختلف في سنة ولادته، ولكن غالبية المؤلِّفين علىٰ أنّه وُلِدَ سنة (٥٩٧هـ)، وتوفّي في بغداد يوم الغدير سنة (٦٧٢هـ)، ودُفِنَ عند الكاظمين. كان والده محمّد بن الحسن من الفقهاء والمحدِّثين، فتربّىٰ في حجره ونشأ علىٰ يده.

أقوال العلماء في حقّه:

قال بروكلن الألماني: هو أشهر علماء القرن السابع، وأشهر مؤلِّفيه إطلاقاً.

وقال فاضل چلبي في مقدّمة (كشف الظنون)، حين يصف المؤلِّفين المعتبرين يجعل المحقّق الطوسي رأس سلسلتهم.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٤٧٢؛ أعيان الشيعة ٤٦: ٤؛ لؤلؤة البحرين: ٢٤٥؛ فوات الوفيات ٣: ٢٤٦؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٢٥٠؛ روضات الجنّات ٦: ٣٠٠؛ معجم المؤلِّفين ١١: ٢٠٧؛ أمل الآمل ٢: ٢٩٩؛ تأسيس الشيعة: ٣٩٥؛ تراث العرب العلمي: ٣٥٦؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٦٦.

ويقـول عنـه ابـن العـبري في كتـاب (مختصـر الـدول): حكـيم عظـيم الشـأن في جميـع فنـون الحكمـة، كـان يقـوي آراء المتقـدّمين، ويحـلّ شـكوك المتأخّرين، والمؤخذات التي وردت في مصنَّفاتهم.

وقال العلَّامـة الحـلّي: كـان هـذا الشـيخ أفضـل أهـل زمانـه في العلـوم العقليـة والنقليـة، وقـال عنـه في موضـع آخـر: هـو أُسـتاذ البشـر، والعقـل الحادي عشر.

وعدَّه الصـفدي في (شرح لاميـة العجـم) مـن الرجـال الـذين لم يصـل أحد إلىٰ رتبتهم في فنّ المجسطي.

وقال عنه في (الـوافي بالوفيـات): كـان رأسـاً في علـم الأوائـل، لاسيّما في الإرصاد والمجسطي. (هذا ما جاء في أعيان الشيعة)[1].

قال العلَّامـة الطبيـب الشـيخ محمّـد الخلـيلي مـترجم رسـالة (أوصـاف الأشراف للحكـيم الفيلسـوف نصـير الـدين الطـوسي في مقدّمـة الكتـاب في ترجمة المؤلِّف:

هـو الأُسـتاذ الجليـل والفيلسـوف المحقّـق، سـلطان العلماء وأفضـل الحكـماء، ينبـوع الحكمـة الإلهيـة ومظهـر حقـائق العلـوم العقليـة والنقليـة، البحـر الخضـم والمـولىٰ الأعظـم الخواجـة نصـير الـدين والملّـة، أبـو جعفـر محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي ﵀.

قـال الفـوطي في وصـفه كـما في (تـاريخ العـراق بـين احتلالـين) للمحامي عبّاس العزّاوي:

كـان فاضـلاً عالمـاً كـريم الأخـلاق حسـن السـيرة، متواضـعاً، لا يضجر من سـائل ولا يـرد طالـب حاجـة...، وقـال عبـد العزيـز الجـواهري

---

(١) أعيان الشيعة ٩: ٤١٤ و٤١٥.

في كتاب (آثار الشيعة الإمامية) إنَّه كان يُعرَف بالعقل الحادي عشر، لشدَّة ذكائه ومعرفته.

وفي كتاب (فلاسفة الشيعة) لمؤلِّفه العلَّامة عبد الله نعمة (ص ٤٧٢): هو من الأدمغة الكبيرة العالمية، ومن العباقرة الذين لم تنتج الدنيا منهم إلَّا القليل بالعلم والفلسفة والفلك والرياضيات والارصاد وغيرها. وهو كما يقول الأُستاذ طوقان: أحد الأفذاذ القليلين، الذين ظهروا في القرن السادس للهجرة، وأحد حكماء الإسلام، المشار إليهم بالبنان، وهو من الذين استحقّوا لقب (علَّامة).

ويقول سارطون: إنَّه من أعظم علماء الإسلام، وأكبر رياضييهم. وكان يُدعىٰ من بين العلماء بـ (أُستاذ البشر) حين برز في الفلك والرياضيات والاختيارات والفلسفة والكلام وسواها، وقد ذاع اسمه في الأقطار بما حمل من علم.

حتَّىٰ وصفه العلَّامة الحلّي شارح كتبه، فقال: (وكان هذا الشيخ أفضل أهل زمانه في العلوم العقلية والنقلية)، وعبَّر عنه في موضع آخر بأنَّه أُستاذ البشر والعقل الحادي عشر.

والطوسي رغم تعمّقه بالفلسفة والكلام، ورغم ما له من قدم راسخة في العقول والطبيعيات وغيرهما، فإنَّ شهرته لدىٰ باحثي العصور المتأخّرة قائمة علىٰ مواهبه وآثاره في الرياضيات والفلك والجغرافيا، لذلك نجدهم قد وضعوا دراساتهم عن الطوسي علىٰ أساس هذه الشهرة ودرسوه من هذه الزاوية، زاوية الرياضيات والفلك.

أمَّا جوانبه الأُخرىٰ أعني بها جوانب الفلسفة والمنطق والطبيعيات، فقد أهملوا دراستها إهمالاً يكاد يكون كلّياً، إلَّا ما عرضوا له عرضاً عابراً.

والرجل دون شكّ من أعمدة الفكر والفلسفة الإسلاميّة، قد أمدَّ الفكر الإسلامي، وسار به في درب رحب، كان أكثر من تأخَّر عنه عيالاً علىٰ أفكاره وآرائه، وكتبه الفلسفية والمنطقية والكلامية الكثيرة هي الشاهد الصريح علىٰ ذلك.

أمَّا لماذا أهمل الباحثون هذا الجانب الضخم من تفكير الطوسي، فذلك لا يزال سؤالاً ينتظر الجواب.

ولعلَّ الجوّ العلمي المادّي الذي يعيش فيه الباحثون، كان وحده هو السبب الذي جعلهم يقصرون دراساتهم علىٰ هذه الناحية من جوانب الطوسي، دون سواها، انتهىٰ.

وفي تعليقة لؤلؤة البحرين (ص ٢٤٥/ ط الثانية في النجف، مطبعة النعمان): فيلسوف العصر، وسلطان المحقّقين، والعلَّامة الجليل الذي شهد بعلوّ مقامه العلمي أعلام الشيعة والسُّنَّة، وأرباب الفنّ من الطرفين، وممَّن ترجم له من أعلام السُّنَّة محمّد شاكر الكتبي في فوات الوفيات فقال:

محمّد بن محمّد بن الحسن نصير الدين الطوسي الفيلسوف، صاحب علم الرياضي، كان رأساً في علم الأوائل، ولاسيّما في الارصاد والمجسطي، فإنَّه فاق الكبار، قرأ علىٰ المعين سالم بن بدران المعتزلي الرافضي وغيره، وكان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، والأموال في تصريفه، وابتنىٰ بمراغة قبَّة ورصداً عظيماً، شرع في تأسيسه سنة (٦٥٧هـ)، وجعل في الرصد داراً واسعة واستنبط آلات العديدة شريفة للارصاد، واتَّخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نُهِبَت من بغداد والشام

والجزيرة حتَّىٰ تجمَّع فيها زيادة علىٰ أربعمائة ألف مجلَّد، وجعل تلميذه المؤرِّخ المشهور ابن الفوطي خازناً لدار الكتب، وقرَّر بالرصد المنجّمين والفلاسفة، وجعل له الأوقاف، وكان حسن الصورة، سمحاً كريماً جواداً حليماً، حسن العشرة غزير الفضل...، ثمّ ذكر كلمات الأعلام في إطرائه وعدد مؤلَّفاته وأطال في ترجمته.

وترجم له أيضاً صاحب روضات الجنّات، وأمل الآمل، وابن الفوطي في الحوادث الجامعة، وصاحب مجالس المؤمنين، ومستدرك الوسائل، وشذرات الذهب، ومفتاح السعادة، والبداية والنهاية، وعيون التواريخ، وعقد الجمان، والذيل علىٰ مرآة الزمان، وغيرهم كثير.

وفي (إغاثة اللهفان) لابن قيّم الجوزية (ج ٢/ ص ٢٦٧/ ط مصر، سنة ١٣٥٨هـ) ترجمة له أبان فيها ما يكنه ضميره من السبّ والشتم بما الله مجازيه عليه، ولا غروّ فإنَّ كلّ إناء ينضح بما فيه، وكلّ امرئ مجزي بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.

وفي كتاب (الكنىٰ والألقاب) للشيخ عبّاس القمّي: حجَّة الفرقة الناجية، الفيلسوف المحقّق أُستاذ البشر، وأعلم أهل البدو والحضر، محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي الجهرودي، سلطان العلماء والمحقّقين، وأفضل الحكماء والمتكلِّمين، ممدوح أكابر الآفاق، ومجمع مكارم الأخلاق الذي لا يحتاج إلىٰ التعريف لغاية شهرته، مع أنَّ كلَّما يقال فهو دون رتبته...

قال قطب الدين الإشكوري في كتاب (محبوب القلوب) في ترجمته: ... وكان فاضلاً محقِّقاً، ذلَّت رقاب الأفاضل من المخالف والمؤالف في خدمته، لدرك المطالب المعقولة والمنقولة، وخضعت جباه

الفحول في عتبته لأخذ المسائل الفروعية والأُصولية، وصنَّف كتباً ورسائل نافعة نفيسة في فنون العلم خصوصاً، قد بذل مجهوده لهدم بنيان شبهات الفخرية في شرحه للإشارات.

له كتاب تجريد الكلام، وهو كتاب كامل في شأنه، وصفه الفاضل القوشجي بأنَّه مخزون بالعجائب مشحون بالغرائب، صغير الحجم وجيز النظم، كثير العلم، جليل الشأن، حسن الانتظام، مقبول الأئمّة العظام، لم يظفر بمثله علماء الأمصار، وهو في الاشتهار كالشمس في رابعة النهار، انتهىٰ.

هذا ما وقفنا عليه من أقوال عباقرة الفنّ من الاعتراف بفضل الرجل وأنَّه سيّد الفلاسفة والحكماء المحقِّقين، والمتتبّع يرىٰ أكثر من ذلك وأكثر.

دراسته:

في (أعيان الشيعة)[1]: درس في صغره علوم اللغة من نحو وصرف وآداب بعد دراسة القرآن، ثمّ بتوجيه من أبيه درس الرياضيات علىٰ كمال الدين محمّد المعروف بالحاسب، ثمّ درس الحديث والأخبار، وتوسَّع في دراسة الحديث علىٰ أبيه كما درس عليه الفقه، ودرس المنطق والحكمة علىٰ خاله، وفي هذه الفترة أتقن علوم الرياضيات من حساب وهندسة وجبر، وكان لا يزال في مطلع شبابه.

ويقول هو عن نفسه أنَّه بعد وفاة والده عمل بوصيَّته في الرحيل إلىٰ أيّ مكان يلقىٰ فيه أساتذة يستفيد منهم، وكانت نيسابور في ذلك العهد مجمع العلماء ومنتجع الطلَّاب، فسافر إليها حيث حضر حلقة

---

(١) أعيان الشيعة ٩: ٤١٥.

كلّ من سراج الدين القمري، وقطب الدين السرخسي، وفريد الدين الداماد، وأبو السعادات الأصفهاني، وآخرين غيرهم، كما لقي فيها فريد الدين العطّار، وفي نيسابور قضىٰ فترة ظهر فيها نبوغه وتفوّقه وصار فيها من المبرزين المشار إليهم بالبنان.

الغزو المغولي الأوَّل:

وفي خلال وجوده في نيسابور، زحف المغول زحفهم الأوَّل بقيادة جنكيز، حاملين الدمار والموت، فاجتاحوا فيما اجتاحوه بلاد خراسان، وانهزم أمامهم السلطان محمّد خوارزم شاه، وانهارت بعده كلّ مقاومة وتساقطت المدن واحدة بعد الأُخرىٰ، وساد القتل والخراب والحريق، وفرَّ الناس هائمين علىٰ وجوههم بعض إلىٰ الفلوات، وبعض إلىٰ المدن البعيدة، وبعض إلىٰ القلاع الحصينة، ومن لم يستطع شيئاً من ذلك انطلق لا يدري أيَّة ساعة يأتيه الموت.

صمود الإسماعيليين:

والقوَّة الوحيدة التي صمدت للمغول هي قلاع الإسماعيليين، فقد ظلَّت تقاوم وترد المهاجمين حتَّىٰ أعجزتهم عن نيلها، وكان فدائيوا الإسماعيليين يهاجمون الغزاة ويوقعون بهم مظهرين بطولة لا نظير لها، وبذلك صمدت هذه القلاع سنوات، ولم تستسلم بينما كانت باقي مدن خراسان ومنها نيسابور قد عادت يباباً في أيدي المغول.

الطوسي عند الإسماعيليين:

في هذا البحر المخيف والمحنة الرائعة كان الطوسي حائراً لا يدري أين يلجأ ولا بمن يحتمي، وكان المحتشم ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي

منصور متولّي قهستان قد ولّي السلطة علىٰ قلاع الإسماعيليين في خراسان من قِبَل علاء الدين محمّد زعيم الإسماعيليين آنذاك، وكان ناصر الدين هذا من أفاضل زمانه، وأسخياء عصره، كان يعني بالعلماء والفضلاء، وكانت شهرة (الطوسي) قد وصلت إليه وعرف مكانته في العلم والفلسفة والفكر، وكان من قبل راغباً في لقياه، فأرسل يدعوه إلىٰ قهستان، وصادفت الدعوة هوىٰ في نفس المدعو الشريد، ورأىٰ أنَّه وجد المأمن الذي يحميه، فقبل الدعوة وسار إلىٰ قهستان.

وإذا كان الطوسي قد حمد الحمىٰ في قهستان، فإنَّ ناصر الدين كان أشدُّ حمداً إذ اعتبر وجود الطوسي عنده مغنماً أيّ مغنم، فاستقبله بإجلال، وكان يسعىٰ جهده في إرضائه وتلبية رغباته، مستفيداً دائماً من عشرته ومجالسته.

في هذه الفترة استجاب لرغبة ناصر الدين، فترجم للفارسية كتاب الطهارة لأبي علي مسكويه الرازي وزاد عليه مطالب جديدة وسمّاه (أخلاق ناصري) ناسباً إيّاه إلىٰ مضيفه ناصر الدين.

ومضىٰ الزمن سريعاً والطوسي مقيم عند المحتشم ناصر الدين، وطالب إقامته هناك معزّزاً مكرَّماً يقضي وقته بالمطالعة والكتابة والتأليف، وعدا كتاب (أخلاق ناصري)، فقد ألَّف هناك (الراسلة المعينية) في علم الهيأة، و(المعينية) منسوبة إلىٰ معين الدين ابن ناصر الدين، كما ألَّف غيرها كتباً كثيرة.

وبلغ علاء الدين محمّد زعيم الإسماعيليين نزول الطوسي علىٰ واليه ناصر الدين، وعرف مقدار ما يستفيد من معارفه فطلبه منه، فلم يكن مناص للطوسي من إجابة الدعوة، فمضىٰ ناصر الدين يصطحب

الهدية العظيمة إلىٰ زعيمه علاء الدين في قلعة (ميمون دز) فاستقبله الزعيم الإسماعيلي استقبالاً يتّفق ومنزلته، واستبقاه لديه معزَّزاً مكرَّماً.

ثمّ انتهت حياة علاء الدين قتلاً بيد أحد حجّابه، فتولّىٰ أمر الإسماعيليين بعده ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه، وظلَّ الطوسي مع ركن الدين في قلعة (ألموت) حتَّىٰ استسلام ركن الدين للمغول في حملتهم الثانية بقيادة هولاكو.

هل ذهب مرغماً أم مختاراً؟

هذا هو المعروف عن اتّصال (الطوسي) بالإسماعيليين، ولكن هناك مؤرِّخين يخالفون هذا الرأي ويرون أنَّ الطوسي ذهب إليهم مرغماً وأقام عندهم مكرهاً، فقد جاء في (درَّة الأخبار) أنَّ أوامر صدرت إلىٰ فدائيي الإسماعيليين باختطاف الطوسي وحمله إلىٰ قلعة (ألموت)، وأنَّ الفدائيين ترصَّدوه في أطراف بساتين نيسابور، وطلبوا إليه مرافقتهم إلىٰ (ألموت) وأنَّه إن امتنع فهدَّدوه بالقتل وأجبروه علىٰ مرافقتهم، وأنَّه كان يعيش هناك سنواته شبه أسير أو سجين.

وكذلك فإنَّ سرجان ملكهم في تاريخه قد أيَّد إرغامه علىٰ السفر إلىٰ (ألموت) وإن كان قد ذكر هذا الإرغام برواية تختلف عن رواية (درَّة الأخبار) غير أنَّ (وصّاف الحضرة) قد جاء بأمر وسط بين الأمرين، أي أنَّ الطوسي قد ذهب مختاراً إلىٰ ناصر الدين، وخلال مقامه عنده حدث ما عكَّر صفو ودادهما، فنقم عليه ناصر الدين واعتبره سجيناً لديه ثمّ أرغمه علىٰ مصاحبته إلىٰ (ميمون دز) حيث عاش سجيناً لا يبرح مكانه.

وقد قال كريم أقرائي في (مسامرة الأخبار): كان الطوسي الوزير المطلق لدىٰ الإسماعيليين بلغ عندهم رتبة أطلقوا فيها عليه لقب أُستاذ الكائنات.

وبهذا القول ينفي (أقرائي) قصَّة إرغامه وسجنه، والذين ادَّعوا الإرغام والسجن استدلّوا علىٰ ذلك فيما استدلّوا عليه بأنَّه كتب في آخر كتابه (شرح الإشارات) وهو الذي ألَّفه خلال إقامته في قلاع الإسماعيليين ما يلي:

(رقمت أكثرها في حال صعب لا يمكن أصعب منها حال، ورسمت أغلبها في مدَّة كدورة بال لا يوجد أكدر منه بال، بل في أزمة يكون كلّ جزء منها طرفاً لغصَّة وعذاب أليم، وحسرة وندم عظيم، وأمكنة توقد كلّ آنٍ فيها زبانية نار جحيم، ويصبُّ من فوقها حميم، ما مضىٰ وقت ليست عيني فيه مقطراً، ولا بالي مكدَّراً، ولم يجيء حين لم يزد ألمي ولم يضاعف همّي وغمّي...).

وهنا يستشهد ببيت شعر فارسي ثمّ يتمّم القول: (وما لي في امتداد حياتي زمان ليس مملوء بالحوادث المستلزمة للندامة والحسرة الأبدية، وكان استمرار عيشي أمير جيوشه غموم، وعساكره هموم، اللّهمّ نجّني من تزاحم أفواج البلاء، وتراكم أمواج العناء، بحقّ رسولك المجتبىٰ ووصيّه المرتضىٰ صلّىٰ الله عليهما وآلهما، وفرِّج عنّي ما أنا فيه بلا إله إلَّا أنت، وأنت أرحم الرحمين).

الغزو المغولي الثاني:

كان الغزو المغولي الثاني بقيادة هولاكو أشدُّ ضراوة من الغزو الأوَّل، والقلاع الإسماعيلية التي صمدت في وجه جنكيز لم تستطع الصمود في وجه هولاكو، فكان أن أسرع ناصر الدين مستجيباً لدعوة التسليم التي دعاه إليها هولاكو فسلَّم، ثمّ والىٰ هولاكو زحفه علىٰ إيران، وأرسل إلىٰ ركن الدين خورشاه يطلب إليه التسليم، وأيقن ركن

الدين بعدم جدوىٰ الدفاع والعصيان، فأرسل أخاه شاهنشاه وجمعاً من كبار رجال الدولة إلىٰ هولاكو مظهراً الطاعة والانقياد، ثمّ عاد فأرسل أخاه الثاني شيرانشاه مع ثلثمائة جندي فقابلوا هولاكو وعادوا منه برسالة رضىٰ وملاينة، وبقي السفراء يتعاقبون بين هولاكو وركن الدين علىٰ هذا المنوال زمناً.

وركن الدين يتحفَّظ في موقفه ولا يجرأ علىٰ ملاقاة هولاكو بنفسه، ثمّ عاد وأرسل أخاه الثالث إيرانشاه مصحوباً بالخواجة نصير الدين الطوسي وجماعة من الوزراء وأعيان الدولة وقادة الجيش، فعمد هولاكو إلىٰ استجوابهم فرداً فرداً دون أن يتشدَّد في استجوابهم، ثمّ أعادهم وأرسل إلىٰ ركن الدولة أنَّه لن يرضيه إلَّا حضوره بنفسه وإعلان استسلامه، فاستشار ركن الدولة خاصَّته وأركان دولته فأشاروا بالتسليم ليقينهم بأنَّ المقاومة ميؤس من نتيجتها.

فمضىٰ ركن الدولة وبصحبته أولاده ونصير الدين الطوسي والوزير مؤيّد الدين والطبيبين موفق الدولة ورئيس الدولة، ونزلوا من قلعة (ألموت) مخلفين دارهم التي عمَّروها مائة وسبعاً وسبعين سنة، وكان نزول ركن الدين من القلعة وذهابه إلىٰ هولاكو إيذاناً بانتهاء دولة الإسماعيليين في إيران.

أمَّا هولاكو فقد أنهىٰ الأمر بعد حين بقتل ركن الدين ومن معه واستثنىٰ من ذلك الطوسي والطبيبين موفَّق الدولة ورئيس الدولة، إذ أنَّه كان عارفاً بمكانة الطوسي العلمية والفكرية، وعارفاً كذلك بمكانة الطبيبين، فاحتفظ بالثلاثة وأمر بضمّهم إلىٰ معسكره ووجوب ملازمته.

مع هولاكو:

أصبح الطوسي في قبضة هولاكو، ولم يعد يملك لنفسه الخيار في صحبته، فعزم منذ الساعة الأُولىٰ أن يستغلَّ هذا الموقف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الإسلامي المهدَّد بالزوال، وأن يحول دون اكتمال الكارثة النازلة والبلاء المنصبّ، وقد استطاع بحنكته أن ينفِّذ خطَّته بحزم وتضحية وإصرار، وقد بلغ من إحكام أمره وترسيخ منهجه أنَّ الدولة التي أقبلت بجيوشها الجرّارة لتهدم الإسلام وتقضي علىٰ حضارته انتهىٰ أمرها بعد حين إلىٰ أن تعتنق هي نفسها الإسلام، ويصبح خلفاء جنكيز وهولاكو الملوك المسلمين!

يقول الدكتور علي أكبر فيّاض في كتاب محاضراته عن الأدب الفارسي والمدنية الإسلاميّة: كانت النهضة الإسماعيلية في قمَّة نشاطها في ذلك العصر، وكانت لهم مشاركة تامّة في دراسة الفلسفة والنهوض بها للاستفادة منها في تقرير أُصولهم وإثبات دعاويهم، وقد أسَّسوا لهم في قلعة (ألموت) في جبال قزوين، مكتبة عظيمة بادت علىٰ أيدي المغول، وكان يعيش في رعاية الإسماعيليين رجل يُعَدُّ من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا، ألَا وهو نصير الدين الطوسي، قُدِّرَ لهذا الرجل العظيم أن يقوم بإنقاذ التراث الإسلامي من أيدي المغول...

إلىٰ أن يقول: لقد فوَّض إليه هولاكو أمر أوقاف البلاد، فقام بضبطها وصرفها علىٰ إقامة المدارس والمعاهد العلمية، وجمع العلماء والحكماء وتعاون معهم في إقامة رصد كبير في مراغة بأذربيجان، ومكتبة بجانبه يقال: إنَّها كانت تحوي (٤٠٠) ألف من المجلَّدات.

ويقول المستشرق روندلسن: ثمّ اقترح الطوسي في مراغة علىٰ

هولاكو: أنَّ القائد المنتصر يجب أن يقنع بالتخريب فقط، فأدرك المغولي المغزىٰ وخوَّله بناء مرصد عظيم علىٰ تلٍّ شمالي مراغة، وتمَّ هذا العمل في (١٢) سنة، وجمع خلال ذلك الزيج الذي أتمَّه بعد وفاة هولاكو، وهو الزيج الإيلخاني، وقد أظهر خطأ أربعين دقيقة في موضع الشمس في أوَّل السنة علىٰ حساب الأزياج السابقة، وجمع مكتبة عظيمة ضمَّ إليها ما نُهِبَ من الكتب في بغداد، انتهىٰ.

ويبدو أنَّ همّ الطوسي انصرف أوَّل ما انصرف إلىٰ إنقاذ حياة أكبر عدد من العلماء، وحفظ أعظم عدد من الكتب، إذ أنَّه كان من الواضح أنَّ الغزاة القادمين لا يمكن مقاومتهم بالقوَّة، وأنَّ الدولة في بغداد قد بلغت من التفسّخ والانحلال والفتن ما لن تستطيع معه أن تقف بوجه هذا السيل المغولي الجارف، وكان لا يصحُّ التسليم وترك الوثنية تحلُّ محلّ الإسلام، فإذا عجز المسلمون اليوم عن مقابلة السيف بالسيف فإنَّهم لن يعجزوا عن مقابلة آثاره بالعلم والثقافة والدعوة الحسنة، ولن يتأتّىٰ ذلك إذا باد العلماء وانقرضت الكتب، لذلك اتَّخذ الطوسي من مرصد مراغة حجَّة لجمع الجمّ الغفير من العلماء وحمايتهم من القتل، كما انصرف إلىٰ استخلاص الكتب وجمعها وحفظها، فأدَّت النتيجة إلىٰ أن ينقلب الأمر ويعود المغول بعد ذلك مسلمين منافحين عن الإسلام.

مرصد مراغة:

أوَّل مرصد هو مرصد (أبرخسن) في اليونان أُنشئ قبل الميلاد، وبعده بحوالي ثلاثة قرون أُنشئ مرصد (بطليموس) في الإسكندرية.

أمَّا في الإسلام فإنَّ أوَّل مرصد أُنشئ كان مرصد الخليفة المأمون في بغداد، وفي أواخر القرن الثالث أُنشئ مرصد محمّد بن جابر البتاني في الشام، وأُنشئ في مصر المرصد الحاكمي، وأُنشئ في بغداد مرصد آخر.

ولـمَّا اقترح الطوسي علىٰ هولاكو إنشاء مرصد مراغة ووافقه علىٰ ذلك، جمع عديداً من العلماء ليعاونه في العمل، وباشر بإنشائه سنة (٦٥٧هـ) وظلَّ يعمل فيه حتَّىٰ وفاته، وسُمّي الزيج المستنبط من هذا المرصد الزيج الإيلخاني، ونشره في كتاب خاصّ احتوىٰ علىٰ جداول وطرائف حسابية جديدة لم تكن معروفة من قبل، لذلك كان هذا الزيج هو المعتمد عليه في أُوربا في عصر النهضة.

جامعة مراغة:

قال محمّد مدرّسي زنجاني، في كتابه (سرگذشت عقائد فلسفي خواجة نصير الدين الطوسي): فضلاً عن مقام الطوسي العلمي استطاع بتأثيره علىٰ مزاج هولاكو أن يستحوذ تدريجياً علىٰ عقله، وأن يروّض شارب الدماء فيوجّهه إلىٰ إصلاح الأُمور الاجتماعية والثقافية والفنّية، فأدّىٰ الأمر إلىٰ أن يوفد هولاكو (فخر الدين لقمان بن عبد الله المراغي) إلىٰ البلاد العربية وغيرها ليحثّ العلماء الذين فرَّوا بأنفسهم من الحملة المغولية فلجؤوا إلىٰ إربل والموصل والجزيرة والشام ويشوّقهم إلىٰ العودة، وأن يدعوا علماء تلك البلاد أيضاً إلىٰ الإقامة في مراغة.

وكان فخر الدين هذا رجلاً كيّساً حسن التدبير، فاستطاع أن ينجز مهمَّته علىٰ أحسن وجه، فعاد العلماء إلىٰ بلادهم.

ومن جهة ثانية شغل الطوسي بتأسيس مكتبة في مراغة بلغ عدد

كتبها (٤٠٠) ألف مجلّد، وقرَّر رواتب دائمة لطلَّاب المدارس والمعاهد بحسب أهمّيتها.

وجاء في (البداية والنهاية): عيَّن الخواجة نصير الدين الطوسي لكلّ من الفلاسفة ثلاثة دراهم يومياً، ولكلّ من الأطبّاء درهمين، ولكلّ من الفقهاء درهماً واحداً، ولكلّ من المحدِّثين نصف درهم، لذلك أقبل الناس علىٰ معاهد الفلسفة والطبّ أكثر من إقباله علىٰ معاهد الفقه والحديث، بينما كانت تلك العلوم من قبل تُدرَس سرّاً، انتهىٰ.

وهكذا اجتمع حوله العدد الوافر من الطلَّاب، وأقبل العلماء من كلّ ناحية إلىٰ تلك الديار وطافوا حوله كالفرّاشات علىٰ النور، واشتغلوا بكشف دقائق العلوم.

عالم دمشقي في مراغة:

لقد لقيت دعوة الطوسي استجابة كبرىٰ لا من العلماء النازحين فحسب بل من غيرهم من العلماء العرب وغير العرب الذين لبّوا الدعوة فرحلوا إلىٰ مراغة حيث اجتمع هناك علماء من دمشق ومن الموصل ومن قزوين ومن تفليس ومن سائر البلاد الإسلاميّة.

ويحسن هنا أن نذكر ما كتبه العالم الدمشقي مؤيّد الدين العرضي في مقدّمة رسالته التي أنشأها في شرح آلات مرصد مراغة وأدواته، والعرضي هذا أحد العلماء العرب الذين لبّوا دعوة رسول الطوسي، فترك دمشق ومضىٰ إلىٰ مراغة عاملاً تحت لواء الطوسي في الميدان العلمي الواسع. وإليك ما كتبه في مقدّمة رسالته:

(... وذلك كلّه بإشارة مولانا المعظَّم والإمام الأعظم العالم الفاضل المحقِّق الكامل، قدوة العلماء وسيّد الحكماء، أفضل علماء

الإسلاميّين بل المتقدّمين، وهو من جمع الله سبحانه فيه ما تفرَّق في كافّة أهل زماننا من الفضائل والمناقب الحميدة وحسن السيرة وغزارة العلم وجزالة الرأي وجودة البديهة والإحاطة بسائر العلوم، فجمع العلماء إليه وضمَّ شملهم بوافر عطائه، وكان بهم أرأف من الوالد علىٰ ولده، فكنّا في ظلّه آمنين وبرؤيته فرحين كما قيل:

نميل علىٰ جوانبه كأنّا ... نميل إذا نميل علىٰ أبينا
ونغضبه لنخبر حالتيه ... فنلقىٰ منهما كرماً ولينا

وهو المولىٰ نصير الملَّة والدين محمّد بن محمّد الطوسي أدام الله أيّامه.

وأستكبر الأخبار قبل لقائه ... فلمَّا التقينا صغَّر الخبر الخبر

فللَّه أيّام جمعتنا بخدمته وأبهجتنا بفوائده، وإن كانت قد أبعدتنا عن الأوطان والعشيرة والولدان، فإنَّ في وجوده عوضاً عن غيره، ومن وجده فما فاته شيء ومن فاته فقد عُدِمَ كلّ شيء، فلا أخلانا الله منه وأمتعنا بطول بقائه).

النتائج الخطيرة لتنظيمات الطوسي:

مضىٰ هولاكو فتولّىٰ الحكم بعده ابنه (أبا قاخان) ثمّ مضىٰ أبا قاخان فولّي الحكم ابن هولاكو الآخر (تكودار)، وكانت أغراض الطوسي قد بدأت تؤتي أُكلها، فإذا بابن هولاكو يعلن إسلامه، وإذا كان الطوسي في ذلك الحين قد لقي وجه ربّه فقد كان هناك تلميذه ومن أقرب المقرَّبين إليه قطب الدين أبو الثناء محمود بن مسعود الشيرازي، فاستدعاه (تكودار) الذي أصبح اسمه (أحمد تكودار) وضمَّ إليه جمعاً من العلماء ليكونوا سفراءه إلىٰ علماء بغداد وإلىٰ السلطان منصور قلاون

ملك مصر فيحملوا إليهم النبأ العظيم نبأ إسلام ابن هولاكو، وإسلام الدولة المغولية تبعاً لإسلامه.

انتهىٰ ما أردنا نقله وتدوينه من (أعيان الشعية)، وننتقل الآن إلىٰ ما ذكره العلَّامة عبد الله نعمة في كتابه فلاسفة الشيعة (ص ٤٨٨)، عن الفيلسوف نصير الدين الطوسي أعلا الله مقامه، قال:

لم يكن لقب نصير الدين الطوسي بالمحقِّق وبأُستاذ البشر جزافاً، أو أنَّه كان ممدوداً بالمبالغة التي اعتاد عليها الناس دون تقدير أو حساب.

لم يكن لقب الطوسي بذلك عفواً، وإنَّما كان نتيجة لما يتمتَّع به من شخصية علمية، وعمق تفكير، وبلوغ غاية قصوىٰ في الفلسفة والعلم، ولما لآرائه الفلسفية، ونظرياته العلمية من صبغة تقدمية، وتحرّر من رواسب التفكير اليوناني وسواه.

كما كان نتيجة اتّجاهاته الفلسفية والعلمية، التي كان لها أثرها البعيد علىٰ أجيال عديدة في عصور متأخّرة عنه، ولذلك نجد أنَّ كتبه الرياضية والفلكية والفلسفية قد احتضنها الفلاسفة المتأخّرون عنه بالعناية والشرح والتعليق، وحظيت كتبه باهتمام المفكّرين درساً وتوضيحاً، وذلك هو سرّ عظمة الطوسي، ومفتاح شخصيته.

ويقول الأُستاذ طوقان: وتتجلّىٰ لنا عظمة الطوسي وأثره في تاريخ الفكر الرياضي وغير الرياضي، إذا علمنا أنَّ المثلَّثات هي ملح كثير من العلوم الرياضية والبحوث الفلكية والهندسية، وأنَّه لا يمكن لهذه أن تستغني عن المثلَّثات ومعادلاتها، ولا يخفىٰ أنَّ هذه المعادلات هي عامل أساسي لاستغلال القوانين الطبيعية والهندسية، في ميادين الاختراع والاكتشاف[١].

---

(١) نقلاً عن تراث العرب العلمي: ٣٥٩.

ويقول أيضاً: والطوسي أوَّل من استعمل الحالات الستّ للمثلَّث الكري القائم الزاوية، وقد أدخلها في كتابه (الشكل القطاع) ومن يطالع هذا الكتاب يجد فيه ما يجده في أحسن الكتب الحديثة في المثلَّثات علىٰ نوعيها.

ولا شكَّ أنَّ لهذا الكتاب أثراً كبيراً في المثلَّثات وارتقائها، وفي وسعنا القول: إنَّ العلماء _ فيما بعد _ لم يزيدوا شيئاً هامَّاً في نظريات هذا الكتاب ودعاويه.

ويقول أيضاً: وفي (التذكرة) أوضح الطوسي كثيراً من النظريات الفلكية، وقد وضعها بشكل صعب، وهذا هو السبب في كثرة الشروح التي وضعها علماء العرب والمسلمين. وانتقد فيه أيضاً كتاب المجسطي، واقترح نظاماً جديداً للكون أبسط من النظام الذي وضعه بطليموس، وكذلك أدخل فيه حجوم بعض الكواكب وأبعادها.

ويعترف سارطون بأنَّ الانتقاد الذي وضعه نصير الدين الطوسي للمجسطي يدلُّ علىٰ عبقريته وطول باعه في الفلك، ويمكن القول: إنَّ انتقاده هذا كان خطوة تمهيدية للاصطلاحات التي تقدَّم بها كوبر نيكس.

وتتجلّىٰ عظمة الطوسي وعبقريته أيضاً في الدور الكبير الذي قام به في تمحيص ونقد النظريات الفلسفية اليونانية، التي كانت مسيطرة علىٰ مفكّري الإسلام، والتي أخذوها عنهم كما هي دون تمحيص، وبقي أثرها في التفكير الفلسفي الإسلامي حتَّىٰ عصر الطوسي.

ومن هذه النظريات النظرية اليونانية القائلة بأنَّ (الواحد البسيط لا يصدر عنه إلَّا واحد بسيط مثله)، التي كانت وكأنَّها قاعدة رياضية لا تقبل المناقشة.

هذه النظرية اليونانية التي سيطرت علىٰ تفكير فلاسفة الإسلام تبنىٰ علىٰ أُمور:

أوّلاً: إنَّ موضوعها يُحدَّد بالسبب الواحد الحقيقي البسيط من جميع جهاته.

ثانياً: إنَّ استحالة صدور أكثر من واحد من السبب الواحد إنَّما هو في الصدور منه مباشرة، لا بتوسّط شيء آخر.

ثالثاً: إنَّه لا بدَّ أن يكون بين العلَّة ومعلولها جهة ترجيح، بها يصدر المعلول عن العلَّة، ولولا وجود هذه الجهة أو العلاقة التي يُعبّرون عنها بالسنخية أو الخصوصية لما اقتضت علَّة ما وجود معلول معيَّن، ولكان صدور الحرارة عن النار مثلاً دون البرودة ترجيح بدون مجرّح.

وبعد هذا ينتهون إلىٰ القول:

إنَّه لو فُرِضَ صدور اثنين من واحد فلا شكَّ أنَّ مفهوم صدور أحد الشيئين عنه مغاير لمفهوم صدور الآخر المستلزم في النهاية إلىٰ المغايرة بين الخصوصيتين التي اقتضت إحداهما معلولاً غير ما اقتضته الأُخرىٰ.

وبعد هذا يتَّجه السؤال التالي: هل هاتان الخصوصيتان مقوّمتان للعلَّة، علىٰ نحو تشكّلان جزءً منها؟ أم أنَّها من لوازمها الخارجة عنها؟ ويترتَّب علىٰ الأُولىٰ تركّب العلَّة الواحدة من خصوصيتين تقتضي إحداهما غير ما تقتضيه الأُخرىٰ، وهو خلاف افتراض أنَّ العلَّة واحدة بسيطة.

ويترتَّب علىٰ الثانية أنَّه لم يصدر عن كلّ خصوصية إلَّا واحدة، ويعود بنا البحث بعينه لو صدر عنها شيئان وهكذا. ويترتَّب عليه أيضاً قِدَم تينك الخصوصيتين الخارجيتين عن ذات العلَّة، الموجبتين لصدور

معلولين عنها، إذ لا بدَّ أن تكونا موجودتين مع الذات قبل وجود المعلولين، ويلزم عليه قِدَمهما.

وقد اصطدموا بعد تقرير هذه النظرية بمشكلة تعتبر من أعوص المشاكل الفكرية، وهي: أنَّ الله تعالىٰ واحد لا تركيب فيه، وأنَّ مخلوقاته متعدّدة متكثّرة، إذن كيف يصدر هذا الكثير عن الواحد؟

وقد لجؤوا إلىٰ افتراضات فكرية بحتة لا تمت إلىٰ الواقع بصلة، كلّ ذلك لتفسير كيفية الخلق والصدور، كما لجأ العلماء إلىٰ افتراض مادّة وهمية سمّوها (الأثير) لتفسير وصول النور والحرارة إلينا من الشمس، مع اعترافهم بأنَّ الأثير هو افتراض علمي مجرَّد، وأنَّه لا يحمل أيّ شيء من خواصّ المادّة، وأنَّه لا يمكن أن يرىٰ بأكبر المجاهر العلمية.

قلنا: إنَّه لجأ الفلاسفة إلىٰ افتراض واسطة لتفسير الصدور عن الخالق الواحد، فقد افترض أفلاطون واسطة واحدة هي النفس الكلّية، وافترض غيره واسطتين، وافترض آخرون عشرة، منهم الفارابي علىٰ ما نُسِبَ إليه، وقد دعوها بالعقول العشرة.

قالوا: إنَّ الله تعالىٰ خلق العقل الأوَّل مباشرة دون واسطة، وأنَّه بذلك حصلت للعقل الأوَّل إضافتان، أحدها من جهة إمكانه بالذات، والأُخرىٰ من جهة وجوبه بالغير، وأنَّ العقل الأوَّل خلق العقل الثاني، وفيه إضافتان أيضاً، يستطيع أن يخلق شيئين، وهكذا تكثَّرت الإضافات والنسب وأمكن خلق المتعدّد بسببها.

والانصاف يدفعنا إلىٰ القول بأنَّ ما افترضوه من عقول، تكون هي الواسطة بين الخالق والمخلوق في تفسير الخلق، ليس له مدد عقلي، ولا برهان مقبول.

أمَّا موقف فيلسوفنا الطوسي من نظرية (الواحد لا يصدر عنه إلَّا واحد)، فقد كان موقف المناهض لهذه النظرية، فقد قرَّر (أنَّ العلّية مطلقاً لا يمكن أن تكون بحسب ذات العلَّة _ حسب أُصول الفلاسفة _ فلا بدَّ في صدور المعلول الواحد أيضاً من حيثية العلّية، مضافة إلىٰ الذات.. لأنَّ الاتّصاف بالعلّية لا تصدق عليه بدون تحقيق المعلولية).

ويرىٰ الطوسي أنَّ اتّصاف ذات الله تعالىٰ بالعلّية نقص في حقّه؛ لأنَّ ذلك يقتضي أن يكون سبباً موجباً، لا سبباً مختاراً، وأن تكون الخصوصية أو الحيثية التي اقترنت معه حين إيجاد المعلول قديمة معه بقِدَمه، وهو من الشرك بمكان.

لذلك جعل الطوسي العلّية صفة لأمره تعالىٰ الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ﴾ (القمر: ٥٠)، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، ممَّا ينتهي إلىٰ التوحيد الصرف، والتنزيه المحض.

ويتلخَّص نقض الطوسي لهذه القاعدة بأمرين:

أحدهما: إنَّ الحيثية أو العلاقة التي فُرِضَت مقيّدة للعلَّة، إمَّا أن تكون وجودية فيترتَّب عليه تركّب العلَّة، وقد فُرِضَت واحدة بسيطة، وإمَّا أن تكون اعتبارية ليس لها وجود إلَّا في ذهن المعتبر، فهي لا تصلح للتأثير في الصدور والوجود.

كما أنَّها إذا كانت اعتبارية استحالت تلك القسمة السابقة (وهي إمَّا أن تكون داخلة في ذات العلَّة علىٰ أن تكون جزءاً منها أو خارجة عنها) عليها، لأنَّها أمر اعتباري لا وجود له إلَّا في الذهن، ولا يُعقَل أخذ أمر ذهني في شيء وجودي خارجي في تحقيق الصدور عنه.

ثانيهما: إنَّ الخصوصية أو الحيثية كما تكون مأخوذة فيما لو صدر عن الواحد شيئان، كذلك تكون مأخوذة لو كان الصادر واحداً أيضاً، ويتَّجه السؤال علىٰ هذا بنفس طريقة السؤال هناك، وأكثر ما يترتَّب هناك من محاذير يترتَّب هنا أيضاً.

وهناك حلول أُخرىٰ لفلاسفة آخرين لا يتَّسع المقام لعرضها.

وتبدو قيمة آراء الطوسي ونقضه للنظرية اليونانية نظراً لما تشتمل عليه هذه الآراء من استقلال شخصيتها، وتحرّرها، التي هدم بها أمتن قاعدة فلسفية يونانية، كانت تُعتَبر حتَّىٰ عصره من الأُسس المتينة التي لا تقبل النقض.

وتدحض من جانب آخر رأي المستشرقين أمثال رينان القائل بأنَّ الفلسفة الإسلاميّة ليست إلَّا الفلسفة اليونانية ولكنَّها بأحرف عربية، وأنَّ المسلمين أخذوا النظريات اليونانية دون تمحيص.

ومن جانب ثالث قضىٰ رأي الطوسي علىٰ تلك النظرية التي كانت الركيزة الكبيرة لأساطير وخرافات يونانية، قد أخذ بها فلاسفة مسلمون أخذاً. وانهار بنقضه للنظرية اليونانية أُسطورة العقول العشرة، وما يتبعها من آراء في الهيأة القديمة، التي تقول بأفلاك حيّة عاقلة ومفكّرة ومدبّرة.

فقد انهار بنقضها أساس الهيأة القديمة قبل ولادة كوبيرنيك وغاليلة بعدَّة قرون.

وأعجب ما في الأمر هو أنَّ الطوسي اتَّخذ من ملاك برهان هذه القاعدة المذكورة دليلاً علىٰ نقضها، كما عرفت.

أمَّا مؤلَّفاته فكثيرة، ومعظمها في الفلسفة والكلام والفلك

والرياضيات، وهي تدلُّ علىٰ خصب قريحته وقوَّة فكره، وكان لها أثر كبير في تقدّم العلم والفكر، ممَّا جعل سارطون يقول: (إنَّه من أعظم علماء الإسلام، ومن أكبر رياضييهم).

وأرىٰ من الخير أن أذكر ما ذكره العلَّامة محمّد بن شاكر بن أحمد الكتبي، في فوات الوفيات (ج ٢/ ص ١٨٦) لما فيه من النكات الغريبة العجيبة التي قام بها الطوسي، وقد مرَّ نبذة منها، ما نصّه:

محمّد بن محمّد بن الحسن نصير الدين الطوسي، الفيلسوف، صاحب علم الرياضي، كان رأساً في علم الأوائل لاسيّما في الارصاد والمجسطي، فإنَّه فاق الكبار، قرأ علىٰ المعين سالم بن بدران المعتزلي الرافضي وغيره، وكان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، والأموال في تصريفه، وابتنىٰ بمراغة قبَّة ورصداً عظيماً، واتَّخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نُهِبَت من بغداد والشام والجزيرة حتَّىٰ تجمَّع فيها زيادة علىٰ أربعمائة ألف مجلَّد، وقرَّر بالرصد المنجّمين والفلاسفة، وجعل له الأوقاف.

وكان حسن الصورة، سمحاً كريماً جواداً حليماً، حسن العشرة غزير الفضل. حكي أنَّه لـمَّا أراد العمل للرصد رأىٰ هولاكو ما يغرم عليه، فقال له: هذا العلم المتعلِّق بالنجوم ما فائدته، أيدفع ما قُدِّرَ أن يكون؟ فقال: أنا أضرب لك مثلاً، يأمر القان من يطلع إلىٰ هذا المكان ويرمي من أعلاه طشت نحاس كبير من غير أن يعلم به أحد، ففعل ذلك، فلمَّا وقع كانت له وقعة عظيمة هائلة روَّعت كلّ من هناك، وكاد بعضهم يصعق، وأمَّا هو وهولاكو فإنَّهما ما حصل لهما شيء لعلمهما بأنَّ ذلك يقع، فقال له: هذا العلم النجومي له هذه القاعدة، يعلم المتحدِّث

فيه ما يحدث فلا يحصل له من الروعة ما يحصل للذاهل الغافل عنه، فقال له: لا بأس بهذا، وأمره بالشروع فيه.

ومن دهائه ما حكي أنَّه حصل له (أي لهولاكو) غضب علىٰ علاء الدين الجويني، صاحب الديوان، فأمر بقتله، فجاء أخوه إلىٰ النصير وذكر له ذلك، فقال له النصير: هذا القان إن أمر بأمر لا يمكن ردّه خصوصاً إذا برز إلىٰ الخارج، فقال له: لا بدَّ من الحيلة في ذلك، فتوجَّه إلىٰ هولاكو وبيده عكّاز وسبحة ثمّ إصطرلاب، وخلفه من يحمل مبخرة وبخوراً وناراً، فرآه خاصّة هولاكو الذين علىٰ باب المخيَّم، فلـمَّا وصل أخذ يزيد في البخور ويرفع الإصطرلاب ناظراً فيه ويضعه فلـمَّا رأوه يفعل ذلك دخلوا علىٰ هولاكو وأعلموه، ثمّ خرجوا إليه فقال لهم: القان أين هو؟ قالوا له: جوّا.

قال: طيّب معافىٰ موجود في صحَّة؟ قالوا: نعم، فسجد شكراً لله تعالىٰ، ثمّ قال لهم: فطيّب في نفسه؟ قالوا: نعم، وكرَّر ذلك مراراً، وقال: أُريد أرىٰ وجهه بعيني، فدخلوا فأعلموه، وكان في وقت لا يجتمع به أحد، فقال: عليَّ به فلـمَّا دخل ورآه سجد وأطال السجود، فقال له: ما خبرك؟ قال: اقتضىٰ الطالع في هذا الوقت أن يكن علىٰ القان أمر فظيع عظيم إلىٰ الغاية، فقمت وعملت هذا وبخَّرت بهذا البخور ودعوت بأدعية أعرفها أسأل الله تعالىٰ صرف ذلك عن القان، وينبغي الآن أنَّ القان يكتب إلىٰ سائر ممالكه بإطلاق من في الاعتقال والعفو عمَّن له جناية لعلَّ الله ﷻ يصرف هذا الحادث العظيم، ولو لم أرَ وجه القان ما صدَّقت، فأمر في تلك الساعة هولاكو بما قال وأطلق علاء الدين صاحب الديوان في جملة الناس، ولم يذكره النصير الطوسي.

وهذا غاية في الدهاء بلغ به مقصده ودفع عن الناس أذاهم.

قال: وممَّا وقف له عليه (وهي من أخلاقه الفاضلة) أنَّ ورقة حضرت إليه من شخص من جملة ما فيها: (يا كلب ابن الكلب)، فكان الجواب منه: (أمَّا قوله: يا كذا فليس بصحيح؛ لأنَّ الكلب من ذوات الأربع وهو نابح طويل الأظفار، وأمَّا أنا فمنتصب القامة بادي البشرة عريض الأظفار ناطق ضاحك، فهذه الفصول والخواصّ غير تلك الفصول والخواصّ، والحال في نقيض كلّما قاله)، هكذا ردَّ عليه بحسن طوية وتأنّي غير منزعج، ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة...

وجاء في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٤٧٣): وقد نقلت عنه في كتب التاريخ والأدب، حكايات وأقاصيص هي دون ريب من نسج الخيال، ومن ذلك:

أنَّ تلميذه نجم الدين علي بن محمّد المعروف بـ(دبيران) صاحب متن الشمسية وكتابي (حكمة العين) و(جامع الدقائق) سأل الطوسي وهو في معركة القتال، واضعاً إحدىٰ رجليه علىٰ الركاب، والأُخرىٰ علىٰ الأرض، عن أربعمائة مسألة من المعضلات والمشكلات الكلامية، فأجاب عن جميعها في قدر نصف ساعة.

نقل هذه القصَّة عن (روضات الجنّات)، ولا شكَّ أنَّ هناك مبالغة ضخمة قد أُدخلت علىٰ هذه القصَّة، تدلُّ علىٰ جهل راويها بما يلزمها من التعذّر، حين نعلم بعد أن نوزّع النصف ساعة علىٰ الأربعمائة مسألة، ويكون لكلّ مسألة واحدة أربع ثوان ونصف، وهو وقت يتعذَّر ولا يتَّسع لعرض مسألة من المسائل، ولا للجواب عنها من المسؤول.

ومن ذلك أيضاً:

أنَّـه كـان في سـفر، وقـد ركـب سـفينة، فيها ثلاثـون رجـلاً نصـفهم مسـلمين، ونصـفهم الآخـر مـن اليهـود، وأنَّ البحـر قـد هـاج، وأوشـكت السـفينة علىٰ الغـرق، فاتَّفقـت آراء أهـل السـفينة علىٰ أن يسـاهموا بالقرعـة علىٰ نصفهم لينجوا لنصـف البـاقي، فمـن أخرجته القرعـة ألقـوه في البحـر، إلىٰ أن تبلـغ آخـرهم، فاحتـال نصـير الـدين الطـوسي، فـأجلس سـاكني السفينة في دائرة، كان يجلس بعد كـلّ أربعـة مسـلمين خمسـة مـن اليهـود، ثـمّ بعـد كـلّ مسـلمين يهوديـاً واحـداً، فلـمَّا أخـذوا في المسـاهمة، جعلـوا يعـدّون تسـعة تسـعة، ويلقـون التاسـع مـنهم في الـيم، فهلـك بهـذه الطريقـة جميـع اليهود، وبقي المسلمون سالمين.

وهـذه القصَّـة التـي ربَّـما كـان للخيـال فيهـا كثـير مـن التصـرّف، تعكـس لنـا نفـوذ شخصـية الطـوسي الرياضـية أيضـاً، وتغلغلهـا وسـيطرتها علىٰ كثير مـن الأفكـار. وهنـاك أسـاطير غـير مـا ذكرنـا، تركنـا التعـرّض لهـا لضيق المجال.

والطوسي كان _ دون ريب _ من الشيعة الإمامية (الاثنىٰ عشرية).

ومؤلَّفاته في الكلام التي اشتملت علىٰ مباحث الإمامة، يصـرّح بالأئمّـة الاثني عشـر وعصمتهم، بل رسائله رقم (٥٦) و(٥٧) و(٧٠) صريحة بذلك.

ويؤكّد ذلك أنَّه تتلمـذ علىٰ جملـة مـن فقهـاء الشـيعة وعلمائهـا، أمثـال كمال الدين ميثم البحراني، ومعـين الـدين المصـري. ويؤيّـد ذلـك أيضـاً: أنَّـه بمجرَّد انهيار قلاع الإسـماعيليين والقضـاء علـيهم، أعلـن أنَّـه شـيعي إمـامي اثنا عشري، وذلك يدلُّ علىٰ مـا كـان يكتمـه تقيّـة مـن اتّجـاه مـذهبي. وفـوق ذلـك فقـد اتَّصـل علىٰ إثـر دخولـه بغـداد بـرئيس علـماء الشـيعة في الحلَّـة آنذاك، وهو نجم الدين المعروف بالمحقّق الحلّي، وحضر مجلس درسه.

لم يكن الطوسي شيعي العقيدة فحسب؛ بل كان متفاعلاً بروح التشيّع إلىٰ حدٍّ بعيد، نجد في بعض شعره المنسوب إليه ما يعبّر عن ذلك، ومنه قوله:

لو أنَّ عبداً أتىٰ بالصالحات غداً   وودّ كلّ نبيّ مرسل ووليّ
وصام ما صام صوّام بلا ملل   وقام ما قام قوّام بلا كسل
وطار في الجوّ لا يأوي إلىٰ أحد   وغاص في البحر مأموناً من البلل
وأكسىٰ اليتامىٰ من الديباج كلّهم   وأطعمهم من لذيذ البر والعسل
وعاش في الناس آلافاً مؤلَّفة   عار من الذنب معصوماً من الزلل
ما كان في الحشر يوم البعث منتفعاً   إلَّا بحبّ أمير المؤمنين علي

شعره بالعربية:

جاء في أعيان الشيعة: من شعره قوله:

ما للمثال الذي ما زال مشتهراً   للمنطقيين في الشرطين تسديد
أمَا رأوا وجه من أهوىٰ وطرته   الشمس طالعة والليل موجود

وقوله فيما نقله الشيخ يوسف البحراني، عن خطّ الشيخ حسن الزيني، عن خطّه:

وقف العذار علىٰ أوائل خدّه   متحيّراً كتحيّري في حدّه
وقرأته فإذا عليه أسطر   يا عاشقيه تزوَّدوا من ورده
يا من حكىٰ زهر الرياض بخدّه   وحكىٰ قضيب الخيزران بقدّه
دع عنك ذا السيف الذي قلَّدته   عيناك أمضىٰ من مضارب حدّه
كلّ السيوف بواتر مشهورة   وحسام لحظّك باتر في غمده

يـــا محســــناً إلَّا إليَّ ومـــــنعماً ... إلَّا عـــليَّ ومخلفـــاً في وعـــده
لا تســتمع قــول الوشــاة فــإنَّما ... نقـل الحـديث إلىٰ الحبيـب بضـدّه

وقوله:

لو أنَّ عبداً أتـىٰ بالصـالحات غـداً ... وودَّ كـــلّ نبـــيّ مرســـل ووليّ

وقد مرَّ.

وقوله:

إذا فـاض طوفـان المعـاد فنوحـه ... عـلي وإخـلاص الـولاء لـه فلـك
إمـام إذا لم يعـرف المـرء قـدره ... فلـيس لـه حـجّ ولـيس لـه نسـك
فأقسـم لـو لم يلـف رطبـاً بمدحـه ... لسـاني لم يصـحبه في فمـي الفـكّ
ولـو لامنـي فيـه أبي لم أقـل أبي ... وحاشـا أبي أن يعتريـه بـه شـكّ

وله:

مقـدّمات الرقيـب كيـف غـدت ... عنـد لقـاء الحبيـب متَّصـله
تمنعنـا الجمـع والخلـوّ معـاً ... وإنَّـما ذلـك حكـم منفصـله

وفي كتاب أوصاف الأشراف ترجمة محمّد الخليلي (ص ١٤):

نظمه في اللغتين:

كان رحمه الله (أي الطوسي) مع ما هو عليه من الفضل والنبل وغزارة العلم والحكمة، مضافاً إلىٰ ما حباه الله من الجلالة وعظم القدر أريحياً خفيف الروح، أديباً متين النثر والنظم في اللغتين العربية والفارسية، فكأنَّه أبىٰ قدس سره إلَّا أن يستكمل الفضائل والفواضل، وأن يستوفي الكمال من جميع نواحيه، وهكذا كان.

أمَّا نثره فإنَّ كتبه الجليلة ورسائله السامية لتغنينا عن الإطراء، وإنَّ

ما يجده القارئ فيها من الفصاحة وما يلمسه من البلاغة، وما يروق له من حسن البيان وجميل التعبير ليكفينا عن ذكرها والاستدلال بها علىٰ صدق دعوانا.

أمَّا نظمه فنذكر لك أوَّلاً من الشعر الفارسي بيتين كنموذج لذلك وهما قوله:

ای بیخبر این شکل مجسم هیچ است
وین دایره سطح مجسم هیچ است
خوش باش که در نشیمن کون وفساد
تو بسته بیک دمی و آن هم هیچ است

وتعريبهما التقريبي هو قولي[1]:

يا غافلاً إنَّ المجسَّم شكله ... وسطوحه لو تعقلن خيال
فاسعد فإنَّك في الحياة معلَّق ... بتنفّس إن دام وهو خيال

ومثلهما قوله:

جز حق حکمی که ملک را شاید نیست
حکمی که زحکم حق فرزن آید نیست
هر چیز که هست آنچنان میباید
و آن چیز که آن چنان نمیباید نیست

وتعريبهما التقريبي هو قولي أيضاً:

غير حكم الحقّ لم يصلح لنا ... وعليه غيره لم يزدد

(١) القائل هو الشيخ محمّد الخليل مترجم كتاب (أوصاف الأشراف) للمترجَم له.

كـلّ موجـود عـلىٰ مـا ينبغـي   والــذي لا ينبغـــي لم يوجـــد

ولـه في الفارسـية شـعر كثـير ذكـره صـاحب (روضـات الجنّـات)، وأمَّا نظمه باللغة العربية فهو كقوله:

كنّـا عـدماً ولم يكـن مـن خلـل   والأمـــر بحالـــه إذا مـــا متنـــا

يـا طـول فنائنـا وتبقـىٰ الـدنيا   لا الرسم بقىٰ لنا ولا اسم المعنىٰ

وفي (الكنىٰ والألقاب) للقمّـي: إنَّ الشيخ كمال الـدين أحمـد بـن عـلي بـن سـعادة البحـراني، المعـاصر للخواجـة، كـان قـد ألَّـف كتابـاً في مسـألة العلـم مـن صـفات الله تعـالىٰ، وأنَّ تلميـذه جمـال الـدين عـلي بـن سـليمان البحـراني قـد أرسـله بعـد مـوت أُسـتاذه إلىٰ المرحـوم الخواجـة ليشـرحه لـه ويبيّن مشـكلاته، وأنَّ الخواجـة بعـد أن شرحـه أرسـله إليـه مـع رسـالة قـال في أوّلها: بسم الله الرحمن الرحيم:

أتـــاني كتـــاب في البلاغـــة منتـــه   إلىٰ غايـة ليسـت تقـارن بالوصـف

فمنظومـــه كالـــدرّ جـــاد نظامـــه   ومنثـوره مثـل الـدراري في اللطـف

إلىٰ أن يقول:

قـرأت مـن العنـوان حـين فتحتـه   وقبَّلـت تقبـيلاً يزيـد عـلىٰ الألـف

ولـــمَّا بـدا لي ذكـركم في مسـامعي   تعشـقكم قلبـي ولم يـرَكم طـرفي

فصادفت هذا البيت في شرح قصَّتي   وإيضـاح مـا عاينتـه جملـة تكفـي

ثمّ يسترسـل في رسـالته البليغـة التـي لـولا طولهـا لـذكرناها لاشتمالها علىٰ البلاغة الفصاحة بأجلىٰ مظاهرها.

وله كتب ورسائل ما يناهز مائـة وأربعـة وثمانـين مؤلَّفـاً، مـا بـين كتـب ورسائل وأجوبة مسائل في فنون شتّىٰ، ذكرها المترجمون له.

وبالتالي توفّي رضوان الله عليه في دار السلام بغداد آخر نهار الاثنين المطابق ليوم عيد الغدير المبارك من شهور سنة اثنتين وسبعين وستمائة، عن سبعة أشهر وخمس وسبعين سنة، ودُفِنَ بالمشهد الكاظمي في الرواق في سرداب وجدوه هناك مرتَّباً معيَّناً، وبالغضارات الملبَّنة المنقشة بالألوان مزيَّناً، مكتوب عليه: هذا قبر قد ادَّخره الناصر بالله العبّاسي لنفسه، فلم يجعله الله له لأنَّه دُفِنَ في الرصافة، ونقشوا علىٰ لوح ذلك المرقد المنوَّر الذي ما له في الشرف والكرامة من مزيد حين دُفِنَ فيه هذا المولىٰ العميد والملك الرشيد بتقدير إلهنا العزيز الحميد: ﴿وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨).

ونُقِلَ أنَّه قيل له رحمه الله في مرض موته: ألَا توصي علىٰ حمل جسدك إلىٰ مشهد النجف الأشرف الأطهر؟ فقال: لا بل استحي من وجه سيّدي الإمام الهمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام أن آمر بنقل جسدي من أرضه المقدَّسة إلىٰ موضع آخر. وله اليوم شبّاك علىٰ قبره يزوره الناس.

* * *

(٢٨)

ابن ميثم البحراني[١]

أوحد زمانه فضلاً وعلماً وفقهاً وكلاماً وحديثاً، كان فيلسوفاً بارعاً وحكيماً لامعاً، عمدة العلماء المتألّهين وزبدة الحكماء المتقدّمين.

جاء في (الكنىٰ والألقاب): كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، العالم الربّاني والفيلسوف المتبحّر المحقّق، والحكيم المتألّه المدقّق، جامع المعقول والمنقول، أُستاذ الفضلاء الفحول، صاحب الشروح علىٰ نهج البلاغة.

يروي عن المحقّق نصير الدين الطوسي والشيخ كمال الدين علي بن سليمان البحراني، ويروي عنه آية الله العلّامة والسيّد عبد الكريم بن طاووس، قيل: إنَّ الخواجة نصير الدين الطوسي تلمَّذ علىٰ كمال الدين ميثم في الفقه، وتلمَّذ كمال الدين علىٰ الخواجة في الحكمة، توفّي سنة (٦٧٩هـ)، وقبره في هلتا من قرىٰ ماحون، انتهىٰ.

وذكره الشيخ يوسف البحراني في (لؤلؤة البحرين)، قال: الشيخ ميثم، فإنَّه العلّامة الفيلسوف المشهور، قال شيخنا العلّامة سليمان بن

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٥٤٧؛ لؤلؤة البحرين: ٢٥٣؛ الكنىٰ والألقاب ١: ٤٢٥؛ طبقات أعلام الشيعة (الأنوار الساطعة): ١٨٧؛ روضات الجنّات ٧: ٢١٤؛ أعيان الشيعة ٤٩: ٩٨؛ تأسيس الشيعة: ٣٩٣؛ معجم المؤلّفين ١٣: ٥٥؛ أمل الآمل ٢: ٣٣٢؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٢٠٨، ٢: ٢٨٦؛ الفوائد الرضوية: ٦٨٩.

عبد الله البحراني عطّر الله مرقده في رسالته المسمّاة (السلافة البهيّة في الترجمة الميثمية): هو الفيلسوف المحقّق والحكيم المدقّق، قدوة المتكلّمين وزبدة الفقهاء والمحدِّثين، العالم الربّاني كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، غوّاص بحر المعارف ومقتنص شوارد الحقائق واللطائف، ضمَّ إلىٰ الإحاطة بالعلوم الشرعية وإحراز قصبات السبق في العلوم الحكمية والفنون العقلية، ذوقاً جيّداً في العلوم الحقيقية، والأسرار العرفانية، كان ذا كرامات باهرة ومآثر زاهرة، ويكفيك دليلاً علىٰ جلالة شأنه وسطوع برهانه اتّفاق كلمة أئمّة الأعصار وأساطين الفضلاء في جميع الأعصار علىٰ تسميته بالعالم الربّاني، وشهادتهم له بأنَّه لم يوجد مثله في تحقيق الحقائق وتنقيح المباني، والحكيم الفيلسوف سلطان المحقّقين وأُستاذ الحكماء والمتكلِّمين نصر الملَّة والدين محمّد الطوسي شهد له بالتبحّر في الحكمة والكلام، ونظم غرر مدائحه في أبلغ نظام.

وأُستاذ البشر، والعقل الحادي عشر، سيّد المحقِّقين الشريف الجرجاني علىٰ جلالة قدرة _ في أوائل فنّ علم البيان من شرح المفتاح _ قد نقل بعض تحقيقاته الأنيقة وتدقيقاته الرشيقة، وعبَّر عنه ببعض مشايخنا ناظماً لنفسه في سلك تلامذته، ومفتخراً في سلك المستفيدين من حضرته، المقتبسين من مشكاة فطرته.

والسيّد السند الفيلسوف الأحد مير صدر الدين محمّد الشيرازي، أكثر من النقل عنه في حاشية شرح التجريد، سيّما في مباحث الجواهر والأعراض، والتقط فوائد التحقيقات التي أبدعها عطّر الله مرقده في كتاب المعراج السماوي وغيره من مؤلَّفاته التي لم تسمح بمثلها الأعصار ما دام الفلك الدوّار، وفي الحقيقة من اطَّلع علىٰ شرح نهج البلاغة الذي

صنَّفه للصاحب خواجة عطاء الملك الجويني _ وهو عدَّة مجلَّدات _ شهد له بالتبريز في جميع الفنون الإسلاميّة والأدبية والحكمية والأسرار العرفانية.

ومن مآثر طبعه اللطيف وخلقه الشريف _ علىٰ ما حكاه في مجالس المؤمنين _ أنَّه عطَّر الله مرقده في أوائل الحال كان معتكفاً في زاوية العزلة والخمول مشتغلاً بتحقيق حقائق الفروع والأُصول، فكتب إليه فضلاء الحلَّة والعراق صحيفة تحتوي علىٰ عذله وملامته علىٰ هذه الأخلاق وقالوا: العجب منك أنَّك مع شدَّة مهارتك في جميع العلوم والمعارف وحذاقتك في تحقيق الحقائق وإبداع اللطائف، قاطن في ظلال الاعتزال، ومخيّم في زاوية الخمول الموجب لخمود نار الكمال. فكتب إليهم في جوابهم هذه الأبيات:

طلبت فنون العلم أبغي بها العلىٰ ... فقصَّر بي عمَّا سموت به القلُّ

تبيَّن لي أنَّ المحاسن كلّها ... فروع وأنَّ المال فيها هو الأصلُ

فلمَّا وصلت هذه الأبيات إليهم كتبوا إليه: أخطأت في ذلك خطأً ظاهراً، حكمك بأصالة المال عجيب بل أُقلب تصب.

فكتب في جوابهم هذه الأبيات وهي لبعض الشعراء المتقدّمين:

قد قال قوم بغير علم ... ما المرء إلَّا بأكبريه

فقلت قول امرئ حكيم ... ما المرء إلَّا بدرهميه

من لم يكن درهم لديه ... لم تلتفت عرسه إليه

ثمّ إنه _ عطَّر الله مرقده _ لـمَّا علم أنَّ مجرَّد المراسلات والمكاتبات لا تنقع الغليل ولا تشفي العليل، توجَّه إلىٰ العراق لزيارة الأئمّة المعصومين عليهم السلام وإقامة الحجّة علىٰ الطاعنين، ثمّ إنَّه بعد الوصول

إلىٰ تلك المشاهد العلية لبس ثياباً خشنة عتيقة، وتزيَّاً بهيئة رثَّة بالإطراح والاحتقار خليقة، ودخل بعض مدارس العراق المشحونة بالعلماء والحذّاق، فسلَّم عليهم فردَّ بعضهم عليه السلام بالاستثقال والامتناع التامّ، فجلس _ عطَّر الله مرقده _ في صفّ النعال ولم يلتفت إليه أحد منهم، ولم يقضوا واجب حقّه، وفي أثناء المباحثة وقعت بينهم مسألة مشكلة دقيقة كلَّت فيها أفهامهم وزلَّت فيها أقدامهم فأجاب _ روَّح الله روحه _ بتسعة أجوبة في غاية الجودة والدقَّة، فقال له بعضهم _ بطريق السخرية والتهكّم _: أخالك طالب علم، ثمّ بعد ذلك حضر الطعام فلم يواكلوه، بل أفردوه بشيء قليل علىٰ حدة واجتمعوا هم علىٰ المائدة.

فلـمَّا انقضىٰ ذلك المجلس قام ﷺ، ثمّ إنَّه عاد في اليوم الثاني إليهم وقد لبس ملابس فاخرة، بهيأة ذات أكمام واسعة وعمامة كبيرة وهيأة رائعة، فلمَّا قرب وسلَّم عليهم قاموا تعظيماً له واستقبلوه تكريماً، وبالغوا في ملاطفته ومطايبته واجتهدوا في تكريمه وتوقيره وأجلسوه في صدر ذلك المجلس المشحون بالأفاضل المحقّقين والأكابر المدقّقين، ولـمَّا شرعوا في المباحثة والمذاكرة تكلَّم معهم بكلمات عليلة لا وجه لها عقلاً ولا شرعاً، فقابلوا كلماته العليلة بالتحسين والتسليم والإذعان علىٰ وجه التعظيم، فلمَّا حضرت مائدة الطعام بادروا معه بأنواع الأدب.

فألقىٰ الشيخ ﷺ كمّه في ذلك الطعام مستعتباً علىٰ أُولئك الأعلام وقال: كُلْ يا كمّي، فلـمَّا شاهدوا تلك الحال العجيبة أخذوا في التعجّب والاستغراب، واستفسروه عن معنىٰ هذا الخطاب، فأجاب بأنَّكم إنَّما أتيتم بهذه الأطعمة النفيسة لأجل أكمامي الواسعة، لا للنفس القدسية اللامعة، وإلَّا فأنا صاحبكم بالأمس، وما رأيت تكريماً ولا تعظيماً، مع

أنّي جئتكم بالأمس بهيأة الفقراء وسجية العلماء، واليوم قد جئتكم بلباس الجبّارين، وتكلَّمت بكلام الجاهلين، فقد رجَّحتم الجهالة علىٰ العلم، والغنىٰ علىٰ الفقر، وأنا صاحب الأبيات التي في أصالة المال، وفرعية صفات الكمال التي أرسلتها إليكم وعرضتها عليكم وقابلتموها بالتخطئة وزعمتم انعكاس القضيّة.

فاعترف الجماعة بالخطأ في تخطئتهم واعتذروا بما صدر منهم من التقصير في شأنه رحمه الله.

مؤلَّفاته رحمه الله:

له رحمه الله من المصنَّفات البديعة والرسائل الجليلة ما لم يسمح بمثلها الزمان، ولم يظفر بمثلها أحد من الأعيان، منها: (شرح نهج البلاغة)، وهو حقيق بأن يُكتَب بالنور علىٰ الأحداق، لا بالحبر علىٰ الأوراق، وهو عدَّة مجلَّدات، ومنها: (شرحه الصغير علىٰ نهج البلاغة)، جيّد مفيد جدَّاً رأيته في حدود سنة (١٠٨١هـ)، و(كتاب الاستغاثة)... لم يُعمَل مثله، وكتاب (شرح الإشارات)، إشارات أُستاذه العالم قدوة الحكماء وإمام الفضلاء، الشيخ السعيد الشيخ علي بن سليمان البحراني، وهو في غاية المتانة والدقَّة علىٰ قواعد الحكماء المتألّهين، وله كتاب (القواعد) في علم الكلام، وكتاب (المعراج السماوي)، وكتاب (البحر الخضم)، ورسالة في الوحي والإلهام، وسمعت من بعض الثقات أنَّ له شرحاً ثالثاً علىٰ نهج البلاغة متوسّطاً.

مات عطَّر الله مرقده سنة (٦٧٩هـ)، وقبره في بلدنا البحرين في قرية هلتا من إحدىٰ القرىٰ الثلاث من الماحوز.

أقول: انتهىٰ ما نقلناه من كتاب (لؤلؤة البحرين) للشيخ يوسف البحراني رحمه الله.

وذكره العلَّامة الشيخ عبد الله نعمة في كتابه (فلاسفة الشيعة) أنَّه من أكبر رجالات الإمامية في عصره، اشتهر بالفلسفة والكلام والعرفان، وجميع نواحي الثقافة الإسلاميّة.

وأسهب في ذكره صاحب (روضات الجنّات).

وذكره الحجَّة السيّد حسن الصدر في كتابه (تأسيس الشيعة) قائلاً:

الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني المعروف بالعالم الربّاني، له التبرّز في جميع الفنون الإسلاميّة والأدبية، والحكمة والكلام والأسرار العرافانية...

وترجمه السيّد الأمين العاملي في كتابه (أعيان الشيعة).

* * *

(٢٩)

الشيخ سديد الدين الحلّي[١]

في كتاب (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام): الشيخ سديد الدين بن عزيزة، وهو سالم بن محفوظ بن عزيزة الحلّي إمام الطائفة في وقته، إليه انتهىٰ علم الكلام والفلسفة وكلّ علوم الأوائل، كان وحيد دهره وفريد عصره ومصره، وهو أُستاذ الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن بن يحيىٰ بن سعيد، شيخ الشيعة المعروف بالمحقّق بقول مطلق صاحب كتاب (الشرايع)، قرأ علىٰ سديد الدين المذكور كتابه (منهاج الأُصول) وشيئاً من (المحصَّل) وشيئاً من علم الأوائل، وقرأ عليه أيضاً الشيخ ابن المطهَّر سديد الدين يوسف بن علي بن المطهَّر الحلّي، والد الشيخ جمال الدين العلَّامة بقول مطلق، وذكره العلَّامة في إجازته الكبيرة لبني زهرة وأثنىٰ عليه ثناءً بليغاً وذكر أنَّه يريوي كتابه (المنهاج) في علم الكلام عن أبيه عن الشيخ سديد الدين بن عزيزة المذكور.

وفي (أعيان الشيعة)[٢]: الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة بن وشاح السوراوي الحلّي، من أهل أواسط المائة السابعة.

---

(١) تأسيس الشيعة: ٣٩٣؛ أعيان الشيعة ٣٣: ٣٩٩؛ أمل الآمل ٢: ١٢٤؛ طبقات أعلام الشيعة (الأنوار الساطعة): ٧١.

(٢) أعيان الشيعة ٧: ١٨٠/ الرقم ٥٨٩.

أقوال العلماء فيه:

هو عالم فقيه متكلِّم شاعر أديب جليل القدر عظيم الشأن، تخرَّج علىٰ يده أعاظم العلماء، وكان إمام الطائفة في وقته، والمرجع في علم الكلام والفلسفة وكلّ علوم الأوائل، وهو أُستاذ المحقّق صاحب (الشرائع).

وذكره العلَّامة في إجازته الكبيرة لبني زهرة، وأثنىٰ عليه غاية الثناء.

وفي (أمل الآمل): عالم فقيه فاضل له مصنَّفات يرويها العلَّامة عن أبيه عنه، منها كتاب (المنهاج) في الكلام وغير ذلك، وقد ذكر الكتاب المذكور المقداد في شرح (نهج المسترشدين) للعلَّامة.

وفي الرياض نسب إليه أيضاً الكتاب المذكور للشيخ علي بن محمّد بن يونس البياضي العاملي في بعض مؤلَّفاته.

وحكىٰ صاحب الرياض عن الشهيد في بعض أسانيد أربعينه، أنَّ السيّد ابن طاووس يروي عن الشيخ الإمام العلَّامة رئيس المتكلِّمين سالم بن محفوظ بن عزيزة الحلّي، عن الشيخ نجيب الدين يحيىٰ بن سعيد الأكبر، عن عربي بن مسافر العبادي... الخ.

قال: وقد سبق في ترجمة المحقّق الحلّي أنَّه قرأ علم الكلام علىٰ الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة الحلّي، وأنَّه أنهىٰ عليه كتاب منهاج الأُصول _ يعني في علم الكلام المشار إليه _ وشيئاً من المحصَّل وشيئاً من علم الأوائل، والمراد به المترجَم، انتهىٰ.

وله كتاب (التبصرة)، حكىٰ الشيخ شمس الدين الجبعي في مجموعته عن خطّ الشهيد، أنَّه ذكر أنَّ السيّد رضي الدين علي بن

طاووس الحلّي قرأ التبصرة وبعض المنهاج علىٰ المؤلِّف المترجَم، قال: وكان أديباً شاعراً.

مؤلَّفاته:

يُفهَم ممَّا مرَّ أنَّ له من المؤلَّفات:

١ _ المنهاج، في علم الكلام.

٢ _ المحصَّل، ويحتمل كونه لغيره.

٣ _ التبصرة.

شعره:

وجدت علىٰ ظهر كتاب (طوالع الأنوار من مطالع الأنظار) تأليف ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي منه نسخة مخطوطة في الخزانة الغروية ما صورته: أنشد الفقيه المتكلِّم سديد الدين سالم بن عزيزة لنفسه:

إن كنت تتَّبع الهوىٰ فعليك بالتقليد دابا

فمتىٰ نظرت وكنت تنوي كون مذهبك الصوابا

لم تحظ بالمقصود منه ولم تلج للحسن بابا

* * *

(٣٠)

علم الدين أبو الفضل قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني المصري الحكيم المهندي[1]

توفّي بدمشق في جمادي الآخرة سنة (٦٤٩هـ)، كما في معجم الآداب.

وفي (أعيان الشيعة)[2]: قال ابن الشعار في (عقود الجمان): كانت له يد قويّة في علوم الحكمة والهندسة، قال: وحدَّثني كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن العديم، قال: أخبرني علم الدين، قال: كتب إليَّ الحكيم نصير الدين الطوسي من بلاد الإسماعيلية كتاباً يتضمَّن أسئلة من الحكمة صدَّره بقوله:

سلام علىٰ العلَّامة المتبحّر ... علىٰ علم الدين الحنيفي قيصر

في أبيات، قال: فأجبته عن كتابه وصدَّرته بقولي:

سلام علىٰ المبدي السلام تحيّة ... تضوع من ألفاظها عرف عنبر

* * *

---

(١) أعيان الشيعة ٤٣: ٣٤؛ مجمع الآداب ١: ٥٤٨؛ تراث العرب العلمي: ٣٥٣؛ عقود الجمان لابن الشعار: مخطوط؛ ونصَّ علىٰ أنَّه حنفي المذهب ابن خلّكان في وفياته وابن أبي أصيبعة في عيونه والقرشي في الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية.

(٢) أعيان الشيعة ٨: ٤٥٨.

(٣١)

ابن مبشّر البغدادي[1]

عن كتاب فلاسفة الشيعة (ص٤٥٤) نقلاً عن كتاب إخبار الحكماء (ص ١٨٩): محمّد بن مبشّر بن أبي الفتوح نصر بن أبي يعلىٰ البغدادي، ظهر في أوائل القرن السابع الهجري، واشتهر بعلوم الأوائل والهندسة والفلسفة والنجوم والحساب والفرائض.

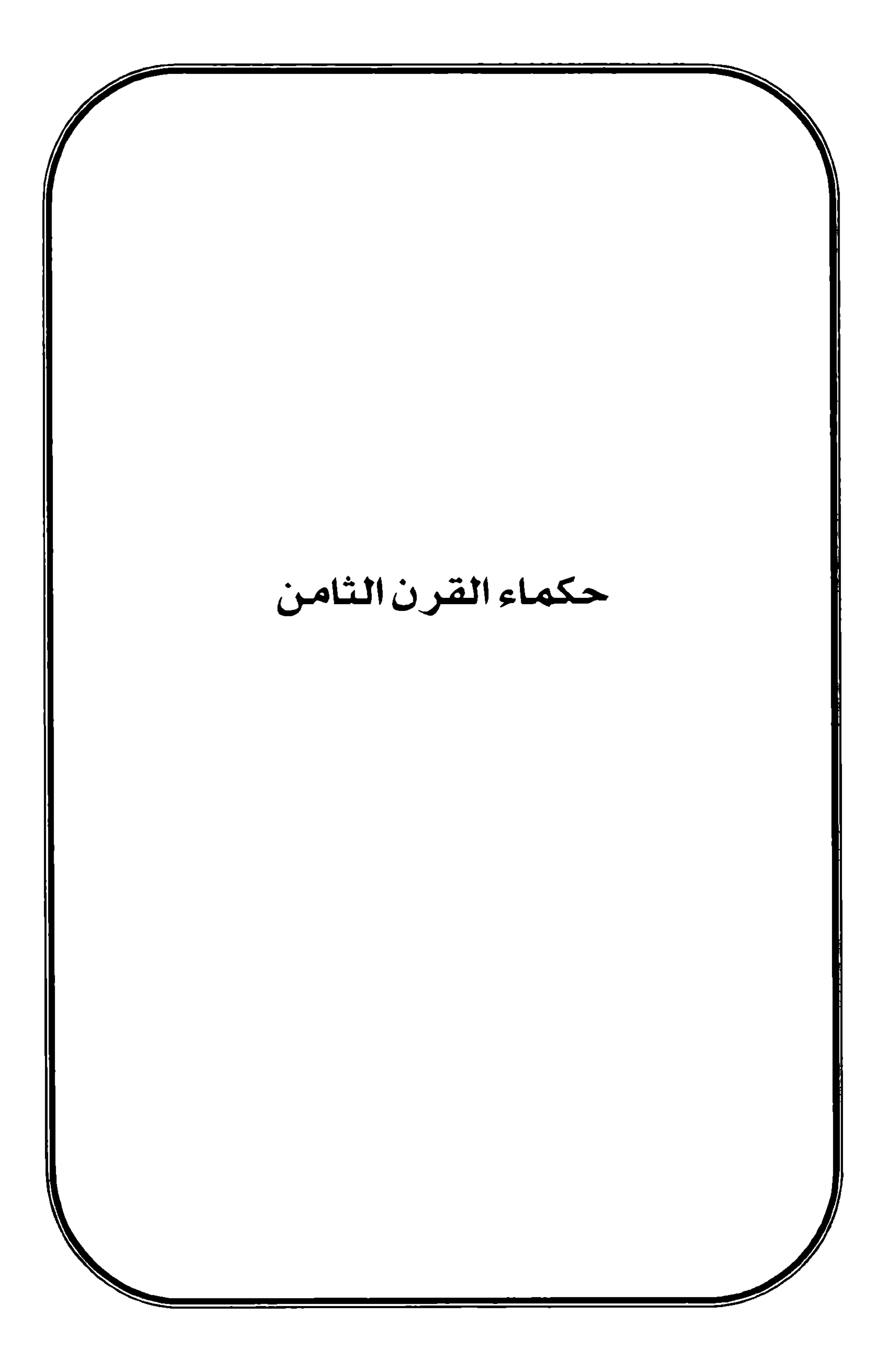
وترجم له القِفطي فقال: (كان فاضلاً متميّزاً عارفاً بعلوم الأوائل والهندسة والفلسفة والنجوم والحساب والفرائض).

وتولّىٰ وكالة الأمير علاء الدين أبي نصر محمّد بن الإمام الناصر لدين الله أبي العبّاس أحمد، وتوفّي ببغداد، وهو علىٰ منزلته وخدمته، يوم الاثنين رابع رجب سنة (٦١٨هـ) ودُفِنَ بمشهد موسىٰ بن جعفر.

وهو علىٰ ما يبدو من الشيعة، بقرينة دفنه في مشهد الإمام موسىٰ بن جعفر، واتّصاله بابن الخليفة الناصر العبّاسي المعروف بميوله الشيعية، وهذا عادةً يشير إلىٰ علاقات مذهبية وخاصّة في المجتمعات المتعصّبة.

* * *

(١) فلاسفة الشيعة: ٤٥٤؛ إخبار العلماء: ١٨٩.



حكماء القرن الثامن

(٣٢)

الشيخ عزّ الدين أيدمر بن علي الجلدكي[١]

في (أعيان الشيعة)[٢]: الشيخ عزّ الدين أيدمر بن علي الجلدكي الكيماوي، توفّي بالقاهرة سنة (٧٦٢هـ)، وقيل: (٧٥٠هـ).

(الجلدكي) نسبة إلىٰ جلدك قرية بخراسان علىٰ فرسخين من مشهد الرضا عليه السلام ...

عن (مرآة البلدان): الحكيم الكيماوي الفاضل الشهير بالجلدكي، وفي اكتفاء القنوع: سكن دمشق ثمّ القاهرة واشتهر بالكيمياء. انتهىٰ.

وفي (كشف الظنون) عند ذكر (المكتسب في صناعة الذهب) نقل عن المترجم كلاماً فيه شرح بعض أحواله، قال: المكتسب شرحه الشيخ الإمام أيدمر بن علي الجلدكي، قال _ يعني الجلدكي _: قد تيسَّر لنا حلّ مشكلات علوم الأوائل في الحكمة الإلهية، الصناعة الفلسفية بعد سلوك طريق الطبّ والتشمير عن ساق العزم والاجتهاد والمواظبة علىٰ كثرة الدرس والهجرة إلىٰ المشايخ الأعلام في أقطار الكور والبلدان من حدود العراق وأطراف الروم إلىٰ حدود المغرب والديار المصرية، وأطراف اليمن والحجاز والشام، وأنا أجوب البلاد وأتصفَّح الوجوه،

---

(١) أعيان الشيعة ١٣: ١٣٧؛ معجم المؤلّفين ٣: ٢٨؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٣٨٤ وفيه علي بن محمّد؛ طبقات أعلام الشيعة (الحقائق الراهنة): ٢٢؛ أعلام العرب في الكيمياء: ٣٥٦.

(٢) أعيان الشيعة ٣: ٥١٧.

أطلب الضالّة مدَّة تزيد علىٰ سبع عشرة سنة أُعالج الصبر في الاشتغال وأعاني الطرق الجابرية في الأعمال وأنظر في أسرار الطبائع والاستحالات.

ثمّ ذكر أنَّه وصل إلىٰ خدمة الشيخ الحكيم الفاضل الذي اشتغل عليه، ثمّ قال: وبالله أقسم إنَّه أراد أن ينقلني عن هذا العلم مراراً عديدة يورد عليَّ الشكوك يريد لي بذلك الإضلال بعد الهداية... الخ، فوضعت كتابنا المسمّىٰ بنهاية الطلب في شرح المكتسب؛ لأنّا لـمَّا اطَّلعنا علىٰ متن هذا الكتاب وجدناه كلّه علىٰ الصواب موضوعاً بأوجز وصف، ولم نعلم من هو مصنِّفه.

وقال في موضع آخر: إنَّ صاحب المكتسب أخفىٰ اسمه ولم أقف علىٰ ترجمة له، ورأيت في ظهر نسخة أنَّه للشيخ العلَّامة أبي القاسم العراقي، انتهىٰ.

ولكنَّك ستعرف عند تعداد مؤلَّفاته أنَّ المكتسب لجابر بن حيّان، قوله: وأعاني الطرق الجابرية كأنَّه يريد طرق جابر بن حيّان.

مؤلَّفاته:

كلّها أو جلّها في علم الكيمياء الذي ألَّف فيه جابر بن حيّان المؤلَّفات الكثيرة، وكان مشتهراً به، والمراد به تحليل الأجسام المشتهر اليوم الذي دخل في علم الطبّ، وليس المراد به تحويل المعادن بعضها إلىٰ بعض الذي قيل: إنَّه لم يصحّ لأحد حتَّىٰ قال الشاعر:

كأنَّما زيته المغلّي حين بدا ... كالكيمياء التي قالوا ولم تصب

نعم تحويل المعادن بعضها إلىٰ بعض من فروعه وأقسامه.

وهذا ما اطَّلعنا عليه من أسماء مؤلَّفاته:

١ _ زراعة الذهب في شرح المكتسب لجابر بن حيّان، وقد يُسمّىٰ هذا الشرح باسم (نهاية المطلب في شرح المكتسب)، ولعلَّه شرح آخر. في (كشف الظنون) أنَّه للشيخ أيدمر بن علي الجلدكي، وأنَّه قال: ورتَّبناه علىٰ ثلاثة أسفار وجعلنا لكلّ سفر مقدّمة ومقالات وخاتمة.

٢ _ المكتسب من المكتسب، وهو الذي ارتضاه أيدمر ورآه موضوعاً علىٰ الصواب، وكأنَّه مختصر أو منتخب المكتسب لجابر بن حيّان.

٣ _ الدرّ المنثور في شرح صدر الشذور.

٤ _ مختصره الموسوم بكشف الستور في اختصار الدرّ المنثور.

٥ _ غاية السرور في شرح الشذور أربعة أجزاء.

٦ _ التعريب.

٧ _ كنز الاختصاص.

٨ _ نهاية المطلب في شرح المكتسب، ويحتمل اتّحاده مع زراعة الذهب كما مرَّ.

٩ _ البرهان في أسرار علم الميزان، أَلَّفه سنة (٧٤٢هـ) في أربعة أجزاء. في (كشف الظنون) ذكر فيه قواعد كثيرة من الطبيعي والإلهي علىٰ مقدّمات أُصول القوم، وشرح فيه كتاب بلنياس في الأجساد السبعة، وكتاب جابر في الأجساد وحلَّ فيه غالب كتب الموازين لجابر.

١٠ _ مختصره.

١١ _ شرحه له المسمّىٰ بسراج الأذهان.

١٢ _ المصباح في علم المفتاح، ذكره في (كشف الظنون)، قال فيه:

قد نقل عن الأُستاذ جابر فيما يزيد علىٰ ثلاثة آلاف كتاب في طرق مختلفة في المفتاح وجعلنا الحاصل الذي جمعناه في كتبنا الخمسة المطوَّلة وهي: نهاية المطلب، والتعريب، وغاية السرور، والبرهان، وكنز الاختصاص، وجعلنا خلاصة الخمسة في هذا الكتاب، انتهىٰ. (مطبوع في بمبئي).

١٣ _ الدرّ المنير والمصحف الكبير يما يتعلَّق بالإكسير.

١٤ _ نتائج الفكر في الكشف عن أحوال الحجر، ذكره في (كشف الظنون)، وقال: إنَّه لأيدمر بن علي الجلدكي صنَّفه بالقاهرة سنة (٧٤٢هـ)، أوَّله: الحمد لله مظهر آثار المشاهدات بوجوده، والصلاة علىٰ محمّد وآله الكرام البررة وأصحابه وتابعيه الأئمّة المطهَّرة.

واستفاد بعضهم تشيّعه من هذا ومن ترتيب كتابه علىٰ عدد الأئمّة الاثني عشر.

* * *

(٣٣)

العلاّمة الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي[1]

شخصيته ومآثره:

ظهر الحلّي في القرن السابع الهجري طاقة هائلة، تتفجَّر بالفكر والمعرفة، يواكبها منه شجاعة كبيرة وذكاء مفرط، وعقل واع مدرك.

كان يواكب طاقته هذه، عمل دائب وجهد مستمرّ، ولم يكن لقبه بـ (العلَّامة) جزافاً وعفواً، بل كان ذلك نتيجة ما يتمتَّع به من شخصية موهوبة، ومن إدراك واع، يجوب جوانب المعرفة ويقف به علىٰ الحقائق العلمية، ومن انتاج علمي هائل، تعجز عنه قوىٰ عديدة متضافرة.

وليس أدلّ علىٰ ذلك من انتاجه في التأليف الناضج الضخم، الذي بحيث لو وُزِعَت مؤلَّفاته علىٰ أيّام عمره من يوم ولادته إلىٰ يوم وفاته لكان نصيب كلّ يوم كرّاساً.

وليس أدلّ علىٰ غوره وهضمه ممَّا قيل عنه: إنَّه لولا شرحه علىٰ (تجريد الاعتقاد) لنصير الدين الطوسي، لما فُهِمَ كلام نصير الدين، ولما

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٢٤٢؛ تأسيس الشيعة: ٣٩٧؛ أعيان الشيعة ٢٤: ٢٧٧؛ روضات الجنّات ٢: ٢٦٩؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٤٤٢؛ النجوم الزاهرة ٩: ٢٦٧؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٤٠٦ وفيه اسمه الحسين؛ معجم أعلام المورد: ١٧٤؛ لؤلؤة البحرين: ٢١٠؛ أمل الآمل ٢: ٨١؛ طبقات أعلام الشيعة (الحقائق الراهنة): ٥٢.

عُرِفَت مقاصده، بل علىٰ شرحه عوَّل شرّاح التجريد، من أمثال القوشجي، واللاهيجي، والدواني، في معرفة أغراض الطوسي.

وممَّا يلفت النظر أنَّه قد تلاقت في الحلّي شخصيات علمية عديدة، كلّ منها شامخة بارزة، فكما كان من أعلام الفقه والشريعة، يؤخذ قوله حجَّة ويعوَّل عليه، كذلك كان من أبرز مفكّري عصره في الكلام والفلسفة، ولا يزال في العلمية حتَّىٰ الآن، عبقرياً خالداً، وعلماً فذّاً في كلّ جوانبه العلمية، لم يطغ جانب منها علىٰ آخر، وذلك آية الموهوبين الخالدين، الذين دفعوا قافلة المعرفة الإسلاميّة، وشاركوا في بناء الحضارة، وفي رفع صرحها.

وقد سيطرت شخصيته العلمية علىٰ أجيال كثيرة، وكان لها التأثير الكبير علىٰ العلماء والمفكّرين المعاصرين له والمتأخّرين عنه من شيعة وسُنَّة علىٰ السواء.

ونستطيع أن نلمح ظلال هذه الشخصية وأثرها في المجتمع الإسلامي من تلك العناية بآثاره بالشرح والتفسير والردّ والنقض، فكما أنَّ جماعة من علماء الشيعة عكفوا علىٰ قسم من كتبه بالشرح والتعليق، كذلك انبرىٰ جماعة من غير الشيعة بالردّ والطعن، فنجد مثلاً: الفضل بن روزبهان، وابن تيمية، وهما من كبار العلماء، قد وضع الأوَّل مؤلَّفاً للردّ علىٰ كتاب الحلّي المسمّىٰ بـ (نهج الحقّ)، وأسماه (إبطال الباطل)، كما تناول الثاني الردّ علىٰ كتابه المسمّىٰ (منهاج الكرامة)، وقد انبرىٰ للدفاع عن (نهج الحقّ) القاضي نور الله التستري، والعلَّامة الشيخ محمّد حسن المظفَّر، كما تناول هذا الثاني الدفاع عن (منهاج الكرامة) والردّ علىٰ ابن تيمية في كتابه (دلائل الصدق).

وكان لطبيعة الظرف الذي عاشه الحلّي أثره الكبير في إصدار تلك المؤلَّفات الكثيرة حول العقائد والفلسفة الإسلاميّة، والتي تجاوزت (٣٠) مؤلَّفاً خاصّاً بهذا الموضوع، فقد كان التشيّع محصوراً في مناطق معيَّنة ضيّقة من العراق، وإيران، وجبل عامل، ولكن العلاّمة الحلّي استطاع بفضل شخصيته الشامخة ومدده العلمي والفكري، أن يرفع هذا الحصار عن التشيّع، ويفسح له الطريق لينفذ إلىٰ مناطق جديدة واسعة من العراق وإيران وغيرهما، حين أثَّر علىٰ السلطان محمّد خدابنده من أحفاد هولاكو المغولي الذي كان مسيطراً علىٰ العراق وإيران، حتّىٰ اعتنق مذهب التشيّع مع أُمرائه وقوّاده، وأن يفحم من كان بحضرته من العلماء أمثال قاضي القضاء نظام الدين عبد الملك المراغي والسيّد ركن الدين الموصلي، حين ناظرهم بحضرته في بغداد في مسائل كلامية كما عرفت[1].

كان هذا الظرف الذي عاشه باتّساع نطاق التشيّع ودخوله إلىٰ مناطق جديدة حافزاً قويّاً في نشاطه وآثاره الكثيرة، التي وضعها بتأثير طبيعة ذلك الظرف، ممَّا يحتاج إلىٰ تقرير أُصول المذهب والدفاع عنه، وإلىٰ تعبئة العقيدة الشيعية في مخططٍ سليم قوي وبمنطق عقلي لا يحصر.

ومن الجدير بالذكر أنَّ العلاّمة الحلّي راعىٰ استقلال العلم في مؤلَّفاته، فالناظر في تعليقاته علىٰ كتاب الشفاء لابن سينا يجده فيلسوفاً في مستوىٰ ابن سينا ولا يظهر له أنَّه عظيم الفقهاء والمجتهدين، ومن يطالع مؤلَّفاته الفقهية لا يجد فيها مسحة ولا أثراً من فلسفته، وهكذا في سائر العلوم.

---

(١) أُنظر: سفينة البحار ١: ٧٣٤ و٧٣٥.

أقوال العلماء فيه:

ففي (الكنىٰ والألقاب) للشيخ القمّي: آية الله الشيخ جمال الدين أبو منصور الحسن بن سديد الدين يوسف بن علي بن المطهَّر الحلّي، علَّامة العالم وفخر نوع بني آدم، أعظم العلماء شأناً، وأعلاهم برهاناً، سحاب الفضل الهاطل وبحر العلم الذي لا يساجل، جمع من العلوم ما تفرَّق في الناس، وأحاط من الفنون بما لا يحيط به القياس، رئيس علماء الشيعة ومروّج المذهب والشريعة، صنَّف في كلّ علم كتباً، وآتاه الله من كلّ شيء سبباً، قد ملأ الآفاق بمصنَّفاته، وعطَّر الأكوان بتأليفاته، انتهت إليه رئاسة الإمامية في المعقول والمنقول، والفروع والأُصول...

كان آية الله لأهل الأرض، وله حقوق عظيمة علىٰ زمرة الإمامية والطائفة الاثني عشرية، لساناً وبياناً وتأليفاً، وكفاه فخراً علىٰ من سبقه ولحقه مقامه المحمود في اليوم المشهود الذي ناظر فيه علماء المخالفين فأفحمهم، وصار سبباً لتشيّع السلطان محمّد الملقَّب بشاه خدابنده، وله بعد ذلك من المناقب والفضائل ما لا يحصىٰ.

أمَّا درجاته في العلوم ومؤلَّفاته فيها، فقد ملأت الصحف وضاق عنها الدفتر، وكلَّما أُتعب نفسي فحالي كناقل التمر إلىٰ هجر.

ثمّ يعود ثانية في السفينة فيقول: العلَّامة هو الشيخ الأجلّ الأعظم، بحر العلوم والفضائل والحكم، حامي بيضة الدين، ماحي آثار المفسدين، لسان الفقهاء والمتكلِّمين والمحدِّثين والمفسِّرين، ترجمان الحكماء والعارفين والسالكين المتبحّرين، الناطق عن مشكاة الحقّ المبين، الكاشف عن أسرار الدين المبين، علَّامة المشارق والمغارب، وشمس سماء المفاخر والمناقب، آية الله الشيخ جمال الدين...

وجاء في (أعيان الشيعة)[1]: هو العلاّمة علىٰ الإطلاق، الذي طار ذكر صيته في الآفاق، ولم يتّفق لأحد من علماء الإمامية أن لُقِّبَ بالعلاّمة علىٰ الإطلاق غيره.

برع في المعقول والمنقول، وتقدَّم وهو في عصر الصبا علىٰ العلماء الفحول، وقال في خطبة المنتهىٰ: إنَّه فرغ من تصنيفاته الحكمية والكلامية، وأخذ في تحرير الفقه من قبل أن يكمل له (٢٦) سنة، سبق في فقه الشريعة وألَّف فيه المؤلَّفات المتنوّعة من مطوّلات ومختصرات ومتوسّطات، فكانت محطّ أنظار العلماء من عصره إلىٰ اليوم تدريساً وشرحاً وتعليقاً...

وبرع في الحكمة العقلية، حتَّىٰ أنَّه باحث الحكماء السابقين في مؤلَّفاته، وأورد عليهم وحاكم بين شرّاح الإشارات لابن سينا، ناقش النصير الطوسي وباحث الرئيس ابن سينا وخطَّأ وألَّف في علم الأُصول وفنّ المناظرة والجدل وعلم الكلام من الطبيعيات والإلهيات والحكمة العقلية خاصّة، ومباحثة ابن سينا، والمنطق وغير ذلك من المؤلَّفات النافعة المشتهرة في الأقطار من عصره إلىٰ اليوم...

ولـمَّا سُئِلَ النصير الطوسي بعد زيارته الحلَّة عمَّا شاهده فيها قال: رأيت خرّيتاً ماهراً، وعالماً إذا جاهد فاق، عنىٰ بالخرّيت المحقّق الحلّي، وبالعالم المترجَم، وجاء المترجَم في ركاب النصير من الحلَّة إلىٰ بغداد فسأله في الطريق عن اثنتي عشرة مسألة من مشكلات العلوم، إحداها انتقاض حدود الدلالات بعضها ببعض...، وبالجملة فالعبارة تقصر عن استيفاء حقّه واستقصاء وصف فضله فلنكتف بهذا المقدار ولنذكر ما قاله في ذلك العلماء.

---

(١) أعيان الشيعة ٥: ٣٩٦/ الرقم ٨٦٥.

قال معاصره الحسن بن داود في رجاله: الحسن بن يوسف بن المطهَّر الحلّي شيخ الطائفة، علَّامة وقته، صاحب التحقيق والتدقيق، كثير التصانيف، انتهت رياسة الإمامية إليه في المعقول والمنقول، مولده سنة (٦٤٨هـ)[١].

وقال الأمير مصطفىٰ التفرشي في كتابه (نقد الرجال)[٢]: الحسن بن يوسف بن علي بن المطهَّر أبو منصور الحلّي...، ثمّ ذكر ما قاله ابن داود في حقّه، ثمّ قال: ويخطر ببالي أن لا أصفه، إذ لا يسع كتابي هذا ذكر علومه وتصانيفه وفضائله ومحامده، وأنَّ كلّ ما يوصف به الناس من جميل وفضل فهو فوقه، له أزيد من سبعين كتاباً في الأُصول والفروع، والطبيعي والإلهي وغيرها، نوَّر الله ضريحه وضريح أبيه وابنه، وجزاه الله تعالىٰ أفضل جزاء المحسنين، مات ليلة السبت (١١) المحرَّم سنة (٧٢٦هـ)، ودُفِنَ بالمشهد المقدَّس الغروي علىٰ ساكنه من الصلاة أفضلها ومن التحيّة أكملها، انتهىٰ.

وستعرف أنَّ مؤلَّفاته أزيد من مائة.

وفي (منهج المقال): الحسن بن يوسف بن علي بن المطهَّر أبو منصور العلَّامة الحلّي مولداً ومسكناً، محامده أكثر من أن تحصىٰ وأشهر من أن تخفىٰ، انتهىٰ.

وفي (أمل الآمل)[٣]: الشيخ العلَّامة جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهَّر، فاضل عالم علَّامة العلماء، محقّق

---

(١) رجال ابن داود: ٧٨/ الرقم ٤٦٦.

(٢) نقد الرجال ٢: ٦٩ و٧٠/ الرقم (١٣٩٥/ ١٧٦).

(٣) أمل الآمل ٢: ٨١/ الرقم ٢٢٤.

مدقّق، ثقة فقيه محدِّث متكلّم ماهر جليل القدر عظيم الشأن، رفيع المنزلة، لا نظير له في الفنون والعلوم العقليات والنقليات، وفضائله ومحاسنه أكثر من أن تحصىٰ، انتهىٰ.

وفي (رياض العلماء): الشيخ الأجلّ جمال الدين أبو منصور الحسن ابن الشيخ سديد الدين يوسف بن علي بن محمّد بن المطهَّر الحلّي قدس سره، الإمام الهمام العالم العامل الفاضل الكامل الشاعر الماهر، علَّامة العلماء وفهّامة الفضلاء، أُستاذ الدنيا المعروف فيما بين الأصحاب بالعلَّامة عند الإطلاق، والموصوف بغاية العلم ونهاية الفهم والكمال في الآفاق، وكان آية الله لأهل الأرض، وله حقوق عظيمة علىٰ زمرة الإمامية والطائفة المحقّة الاثني عشرية لساناً وبياناً وتدريساً وتأليفاً، وقد كان رضي الله عنه جامعاً لأنواع العلوم، مصنِّفاً في أقسامها، حكيماً متكلِّماً، فقيهاً محدِّثاً، أُصولياً أديباً، شاعراً ماهراً، وقد رأيت بعض أشعاره ببلدة أردبيل وهي تدلُّ علىٰ جودة طبعه في أنواع النظم، وكان وافر التصنيف متكاثر التأليف، أخذ واستفاد من جمّ غفير من علماء عصره من العامّة والخاصّة، وتتلمذ عليه واستفاد منه جمع كثير من فضلاء وقته من الخاصّة بل ومن العامّة، كما يظهر من إجازات علماء الطرفين.

وعن بعض تلاميذ الشيخ علي الكركي، في رسالته المعمولة لذكر أسامي المشايخ أنَّه قال: ومنهم الشيخ البحر القمقام، والأسد الضرغام، العلَّامة جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهَّر الحلي صاحب التصانيف الكثيرة والمؤلَّفات الحسنة التي نيفت علىٰ المائتين، وعدَّد منها جملة.

وقال المولىٰ نظام الدين القرشي في كتابه (نظام الأقوال): الحسن

بن يوسف بن علي بن المطهَّر الحلّي جمال الدين، يكنّىٰ أبا منصور قدَّس الله روحه الشريف، شيخ الطائفة وعلَّامة وقته، صاحب التحقيق والتدقيق، وكلّ من تأخَّر عنه استفاد منه، وفضله أشهر من أن يوصف، له كتب كثيرة ذكرها في الخلاصة، ولد (٢٩) من شهر رمضان سنة (٦٤٨هـ)، وتوفّي ليلة (١١) _ الصواب (٢١) _ من المحرَّم سنة (٧٢٦هـ)، ودُفِنَ في المشهد المقدَّس الغروي علىٰ مشرّفه السلام، انتهىٰ.

وفي (مجالس المؤمنين): العلَّامة جمال الدين حسن بن يوسف بن علي بن المطهَّر الحلّي، حامي بيضة الدين، وماحي آثار المفسدين، ناشر ناموس الهداية، وكاسر ناقوس الغواية، متمّم القوانين العقلية، وحاوي أساليب الفنون النقلية، محيط دائرة الدرس والفتوىٰ، مركز دائرة الشرع والتقوىٰ، مجدّد مآثر الشريعة المصطفوية، ومحدّد جهات الطريقة المرتضوية، مولده ومنشأه في دار المؤمنين الحلَّة، أخذ الكلام والفقه والأُصول والعربية وسائر العلوم الشرعية عن فقيه أهل البيت الشيخ نجم الدين أبي القاسم جعفر بن سعيد، وعن أبيه سديد الدين يوسف بن المطهَّر الحلّي، وأخذ العلوم الحكمية عن أُستاذ البشر الخواجة نصير الدين محمّد الطوسي وعلي بن عمر الكاتبي القزويني الشافعي ومحمّد بن محمّد بن أحمد الكيشي ابن أُخت قطب الدين العلَّامة الشيرازي وغيرهم من علماء الخاصّة والعامّة، وانتهت إليه في زمانه رياسة الإمامية، وله في ترويج مذهب أهل البيت مساع جميلة.

ووصفه تلميذه الشيخ محمّد بن علي الجرجاني في مقدّمة شرحه لمبادي الوصول إلىٰ علم الأُصول لشيخه المذكور بقوله:

شيخنا المعظَّم، وإمامنا الأعظم، سيّد فضلاء العصر، ورئيس

علماء الدهر، المبرز في فنّي المعقول والمنقول، المطرز للواء علمي الفروع والأُصول، جمال الملَّة والدين، سديد الإسلام والمسلمين، أبو منصور حسن بن يوسف بن المطهَّر الحلّي _ أدام الله ظلّه _ علىٰ كافّة المسلمين، لإفادة الوافدين والقاطنين لديه، بمحمّد وآله أجمعين.

وفي الرياض عن بعض تلاميذ الشهيد في فائدته التي أورد فيها كيفية أخذ العلماء الإمامية العلم من زمن الشهيد إلىٰ أن ينتهي إلىٰ الله تعالىٰ، قال: إنَّ الشهيد أخذ العلم عن الشيخ فخر الدين، وهو أخذ عن والده جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهَّر، وهو فريد العصر، ونادرة الدهر، له من الكتب المصنَّفة في العلوم المختلفة ما لم يشتهر عن غيره، لاسيّما في الأُصول الإلهية فإنَّه قد فاق فيها الغاية وتجاوز النهاية، وله في الفقه والتدريس كلّ كتاب نفيس، أكبرها التذكرة وأصغرها التبصرة، وما بين ذلك كالتلخيص والإرشاد والتحرير والقواعد، ومنتهىٰ المطلب ومختلف الشيعة، وله في معرفة الرجال كتابان، وله في الأحاديث وأُصول الفقه وسائر العلوم كتب...

أقوال غيرنا فيه:

قال السيّد الأمين في (أعيان الشيعة): في الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني: الحسن بن يوسف بن المطهَّر الحلّي، جمال الدين الشهير بابن المطهَّر الأسدي، يأتي في الحسين.

ثمّ قال هناك: الحسين بن يوسف بن المطهَّر الحلّي المعتزلي، جمال الدين الشيعي.

وأقول: لعلَّ وصفه بالأسدي اشتباه، فلم نجد من وصفه بذلك

من أصحابنا، وسمّاه تارةً الحسن وتارةً الحسين، ورجَّح أنَّه الحسين، وهو اشتباه بل هو الحسن بغير ياء قطعاً، ووصفه بالمعتزلي الشيعي، وهذا مبني علىٰ موافقة المعتزلة للشيعة في بعض الأُصول المعروفة، كما وقع لكثيرين في كثيرين، وإلَّا فأين الشيعي من المعتزلي؟

ونقل مصحّح النسخة المطبوعة من الدرر عن هامش الأصل: إنَّ فيه: الإمامي شارح مختصر المنتهىٰ وغيره العالم الكبير.

قال: ولازم النصير الطوسي مدَّة واشتغل في العلوم العقلية فمهر فيها، وصنَّف في الأُصول والحكمة، وكان صاحب أموال وغلمان وحفدة، وكان رأس الشيعة بالحلَّة، واشتهرت تصانيفه، وتخرَّج به جماعة، وشرحه علىٰ مختصر ابن الحاجب في غاية الحسن في حلِّ ألفاظه وتقريب معانيه، وصنَّف فيه فقه الإمامية، وكان قيّماً بذلك داعيةً إليه، وله كتاب في الإمامة، ردَّ عليه ابن تيمية بالكتاب المشهور، وقد أطنب وفيه أسهب وأجاد في الردّ، إلَّا أنَّه تحامل في مواضع عديدة، وردَّ أحاديث موجودة وإن كانت ضعيفة بأنَّها مختلقة، وإيّاه عنىٰ الشيخ تقي الدين السبكي بقوله:

وابن المطهَّر لم تطهر خلائقه ... داع إلىٰ الرفض غال في تعصّبه
ولا تيمية ردَّ عليه به ... أجاد في الردِّ واستيفاء أضربه

قال: وله كتاب الأسرار الخفيّة في العلوم العقليّة، وبلغت تصانيفه مائة وعشرين مجلَّداً فيما يقال.

ولـمَّا وصل إليه كتاب ابن تيمية في الردّ عليه كتب أبياتاً أوَّلها:

لو كنت تعلم كلّ ما علم الورىٰ ... طرَّاً لصرت صديق كلّ العالم

الأبيات، وقد أجابه الشمس الموصلي علىٰ لسان ابن تيمية.

ويقال: إنَّه تقدَّم في دولة خادبنده وكثرت أمواله، وكان مع ذلك في غاية الشحّ، وحجَّ في أواخر عمره، وتخرَّج به جماعة في عدَّة فنون، انتهىٰ.

قال السيّد: وفي كلام ابن حجر هذا مواقع للنظر وأُمور محتاجة للشرح والإكمال، فهو قد أنصف بعض الانصاف في قوله: (إنَّ ابن تيمية تحامل في مواضع عديدة، وردّ أحاديث موجودة بأنَّها مختلقة)، لكنَّه ما أنصف في قوله: (إنَّها ضعيفة)، فإنَّ فيها المتواتر والمستفيض، وما روته الثقات وأودعته في كتبها الرواة، والصواب أنَّ ابن تيمية بلغ به التحامل إلىٰ إنكار متواتر الأخبار ومسلَّمات التاريخ.

وقد خطر بالبال عند قراءة أبيات السبكي التي نقلها، هذه الأبيات:

لا تتَّبع كلّ من أبدىٰ تعصّبه ... لرأيه نصرة منه لمذهبه
بالرفض يرمي وليّ الطهر حيدرة ... وذاك يعرب عن أقصىٰ تنصّبه
كن دائماً لدليل الحقّ متَّبعاً ... لا للذي قاله الآباء وانتبه
وابن المطهَّر وافىٰ بالدليل فإن ... أردت إدراك عين الحقّ فائت به
إنَّ السِباب سلاح العاجزين وبا ... لبرهان _ إن كان _ يبدو كلّ مشتبه
والشتم لا يلحق المشتوم تبعته ... لكنَّه عائد في وجه صاحبه
وابن المطهَّر قد طابت خلائقه ... داع إلىٰ الحقّ خالٍ من تعصّبه
وابن تيمية ردَّ عليه وما ... أجاد في ردِّه في كلّ أضربه
حسب ابن تيمية ما كان قبل جرىٰ ... له وعاينه من أهل مذهبه
في مصر أو في دمشق وهو بعد قضىٰ ... في السجن ممَّا رأوه من مصائبه
مجسّم وتعالىٰ الله خالقنا ... عن أن يكون له بالجسم من شبه
بذاك صرَّح يوماً فوق منبره ... بالشام حسبك هذا من معائبه

الله ينــزل مـــن فــوق الســماء كــما نزلـت عـن منبري ذا مـن عجائبـه
قـد شـاهد ابـن جبـير ذاك منـه عـلىٰ مســامع الخلــق أقصــاه وأقربــه

والأبيات التي أرسلها العلَّامـة إلىٰ ابـن تيميـة وجوابهـا الـذي أجـاب به الشمس الموصلي قد نقلها ابـن عـراق في تذكرتـه فـيما حكـاه عنـه صـاحب (مجالس المؤمنين).

فقال: قال الشيخ نـور الـدين عـلي بـن عـراق المصـري في تذكرتـه: إنَّ الشيخ تقي الدين بن تيمية كـان معـاصراً للشـيخ جمـال الـدين، ويـتكلَّم عـلىٰ الشيخ جمال الدين في غيابه، فكتب إليه الشيخ جمال الدين:

لو كنـت تعلـم كلَّـما علـم الـورىٰ طـرَّاً لصـرت صـديق كـلّ العـالم
لكن جهلـت فقلـت إنَّ جميـع مـن يهـوىٰ خـلاف هـواك لـيس بعـالم

فكتب الشيخ شمس الدين محمّـد بـن محمّـد بـن عبـد الكـريم الموصـلي في جوابه هذان البيتان:

يا من يمـوّه في السـؤال مسفسـطاً إنَّ الــذي ألزمــت لــيس بــلازم
هـــذا رســـول الله يعلـــم كلَّـــما علمـوا وقـد عـاداه جـلّ العـالم

قال المؤلِّـف: السفسـطة هـي مـن الشـمس الموصـلي، فالعلَّامـة يقـول: إنَّ ردَّك عليَّ لجهلك بما أقـول وعـدم فهمـك إيّـاه عـلىٰ حقيقتـه، فلـو علمـت كلّ ما علـم الـورىٰ ووصـل إليـه علمهـم مـن الحـقّ لكنـت تـذعن لهـم ولا تعاديهم، لكنَّك جهلت حقيقة مـا قـالوا فنسـبت مـن لا يهـوىٰ هـواك منـه إلىٰ الجهل فهو نظير قول القائل:

لو كنت تعلـم مـا أقـول عـذرتني أو كنـت أعلـم مـا تقـول عـذلتكا
لكـــن جهلـــت مقـــالتي فعـــذلتني وعلمـت أنَّـك جاهـل فعـذرتكا

فأين هذا من نقضه السوفسطائي بأنَّ رسول الله ﷺ يعلم كلّ ما يعلمه الناس، وقد عاداه جلّ الناس.

ولـمّا اطّلعت علىٰ بيتي الموصلي خطر بالبال هذان البيتان:

أحسنت في التشبيه كلّ معاند ... لوليّ آل المصطفىٰ ومقاوم

مثل المعاند للنبيّ محمّد ... والحقّ متّضح لكلّ العالم

أمّا نسبته إلىٰ غاية الشحّ فلا تكاد تصحُّ ولا تصدق في عالم فقيه عظيم عرف مذاق الشحّ وقبحه، فهو إن لم يكن سخيّاً بطبعه فلا بدَّ أن يتسخّىٰ بسبب علمه، مع أنّنا لم نجد ناقلاً نقلها غيره، وليس الباعث علىٰ هذه النسبة إلَّا عدم ما يُعاب به في علمه وفضله وورعه وتقواه، فعدل إلىٰ العيب بالشحّ الذي لم تجر عادة بذكره في صفة العلماء، بل ولا بذكر الكرم والسخاء غالباً.

وفي (لسان الميزان)[1] ذكره بعنوان الحسين بالياء ابن يوسف بن المطهَّر الحلّي، وقال: عالم الشيعة وإمامهم ومصنِّفهم، وكان آية في الذكاء، واشتهرت تصانيفه في حياته، وهو الذي ردَّ عليه الشيخ تقي الدين بن تيمية في كتابه المعروف بالردِّ علىٰ الرافضي، وكان ابن المطهَّر مشتهر الذكر حسن الأخلاق، ولـمّا بلغه بعض كتاب ابن تيمية قال: (لو كان يفهم ما أقول أجبته)، ومات في المحرَّم سنة (٧٢٦هـ) عن (٨٠) سنة، وكان في آخر عمره انقطع في الحلَّة إلىٰ أن مات، انتهىٰ.

وما أحسن قوله: (لو كان يعلم ما أقول أجبته)، وهو صدر بيت ويظهر أنَّه من جملة أبيات، وفي مرآة الجنان في حوادث سنة (٧٢٧هـ)

---

(١) لسان الميزان ٢: ٣١٧ و٣١٨/ الرقم ١٢٩٥.

فيها مات بالحلَّة ابن المطهَّر الشيعي حسن صاحب التصانيف عن (٨٠) سنة وأزيد. (انتهىٰ ما أردت نقله من كتاب أعيان الشيعة).

نشأته:

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٢٤٢): نشأ الحسن بن المطهَّر الحلّي في الحلَّة، من بيت عريق بالعلم والدين، ومن أُسرة عربية صحيحة، وفي جوّ حركة علمية عارمة، يوم كان خاله نجم الدين المحقّق الحلّي يتولّىٰ زعامة العلم والشريعة في العراق، يشرف علىٰ إدارة الجامعة الشيعية التي كانت الحلَّة يوم ذاك مركزها الرئيسي، ويغذيها بعقله وروحه، ويبذل في سبيلها ما وسعه من جهد وطاقة.

وعاش الحلّي أواسط القرن السابع الهجري وعقدين من القرن الثامن، يوم اجتاحت العاصفة المغولية أكثر المناطق الإسلاميّة، ولفت بعلمها المصبوغ بالدم العواصم الكبرىٰ الإسلاميّة كبغداد وغيرها.

عاش الحلّي مع كلّ هذه الأحداث التي كانت بداية تحوّل في الاتّجاهات والتفكير، وبداية تاريخ جديد، يختلف عمَّا قبله بما فيه من ألوان واتّجاهات، وبما فيه من تحذّر الفكر وركود العلم.

وقد شاء الله أن يكون العلَّامة الحلّي الرائد الأوَّل في مجاهيل هذا العهد، وحامل لواء العلم والفكر في مفازة هذه الحقبة، ينير أُفقها، ويعشب ثغرها، ويحول دون استكمال الكارثة التي حاقت بالعالم الإسلامي مارداً علمياً عنيداً، يصدّ الموجة الطاغية بما وهبه من طاقة فكرية عملاقة، ومن قوَّة علمية ماردة، تبدّد الظلام إلىٰ نور، وتحوّل القفر إلىٰ راحات خصبة معشوشبة.

وبالرغم ممَّا كان لهذه الحملة المغولية الزاحفة علىٰ العالم الإسلامي من آثار سيّئة اجتاحت الحضارة الإسلاميّة، وأتت علىٰ بنيانها الشامخ، إنَّه بالرغم من كلّ ذلك فقد كان لها آثار أُخرىٰ أفادت الإسلام، حين دخل قادة المغول في الدين الإسلامي ورغبوا في العلم وقرَّبوا العلماء.

وقد استفاد الشيعة بصورة خاصّة من هذا الظرف حين هبطت فيه أسهم التعصّب الطائفي إلىٰ درجة كبيرة ممَّا ساعد الشيعة علىٰ التبشير بمذهبهم والجهر بآرائهم بحرّية كاملة، واستطاعوا بفضل نشاط علمائهم ومقدرتهم العلمية والفكرية، أن يتغلغلوا في صفوف المغول ويحملوا إليهم العقيدة الشيعية في نقائها وقوَّتها.

وأخيراً استطاعوا أن يؤثّروا علىٰ القادة المغول ويميلوا بهم إلىٰ حظيرة التشيّع، وكان ذلك حدثاً عظيماً في التاريخ حين أمكن للتشيّع أن يواصل زحفه إلىٰ مناطق أُخرىٰ، يلفيها ويؤثّر عليها، وخاصّة بعد أن أعلن السلطان المغولي محمّد خادبنده الجايتو تشيّعه هو وقوّاده وأُمراؤه عام (٧٠٧هـ) علىٰ يد أبي منصور العلَّامة الحلّي بعد المناظرة التي جرت بينه وبين قاضي القضاة نظام الدين عبد الله المراغي، والسيّد ركن الدين الموصلي، وغيرهما بحضرة السلطان المذكور، حين ظهر عليهما وأفحمهما في قصَّة معروفة[1].

والعلَّامة الحلّي هو أحد النوابغ الأفذاذ، وأبرز شخصية علمية نبغ في الأُصول والحكمة والكلام والمنطق والطبيعيات وعلوم الشريعة والعربية، ولا نجازف إذا قلنا إنَّه أكبر عالم شيعي أخذ بأسباب المعرفة

---

(١) أُنظر: سفينة البحار ١: ٧٣٤؛ روضات الجنّات؛ أعيان الشيعة ٢٤: ٢٩١.

الإسلاميّة في نضج واستيعاب ظهر حتَّىٰ الآن، فقد انتهت إليه زعامة الشيعة الإمامية في عصره في المعقول والمنقول والفروع والأُصول.

وهو صاحب مدرسة علمية وفكرية عاشت طويلاً، ولا تزال ظلالها بارزة علىٰ تفكير الكثير من العلماء إلىٰ اليوم، بخاصّة في التشريع والكلام، وإنَّ شطراً من آثاره ولاسيّما في الفقه والفلسفة الإسلاميّة لا يزال مرجعاً كبيراً في الجامعات الشيعية.

واشتهر العلَّامة الحلّي بذكائه المفرط، وفطنته المرهفة، وحضور جوابه، وقوَّة حجَّته، وسعة أُفقه ووعيه، كما اشتهر في زهده وعبادته وإخلاصه.

ويبدو علىٰ تفكير الحلّي اتّجاه مزدوج، فهو في الأكثر مفكّر مشّائي، ويلوح ذلك علىٰ كتبه الكلامية والفلسفية، كما أنَّ له اتّجاهاً إشراقياً، ولكنَّه بعيد عن الروح الصوفية، ويبدو أثر ذلك من بعض كتبه التي وضعها في هذا الاتّجاه، مثل (تسليك النفس إلىٰ حظيرة القدس)، و(حلّ المشكلات من كتاب التلويحات).

وهو يحذو في تفكيره حذو أُستاذه الفيلسوف الطوسي، ولكن بحرّية وتجرّد محتفظاً بشخصية فكره المستقلَّة، يملك معه الرأي والمحاكمة، ومن مظاهر شخصيته الفكرية المستقلَّة معارضته لكثير من آراء الطوسي ونقدها والتنظّر فيها، وتجد ذلك في مواضع عديدة من (شرح التجريد) و(كشف الفوائد)، بل هو قد وضع كتاباً في معارضاته لأُستاذه أسماه (المباحث السنية في المعارضات النصيرية).

وتقوم شهرة العلَّامة الحلّي في الأكثر علىٰ الحكمة والكلام والفقه والرجال، وعلىٰ كثرة إنتاجه ومؤلَّفاته، التي لا تزال حتَّىٰ اليوم مصدراً للثقافة الإسلاميّة في أكثر فروع المعرفة في جامعات الشيعة العلمية.

وقد تجاوزت مؤلّفاته التسعين مؤلّفاً، وقد بالغ بعضهم حين قال: إنَّ له نحواً من ألف مصنَّف، بل نُقِلَ عن بعض شرّاح التجريد لنصير الدين الطوسي أنَّه وجد بخطّ العلاّمة خمسمائة مجلّد من مصنَّفاته، وقد يكون في ذلك شيء كثير من المبالغة والغلوّ، ولكن علىٰ كلّ حال يُعبِّر عن جهود العلاّمة ونشاطه في المجالات العلمية وحركته الدائبة الفكرية، ويؤكّد ذلك ما قيل من أنَّه وزّعت مؤلّفاته وقسّمت علىٰ أيّام عمره من حين ولادته إلىٰ يوم وفاته فكان قسط كلّ يوم من حياته كرّاساً، وهذا _ دون ريب _ فوق الجهد البشري عادة.

وقد تلقّىٰ الحلّي العلم علىٰ كبار علماء عصره، وقد عرفنا من أساتذته في الفقه والكلام والأُصول العربية والعلوم الشرعية:

والده سديد الدين يوسف بن المطهَّر الحلّي، وهو من كبار علماء ذلك العهد.

ونجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن الحلّي المتوفّىٰ عام (٦٧٦هـ)، إمام عصره في الفقه والأُصول والكلام وغيرها، وهو صاحب الكتب الفقهية الشهيرة، وهي (شرائع الأحكام)، و(المختصر النافع)، و(المعتبر).

وعرفنا من أساتذته في العلوم العقلية والفلسفية:

الفيلسوف نصير الدين الطوسي المتوفّىٰ عام (٦٧٢هـ)، وقد درس عليه الفلسفة، كما درس الطوسي هو الآخر عليه الفقه والشريعة.

وعمر الكاتبي القزويني...

وامتاز الحلّي في كتبه بأُسلوبه العربي وحسن بيانه، ممَّا سهَّل تفهّم مقاصد الطوسي الفلسفية والكلامية، والوقوف علىٰ حقائق علم الكلام والفلسفة، كما امتاز بحرّية تفكيره وسليم فهمه، وكان ذلك ممَّا حداه علىٰ

مخالفة أُستاذه نصير الـدين الطـوسي في كثـير مـن المسـائل الفلسـفية، وتنظّـره فيها، ونجد كثيراً من ذلك في كتابه (كشف المراد) و(كشف الفوائد).

بل نجـده تجـاوز أكثـر مـن ذلـك، فقـد وضـع كتابـاً ضـمَّنه معارضـته لأُستاذه نصير الدين وأسماه (المباحث السنية في المعارضات النصيرية).

كم نجده يحاكم آراء الفلاسفة ويعارضها، وقد وضع في هذا المعنىٰ كتاب (المقاومات في مناقشة الفلاسفة القدماء)، و(إيضاح التلبيس من كلام الرئيس)، وغير ذلك ممَّا يدلُّ علىٰ حرّية تفكيره وحيويته العلمية.

أشعاره:

في (الريـاض): رأيـت بعـض أشـعاره ببلـدة أردبيـل، وهـي تـدلُّ عـلىٰ جودة طبعه في أنواع النظم.

وفي (الروضات) أنَّه عثر علىٰ مجموعة، نُسِبَ إليه فيها قوله:

لـيس في كـلّ سـاعة أنـا محتـا ... ج ولا أنـت قـادر أن تنـيلا
فـاغتنم عـزَّتي ويسـرك فـاحرز ... فرصـة تسـترقّ فيهـا الخلـيلا

قال: وله أيضـاً، كتبـه إلىٰ العلَّامـة الطـوسي في صـدر كتـاب أرسـله إلىٰ عسكر السلطان خدابنده، مسترخصاً للسفر إلىٰ العراق من السلطانية:

محبَّتـي تقتضـي مقـامي ... وحـالتي تقتضـي الـرحيلا
هـذان خصـمان لسـت أقضـي ... بيـنهما خـوف أن أمـيلا
ولا يـزالان في اختصـام ... حتَّـىٰ نـرىٰ رأيـك الجمـيلا

وكتب إلىٰ ابن تيمية:

لو كنت تعلم كلّ مـا علـم الـورىٰ ... طـرّاً لصـرت صـديق كـلّ العـالم
لكن جهلـت فقلـت إنَّ جميـع مـن ... يهـوىٰ خـلاف هـواك لـيس بعـالم

وصيّته لولده:

كتب العلَّامة وصيَّة لولده في آخر (القواعد)، فقال:

اعلم يا بني أعانك الله تعالىٰ علىٰ طاعته، ووفَّقك لفعل الخير وملازمته، وأرشدك إلىٰ ما يحبّه ويرضاه، وبلَّغك ما تأمله من الخير وتتمنّاه، وأسعدك الله في الدارين، وحباك بكلّ ما تقرُّ به العين، ومدَّ لك في العمر السعيد والعيش الرغيد، وختم أعمالك بالصالحات، ورزقك أسباب السعادات، وأفاض عليك من عظائم البركات، ووقاك الله كلّ محذور، ودفع عنك الشرور.

إنّي قد لخَّصت لك في هذا الكتاب فتاوىٰ الأحكام، وبيَّنت لك فيه قواعد شرائع الإسلام، بألفاظ مختصرة وعبارة محرَّرة، وأوضحت لك فيه نهج الرشاد وطريق السداد، وذلك بعد أن بلغت من العمر الخمسين ودخلت في عشر الستّين، وقد حكم سيّد البرايا بأنَّها مبدأ اعتراك المنايا، فإن حكم الله تعالىٰ عليَّ فيها بأمره، وقضىٰ عليَّ فيها بقدره، وأنفذ ما حكم به علىٰ العباد الحاضر منهم والباد.

فإنّي أُوصيك كما افترضه الله تعالىٰ عليَّ من الوصيّة، وأمرني به حين إدراك المنيّة، بملازمة تقوىٰ الله تعالىٰ فإنَّها السُّنَّة القائمة والفريضة اللازمة، والجُنَّة الواقية، والعدَّة الباقية، وأنفع ما أعدَّه الإنسان ليوم تشخص فيه الأبصار.

وعليك باتّباع أوامر الله تعالىٰ وفعل ما يرضيه واجتناب ما يكرهه والانزجار عن نواهيه، وقطع زمانك في تحصيل الكمالات النفسانية، وصرف أوقاتك في اقتناء الفضائل العلمية، والارتقاء عن حضيض النقصان إلىٰ ذروة الكمال والارتفاع إلىٰ أوج العرفان عن مهبط الجهّال،

وبذل المعروف ومساعدة الإخوان، ومقابلة المسيء بالإحسان والمحسن بالامتنان.

وإيّاك ومصاحبة الأراذل ومعاشرة الجهّال فإنّها تفيد خلقاً ذميماً، وملكة رديئة؛ بل عليك بملازمة العلماء ومجالسة الفضلاء، فإنّها تفيد استعداداً تامَّاً لتحصيل الكمالات، وتثمر لك ملكة راسخة لاستنباط المجهولات، وليكن يومك خيراً من أمسك، وعليك بالصبر والتوكّل والرضا، وحاسب نفسك في كلّ يوم وليلة، وأكثر من الاستغفار لربّك، واتَّق دعاء المظلوم خصوصاً اليتامىٰ والعجائز فإنَّ الله تعالىٰ لا يسامح بكسر كسير.

وعليك بصلاة الليل فإنَّ رسول الله ﷺ حثَّ عليها وندب إليها، وقال: «من ختم له بقيام الليل ثمّ مات فله الجنَّة»(١)، وعليك بصلة الرحم فإنَّها تزيد في العمر، وعليك بحسن الخلق فإن رسول الله قال: «إنَّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»(٢).

وعليك بصلة الذرّية العلوية فإنَّ الله تعالىٰ قد أكَّد الوصيّة فيهم، وجعل مودَّتهم أجر الرسالة والإرشاد، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ (الشورىٰ: ٢٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إنّي شافع يوم القيامة لأربعة أصناف ولو جاؤوا بذنوب أهل الدنيا: رجل نصر ذرّيتي، ورجل بذل ماله لذرّيتي عند المضيق، ورجل أحبَّ ذرّيتي باللسان والقلب، ورجل سعىٰ في حوائج ذرّيتي إذا طُردوا أو شُرّدوا»(٣).

---

(١) من لا يحضره الفقيه ١: ٤٧٤ و٤٧٥/ ح ١٣٧٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٩٤/ ح ٥٨٣٩.

(٣) الكافي ٤: ٦٠/ باب الصدقة لبني هاشم ومواليهم وصلتهم/ ح ٩.

وقال الصادق عليه السلام : «إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ: أيّها الخلائق انصتوا فإنَّ محمّداً صلى الله عليه وآله يكلّمكم، فينصت الخلائق، فيقوم النبيّ صلى الله عليه وآله فيقول: يا معشر الخلائق، من كانت له عندي يد أو منَّة أو معروف فليقم حتَّىٰ أُكافيه، فيقولون: بآبائنا وأُمَّهاتنا وأيُّ يد وأيُّ منَّة وأيُّ معروف لنا، بل اليد والمنَّة والمعروف لله ولرسوله علىٰ جميع الخلائق، فيقول: بل من آوىٰ واحداً من أهل بيتي أو برَّهم أو كساهم من عري أو أشبع جائعهم فليقم حتَّىٰ أُكافيه، فيقوم أُناس قد فعلوا ذلك، فيأتي النداء من عند الله: يا محمّد يا حبيبي قد جعلت مكافاتهم إليك، فاسكنهم من الجنَّة حيث شئت، فيسكنهم الوسيلة حيث لا يحجبون عن محمّد وأهل بيته صلوات الله عليهم»[1].

وعليك بتعظيم الفقهاء وتكرمة العلماء، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أكرم فقيهاً مسلماً لقي الله يوم القيامة وهو عنه راض، ومن أهان فقيهاً مسلماً لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان، وجعل النظر إلىٰ وجه العالم عبادة، والنظر إلىٰ باب العالم عبادة، ومجالسة العالم عبادة».

وعليك بكثرة الاجتهاد في ازدياد العلم والفقه في الدين، فإنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لولده: «تفقَّه في الدين فإنَّ الفقهاء ورثة الأنبياء، وإنَّ طالب العلم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتَّىٰ الطير في الهواء والحوت في البحر، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به»[2].

وإيّاك وكتمان العلم ومنعه عن المستحقّين لبذله، فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ ما

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٥/ ح ١٧٢٧.

(٢) أُنظر: من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٨٧/ ح ٥٨٣٤.

بَيَّنَّـاهُ لِلنَّـاسِ فِي الْكِتَـابِ أُولئِـكَ يَلْعَـنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَـنُهُمُ اللاَّعِنُـونَ﴾ (البقـرة: ١٥٩)، وقـال رسـول الله ﷺ: «إذا ظهـرت البـدع في أمّتـي فليظهـر العـالم علمـه، فمـن لم يفعـل فعليـه لعنـة الله تعـالىٰ»[١]، وقـال ؏: «لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها».

وعليك بتلاوة الكتاب العزيز، والتفكّر في معانيه، وامتثال أوامره ونواهيه، وتتبّع الأخبار النبوية والآثار المحمّدية، والبحث عن معانيها واستقصاء النظر فيها، وقد وضعت لك كتباً متعدّدة في ذلك، هذا كلّه ما يرجع إليك.

وأمَّا ما يرجع إليَّ ويعود نفعه عليَّ، فأن تتعهّدني بالترحّم في بعض الأوقات، وأن تهدي إليَّ ثواب بعض الطاعات، ولا تقلّل من ذكري فينسبك أهل الوفاء إلىٰ الغدر، ولا تكثر من ذكري فينسبك أهل العزم إلىٰ العجز، بل أُذكرني في خلواتك وعقيب صلواتك، واقض ما عليَّ من الديون الواجبة والتعهّدات اللازمة، وزر قبري بقدر الإمكان، واقرأ عليه شيئاً من القرآن.

وكلّ كتاب صنَّفته وحكم الله تعالىٰ بأمره قبل إتمامه فأكمله، وأصلح ما تجد من الخلل والنقصان والخطأ والنسيان، وهذه وصيَّتي إليك والله خليفتي عليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

آثاره:

وقد ترك العلَّامة الحلّي آثاراً قيّمة في مختلف المعارف الإسلاميّة، وامتدَّ فيها نشاطه إلىٰ أكثر ما كان معروفاً في عصره من ثقافة، وتناول فيها حتَّىٰ الموسيقىٰ التي تعتبر داخلة في صلب الرياضيات.

---

(١) الكافي ١: ٥٤/ باب البدع والرأي والمقائيس/ ح ٢.

وحظيت مؤلّفاته بعناية العلماء والمفكّرين، فأقبلوا عليها بالشرح والتعليق والدرس والاستفادة، وظلّت _ كما قلنا من قبل _ مصدراً للباحثين في المعارف الإسلاميّة، يعتمدون عليها ويستفيدون منها، ولاسيّما كتبه الآتية وهي: (شرح التجريد)، و(كشف المراد) في الكلام والفلسفة، و(تذكرة الفقهاء)، و(مختلف الشيعة) في الفقه، و(خلاصة الأقوال) في الرجال، و(نهج الحقّ) في الكلام، وغيرها ممّا لا يزال مدداً لمن يريد دراسة هذه المواضيع.

ومن مؤلّفاته:

١ _ منتهىٰ المطلب في تحقيق المذهب، وهو يقع في سبع مجلّدات.

٢ _ تلخيص المرام في معرفة الأحكام.

٣ _ تحرير الأحكام الشرعية، في الفقه أيضاً.

٤ _ الإرشاد، في الفقه أيضاً، وقد شرحه العلّامة الورع أحمد بن محمّد الأردبيلي المتوفّي عام (٩٩٣هـ)، وهو شرح كبير لم يتمّ، وهو مطبوع طبعة حجرية مع الأصل.

٥ _ مختلف الشيعة في أحكام الشريعة، وهو مطبوع علىٰ الحجر أيضاً.

٦ _ تذكرة الفقهاء، مطبوع، وهو يُطبَع الآن من جديد طبعة حديثة، وهو من أجلّ الكتب الفقهية، عرض فيه لآراء الكثير من الفقهاء الشيعة والسُّنَّة.

٧ _ القواعد في الفقه، وقد شرحه المحقّق الكركي علي بن عبد العال الكركي العاملي باسم (جامع المقاصد)، وهو من أجلّ الكتب وأعظمها فائدة. كما شرحه السيّد جواد العاملي باسم (مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلّامة) ويبلغ أحد عشر مجلّداً، وكلا الشرحين

مطبوعان، الأوَّل في إيران، والثاني في مصر، كما شرحه ولده فخر المحقّقين باسم (إيضاح القواعد)، وهو مطبوع.

٨ _ منهاج اليقين في أُصول الدين.

٩ _ منتهىٰ الوصول إلىٰ علمي الكلام والأُصول.

١٠ _ كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد لنصير الدين الطوسي في الكلام، وقد علَّق علىٰ شرحه هذا جماعة من الفلاسفة أمثال الدواني، والأمير صدر الدين الشيرازي وغيرهما.

١١ _ كشف المراد، طُبِعَ عدَّة مرات في إيران وغيرها، وآخر طبعة صدرت في مطبعة العرفان في صيدا من لبنان عام (١٣٥٣هـ).

١٢ _ كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد للطوسي أيضاً، وهو كتاب جليل مطبوع أيضاً في مجموع يتألَّف من عدَّة كتب ورسائل في عام (١٣١١هـ).

١٣ _ أنوار الملكوت في شرح الياقوت، الأصل لأبي إسحاق إبراهيم النوبختي في الكلام.

١٤ _ نظم البراهين في أُصول الدين.

١٥ _ معارج الفهم في شرح النظم.

١٦ _ الأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة.

١٧ _ نهاية المرام في علم الكلام.

١٨ _ القواعد والمقاصد، في المنطق الطبيعي والإلهي.

١٩ _ المباحث السنية في المعارضات النصيرية، وهو فيما عارض فيه نصير الدين الطوسي من آراء.

٢٠ _ الأسرار الخفيّة في العلوم العقليّة.

٢١ _ كتاب المقاومات، في مناقشة الفلاسفة القدماء.

٢٢ _ حلّ المشكلات من كتاب التلويحات للسهروردي.

٢٣ _ إيضاح التلبيس من كلام الرئيس، وهو كما يُفهَم منه في معارضته لآراء ابن سينا.

٢٤ _ الدرّ المكنون في علم القانون، في المنطق.

٢٥ _ القواعد الجليّة في شرح الرسالة الشمسيّة، في المنطق أيضاً.

٢٦ _ الجوهر النضيد في شرح التجريد، في المنطق، وهو مطبوع.

٢٧ _ كشف الخطا من كتاب الشفا لابن سينا، في الفلسفة.

٢٨ _ مقصد الواصلين في أُصول الدين.

٢٩ _ تسليك النفس إلىٰ حظيرة القدس، وهما في الكلام.

٣٠ _ مراصد التوفيق ومقاصد التحقيق، في المنطق والإلهيات والطبيعيات.

٣١ _ المحاكمات بين شرّاح الإشارات لابن سينا، في الفلسفة.

٣٢ _ نهج الحقّ وكشف الصدق، في الكلام، وقد ردَّ عليه الفضل بن روزبهان الأشعري بتعليق أسماه (إبطال الباطل)، وقد علَّق علىٰ ردّ ابن روزبهان السيّد نور الله المرعشي التستري المعروف بالقاضي التستري، وقد طُبعَ الأصل مع التعليقين المذكورين.

وقد شرحه بعد ذلك العلَّامة الشيخ محمّد حسن المظفَّر النجفي باسم (دلائل الصدق)، وقد طُبِعَ علىٰ الحرف طبعة جيّدة عام (١٣٧٩هـ)، وهذا الشرح من أفضل الكتب وأعمّها نفعاً، وأشملها لمواقع العلم.

٣٣ _ نهج الكرامة في الإمامة، وقد ردَّ عليه ابن تيمية.

٣٤ _ استقصاء النظر في القضاء والقدر، وقد طُبِعَ أخيراً في النجف الأشرف.

٣٥ _ كتاب الألفين، في الإمامة، وهو مطبوع في إيران، يحاول فيه إقامة ألفي دليل من العقل والنقل علىٰ الإمامة، ولم يكمله فقد بلغ فيه إلىٰ أكثر من ألف دليل ولم يبلغ الألفين.

٣٦ _ الباب الحادي عشر، في الكلام، وقد شرحه جماعة منهم المقداد بن عبد الله السيوري الحلّي الأسدي الفقيه المتكلِّم، والشرح مع الأصل مطبوعان.

٣٧ _ نهج المسترشدين إلىٰ أُصول الدين، شرحه أيضاً المقداد السيوري وفرغ من شرحه عام (٧٩٢هـ).

٣٨ _ مبادئ الوصول في علم الأُصول، شرحه المقداد الحلّي أيضاً.

٣٩ _ رسالة في بطلان الجبر.

٤٠ _ رسالة في خلق الأعمال.

٤١ _ رسالة في واجب الاعتقاد.

٤٢ _ إيضاح المقاصد من حكمة عين القواعد.

٤٣ _ نهج العرفان في علم الميزان.

٤٤ _ كتاب التناسب بين الأشعرية والسوفسطائية.

ومن كتبه في التفسير والحديث والرجال والعربية:

٤٥ _ بسط الكافية، وهو مختصر شرح الكافية في النحو، والأصل لابن الحاجب، والشرح للشيخ الرضي.

٤٦ _ المطالب العليّة في علم العربيّة.

٤٧ _ النهج الوضاح في الأحاديث الصحاح.

٤٨ _ خلاصة الأقوال في معرفة أحوال الرجال.

٤٩ _ مختصر شرح نهج البلاغة.

٥٠ _ إيضاح الاشتباه في أحوال الرواه، وهو كتاب كبير ذكره في الخلاصة.

٥١ _ منهاج الصلاح في اختصار المصباح، والمصباح هو كتاب (مصباح المتهجّد) للشيخ أبي جعفر الطوسي المتوفّىٰ عام (٤٦٠هـ).

٥٢ _ الدرّ والمرجان في الأحاديث الصحاح والحسان.

٥٣ _ نهج الإيمان في تفسير القرآن، لخّص فيه الكشّاف للزمخشري، والتبيان للشيخ الطوسي المذكور آنفاً.

٥٤ _ السرّ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

٥٥ _ كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين.

٥٦ _ كتاب في الموسيقىٰ، ذكره الأُستاذ رحيم زاده في كتابه الفارسي (أبو علي ابن سينا) بترجمة علي البصري.

* * *

(٣٤)

الشيخ نصير الدين القاشي[1]

جاء في تأسيس الشيعة (ص ٣٩٩): الشيخ نصير الدين القاشي، هو الشيخ العلَّامة المتكلِّم الفقيه المحدِّث، علي بن محمّد المعروف بنصير الدين القاشي مولداً والحلّي منشئاً.

قال السيّد المعاصر: كان معاصراً للعلَّامة جمال الدين بن المطهَّر، وللقطب الرازي، ومعروفاً بدقَّة النظر، وحدَّة الفهم، وفاق علىٰ حكماء عصره، وفقهاء دهره، وكان دائماً يشتغل بالحلَّة وبغداد بإفادة العلوم والمعارف.

ومن مصنَّفاته حاشية شرح التجريد للفاضل الأصفهاني، وهي تشتمل علىٰ أعلىٰ مراتب الدقَّة، وفي الحقيقة هي المادّة لحاشية السيّد علىٰ ذلك الشرح، ولـمَّا لم يكن للشارح الجديد القوشجي قدرة علىٰ رفع ذلك الدفاع، أعرض عن إيراد أجوبة الشارح القديم وإيراداته، وأورد أجوبة شارح المقاصد وإيراداته التي فيها نوع تعسّف وإغماض.

ومن مؤلَّفاته أيضاً شرح طوالع البيضاوي وحاشيته الشمسية، وهي المقصودة علىٰ مجرَّد الاعتراضات والتدقيقات، وقد تعرَّض السيّد الشريف في حاشيته لدفع بعضها.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٣١٤؛ تأسيس الشيعة: ٣٩٩؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٢٥٣؛ طبقات أعلام الشيعة (الحقائق الراهنة): ١٤٩؛ أعيان الشيعة ٤٢: ٤٨؛ أمل الآمل ٢: ٢٠٢.

وله أيضاً تعليقات علىٰ هوامش شرح الإشارات، ورسالة مشتملة علىٰ عشرين اعتراضاً علىٰ تعريف الطهارة في كتاب القواعد للعلّامة، وهي رسالة معروفة متداولة.

وهذا الفاضل من أهل المائة السابعة كما عرفت؛ لأنّه توفّي سنة (٧٧٥هـ).

وفي (الكنىٰ والألقاب): العالم المدقّق الفهّامة علي بن محمّد بن علي الكاشاني الحلّي، من أجلّة متأخّري متكلّمي أصحابنا وكبار فقهائهم.

ذكر صاحب (روضات الجنّات) عن مجالس القاضي أنّه قال: كان مولد هذا المولىٰ بكاشان، وقد نشأ بالحلّة، وكان معاصراً للقطب الراوندي (الرازي)، وكان معروفاً بدقّة الطبع وحدّة الفهم، وفاق علىٰ حكماء عصره وفقهاء دهره، وكان دائماً يشتغل في الحلّة وبغداد بإفادة العلوم الدينية والمعارف اليقينية، ثمّ عدّ بعض مؤلّفاته، قال: وقال السيّد حيدر الآملي في كتاب منبع الأنوار في مقام نقل اعتراضات أرباب الاستدلال بعجزهم عن الوصول إلىٰ مرتبة تحقيق الحال: إنّي سمعت هذا الكلام مراراً من العلم العالم والحكيم الفاضل نصير الدين القاشي، وكان يقول: غاية ما علمت في مدّة ثمانين سنة من عمري، إنَّ هذا المصنوع يحتاج إلىٰ صانع، ومع هذا يقين عجائز أهل الكوفة أكثر من يقيني، فعليكم بالأعمال الصالحة ولا تفارقوا طريقة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فإنَّ كلّ ما سواه فهو هوىٰ ووسوسة ومآله الحسرة والندامة، والتوفيق من الصمد المعبود، انتهىٰ.

وفي مجموعة الشهيد: توفّي الشيخ الإمام العلّامة المحقّق، أُستاذ الفضلاء نصير الدين علي بن محمّد القاشي بالمشهد المقدّس الغروي سنة خمس وخمسين وسبعمائة.

وفي كتاب (فلاسفة الشيعة): نصير الدين القاشي علي بن محمّد بن علي الكاشاني المعروف بـ (القاشي) الحلّي، ولد بكاشان من مدن إيران، ونشأ في مدينة الحلَّة، وتوفّي في النجف الأشرف عام (٧٥٥هـ)، وقيل: إنَّه توفّي عام (٧٧٥هـ)، وقد عاش أكثر من ثمانين سنة.

كان من أعلام الكلام والحكمة والفقه البارزين في القرن الثامن الهجري، ومن معاصري العلَّامة الحلّي جمال الدين، وقطب الدين الرازي.

وأطراه صاحب (رياض العلماء) بقوله: (هو من أجلَّة متأخّري متكلِّمي أصحابنا، وكبار فقهائهم).

وكان كما وصفه القاضي نور الله في كتابه (مجالس المؤمنين)، معروفاً بدقَّة الطبع، وجودة الفهم، قد فاق علىٰ حكماء عصره، وفقهاء دهره، وقد اشتغل في الحلَّة وبغداد بإفادة العلوم الدينية والمعارف اليقينية.

وقد وصفه الشهيد العاملي بقوله: (الإمام العلَّامة المحقّق أُستاذ الفضلاء).

ولا نعرف شيئاً من حياته، ولا عن ألوان تفكيره، ولكن يبدو أنَّه لم يكن يثق بأنَّ الفلسفة تصل بصاحبها إلىٰ الحقيقة المطلوبة، فقد حكىٰ عنه السيّد حيدر بن علي الآملي في كتابه (منبع الأنوار) قال: (سمعت من العلم العامل والحكيم الفاضل نصير الدين القاشي يقول: غاية ما علمت في مدَّة ثمانين سنة من عمري، أنَّ هذا المصنوع يحتاج إلىٰ صانع...) الخ، وقد مرَّ.

وللقاشي مؤلَّفات وأكثرها حواش وتعليقات، منها:

١ _ حاشية علىٰ شرح التجريد للفاضل الأصفهاني في الكلام،

وقد عرض فيها لدفع إيرادات واعتراضات الشارح الأصفهاني علىٰ الطوسي في التجريد.

٢ _ شرح طوالع البيضاوي.

٣ _ حاشية الشمسية في المنطق وهي اعتراضات علىٰ الأصل الشمسية، وقد عرض السيّد شريف الجرجاني في حاشية عليها لدفع تلك الاعتراضات.

٤ _ تعليقات علىٰ هوامش شرح الإشارات في الحكمة، والأصل لابن سينا.

٥ _ رسالة معروفة متداولة مشتملة علىٰ عشرين اعتراضاً علىٰ تعريف الطهارة في كتاب القواعد للعلّامة الحلّي في الفقه.

وكان للقاشي تلاميذ بارزون منهم: السيّد حيدر بن علي العبيدلي الحسيني الآملي المتألّه، وهو من كبراء علماء الباطن والظاهر، صاحب المؤلّفات العديدة.

* * *

(٣٥)
قطب الدين الرازي[١]

قال القمّي في (الكنىٰ والألقاب): الشيخ الأجلّ أبو جعفر محمّد بن محمّد البويهي، الحكيم الفقيه المتألّه المحقّق المدقّق، صاحب شرح الشمسية وشرح المطالع وشرح القواعد والمحاكمات، وحاشيتين للكشّاف الأصغر بحر الأصداف، والأكبر تحفة الأشراف، وغير ذلك.

أصله من ورامين الري من جهة المولد والبلاد، ينتهي نسبه إلىٰ آل بويه سلاطين الديالمة، كما عن الشيخ علي بن عبد العالي أو إلىٰ بابويه القمّي كما عن بعض إجازات الشهيد الثاني.

ونقل عن كتاب (محبوب القلوب) أنَّه قال: المولىٰ العلَّامة البهيّ الألمعي، قطب الدين الرازي، شمس فضله عن مطلع شرح المطالع طالع، ومحكمات حكمته من أُفق كتاب المحاكمات ساطع، مولده ومنشأه في الورامين من الري، وبعد استفادته عند جمّ من الأعلام، قد فاز بالتلمذية عند العلَّامة العلم جمال الملَّة والدين الحلّي طاب ثراه، وقد انتسخ كتاب قواعد الأحكام من مصنَّفات العلَّامة بخطّه وقرأه عنده، وقد أجازه العلَّامة في ظهر كتابه بخطّه وعبَّر عنه بالشيخ الفقيه العالم

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٤٦٩؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٤٧٤؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٧٠؛ طبقات أعلام الشيعة (الحقائق الراهنة): ٢٠٠؛ لؤلؤة البحرين: ١٩٤؛ النجوم الزاهرة ١١: ٨٧؛ أعيان الشيعة ٤٥: ٣٤٣؛ أمل الآمل ٢: ٣٠٠؛ تأسيس الشيعة: ٤٠٠.

الفاضل المحقّق المدقّق زبدة العلماء والأفاضل قطب الملّة والدين محمّد بن محمّد الرازي، وأرَّخ الإجازة بثالث شعبان (٧١٣هـ)، انتهىٰ.

ونقل شيخنا عن الشيخ الشهيد محمّد بن مكّي قدَّس الله روحه، قال: اتَّفق اجتماعي به بدمشق أُخريات شعبان سنة (٧٧٦هـ) فإذا بحر لا ينزف، وأجازني جميع ما يجوز عنه روايته، ثمّ توفّي في ثاني عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة بدمشق ودُفِنَ بالصالحية.

وقال: وكان إمامي المذهب بغير شكّ وريبة، صرَّح بذلك وسمعته منه، وانقطاعه إلىٰ بقيّة أهل البيت عليهم السلام معلوم، وقال الشهيد أيضاً في إجازته لابن الخازن: ومنهم الإمام العلَّامة سلطان العلماء وملك الفضلاء الحبر البحر قطب الدين محمّد بن محمّد الرازي البويهي، فإنّي حضرت في خدمته قدَّس الله لطيفته بدمشق عام ثمانية وستّين وسبعمائة. واستفدت من أنفاسه، وأجاز لي جميع مصنَّفاته في المعقول والمنقول، أن أرويها عنه وجميع مروياته، وكان تلميذاً خاصَّاً للشيخ الإمام جمال الدين المشار إليه، انتهىٰ.

وذكره المحقّق الثاني رحمه الله وقال: إنَّه من أجلّ تلامذة العلَّامة ومن أعيان أصحابنا الإمامية قدَّس الله تعالىٰ أرواحهم ورضي عنهم أجمعين.

وذكره العلَّامة السيّد حسن الصدر في كتابه (تأسيس الشيعة) بقوله: قطب الدين الرازي البويهي، هو الحكيم الإلهي محمّد بن محمّد البويهي، أحد علماء الدهر، قال المحقّق الكركي علي بن عبد العالي العاملي في وصفه: الإمام المحقّق، جامع المعقول والمنقول، قطب الملَّة والحقّ والدين، أو جعفر البويهي الرازي، شارح الشمسية والمطالع في المنطق.

يروي عن الإمام جمال الدين بلا واسطة، وهو من أجلّ تلامذته، ومن أعيان أصحابنا الإمامية قدَّس الله تعالىٰ أرواحهم ورضي عنهم.

وكتب العلَّامة جمال الدين بن المطهر الحلّي علىٰ ظهر كتابه قواعد الأحكام التي هي بخطّ قطب الدين وعليها البلاغ إلىٰ حساب الوصايا ما صورته: قرأ عليَّ هذا الكتاب الشيخ العالم الكبير الفقيه الفاضل المحقّق المدقّق، ملك العلماء والأفاضل، قطب الملَّة والدين محمّد بن محمّد الرازي أدام الله أيّامه، قراءة بحث وتدقيق، وتحرير وتحقيق، وسأل عن مشكلاته، واستوضح معظم مشتبهاته، فبيَّنت له ذلك بياناً شافياً، وقد أجزت له رواية هذا الكتاب بأجمعه...، إلىٰ آخر ما كتب.

وقال الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي الشهير بالشهيد شيخ الشيعة ما نصّه: اتفق اجتماعي به _ يعني بالقطب الرازي المذكور _ بدمشق أُخريات شعبان سنة ستّ وسبعين وسبعمائة، فإذا به بحر لا ينزف، وأجازني جميع ما يجوز عنه روايته، ثمّ توفي ثاني عشر ذي القعدة من السنة المذكورة بدمشق ودُفِنَ بالصالحية، ثمّ نُقِلَ إلىٰ موضع آخر، وصلّي عليه رحمه الله وقدَّس روحه، وكان إمام المذهب بغير شكّ، ورأيته صرَّح بذلك وسمعته منه، وانقطاعه إلىٰ بقيّة أهل البيت عليهم السلام معلوم، انتهىٰ كلام الشهيد.

وكان صورة ما في آخر نسخة القواعد التي قرأها علىٰ مصنِّفها هكذا: فرغ من تحرير هذا الكتاب بعون الله الملك الوهّاب العبد الضعيف المحتاج إلىٰ رحمة الله تعالىٰ محمّد بن محمّد بن أبي جعفر بابويه في خامس ذي القعدة سنة ثمان وسبعمائة.

قال الشيخ الشهيد محمّد بن مكّي بعد حكاية ذلك: وهذا يُشعِر أنَّه من ذرّية الصدوق محمّد بن علي بن بابويه رحمه الله .

وقال المولىٰ الميرزا عبد الله أفندي في كتابه (رياض العلماء) في باب الألقاب: الشيخ قطب الدين يُطلَق علىٰ جماعة كثيرة ومن هذه الحيثية قد يشتبه في كثير من الأوقات بعضهم ببعض:

الأوّل: علىٰ الشيخ المتقدّم قطب الدين أبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي صاحب الخرايج وغيره.

الثاني: علىٰ الشيخ أبي الحسن قطب الدين محمّد بن الحسن بن الحسين الكيدري السبزواري صاحب منهاج النهج بالفارسية وغيره.

الثالث: علىٰ المولىٰ قطب الدين محمّد بن محمّد الرازي البويهي، صاحب شرح المطالع والمحاكمات، وشرح الشمسية وغيرها، الفاضل المعروف الذي هو من أولاد ابن بابويه القمّي.

الرابع: علىٰ قطب الدين محمود بن مسعود الكازروني المعروف بالعلّامة الشيرازي، تلميذ الخواجة نصير الدين الطوسي، وشارح القسم الثالث من المفتاح، وشارح المختصر الحاجبي وغيرها.

والخامس: علىٰ قطب الدين المشهور بقطب المحي، أُستاذ مولانا جلال الدين الدواني، وهو أحد مشايخ الصوفية، وصاحب المكاتبات المعروفة بمكتبات القطب المحي بالفارسية المشهورة، وهو قطب الدين محمّد الكوشكاري.

والثلاثة الأُوَل من علماء الخاصّة، والاثنان الأخيران من علماء أهل السُّنَّة والجماعة، انتهىٰ.

وقد وهِمَ التاج السبكي في عدِّ القطب الرازي صاحب الترجمة في علماء الشافعية في الطبقات الكبرىٰ، كما وهِمَ في عدِّ شيخ الشيعة أبي جعفر الطوسي ﷺ فيها من الشافعية أيضاً، وهما من شيوخ الإمامية، ولعلّهما كانا يتستّران في بعض الأوقات بالشافعية.

قال في ترجمة القطب محمّد بن محمّد الرازي: الشيخ العلَّامة قطب الدين المعروف بالتحتاني إمام مبرز في المعقولات اشتهر اسمه، وبعد صيته، ورد إلىٰ دمشق في سنة ثلاث وستّين وسبعمائة، وبحثنا معه فوجدناه إماماً في المنطق والحكمة، عارفاً بالتفسير والمعاني والبيان، مشاركاً في النحو، يتوقَّد ذكاءً، وله علىٰ الكشّاف حواشي مشهورة، وشرح الشمسية في المنطق، توفّي في سادس ذي القعدة سنة ستّ وستّين وسبعمائة، بظاهر دمشق عن نحو أربع وسبعين سنة[1]، انتهىٰ.

فيُعلَم أنَّ مدَّة بقائه بدمشق ثلاث سنين، ووهم السيوطي في اسمه في بغية الوعاة في طبقات النحاة، قال: محمود بن محمّد الرازي القطب المعروف بالتحتاني، تمييزاً له عن قطب آخر، كان مساكناً معه بأعلىٰ المدرسة الظاهرية، كان أحد أئمّة المعقول أخذ عن العضد وغيره وقدم دمشق وشرح الحاوي والمطالع والإشارات، وكتب علىٰ الكشّاف حاشية وشرح الشمسية في المنطق، وكان لطيف العبارة، سأل السبكي عن حديث: «كلّ مولود يُولَد علىٰ الفطرة» فأجابه السبكي فنقض هو ذلك الجواب، وبالغ في التحقيق، فأجابه السبكي وأطلق لسانه فيه، ونسبه إلىٰ عدم فهم مقاصد الشرع، والوقوف مع ظواهر قواعد المنطق.

وسبق في ترجمة السيّد عن شيخنا الكافيجي أنّه قال: السيّد والقطب التحتاني لم يذوقا علم العربية؛ بل كانا حكيمين، مات القطب في ذي القعدة سنة ستّ وستّين وسبعمائة. (انتهىٰ عن كتاب تأسيس الشيعة).

وذكره العلَّامة الشيخ عبد الله نعمة في كتابه (فلاسفة الشيعة)، قال: قطب الدين أبو جعفر محمّد بن محمّد الرازي البويهي، وُلِدَ في الري

---

(١) طبقات الشافعية ٩: ٢٧٤ و٢٧٥/ الرقم ١٣٣٤.

في قرية يقال لها: ورامين، وتوفّي في دمشق في شهر ذي القعدة سنة (٧٧٦هـ)، ودُفِنَ في الصالحية.

هو من أئمّة المنطق والفلسفة وغيرهما، ومن أشهر من ظهر في القرن الثامن من العلماء، واشتهر بشرحه علىٰ كتاب الشمسية، وعلىٰ كتاب (المطالع) في المنطق، كما اشتهر بكتابه (المحاكمات) بين شارحي الإشارات في الفلسفة، والشرحان هما لنصير الدين الطوسي، والإمام فخر الدين الرازي.

وقد أطراه التاج السبكي في كتابه (طبقات الشافعية)، فوصفه بقوله: (إمام مبرز في المعقولات، اشتهر اسمه، وبعد صيته، ورد دمشق سنة (٧٦٣هـ)، فوجدناه إماماً في المنطق والحكمة، عارفاً بالتفسير والمعاني والبيان، مشاركاً في النحو، يتوقَّد ذكاءً).

وقال فيه السيوطي في طبقات النحاة: (كان أحد أئمّة المعقول، أخذ عن العضدي وغيره).

وهو من مفكّري الشيعة وعلمائها البارزين، وقد صرَّح بذلك الشهيد الأوَّل العاملي، وقد اجتمع به في دمشق في أواخر شهر شعبان عام (٧٧٦هـ) وقال عنه: (إنَّه بحر لا ينزف...، وكان إمامي المذهب بغير شكّ، ورأيته صرَّح بذلك، وسمعت منه، وانقطاعه إلىٰ بقيّة أهل البيت عليهم السلام معلوم)، وقال أيضاً: (... وكان تلميذاً خاصّاً للشيخ الإمام جمال الدين (العلّامة الحلّي)).

وقال فيه المحقّق الثاني العاملي الشيخ علي بن عبد العالي الكركي العاملي: (إنَّه من أجلّ تلامذة العلّامة، ومن أعيان أصحابنا الإمامية...).

وقد صرَّح بتشيّعه كلّ من صاحب الرياض، والأمل، ومجالس المؤمنين، وأعيان الشيعة، والذريعة، وغيرهم.

وعرفنا من أساتذته جمال الدين العلّامة الحلّي المتوفّىٰ عام (٧٢٦هـ)، وعضد الدين الإيجي صاحب كتاب المواقف في علم الكلام، والمتوفّىٰ عام (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م).

آثاره:

أمّا مؤلّفات قطب الرازي فهي كثيرة، ومعظمها في المنطق والحكمة، منها:

١ _ شرح الشمسية، في المنطق، والأصل لنجم الدين عمر بن علي القزويني المعروف بالكاتبي المتوفّىٰ عام (٤٩٣هـ)، وهو مطبوع في مصر وإيران مراراً، ولا يزال يُدرَّس في الجامعات الإسلاميّة كالنجف وقم والأزهر وغيرها.

٢ _ شرح المطالع، وهو من الكتب القيّمة في المنطق، ومن الموسوعات المنطقية الشهيرة، وهو مطبوع ويُدرَّس في جامعات النجف وإيران.

٣ _ شرح الحادي، في الحكمة.

٤ _ شرح الإشارات لابن سينا، في الفلسفة.

٥ _ بحر الأصداف في حواشيه علىٰ الكشّاف أيضاً.

٦ _ المحاكمات بين شرحي الإشارات، الأصل لابن سينا والشرحان هما لنصير الدين الطوسي، وفخر الدين الرازي في الفلسفة.

٧ _ شرح قواعد الأحكام، الأصل لأستاذه العلّامة الحلّي في الفقه.

٨ _ رسالة في تحقيق التصوّر والتصديق، طُبِعَت عام (١٢٨١هـ)، وشرحها محمّد بن زاهد الهروي.

٩ _ رسالة في تحقيق الكلّيات.

١٠ _ شرح المفتاح.

* * *

(٣٦)

السيّد أبو الفضائل ركن الدين

أبو محمّد الحسن بن محمّد بن شرفشاه[١]

في (أعيان الشيعة)[٢]: السيّد أبو الفضائل ركن الدين أبو محمّد الحسن بن محمّد بن شرفشاه العلوي الحسيني الاسترابادي نزيل الموصل، ويقال: الحسن بن شرفشاه نسبة إلىٰ جدّه.

توفّي سنة (٧١٧هـ) كما في كشف الظنون، أو (٧١٨هـ) كما عن طبقات الشافعية للأسنوي، أو (٧١٥هـ) في ١٤ صفر كما عن ذيل تاريخ بغداد لابن رافع، وفي الدرر الكامنة أنَّه توفّي سنة (٧١٥هـ) وله سبعون سنة، وعن طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة أنَّه توفّي بالموصل سنة (٧١٥هـ) وقيل: (٧١٨هـ) عن نيف وسبعين سنة، وقيل: جاوز الثمانين، انتهىٰ.

أقوال العلماء فيه:

كان تلميذ المحقّق الطوسي الخواجة نصير الدين، ومن أخصّ أصحابه ومثله في التحقيق، وكان علَّامة في العلوم العقلية والنقلية.

---

(١) أعيان الشيعة ٢٣: ١٤١؛ النجوم الزاهرة ٩: ٢٣١؛ طبقات أعلام الشيعة (الحقائق الراهنة): ٤٧؛ معجم المؤلِّفين ٣: ٢٨٣؛ الدرر الكامنة ٢: ١١٨؛ شذرات الذهب ٣: ٤٨ وفيه الشافعي.

(٢) أعيان الشيعة ٥: ٢٥٥/ الرقم ٦٨٠.

وفي (بغية الوعاة): الحسن بن محمّد بن شرفشاه العلوي الاسترابادي أبو الفضائل السيّد ركن الدين، قال ابن رافع في ذيل تاريخ بغداد: قدم مراغة واشتغل علىٰ مولانا نصير الدين، وكان يتوقَّد ذكاءً وفطنةً، وكان المولىٰ قطب الدين حينئذٍ في ممالك الروم فقدَّمه النصير وصار رئيس الأصحاب بمراغة، وكان يجيد درس الحكمة، وكتب الحواشي علىٰ التجريد وغيره، وكتب لولد النصير شرحاً علىٰ قواعد العقائد، ولـمَّا توجَّه النصير إلىٰ بغداد سنة (٦٧٢هـ) لازمه، فلمَّا مات النصير في هذه السنة أصعد إلىٰ الموصل واستوطنها، ودرَّس بالمدرسة النورية بها وفوِّض إليه النظر في أوقافها، وشرح مقدّمة ابن الحاجب بثلاثة شروح وأشهرها المتوسّط. وتكلَّم في أُصول الفقه وأخذ علىٰ السيف الآمدي، ثمّ فوِّض إليه تدريس الشافعية بالسلطانية ومات في (١٤) صفر سنة (٧١٥هـ).

وذكره الأسنوي في طبقات الشافعية، وقال: شرح الحاجبية ومات سنة (٧١٨هـ).

وقال الصفدي: كان شديد التواضع يقوم لكلّ أحد حتَّىٰ السقّاء، شديد الحلم وافر الجلالة عند التتار، شرح مختصر ابن الحاجب الأُصولي، والشافعية في التصريف، وعاش بضعاً وسبعين سنة، انتهىٰ.

وفي شذرات الذهب في حوادث سنة (٧١٨هـ): فيها توفّي السيّد ركن الدين أبو محمّد الحسن بن محمّد بن شرفشاه العلَّامة... الحسيني الاسترابادي الشافعي، أخذ عن النصير الطوسي، وحصَّل وتقدَّم، وكان الطوسي قد جعله رئيس أصحابه بمراغة يعيد درس الحكمة، ثمّ انتقل إلىٰ الموصل ودرَّس بالنورية بها، وشرح مختصر ابن الحاجب شرحاً

متوسّطاً، وشرح الحاجبية ثلاثة شروح المتوسّط أشهرها، وشرح الحادي في أربع مجلَّدات فيه اعتراضات علىٰ الحادي حسنة، وتوفّي في هذه السنة في المحرَّم عن نيف وسبعين سنة بالموصل، وقيل: توفّي سنة (٧١٥هـ)، انتهىٰ.

وفي (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر العسقلاني: الحسن ابن شرفشاه الحسيني الاسترابادي ركن الدين عالم الموصل، كان من كبار تلامذة النصير الطوسي، وكان مبجَّلاً عند التتار وجيهاً متواضعاً حليماً، يقال: إنَّه كان يقوم لكلّ أحد حتَّىٰ للسقّاء، وتخرَّج به جماعة من الفضلاء، وله شرح المختصر والمقدّمتين جميع ذلك لابن الحاجب، وشرح الحاوي شرحين، وكان يقال مع ذلك إنَّه كان لا يحفظ القرآن، انتهىٰ. أي لا يحفظه عن ظهر القلب، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ حفظه كذلك كان شائعاً.

وفي (شذرات الذهب) في حوادث سنة (٧١٥هـ): فيها توفّي السيّد ركن الدين حسن بن شرفشاه الحسيني الاسترابادي صاحب التصانيف، كان علَّامة متكلِّماً نحوياً مبالغاً في التواضع يقوم لكلّ أحد حتَّىٰ للسقّا، وكانت جامكيته في الشهر ألفاً وثمانية دراهم، وتوفّي بالموصل في المحرَّم وقد شاخ.

وفي كتاب (الفلاكة والمفلوكون): السند ركن الدين الحسن بن محمّد بن شرفشاه العلوي الحسيني الاسترابادي تلميذ النصير الطوسي، له عدَّة مصنَّفات منها: شرح أُصول ابن الحاجب، وشرح مقدّمته في النحو، وشرح الحادي شرحين، وكان له درارات وجوامك كلّ يوم ستّون درهماً، كان يعيد دروس النصير الطوسي في الحكمة.

قال الشيخ شهاب الحسباني: ومن خطّه نقلت، وكان في دينه رقَّة، توفّي سنة (٧١٨هـ) بالموصل، انتهىٰ. ولعلَّ رقَّة الدين التي نسبها إليه هي التشيّع.

تلاميذه:

في (روضات الجنّات) من جملة تلامذته الشيخ تاج الدين علي بن عبد الله بن أبي الحسن الأردبيلي التبريزي، ترجمه صاحب (بغية الوعاة).

مؤلَّفاته:

١ _ نهج الشيعة، ألَّفه باسم السلطان أُويس بهادر خان.

٢ _ شرح قواعد العقائد النصيرية لأُستاذه الخواجة نصير الدين الطوسي، كتبه لولد أُستاذه المذكور أيّام حياة أُستاذه وتتلمذه عليه بمراغة.

٣ _ الشرح الكبير علىٰ الكافية في النحو لابن الحاجب المسمّىٰ بالبسيط.

٤ _ شرح متوسّط علىٰ الكافية اسمه الوافية وهو أشهر شروحه عليها.

٥ _ شرح صغير علىٰ الكافية.

٦ _ شرح مختصر ابن الحاجب في الأُصول شرحه شرحاً متوسّطاً.

٧ _ شرح الشافية في التصريف.

٨ _ شرح الحادي في أربع مجلَّدات، مرَّ عن الشذرات أنَّ فيه اعتراضات علىٰ الحاوي حسنة.

٩ _ شرح الحاوي الثاني، ذكره صاحب الفلاكة كما مرَّ.

١٠ _ حواشي التجريد وغيره.

١١ _ أسئلة سألها شيخه المقدَّم ذكره وأجاب عنها.

* * *

(٣٧)

السيّد شاه فضل المشهدي المتخلّص بنعيمي

ذكره صاحب كتاب الأعيان[١]، قال: في كتاب شهداء الفضيلة (ص ٧٩): الحكيم المتبحّر توجد ترجمته في (رياض العارفين).

وقال صاحب (الحصون): كان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية، من السادات الصحيحي النسب، متبحّراً في علوم العربية وعلم الجبر وعلم الحروف والأسماء، وله اليد الطولىٰ في الحكم، وهو الذي ربّىٰ وكمّل السيّد نسيمي الشيرازي، وتُنسَب له كرامات، وله مصنَّفات منها: جاودان الكبير وجاودان الصغير.

كان معاصر الشاهرخ ميرزا والأمير تيمور، وكان عارفاً سالكاً، وكان مقيماً في شيراز، فأحضره ميران شاه من شيروان وبفتوىٰ علماء جهلاء عصره نال الشهادة سنة (٧٩٦هـ)، وكان شاعراً وأورد له شعراً بالفارسية.

* * *

---

(١) أعيان الشيعة ٧: ٣٢٩/ الرقم ١١٤٠.

(٣٨)

عبد القادر بن مهذّب
بن جعفر الأدفوي المصري[1]

في (أعيان الشيعة)[2]: عبد القادر بن مهذَّب بن جعفر الأدفوي المصري، توفّي سنة (٧٢٥هـ)، والأدفوي نسبة إلىٰ (أدفو) بدال مهملة ساكنة وفاء مضمومة وواو ساكنة، قرية بصعيد مصر.

ذكره ابن عمّه جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي، في كتاب (الطالع السعيد في فضلاء الصعيد)، فقال: ابن عمّي كان ذكياً جواداً متواضعاً، رحل إلىٰ قوص للاشتغال بالفقه، فحفظ أكثر التنبيه ولم ينتج فيه، وكان إسماعيلي المذهب مشتغلاً بكتاب الدعائم تصنيف النعمان بن محمّد متفقّهاً فيه.

وكان فيلسوفاً يقرأ الفلسفة ويحفظ من كتاب زجر النفس وكتاب أبلوخيا، وكتاب التفّاحة المنسوب إلىٰ أرسطو كثيراً.

وذكر لي بعض الأصحاب ممَّن لا أتَّهمه بكذب، أنَّه تعسَّر عليه قفل باب فذكر اسماً وفتحه، وأنَّهم قصدوا حضور امرأة فهمهم بشفتيه لحظة فحضرت، فسألوها عن ذلك فقالت: إنَّه حصل عندها قلق فلم تقدر علىٰ الإقامة.

---

(١) أعيان الشيعة ٣٨: ٦٧؛ الدرر الكامنة ٣: ١٩٢؛ الطالع السعيد: ٣٣٠.

(٢) أعيان الشيعة ٨: ٣١.

وكان مؤمناً بالنبيّ ﷺ منزلاً له منزلة، ويعتقد وجوب أركان الإسلام، غير أنَّه يرىٰ أنَّها تسقط عمَّن حصل له معرفة بربّه بالأدلَّة التي يعتقدها، ومع ذلك فقد كان مواظباً علىٰ العبادة في الخلوة والجلوة، إلَّا أنَّه يصوم بما يقتضيه الحساب، ويرىٰ أنَّ القيام بالتكاليف الشرعية يقتضي زيادة الخير وإن حصلت المعرفة، وكان يفكّر طويلاً ويقوم ويرقص ويقول:

يا قطوع من أفنىٰ عمره في المملول   فإنَّه العاجل والآجل ذا المهبول

ومرض فلم أصل إليه وفات فلم أُصَلِّ عليه وسار إلىٰ ساحة القبور وصار إلىٰ من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، انتهىٰ.

قال المؤلِّف[1]: يظهر أنَّ الرجل كان إمامياً اثنا عشرياً لا إسماعيلياً بدليل إشتغاله بكتاب دعائم الإسلام وتفقّهه فيه، وهو للقاضي نعمان قاضي مصر الذي كان مالكياً وانتقل إلىٰ مذهب الإمامية بنصّ ابن خلّكان، ولم يكن علىٰ مذهب الإسماعيلية.

وبالجملة كلام ابن عمّه الذي هو خصمه حتَّىٰ أنَّه لم يعده في مرضه ولا صلّىٰ عليه بعد موته دالٌّ علىٰ أنَّه كان إمامياً لقوله: حفظ التنبيه ولم ينتج فيه، وإنَّه كان مشتغلاً بكتاب الدعائم متفقّهاً فيه، وأيّ شهادة أصرح من هذه، والدعائم من كتب فقه الإمامية والتنبيه من كتب غيرهم، ودالٌّ علىٰ أنَّه كان علىٰ جانب من الذكاء وكرم الأخلاق والعلم والفضل، وأنَّه كان متديناً محافظاً علىٰ العبادة في سرّه وجهره.

أمَّا معرفته بالفلسفة فليست قدحاً فيه إن لم تكن مدحاً، وأمَّا حكاية فتح القفل وإحضار المرأة التي ادَّعىٰ أنَّه نقلها له من لا يتَّهمه

---

(١) القائل صاحب كتاب (أعيان الشيعة).

بكـذب، فـلا شـكَّ أنَّ استحضـار المـرأة إن صـحَّ كـان فسـقاً والـراضي بـه شريك في الفسق فهذا الناقل فاسـق مقـرّ عـلىٰ نفسـه بالفسـق فـلا يُقبَـل قولـه بمقتضـىٰ قولـه تعـالىٰ: ﴿إِنْ جـاءَكُمْ فاسِـقٌ بِنَبَـإٍ فَتَبَيَّنُـوا﴾ (الحجـرات: ٦)، وأمَّـا فـتح القفـل فيجـوز كونـه حصـل اتّفاقـاً أو مـن بـاب الإيهـام فـلا يبتنىٰ عليـه شيء، وأمَّـا حكايتـه عنـه أنَّـه كـان يـرىٰ سـقوط أركـان الإسـلام عمَّن حصل له المعرفـة فيجـوز أن يكـون توهَّمهـا مـن بعـض كلامـه الـذي لا يفيـدها وسـاعد عـلىٰ ذلـك سـوء الظـنّ والعـداوة المتوكّـدة في الـنفس، فقـد شاهدنا أمثال ذلك كثيراً.

ويدلُّ عليه مواظبته عـلىٰ العبـادة في الخلـوة والجلـوة، ولـو كـان يعتقـد سقوطها وواظـب عليهما والاعتـذار لـذلك بأنَّهـا تقتضـي زيـادة الخـير وإن حصلت المعرفة غير صحيح.

وأمَّا كان نقله عنـه مـن أنَّـه كـان يصـوم بـما يقتضـيه الحسـاب فمـراده منه غـير واضـح ولعلَّـه يريـد أنَّـه كـان يصـوم بـما يقتضـيه الحسـاب وتوليـد الأهلَّة، فـإن صـحَّ فالغالـب أنَّـه كـان يصـوم للرؤيـة ويفطـر لهـا لا للثبـوت عند القضاة المعلوم حـالهم في الإثبـات بشـهادة غـير الثقـات ويعتـذر بـذلك، والله أعلم.

وأمَّا أنَّه كان يفكّر طـويلاً ويفعـل مـا ذكـره فـالله أعلـم بمـراده ولعلَّـه مـن بـاب مـا يفعلـه أهـل العرفـان، وهـذا الرجـل مؤلِّـف كتـاب الطـالع السعيد له في كتابه غرائـب كثـيرة وقـع نظرنـا عـلىٰ بعضـها صـدفة، منهـا مـا ذكره في ترجمـة عـلي بـن محمّـد بـن جعفـر الهاشـمي الجعفـري، فإنَّـه بعـد مـا وصفه بأحسـن الصـفات ونسـب إليـه الكرامـات، قـال: إنَّـه عمـل سماع في دار رجـل فحضـره وكنـت مـن الحـاضرين فحضـر القّـوال وكـان يغنّـي

بالشبابات والدفوف فطرب الشيخ وخلع ما عليه وكذلك الحاضرون إلّا ما يستر العورة وأعطوها للمغنّي، انتهىٰ.

بارك الله بهذا الشيخ الطروب، وإذا لم يكن أهل الكرامات والولاية مثله فلا كانوا هكذا وإلّا فلا، وإذا لم يكن أهل الورع فلا كانوا مثل مؤلِّف الطالع السعيد، وله في كتابه المذكور حكايات كثيرة في خوارق العادات والإخبار بالمغيَّبات عمَّن يعتقد فيهم الولاية ولعلَّهم كلّهم كانوا مثل الهاشمي المذكور أو من الحشّاشين.

* * *

حكماء القرن التاسع

(٣٩)

الشريف الجرجاني[1]

في الكنىٰ والألقاب: الشـريف الجرجـاني، المير سيّد عـلي بـن محمّـد بن علي الحسيني الحنفي الاسترابادي.

كان حكيماً متكلّماً بارعاً، عجيـب التصـرّف، كثير التحقيـق، مـاهراً في الحكمة والعربية، صـاحب المصنّفات والحـواشي والشـروح المعروفـة، منهـا حاشيته علىٰ أوّل تفسير الكشّاف، وعلىٰ المطوّل، وعلىٰ شرح الكافيـة، وشرح الشمسية، وعلىٰ شرح المطالع، وغير ذلك، وله شرح علىٰ مواقف القاضي عضد الإيجي في علم أُصول الكلام، وهو كتاب مشهور.

قال الشيخ البهائي رحمه الله في شرح الأربعين في الجفر والجامعة: قد تظافرت الأخبار بأنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أملاهما علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام، وأنَّ فيهما علم مـا كـان وما يكون إلىٰ يوم القيامة، وأنَّ الشيخ الكليني نقل عـن الإمـام الصـادق عليه السلام أحاديث متكثّرة في أنَّ ذينك الكتابين كانا عنده عليه السلام وأنّهما لا يزالان عند الأئمّة عليهم السلام يتوارثونهما واحداً بعد واحد، وقال المحقّق الشريف في شرح المواقـف في مبحث تعلّق العلم الواحد بمعلومين: إنَّ الجفر والجامعة كتابـان لعـلي كـرَّم الله وجهه، وقد ذكر فيهما علىٰ طريق علم الحروف الحوادث التي تحدث إلىٰ انقراض العالم، وكان الأئمّة المعروفون من أولاده يعرفونها ويحكمون بها.

---

(١) الكنىٰ والألقاب ٢: ٣٢٩؛ روضات الجنّات ٥: ٣٠٠؛ البدر الطالع ١: ٤٨٨؛ معجم المؤلّفين ٧: ٢١٦.

وفي كتاب قبول العهد الذي كتبه علي بن موسىٰ الرضا ﷺ إلىٰ المأمون: «إنَّك قد عرفت من حقوقنا ما لم يعرف آباؤك، فقبلت منك عهدك، إلَّا أنَّ الجفر والجامعة يدلَّان علىٰ أنَّه لا يتمّ».

ولمشايخ المغاربة نصيب من علم الحروف ينتسبون فيها إلىٰ أهل البيت، ورأيت بالشام نظماً أُشير فيه بالرموز إلىٰ أحوال ملوك مصر، وسمعت أنَّه مستخرج من ذينك الكتابين، إلىٰ هنا كلام السيّد الشريف، انتهىٰ.

وُلِدَ المحقّق الشريف سنة (٧٤٠هـ) بجرجان، ولـمَّا بلغ الرشد أخذ في تحصيل العلم والمعرفة، فممن أخذ منه وحضر مجلسه العالي، مولانا قطب الدين الرازي إلىٰ أن صار بيمن تربيته فائقاً علىٰ كلّ محقّق مرضي، وله الرواية عن جماعة منهم: العلَّامة قطب الدين المذكور، ويروي عنه جماعة منهم: ابنه السيّد محمّد وجلال الدين محمّد بن عبد العزيز الشافعي، والشيخ منصور بن الحسن الكازروني والعلَّامة أسعد بن محمّد الصديقي الكازروني إلىٰ غير ذلك، ومن نتائج أفكاره هذه الرباعية:

بيخوابى شب جان مرا گر چه بكاست
در خواب شدن زروى انصاف خطاست
ترسم كه خيالش قدمى رنجه كند
عذر قدمش بسالها نتوان خواست

وله:

من شكر چون كنم كه همه نعمت توام
نعمت چگونه شكر كند بر زبان خويش

وقال أُستاذه العلَّامة القطب:

گر كسى شكر او فزون گويد　　　شكر توفيق شكر چون گويد

يحكىٰ أنَّه قال يوماً لابنه السيّد محمّد: تطلب درجة أيّ فاضل من العلماء؟ قال: درجتك، فقال: أنت قصير الهمَّة أنا طلبت رتبة ابن سينا، فبلغ بي السعي إلىٰ هذه الدرجة وأنت فيما تطلب لا تصل إلَّا إلىٰ درجة ناقصة، فعليك بعلوّ الهمَّة وطلب المعالي.

كان المحقّق الشريف معاصراً للمحقّق التفتازاني، وجرت بينهما مناظرات طويلة.

وعدَّه القاضي نور الله من حكماء الشيعة وعلمائها، واستشهد علىٰ ذلك بتنصيص تلميذه السيّد محمّد نوربخشي، والشيخ محمّد بن أبي جمهور الأحسائي بتشيّعه، وأمَّا ابنه السيّد شمس الدين محمّد فهو شيعي بخلاف ابنه الميرزا مخدوم فإنَّه سُنّي بل ناصبي، وردَّ علىٰ الشيعة بكتاب (نواقض الروافض) الذي ردَّ عليه القاضي نور الله بكتاب (مصائب النواصب)، والشيخ أبو علي الحائري بـ (عذاب النواصب)، وله ابن فاضل من علماء الشيعة...

توفّي السيّد الشريف في شيراز سنة (٨١٦هـ)، حكي أنَّه لـمَّا قرب ارتحاله قال له ابنه: يا أبة أوصني بوصيّة، فقال: (بابا بحال خود باش) أي عليك نفسك، فنظم ابنه مضمون كلام أبيه بالفارسية وقال:

مرا مير سيد شريف آن بحر زخار　　　كه رحمت بر روان پاك او باد

وصيت كرد و گفت او زانكه خواهى　　　كه باشد در قيامت جان تو شاد

چنان مستغرق اوقات خود باش　　　كه نايد از كس ديگر تو را ياد

* * *

(٤٠)

المولى نظام الدين الحسن بن محمّد بن الحسين القمّي النيسابوري[١]

ذكره صاحب (أعيان الشيعة)[٢] قال: المولىٰ نظام الدين الحسن بن محمّد بن الحسين القمّي النيسابوري المعروف بالنظام النيسابوري وبالنظام الأعرج صاحب شرح النظام المشهور في الصرف، وتفسير النيسابوري المعروف. من أهل أواسط المائة التاسعة، كان حيَّاً بعد (٨٥٠هـ).

في (روضات الجنّات): أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة قم، ونشأ في نيسابور وتوطَّنها، وأمره في الفضل والأدب والتبحّر والتحقيق وجودة القريحة أشهر من أن يُذكَر.

وكان من كبراء الحفّاظ والمفسّرين، وهو من علماء رأس المائة التاسعة، قريب من عهد السيّد الشريف الجرجاني وجلال الدين الدواني وابن حجر العسقلاني، وتاريخ فراغه من بعض مجلَّدات تفسيره الآتي ذكره كان فيما بعد (٨٥٠هـ).

(١) أعيان الشيعة ٢٣: ١١٢؛ روضات الجنّات ٣: ١٠٢؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٢٥٦؛ معجم المؤلِّفين ٣: ٢٨١ و٢٩١. وظنّي أنَّ هؤلاء الأعلام لم يطَّلعوا علىٰ تفسيره وبالخصوص الآيات النازلة في أمير المؤمنين عليه السلام لعرفوا أنّه من أهل السُّنَّة.

(٢) أعيان الشيعة ٥: ٢٤٨/ الرقم ٦٥٤.

ويظهر أنّه كان ماهراً في جلّ العلوم، فهو حكيم في الحكماء، مفسّر في المفسّرين، حافظ للقرآن، نحوي صرفي في النحويين والصرفيين، رياضي في الرياضيات أهمّها الحساب والهيأة، منجّم في المنجّمين، مؤلِّف في جميع هذه العلوم مؤلَّفات مشهورة، مشهور بذلك بين علماء أهل زمانه كما أشار إليه في خطبة كتاب التفسير بقوله: وإذ وفّقني الله تعالىٰ لتحريك القلم في أكثر الفنون المنقولة والمعقولة، كما اشتهر بحمد الله تعالىٰ ومنّه فيما بين أهل الزمان وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الإنسان من العين والعين من الإنسان، وكان قد رزقني الله تعالىٰ من أبان الصبا وعنفوان الشباب حفظ القرآن وفهم معنىٰ الفرقان...

تشيّعه:

لا شكَّ أنَّ ظاهر حاله في كتابه في التفسير عدم التشيّع إلَّا أن يكون ذلك لنوع من المداراة، وحكي عن المجلسي في شرح الفقيه أنَّه استشهد بقرائن علىٰ تشيّعه ممَّا ذكره في تفسيره، وقد تصفَّحت شرح الفقيه بجميع أجزائه تصفّحاً ما فلم يقع نظري علىٰ ذلك، وغاب عنّي فمن وجده فيلحقه بهذا المقام، وممَّا وقع عليه نظري في تفسيره المذكور ممَّا قد يدلُّ علىٰ ذلك ما ذكره في تفسيره سورة الفاتحة بقوله: كان علي بن أبي طالب يقول: «يا من ذكره شرف للذاكرين»، وكان مذهبه الجهر بها _ أي البسملة _ في جميع الصلوات، وقد ثبت هذا منه تواتراً ومن اقتدىٰ به لن يضلّ قال ﷺ: «اللّهم أدر الحقَّ معه حيث دار».

واستشهد صاحب الروضات لتشيّعه بكون أصله من بلدة قم المعروف أهلها بالتشيّع، وبأنَّه لـمَّا ذكر المحقّق الطوسي في شرحه

لتذكرته، قال: (الأعلم المحقّ والفيلسوف المحقّق أُستاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر نصير الملّة والدين محمّد بن محمّد الطوسي قدّس الله نفسه وزاد في حظائر القدس أُنسه).

ولم يُعهَد مثل هذا الكلام من أمثاله في حقّ علماء الشيعة، ولكن القوشجي ذكر نحوه في حقّ النصير الطوسي في أوّل شرحه علىٰ التجريد فقال: (المولىٰ الأعظم والحبر المعظّم قدوة العلماء الراسخين أُسوة الحكماء المتألّهين نصير الملّة والدين محمّد بن محمّد الطوسي قدّس الله نفسه وروّح رمسه)، والقوشجي عدم تشيّعه معلوم.

ويمكن أن يستشهد لتشيّعه بقوله في خطبة الرسالة الجميلة: (علىٰ نبيّه المختار وآله وعترته الأطهار الأخيار)، وقوله في خطبة التذكرة: (ثمّ علىٰ آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً).

مؤلّفاته:

١ _ تفسيره المسمّىٰ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ويُعرَف بتفسير النيسابوري، مطبوع بإيران في ثلاث مجلّدات ضخام، وطُبِعَ بمصر علىٰ هامش تفسير الرازي، والهند، ألّفه سنة (٨٢٨هـ) بإشارة أُستاذه قطب الدين محمّد بن مسعود الشيرازي، قال في أوائله: (ولم أمِل فيه إلّا إلىٰ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، فبيَّنت أُصولهم ووجوه استدلالاتهم بها وما ورد عليها، وأمّا في الفروع فذكرت استدلالات كلّ طائفة بالآية علىٰ مذهبه من غير تعصّب ومراء، ولقد وفّقت لإتمامه في مدّة خلافة علي، ولو لم يكن ما وقع في أثنائه من الأسفار الشاسعة لكان يمكن إتمامه في مدّة خلافة أبي بكر).

وفي (روضات الجنّات): هو من أحسن التفاسير وأجمعها للفوائد قريب من تفسير مجمع البيان كمّاً وكيفاً.

٢ _ أوقاف القرآن علىٰ حذو ما كتبه السجاوندي، مطبوع مع التفسير.

٣ _ لبّ التأويل، نظير تأويلات المولىٰ عبد الرزّاق الكاشي، مطبوع مع التفسير أيضاً.

٤ _ توضيح التذكرة، وهو شرح علىٰ تذكرة الخواجة نصير الدين الطوسي في الهيأة. في (كشف الظنون): صنَّفه للمولىٰ نظام الدين علي بن محمود اليزدي، فرغ من تأليفه غرَّة ربيع الأوَّل سنة (٧١١هـ).

٥ _ تعبير التحرير، وهو شرح تحرير المجسطي لأبي الريحان محمّد بن أحمد البيروني، ذكره في (كشف الظنون)، وقال: سمّاه تعبير التحرير. وفي (الذريعة) أنَّه شرح علىٰ تحرير المجسطي تأليف المحقّق الطوسي في (٣٥٠) ورقة.

٦ _ شرح الشافية في التصريف لابن الحاجب، مطبوع في إيران عدَّة مرّات معروف بشرح النظام، كان يُدرَّس في النجف وهو شرح عرجي (أو مزجي).

٧ _ الشمسية، رسالة في علم الحساب، يقال: منها أخذ البهائي خلاصته، ولم يثبت.

٨ _ الجميلة في بيان أنَّ الجمل نكرات أم لا.

٩ _ البصائر في مختصر تنقيح المناظر، في (الذريعة): نسخة منه كانت في مدرسة فاضل خان في المشهد الرضوي كما في فهرستها وهي (٣٧) ورقة فيها أشكال ودوائر. انتهىٰ.

وفي (كشف الظنون): تنقيح المناظر لأُولي الأبصار والبصائر، للمحقّق كمال الدين أبي الحسن الفارسي، وفي (الذريعة): هو شرح كتاب (المناظر والمرايا) المنسوب إلىٰ أبي علي محمّد بن الحسين بن الحسن بن سهل بن هيثم البصري المولد المصري المسكن والوفاة، شرحه بإشارة أُستاذه قطب الدين الشيرازي، وأضاف إليه خاتمةً وذيلاً ولواحق.

ثمّ إنَّ معاصر الشارح ومشاركه في التلمّذ علىٰ قطب الدين الشيرازي وهو المترجَم اختصر التنقيح وسمّاه (البصائر في اختصار تنقيح المناظر)، وأصل كتاب المناظر لأقليدس الصوري، والمحقّق الطوسي حرَّر مناظر أقليدس، انتهىٰ ملخَّصاً.

١٠ _ الزيج العلائي، في (كشف الظنون): صحَّحه تلامذته بعد وفاته، وهو فارسي علىٰ عشرة أبواب، ألَّفه لعلاء الدولة.

وذكره الشيخ عبّاس القمّي في مؤلَّفه (الكنىٰ والألقاب)، فقال:

النظام الأعرج النيسابوري الحسن (الحسين خ ل) ابن محمّد بن الحسين، العالم الفاضل المفسّر العارف، صاحب التفسير الكبير وشرح الشافية المعروف بشرح النظام وشرح التذكرة النصيرية، ورسالة في علم الحساب، وكتاب في أوقاف القرآن المجيد علىٰ حذو ما كتبه السجاوندي إلىٰ غير ذلك.

أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة قم المحروسة، وكان منشأه وموطنه بديار نيسابور التي يُقال: هي من أحسن مدن خراسان، وأمره في الفضل والأدب والتبحّر والتحقيق وجودة القريحة أشهر من أن يُذكَر، كان من علماء رأس المائة التاسعة.

* * *

حكماء القرن العاشر

(٤١)

أبو البركات الأستراباديّ

جاء في (الكنىٰ والألقاب)[1] للشيخ عبّاس القمّي: الشيخ أبو البركات الأسترابادي، فاضل متكلِّم إمام في العلوم العقلية، من أعلام العلماء في علم الكلام.

وعن (الرياض) قال: فاضل متكلِّم ذكر عنه السيّد الأمير فخر الدين السماكي الإمامي في رسالة تفسير آية الكرسي بالفارسية، بعض الأبحاث الجيّدة الدالّة علىٰ غاية مهارته في علم الكلام والحكمة والتفسير، وصرَّح باسمه في حاشية تلك الرسالة ودعا له بالرحمة والغفران.

وفي (أعيان الشيعة)[2]: الشيخ أبو البركات الأسترابادي فاضل متكلِّم إمام في العلوم العقلية، من أعلام العلماء في علم الكلام.

وفي الرياض: فاضل متكلِّم ذكر عنه السيّد الأمير فخر الدين السماكي الإمامي في رسالة تفسير آية الكرسي بالفارسية، بعض الأبحاث الجيّدة الدالّة علىٰ غاية مهارته في علم الكلام والحكمة والتفسير، وصرَّح باسمه في حاشية تلك الرسالة كما في (الرياض)، لكنَّه لم يذكر ذلك التصريح.

---

(١) الكنىٰ والألقاب ١: ١٩.

(٢) أعيان الشيعة ٢: ٢٩١/ الرقم ١١٥٦.

قال: ودعا له بالرحمة والغفران، وهذا يُشعِر بتشيّعه، مع أنَّ أهل أستراباد جلّهم بل كلّهم شيعة.

* * *

(٤٢)

جلال الدين الدواني[1]

قال القمّي: المولىٰ جلال الدين محمّد بن سعد الدواني المنتهي نسبه إلىٰ محمّد بن أبي بكر، الحكيم الفاضل الشاعر المدقّق، صاحب أُنموذج العلوم، وهو كتاب لطيف يحتوي علىٰ مسائل من كلّ علم، وله شرح علىٰ متن التهذيب وعلىٰ العقائد العضدية، وله الحاشية القديمة والجديدة علىٰ شرح التجريد للفاضل القوشجي.

يقال: إنَّه كتب الحاشية القديمة في يومين، وإنَّه كان في أوائل أمره علىٰ مذهب أهل السُّنَّة ثمّ صار شيعياً وكتب بعد ذلك رسالة سمّاها نور الهداية، وهي مصرّحة بتشيّعه...

ذكره القاضي نور الله في المجالس في الفضلاء من الشيعة الإمامية، وأيّد تشيّعه بما كتب في حاشيته علىٰ التجريد متعرّضاً علىٰ المير صدر الدين الشيرازي في تفضيل أبي بكر علىٰ علي عليه السلام بقوله: (والعجب من ولد علي كيف يدَّعي إطباق أهل السُّنَّة علىٰ أنَّ جميع الفضائل التي لعلي عليه السلام حاصلة لأبي بكر مع زيادة، فإنَّ ذلك إزراء بجلالة قدر علي عليه السلام كما لا يخفىٰ علىٰ ذوي الأفهام)، وأيّد تشيّعه أيضاً بأبيات نظمها قوله:

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٣٨٩؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٢٠٩؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٤٣٥؛ روضات الجنّات ٢: ٢٣٩؛ أعيان الشيعة ٤٣: ٢٨٧؛ البدر الطالع ٢: ١٣٠؛ معجم المؤلّفين ٩: ٤٨؛ طبقات أعلام الشيعة (إحياء الداثر): ٢٢٠.

خورشيد كمال است نبى ماه ولى اسلام محمّد است و ايمان على

گر بيّنه بر اين ميطلبى بنگر كه زبيّنات اسما است جلى

اكتسب أكثر علومه وفضائله في شيراز، وجرت بينه وبين الأمير صدر الدين محمّد الدشتكي مناظرات ومباحثات في دقائق مباحث الحكمة والكلام غيبةً وحضوراً، وكان ازدحام الطلبة عنده أكثر منه عند الأمير صدر الدين، ولكن طريقة المير كانت أشبه بطريقة الأقدمين من الحكماء وأهل الإشراق، كما ذكره بعض أفاضل المتأخّرين.

وكانت وفاته بعد المائة التاسعة في حدود سنة (٩٠٧هـ) أو (٩١٨هـ) والدواني نسبة إلىٰ دوان كشداد، قرية من قرىٰ كازرون من بلاد فارس.

وكانت دراسته في (شيراز) علىٰ ملا محيي الدين الأنصاري، من ذرّية سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، وعلىٰ همام الدين صاحب شرح الطوالع، فقد قرأ عليهما العلوم الدينية والحكمية، كما قرأ علىٰ والده العلوم العربية.

وقد حظي الدواني بتقدير العلماء واهتمامهم بآثاره وآرائه، حتّىٰ كان السيّد الشريف الجرجاني الشهير بالحكمة والمنطق وغيرهما حين يعرض لآراء الدواني يعرض لها بالإكبار والتقدير.

وكانت بينه وبين الأمير صدر الدين الدشتكي مناظرات وأبحاث كثيرة في دقائق من مباحث الحكمة والكلام، وكانت مناظرات حادّة، ممَّا حمل غياث الدين منصور بن صدر الدين علىٰ الردّ علىٰ أكثر مؤلَّفات الدواني.

وللدواني تلاميذ درسوا عليه، واستفادوا منه، كانوا الطليعة في البحوث العقلية والحكمة والكلام، منهم:

١ _ جمال الدين محمّد الاسترابادي.

٢ _ الأمير حسين اليزدي شارح الهداية.

٣ _ الخواجة جمال الدين محمود الشيرازي.

٤ _ كمال الدين حسين الآري.

٥ _ الشيخ منصور الباغنوني.

وأكثر تلامذته هؤلاء قد كتبوا وعلّقوا علىٰ حاشية القديم لأُستاذهم الدواني، وقد وصفوا طريقته العلمية بأنَّها مبنيَّة علىٰ التتبّع والتفصيل والإحاطة.

وكان الدواني في بدء سُنّي المذهب، أشعري الطريقة، ثمّ دان بمذهب الشيعة الإمامية.

وألَّف بعد أن مال إلىٰ مذهب الشيعة رسالته التي أسماها (نور الهداية) وأعلن فيها تشيّعه.

وقد صرَّح القاضي نور الله في كتابه (مجالس المؤمنين) بذلك وذكره في الفضلاء من الشيعة الإمامية، وأيَّد ذلك بما كتبه في حاشيته علىٰ التجريد، معترضاً علىٰ المير صدر الدين الشيرازي كما ذكره السيّد الأمين في (أعيان الشيعة)، والشيخ الطهراني في كتابه (الذريعة) الذي أدرج فيه مؤلَّفاته.

وكان قد ولي القضاء في فارس، وتجوَّل في أنحاء فارس كتبريز وغيرها. كما دخل بلاد العرب، وجمع أموالاً كثيرة، وكان الناس بسبب ذلك يزيدون في توقيره واحترامه.

وكان يرىٰ أنَّ المال من أسباب ترويج العلم وتحصيل الكمال، وقد أشار إلىٰ ذلك في بعض أشعاره الفارسية بقوله:

مـرا تجربـه معلـوم شـد در آخـر حـال

که قدر مرد بعلم است و قـدر علـم بـمال

تعريبه: (علمـت بالـذي جرَّبـت في آخـر أحـوالي، فقـدر المـرء بـالعلم، وقدر العلم بالمال).

وكان ينظم الشعر بالفارسية والعربية، ومن شعره بالعربية قوله:

إنّي لأشـــكو خطوبـــاً لا أُعيّنهـــا   ليبرأ الناس من عذري ومن عـذلي

كالشمع يبكي فـلا يـدرىٰ أعبرتـه   من حرقة النار أم من فرقة العسـل

وكـان خصـب الإنتـاج، وضـع أكثـر مـن ثلاثـين مؤلَّفـاً، أكثرهـا في الفلسفة والمنطق والكلام.

آثاره:

١ _ رسالة في إثبات الواجب.

٢ _ رسالة أُخرىٰ في إثبات الواجب.

٣ _ الحاشية القديمة علىٰ شرح التجريد.

٤ _ الحاشية الجديدة علىٰ شرح التجريد.

٥ _ شرح هياكل النور للسهروردي في الحكمة.

٦ _ حاشية تهذيب المنطق.

٧ _ حاشية شرح المطالع في المنطق.

٨ _ حاشية شرح العضدي.

٩ _ حاشية كتاب المحكمات للجرجاني في الفلسفة.

١٠ _ حاشية حكمة العين.

١١ _ أُنموذج العلوم.

١٢ _ رسالة الزوراء مع حاشيتها.

١٣ _ رسالة في تعريف علم الكلام.

١٤ _ حاشية علىٰ الجغميني في الهيأة.

١٥ _ حاشية علىٰ شرح الشمسية في المنطق، وهي مطبوعة في مصر مع حواشي أُخرىٰ لغيره.

١٦ _ شرح خطبة الطوالع.

١٧ _ شرح الرسالة النصيرية في الكلام لنصير الدين الطوسي.

١٨ _ التصوّف والعرفان بالفارسية.

١٩ _ الرسالة القلمية.

٢٠ _ الأخلاق الجلالية بالفارسية.

٢١ _ الرسالة التهليلية بالفارسية.

٢٢ _ رسالة في الجبر والاختيار، ويقال لها: خلق الأعمال أيضاً.

٢٣ _ رسالة في خواصّ الحروف.

٢٤ _ رسالة نور الهداية، وهي التي أعلن فيها تشيّعه.

٢٥ _ رسالة التوحيد.

٢٦ _ رسالة الجفر وتسمّىٰ أيضاً استكاكات الحروف.

٢٧ _ تفسير بعض السور والآيات، منها تفسير سورة الإخلاص، وتفسير آية: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ من سورة الأعراف، توجد منها نسخة في الخزانة الرضوية في خراسان.

٢٨ _ رسالة في أفعال الله، انتهىٰ من تأليفها عام (٩٠٣هـ).

٢٩ _ رسالة في شرح الرباعيات.

٣٠ _ شرح الغزل.

٣١ _ رسالة حلّ الجذر الأصمّ، وقد تكون هي نفس رسالته المسمّاة حلّ مغالطة الجذر الأصمّ.

ويُراد بالجذر الأصمّ تلك المغالطة المنسوبة إلىٰ ابن كمّونة، وسُمّيت بذلك لصعوبة حلّها مجازاً، وهي قول القائل: (كلّ كلامي في هذا اليوم كذب في حين أنَّه لا يقول في هذا اليوم غير هذه الكلمة، فإنَّ عمومه يشمل شخص كلامه المذكور كلّ كلامي...) الخ، فيكون قوله: هذا كلّ كلامي أيضاً كذباً وغير مطابق للواقع، ويلزم من كون هذا الكلام في شخصه كذباً، أن يكون كلامه في هذا اليوم صدقاً، يعني يلزم من كونه كذباً، عدم كونه كذباً، ويلزم من إثبات الحكم نفيه، ومن وجود الشيء عدمه، وكلّها لوازم باطلة.

وقد تناول العلماء هذا الإشكال، وأصبح معتركاً لآرائهم، ووضعوا فيه الرسائل، منها رسالة الدواني المذكورة.

كما وضع فيها الفيلسوف الخفري رسالته المسمّاة حيرة الفضلاء.

وقد نُسِبَ إلىٰ الإمام الرضا عليه السلام أنَّه أجاب عنها بجوابين، ولكن لم يحفظ ذانك الجوابان.

ومن هنا يتبيَّن أنَّ الشبهة قديمة منذ عهد الإمام الرضا عليه السلام، وأنَّ نسبتها إلىٰ ابن كمّونة غير صحيحة، أو أنَّ ابن كمّونة أثارها بعد ذلك من جديد.

وللدواني باع طويل في الطبيعيات، يعتمد فيها التجربة والاختيار، ومن أمثلة ذلك بحثه في كتابه (أُنموذج العلوم)، فقد نقل عن بعضهم القول بأنَّ جذب المغناطيس للحديد مستند إلىٰ كون مزاجه علىٰ نسبة الأعداد المتحابّة، وكون مزاج أحدهما علىٰ الأقلّ والآخر علىٰ العدد الأكثر.

ويناقش الدواني هذا الرأي بقوله: (... هذا خيال لطيف، لكن لا تساعده التجربة، فإنّا نشاهد أنَّ المغناطيس يجذب المغناطيس وكان عندنا قطعة، قطعناها قطعاً متخالفة، وشاهدنا القطعة الصغيرة تنجذب إلىٰ القطعة الكبيرة، والقطعتان المتساويان تجذب كلّ منهما الأُخرىٰ، وهذه التجربة تقضي أن لا يكون الجذب والانجذاب لما ذكره، فإنَّ أجزاء المغناطيس الواحد يجذب بعضها بعضاً، ولا اختلاف بينهما بحسب المزاج.

وقد يتوهَّم أنَّ ذلك لكون الأجزاء العنصرية الممازجة في الصغير والكبير علىٰ تلك النسبة، وهذا التوهّم باطل، لأنَّ الصغير علىٰ أيّ حدّ كان من الصغر ينجذب إلىٰ الكبير، ولو كان الأمر كما توهّم لم يستمرّ الحكم في جميع مراتب الصغر.

وأيضاً القطعات المتساويات متساويات في عدد أجزاء العناصر، فما وجه انجذاب كلّ منهما إلىٰ الأُخرىٰ، ولو كان العددان المتساويان يفيدان هذه الخاصية لم يحتج إلىٰ الأعداد المتحابّة).

* * *

(٤٣)

كمال الدين الميبذي[1]

في (الكنىٰ والألقاب): كمال الدين حسين بن معين الدين، شارح ديوان أمير المؤمنين عليه السلام، فرغ من شرحه سنة (٨٩٠هـ) وله شرح خبر قد صعدنا ذرىٰ الحقائق، شرحه في سنة (٩٠٨هـ)، وله الهداية الأثيرية.

وعبَّر عنه صاحب (كشف الظنون) بالقاضي المير حسين الحسيني، فيظهر منه أنَّه من السادة الحسينية، وله (جام گيتى نما) فارسي في الحكمة والفلسفة، ألَّفه بشيراز في سنة (٨٩٧هـ) مطابق قوله: (وضع جديد).

والميبذي نسبة إلىٰ ميبذ بالفتح ثمّ السكون وضمّ الباء الموحّدة وذال معجمة، بلدة من نواحي أصبهان، بها حصن حصين.

وذكره العلَّامة الأمين في كتابه (أعيان الشيعة)[2] بقوله: عالم فاضل حكيم متصوّف صوفي مؤلِّف، وفي الروضات أنَّه كان من أعاظم متأخّري فضلاء العامّة ومتكلّميهم البارعين وصوفييهم المتشرّعين، انتهىٰ.

---

(١) أعيان الشيعة ٢٧: ٢٨٢؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٢١٥؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ١٣٢، ٢: ٢١٤؛ روضات الجنّات ٣: ٢٣٥؛ الذريعة ٥: ٢٥.

(٢) أعيان الشيعة ٦: ١٧٤.

وهو يدلُّ علىٰ أنَّه ليس من شرط كتابنا[1]، ولكن صاحب (الذريعة) أدرج بعض مصنَّفاته في كتابه، ويمكن أن يستأنس تشيّعه بقوله في أوَّل شرحه علىٰ كافية ابن الحاجب أنَّه اقتبس في سائر المواضع المهمّة من شرح نجم الأئمّة الشيخ الإمام الرضي حشره الله مع النبيّ والوليّ، وأنَّه خصَّص في مقدّمات شرحه لديوان أمير المؤمنين عليه السلام المقدّمة السابقة لذكر شطر من مناقبه وفضائله الباهرة ومعجزاته، وأنَّه يخرج من الحروف المقطَّعة في أوَّل السور (علي صراط حقّ تمسكه)، والله أعلم بحاله.

مؤلّفاته:

١ _ شرح ديوان أمير المؤمنين عليه السلام بالفارسية، جعل له سبع مقدّمات علىٰ طريقة أهل التصوّف، رأينا منه نسخة مخطوطة بدمشق تاريخها سنة (٩٢٤هـ)، وهو مطبوع.

٢ _ جام گيتى نما، فارسي في الحكمة والفلسفة القديمة فرغ من تأليفه سنة (٨٩٧هـ). وقال صاحب (الرياض): إنَّ للمولىٰ حسين بن صدر الدين الطولي الاستاري حاشية عليه، وفي (معجم المطبوعات) أنَّه طُبِعَ في باريس مع ترجمته اللاتينية.

٣ _ شرح الكافي في النحو سمّاه مرضي الرضي.

* * *

(١) يعني (أعيان الشيعة).

(٤٤)
غياث الدين الدشتكي الشيرازي[1]

جاء في (الكنىٰ والألقاب): منصور بن الأمير صدر الدين الدشتكي الشيرازي، صاحب المدرسة المنصورية في شيراز المشتهر أمره في الفضل والفهم والشأن والقدر والمجد والفخر والاعتزاز، أوحد عصره في الحكمة والكلام، بل ألمعي زمانه في العلم بشرايع الإسلام، جامع المعقول والمنقول، حاوي الفروع والأُصول، يستفاد من بعض التواريخ أنَّه كان من جملة وزراء السلطان حسين ميرزا بايقرا التيموري.

قال صاحب مجالس المؤمنين بعد الإطراء في مدحه: فرغ من ضبط العلوم وهو في سنّ العشرين، وظهر في وجهه داعية البحث والجدل في المطالب العالية مع العلَّامة الدواني قبل هذه المرحلة بنحو من ستّ سنين، وكان له مدَّة من الأزمنة منصب الصدارة المطلقة علىٰ باب حضرة السلطان _ يعني به السلطان شاه طهماسب الصفوي بهادر خان _ إلىٰ أن قال: له من المصنَّفات كتاب حجَّة الكلام، عثرت علىٰ مبحث المعاد منه، شنَّع فيه كثيراً علىٰ أقاويل الغزالي، وله كتاب المحاكمات بين حواشي والده وحواشي العلاة الدواني علىٰ شرح التجريد، وكتاب المحاكمات بين حواشيهما علىٰ شرح المطالع وعلىٰ شرح العضدي علىٰ مختصر الأُصول، وله شرح هياكل الأنوار، وشرح رسالة أبيه في إثبات

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٥٤٥؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٤٦١؛ روضات الجنّات ٧: ١٧٦؛ طبقات أعلام الشيعة (إحياء الداثر): ٢٥٤؛ معجم أعلام المورد: ١٨٨؛ معجم المؤلِّفين ١٣: ١٩.

الواجب، وكتاب معالم الشفاء في الطبّ ومختصره المسمّىٰ بالشافية، والأخلاق المنصوري، إلىٰ غير ذلك من الكتب الكثيرة.

وفي كتاب (فلاسفة الشيعة) للشيخ عبد الله نعمة: الأمير منصور بن صدر الدين الشيرازي الحسيني الدشتكي، توفّي في شيراز عام (٩٤٨هـ).

هو من العلماء الذين ظهروا في القرن العاشر الهجري، واشتهر بالفلسفة والكلام والمنطق والفلك والرياضيات وغيرها، ومن الذين خلّفوا آثاراً قيّمة ومؤلّفات عديدة في أنواع المعرفة.

ويغلب علىٰ تفكيره الاتّجاه الإشراقي والعرفاني، كما يُفهَم ذلك من أسماء كتبه.

وجرت بينه وبين الدواني مناظرات قليلة بحضور والده الأمير صدر الدين، ممَّا حمله علىٰ تناول كثير من مؤلَّفات الدواني بالنقد والمناقشة، كما جرت بينه وبين المحقّق علي بن عبد العالي الكركي العاملي مناظرات انتهت بينهما إلىٰ المباعدة، وإلىٰ تخلّيه عن الصدارة في دولة السلطان شاه طهماسب الصفوي الذي أيّد جانب الكركي.

ومن تلاميذه المعروفين: سليمان القاري الفارسي.

أمَّا مؤلَّفاته فأكثرها في الفلسفة والكلام، ومنها:

١ _ حجَّة الكلام، عُثِرَ منه علىٰ بحث المعاد، وفيه تشنيع كثير علىٰ الغزالي.

٢ _ المحاكمات بين حواشي والده صدر الدين والدواني علىٰ شرح التجريد.

٣ _ المحاكمات بين حواشيهما علىٰ شرح المطالع.

٤ _ شرح هياكل النور، سمّاه إشراق هياكل النور.

٥ _ شرح رسالة والده في إثبات الواجب.

٦ _ كتاب تعديل الميزان، في المنطق.

٧ _ اللوامع والمعارج في الهيأة والفلك، وضعه في سنّ مبكّرة.

٨ _ كتاب التجريد في الحكمة.

٩ _ معالم الشفاء في الطبّ، وقد اختصره وسمّاه الشافية.

١٠ _ السفير في الهيأة.

١١ _ الحاشية علىٰ إلهيات الشفاء لابن سينا، في الحكمة.

١٢ _ الحاشية علىٰ شرح الإشارات، في الفلسفة.

١٣ _ الحاشية علىٰ شرح حكمة العين.

١٤ _ كتاب في الردّ علىٰ حاشية الدواني علىٰ الشمسية في المنطق.

١٥ _ الردّ علىٰ حاشية الدواني والتهذيب والردّ علىٰ أُنموذج العلوم وعلىٰ رسالة الزوراء وكلّها للدواني.

١٦ _ المنصوري، وهو كتاب في الأخلاق.

١٧ _ رسالة في تحقيق الجهات.

١٨ _ رسالة المشارق في إثبات الواجب.

١٩ _ حاشية علىٰ أوائل الكشّاف.

٢٠ _ تفسير سورة هل أتىٰ.

٢١ _ كتاب مثالات العارفين، في التصوّف.

٢٢ _ كتاب آخر في التصوّف والأخلاق، كتبه باسم شرف الدين علي.

٢٣ _ رسالة قانون السلطنة.

٢٤ _ كتاب رياض الرضوان، ولعلّه في العرفان والأخلاق.

٢٥ _ الأساس في علم الهندسة.

* * *

(٤٥)

أبو الحسن الأبيوردي[1]

في (أعيان الشيعة)[2] تأليف السيّد محسن الأمين العاملي: المولىٰ أبو الحسن ابن المولىٰ أحمد الأبيوردي الأصل القاشاني المسكن، وفي (الذريعة) القايني بدل القاشاني. توفّي يوم الأحد (٢٦) رمضان سنة (٩٦٦هـ)، كذا عن أحسن التواريخ لحسن بيك روملو.

أقوال العلماء فيه:

في (رياض العلماء): هو المولىٰ الجليل الفاضل العالم الفقيه المتكلِّم المعروف في دولة الشاه طهماسب الصفوي، وكان هذا المولىٰ والمولىٰ ميرزا جان السُّنّي علىٰ ما ذكر في ترجمة السيّد الأمير غياث الدين منصور يأخذان أكثر المطالب من كلام ذلك السيّد ويسرقان من كتبه.

وقال حسن بيك في أحسن التواريخ ما معناه: كان المترجَم من أفاضل الأوان وأعلم علماء الزمان، وجامعاً للعلوم وأقسام الحكميات، مستجمعاً لأنواع الفضائل والكمالات، وكان لعلوّ فطرته حسن الطبع ظريفاً في الغاية لا نظير له في ذلك ولا عديل له في حسن العبارة، وقد

---

(١) أعيان الشيعة ٦: ٢٨٨؛ طبقات أعلام الشيعة (إحياء الداثر): ١٤٤ وفيه أبو الحسن علي بن أحمد الأبيوردي.

(٢) أعيان الشيعة ٢: ٣٢٢/ الرقم ١٤٤٠.

شنَّف آذان الأيّام وقلَّد أعناقها بجواهر فضائله، وكان لحدَّة فهمه وسرعة انتقاله لا يقدر أحد علىٰ مباحثته، قرأت عليه شرح التجريد وجملة من مؤلَّفاته.

وفي (الذريعة): المولىٰ أبو الحسن بن أحمد الشريف القائني[1] المعاصر للشاه طهماسب الصفوي وأُستاذ السيّد حسين بن حيدر بن قمر الكركي والمجيز له.

مؤلَّفاته:

في (الرياض): له مؤلَّفات جيّدة، منها:

١ _ روض الجنان أو روضة الجنان في الكلام والحكمة العقلية مشهورة، وقد صرَّح في ديباجته بتشيّعه، وللأمير فخر الدين السماكي حاشية علىٰ مبحث إثبات الواجب منه يلوح منها أنَّ السماكي المذكور معاصر له أو قريب من عصره، ويردّ السماكي فيها عليه كثيراً.

٢ _ رسالة سمّاها الحسنىٰ في الحكمة الطبيعية اختصرها من روض الجنان المذكور.

٣ _ شرح علىٰ رسالة الفرائض للخواجة نصير الدين الطوسي مخروج بالمتن، رأيته فرغ من تسويده في المحرَّم سنة (٩٦٢هـ) معروف حسن الفوائد.

٤ _ رسالة فارسية مختصرة في مقدار الديّات وأحكامها، ألَّفها بأمر سلطان عصره، رأيتها.

٥ _ رسالة في إثبات الواجب وصفاته، كبيرة الحجم، رأيتها فرغ

---

(١) هذا متأخّر عن المترجَم له وإن توافقا في الاسم.

منها في أواخر ربيع الأوَّل سنة (٩٦٤هـ)، وهي رسالة حسنة لكنَّه عبَّر فيها عن نفسه بأبي الحسن الشريف، وقال غيره فرغ منها (١٥) ربيع الأوَّل سنة (٩٦٦هـ)، قال: ولعلَّها الرسالة في أُصول الدين التي أَلَّفها بأمر إحدىٰ بنات الشاه طهماسب الصفوي.

قال المؤلِّف[1]: الرسالة المذكورة أسماها أركان الإيمان في الإمامة، وألَّفها بأمر بنت الشاه طهماسب بالفارسية، وهي جيّدة رأيت منها نسخة في كرمانشاه عبَّر فيها عن نفسه بأبي الحسن الشريف وتاريخ كتابتها (١٠١٣هـ) كتب علىٰ ظهرها هذه الرسالة المسمّاة بأركان الإيمان من مؤلَّفات العالم المحقّق المدقّق مولانا أبو الحسن القاشاني، انتهىٰ.

وذكر في خطبتها ما تعريبه أنَّه صدر الأمر اللازم والإذعان من سرادق صاحبة العزَّة والعصمة والسلطنة والسيادة مقام النوّاب المستطاب شمس الاحتجاب مريم الزمان وبلقيس الدوران وخديجة الأوان، وهاجر الثانية شاهزادة سلطانم، خلَّد الله ملكها وسيادتها وعصمتها إلىٰ يوم الساعة وساعة القيام.

وفي (الذريعة): إنَّ رسالة أركان الإيمان أَلَّفها بأمر الشاه طهماسب الصفوي، فرغ منها (٢٨) ربيع الأوَّل سنة (٩٦٤هـ)، وذكر أنَّه كتب النسخة وهو في معسكر الشاه.

ويوشك أن يكون وقع اشتباه بين الرسالة التي أَلَّفها بأمر الشاه طهماسب والتي أَلَّفها بأمر ابنته، وأن تكون المؤلَّفة بأمر الشاه فرغ منها (١٥) ربيع الأوَّل سنة (٩٦٦هـ) وهي سنة وفاته، والتي بأمر ابنته فرغ منها (٢٨) ربيع الأوَّل سنة (٩٦٤هـ).

---

(١) يعني صاحب (أعيان الشيعة).

٦ _ رسالة في المنطق.

٧ _ الشوارق في الكلام.

٨ _ حاشية علىٰ بعض الكتب الكلامية.

٩ _ رسالة في حلّ أشكال الشكل الخامس عشر من المقالة الثالثة من تحرير أقليدس، وهذه لم يذكرها صاحب الرياض.

* * *

(٤٦)

الأمير نظام الدين عبد الحي بن عبد الوهّاب الحسيني الأشرفي الجرجاني[١]

في (أعيان الشيعة)[٢]: السيّد الأمير نظام الدين عبد الحي بن عبد الوهّاب بن علي الحسيني الأشرفي الجرجاني قاضي هراة، كان قاضياً بهراة سنة (٩٣٠هـ)، عالم فاضل حكيم متكلِّم فقيه أديب، من علماء دولة الشاه طهماسب الصفوي، له مصنَّفات في المنطق والكلام والحكمة والفقه، منها:

١ _ شرح علىٰ ألفية الشهيد كبير.

٢ _ شرح متوسّط.

٣ _ رسالة المعضلات، وهي في إشكالات العلوم الحكمية والفقهية.

٤ _ حاشية علىٰ شرح الشمسية.

٥ _ حاشية علىٰ حاشية السيّد الشريف.

٦ _ حاشية علىٰ شرح هداية المبتدي، وغير ذلك.

سكن مدَّة في هراة ومدَّة في كرمان ومدَّة في أسترآباد، ترجمه في أواخر حبيب السير، ووالده السيّد الجليل الأمير عبد الوهّاب أيضاً من

(١) أعيان الشيعة ٣٧: ١٥٦؛ طبقات أعلام الشيعة (إحياء الداثر): ١١٩؛ معجم المؤلِّفين ٥: ١٠٨.

(٢) أعيان الشيعة ٧: ٤٥٨/ الرقم ١٥٠١.

العلماء الفضلاء والفقهاء، كان قاضياً في جرجان ومن مصنَّفاته شرح الفصول النصيرية في أُصول الدين، وحاشية علىٰ شرح الهداية الأثيرية، وشرح قصيدة البردة بالفارسية.

* * *

(٤٧)

الشيخ شمس الدين محمّد بن علي بن إبراهيم بن الحسن بن أبي جمهور الأحسائي[١]

في (أعيان الشيعة)[٢] نقلاً عن (رياض العلماء) ما ملخَّصه: هو الفقيه الحكيم الفيلسوف المتكلِّم المحدِّث الصوفي المعاصر للكركي، تلميذ علي بن هلال الجزائري، له مؤلَّفات، منها:

١ _ كتاب عوالي اللئالي.

٢ _ كتاب نثر اللئالي.

٣ _ كتاب المجلي في مرآة المنجي في العرفان والتصوّف والأخلاق.

٤ _ معين الفكر في شرح الباب الحادي عشر.

وهو ذو فضائل جمّة لكن التصوّف الغالي المفرط قد أبطل حقّه، وذكره الاسترابادي في الفوائد المدنية، والمجلسي في إجازات البحار، والحرّ في موضعين من أمل الآمل.

وقد يُطلَق ابن جمهور علىٰ أبي الحسن علي بن محمّد بن جمهور صاحب كتاب الواحدة المعروف.

* * *

(١) أعيان الشيعة ٤: ٥٣؛ طبقات أعلام الشيعة (إحياء الداثر): ٢١٣؛ روضات الجنّات ٧: ٢٦؛ أمل الآمل ٢: ٢٥٣؛ الكنىٰ والألقاب ١: ١٨٧؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ١٥؛ معجم المؤلِّفين ١٠: ٢٩٩.

(٢) أعيان الشيعة ٩: ٤٣٤/ الرقم ١٠٤٣.

حكماء القرن الحادي عشر

(٤٨)

السيّد محمّد باقر الداماد[1]

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٣٩٤): بينما كان الانحطاط السياسي والاجتماعي يخيّمان علىٰ أرجاء الدنيا الإسلاميّة، ويطغي علىٰ آفاقها ظلام دامس، بعد أن انحسر العلم والنشاط الفكري عن أكثر العواصم الإسلاميّة، بما منيت به من أحداث دامية ونوازل عاصفة، حين لم يتكلَّم فيها إلَّا الدم والسيف، ممَّا كان عاملاً قويَّاً للفقر الذريع الذي أُصيبت به البلاد الإسلاميّة برجالات العلم والفكر.

بينما كان الركود العلمي والفكري جاثماً علىٰ صدر العالم الإسلامي في ذلك العصر الذي سمّي بحقّ عصر الفترة، كانت هناك واحات لا تزال مخضوضرة بالمعرفة والثقافة، يخصب فيها الفكر، ويعطي إنتاجاً رائعاً.

وقد تبعثرت تلك الواحات هنا وهناك، وكان لإيران وجبل عامل النصيب الأكبر منها، وقد انطلقت منهما طاقات الفكر الإنساني في يقظة علمية رائعة في مختلف ميادين الثقافة، ممَّا جعلتهما غنيّة إلىٰ حدٍّ بعيد برجالات كبار، كانوا قوّاد القافلة العلمية المنطلقة، وظهر في هذا الدور

(١) أعيان الشيعة ٤٤: ١١٣؛ معجم المؤلِّفين ٩: ٩٣، ١١: ١٩٦؛ فلاسفة الشيعة: ٣٩٤؛ روضات الجنّات ٢: ٦٢؛ أمل الآمل ٢: ٢٤٩؛ سلافة العصر: ٤٧٧؛ لؤلؤة البحرين: ١٣٢؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٤١٩؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٢٠٦؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٦٧.

عدد وفير من العلماء النابغين من الشيعة الإمامية في جميع المعارف والفنون، ازدهر بهم العلم وأعشب بهم الفكر، وأفادوا أجيالهم، بما أعطوه من مدد علمي وفكري.

ولعلَّه من أبرز هؤلاء العلماء محمّد باقر الحسيني الاسترابادي المعروف بـ (الداماد)، فقد كان من أئمّة الحكمة والفلسفة، والكلام والفقه، والآثار وغيرها. ظهر في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للهجرة، شخصية علمية مرموقة، في جوانب الفلسفة والمنطق والتشريع وغيرها.

وقد نعته الخونساري في الروضات بقوله: (المتكلِّم الحكيم...، من أجلَّاء علماء المعقول والمشروع...، وكان إماماً في فنون الحكمة والأدب...، الماهر في التعليقات...).

ووصفه الحرّ العاملي في (الأمل)[1]، فقال: (... عالم فاضل جليل القدر، حكيم متكلِّم ماهر في العقليات، معاصر لشيخنا البهائي، وكان شاعراً بالفارسية والعربية مجيداً...).

وقد نال حظوة كبيرة لدىٰ ملوك إيران الصفويين، وجاهاً عريضاً، وكان بينه وبين البهائي العاملي من التآخي والخلطة والصداقة ما يندر وجود مثله بين عالمين متعاصرين، وجدا في مكان واحد، ومقرَّبين من البلاط الصفوي.

وهو من تلاميذ الحسين بن عبد الصمد العاملي والد البهائي. وقد تخرَّج علىٰ يديه جملة من الفلاسفة الكبار منهم: الفيلسوف صدر المتألّهين الشيرازي صاحب الأسفار. وكان متعبّداً مكثاراً من تلاوة كتاب الله،

---

(١) أمل الآمل ٢: ٢٤٩/ الرقم ٧٣٤.

مواظباً علىٰ أداء النوافل، لم يفته شيء منها منذ أن بلغ سنّ التكليف حتَّىٰ مات سنة (١٠٤١هـ) في النجف ودُفِنَ هناك، انتهىٰ.

قال المدني في سلافة العصر (ص ٤٨٥): الأمير محمّد باقر بن محمّد الشهير بالداماد. طرّاز العصابة، وجوّاز الفضل سهم الإصابة، الرافع بإحسان الصفات أعلامه، فسيّد وسند وعلم وعلّامة، إكليل جبين الشرف وقلادة جيده، الناطقة سنّ الدهور بتعظيمه وتمجيده، باقر العلم ونحريره، الشاهد بفضله تقريره وتحريره، والله إنَّ الزمان بمثله لعقيم، وإنَّ مكارمه لا يتَّسع لبثّها صدر رقيم، وأنا بريئ من المبالغة في هذا المقال، وبرّ قسمي يهد به كلّ وامق، وقال:

وإذا خفيت علىٰ الغبيّ فعاذر ... أن لا تراني مقلة عمياء

إن عُدَّت الفنون فهو منارها الذي يهتدىٰ به، أو الآداب فهو مؤمّلها الذي يتعلَّق بأهدابه، أو الكرم فهو بحره المستعذب النهل والعلل، أو النسيم فهو حميدها الذي يدبّ منه نسيم البرء في العلل، أو السياسة فهو أميرها الذي تجمّ منه الأُسود في الأجم، أو الرياسة فهو كبيرها الذي هاب تسلّطه سلطان العجم.

وكان الشاه عبّاس أضمر له السوء مراراً، وأمرَّ له حبل غيلته إمراراً، خوفاً من خروجه عليه، وفرقاً من توجّه قلوب الناس إليه، فحال دونه ذو القوَّة والحول، وأبىٰ إلَّا أن يتمّ عليه المنَّة والطول، ولم يزل موفور العزّ والجاه، مالكاً سبيل الفوز والنجاة، حتَّىٰ استأثر به ذو المنَّة، وتلا بآيتها النفس المطمئنة، فتوفّي في سنة إحدىٰ وأربعين وألف.

ومن إنشائه البديع الأُسلوب، الآخذ بمجامع القلوب، ما كتبه إلىٰ الشيخ بهاء الدين مراجعاً رحمهما الله:

(لقد هبت ريح الأُنس من سمت القدس، فأتتني بصحيفة منيفة كأنَّها بفيوضها بروق العقل بوموضها، وكأنَّها بمطاويها أطباق الأفلاك بدراريها، وكأنَّ أرقامها بإحكامها أطباق الملك والملكوت بنظامها، وكأنَّ ألفاظها برطوباتها أنهار العلوم بعذوباتها، وكأنَّ معانيها بأفواجها بحار الحقّ بأمواجها، وأيم الله إنَّ طباعها من تنعيم، وإنَّ مزاجها من تسنيم، وإنَّ نسيمها لمن جنّات الرمضوت، وإنَّ رحيقها لمن دفاق الملكوت، فاستقبلتها القوىٰ الروحية، وبرزت إليها القوَّة العقلية، ومدَّت إليها فطنة صوامع السرّ أعناقها من كوىٰ الحواسّ وروزاة المدارك وشبابيك المشاعر، وكادت حمامة النفس تطير من وكرها شغفاً واهتزازاً، وتستطار إلىٰ عالمها شوقاً وهزازاً، ولعمري لقد تروّيت، ولكنّي لفرط ظمائي ما ارتويت:

شربت الحِب كأساً بعد كأس فما نفد الشراب ولا رويت

فلا زالت مراحمكم الجليلة، مدركة للطالبين، بأضواء الأعطاف العلية، ومروية للظامئين بجرع الألطاف الخفية والجلية، ثمّ إنَّ صورة مراتب الشوق والإخلاص التي هي وراء ما يتناهي بما لا يتناهي أظنّها هي المنطبعة كما هي عليها في خاطركم الأقدس الأنور الذي هو لأسرار عوالم الوجود كمرآة مجلوة، ولغوامض أفانين العلوم ومعضلاتها كمصفاة مطحوة، وإنَّكم لأنتم بمزيد فضلكم المؤمّلون لإمرار المخلص علىٰ حواشي الضمير المقدَّس المستنير، عند صوالح الدعوات السانحات في منية الاستجابة، ومنَّة الإجابة، بسط الله ظلالكم، وخلَّد مجدكم وجلاله، والسلام علىٰ جنابكم الأرفع الأبهىٰ، وعلىٰ من يلوذ ببابكم الأسمىٰ، ويعكف بفنائكم الأوسع، ورحمة الله وبركاته أبداً سرمداً).

ومن غريب رسائله رسالته الخليعة، وهي ممّا يدلُّ علىٰ تألّه سريرته وتقدّس سيرته وصورتها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد كلّه لله ربّ العالمين، وصلاته علىٰ سيّدنا محمّد وآله الطاهرين: كنت ذات يوم من أيّام شهرنا هذا، وقد كان يوم الجمعة سادس عشر شهر رسول الله شعبان المكرَّم، لعام ثلاث وعشرين وألف من هجرته المقدَّسة، في بعض خلواتي، أذكر ربّي في تضاعيف أذكاري وأورادي باسمه الغني، فأُكرِّر يا غني يا مغني مشدّدها بذلك عن كلّ شيء إلَّا عن التوغّل في حريم سرّه، والإمحاء في شعاع نوره، وكأنَّ خاطفة قدسية قد ابتدرت إليَّ فاجتبتني من الوكر الجثماني، ففكَّكت حلق شبكة الحسّ، وحلَّلت عقد حبالة الطبيعة، وأخذت أطير بجناح الروح في وسط ملكوت الحقيقة، وكأنّي قد خلعت بدني ورفضت عدني، وموقت خلدي، ونضوت جسدي، وطويت إقليم الزمان وصرت إلىٰ عالم الدهر، فإذا أنا بمصر الوجود بجماجم أُمم النظام الجملىٰ من الإبداعيات والتكوينيات والإلهيات، والطبيعيات والقدسيات والهيولانيات، والدهريات والزمنيات، وأقوام الكفر والإيمان، وإرهاق الجاهلية والإسلام، من الدارجين والدارجات، والغابرين والغابرات، والسالفين والسالفات، والعاقبين والعاقبات، في الآزال والآباد، وبالجملة آحاد مجامع الإمكان، ودارت عوالم الإمكان بقضّها وقضيضها، وصغيرها وكبيرها، بإثباتها وبإبدائها حاليات وافياتها، وإذا الجميع زفَّة زفَّة وزمرة زمرة يجذبهم قاطبة معاملون، وجوه ماهياتهم شطر بابه سبحانه شاخصون بأبصار نيّاتهم تلقاء جنابه جلَّ سلطانه من حيث لا يعلمون، وهم جميعاً بألسنة فقر ذواتهم الفاخرة،

وألسن فاقة هوياتهم الهالكة، في صحيح الضراعة وصراخ الابتهال، ذاكروه وداعوه ومستصرخوه ومنادوه، بيا غني يا مغني من حيث هم لا يشعرون، فطفقت في تلك الضجَّة العقلية، والصرخة الغيبية، أخرُّ مغشيّاً عليَّ، وكدت من شدَّة الوله والدهش أنسىٰ جوهر ذاتي العاقلة، وأغيب عن بصر نفسي المجرَّدة، وأُهاجر ساهرة أرض الكون وأخرج من صقع قطر الوجود رأساً، إذ قد ودَّعتني تلك الخلسة الخالسة حيناً حيوناً إليها، وخطفتني تلك الخاطفة تائقاً لهوفاً عليها، فرجعت إلىٰ أرض التيّار، وكورة البوار، وبقعة الزور، وقرية الغرور تارة أُخرىٰ)، هذا منتهىٰ الرسالة المذكورة، والله سبحانه أعلم.

قال القمّي في (الكنىٰ والألقاب): السيّد الأجل محمّد باقر بن محمّد الحسيني الاسترابادي المعروف بالمير الداماد. المحقّق المدقّق العالم الحكيم، المتبحّر النقّاد، ذو الطبع الوقّاد الذي حلىٰ بعقود نظمه وجواهر نثره عواطل الأجياد، وسبق بجواد فهمه الصافنات الجياد. سُمّي الداماد لأنَّ والده كان صهراً للمحقّق الثاني رضوان الله عليه، فيُدعىٰ داماداً، ثمّ انتقل هذا اللقب إلىٰ ولده.

له من المؤلَّفات: القبسات، والرواشح السماوية، والصراط المستقيم، والحبل المتين، وشارع النجاة، وشوابط الرضاع، وغير ذلك من الكتب الكثيرة، وله حواش علىٰ الكافي والفقيه، والصحيفة السجّادية وغير ذلك، وله ديوان شعر بالعربية والفارسية.

ومن شعره في أمير المؤمنين عليه السلام:

كالدرّ ولدت بإيهام الشرف ... في الكعبة واتّخذتها كالصدف
فاستقبلت الوجوه شطر الكعبة ... والكعبة وجهها تجاه النجف

وحكي أنَّه لم يأو بالليالي إلىٰ فراشه للاستراحة مدَّة أربعين سنة، ولم تفت منه رحمه الله نوافله مدَّة تكليفه.

ذهب في آخر عمره الشريف من أصبهان بمرافقة السلطان شاه صفي المرحوم إلىٰ زيارة العتبات، فمات رحمه الله هناك وذلك في سنة (١٠٤١هـ) ودُفِنَ في النجف الأشرف، وقيل: سنة (١٠٤٠هـ).

قيل في تاريخ وفاته: (عروس علم دين را مرده داماد ١٠٤٠).

وعن حدائق المقرَّبين للمير محمّد صالح أنَّه كان متعبّداً في الغاية، مكثاراً لتلاوة كتاب الله المجيد، بحيث ذكر بعض الثقاة أنَّه كان يقرأ كلّ ليلة خمسة عشر جزءاً من القرآن الكريم.

وفي (أعيان الشيعة)[1]: السيّد محمّد باقر بن المير شمس الدين محمّد الحسيني الاسترابادي الأصل، المعروف بالمير الداماد. توفّي سنة (١٠٤١هـ) في النجف لـمَّا جاء لزيارة مشاهد العراق مع الشاه صفي الصفوي.

(الداماد) بالفارسية الصهر، ولُقِّبَ بذلك لأنَّ أباه كان صهر الشيخ علي بن عبد العال الكركي، ولُقِّبَ هو بذلك بعد أبيه.

كان فيلسوفاً رياضياً متفنّناً في جميع العلوم الغريبة، شاعراً بالعربية والفارسية، ويتخلَّص بـ (إشراق)، وكان مقرَّباً جدَّاً لدىٰ الشاه عبّاس الصفوي، ومعاصراً للشيخ البهائي...

له آثار باقية في الحكمة وأُصول الدين والفقه وغيرها، وعباراته في بعض مؤلَّفاته غير خالية من التعقيد، وقد يستعمل في عناوين كلامه ألفاظاً تفرد باستعمالها بحال شبيه بالتقعّر، فيقول في رسالة الرضاع:

---

(١) أعيان الشيعة ٩: ١٨٩/ الرقم ٤٢٠.

(استوجب حقّ صون الدين عن تحريف الغالين استجداد الكشط واستحفاء الفحص في تقدمة واستنبابات ثلاث وتختمة).

ويقول في بعض عناوينه: (ضابط وفيصل، ضابطة وتثبيت). وفي بعضها: (ذيالة فيها مقالة، ذنابة، ضابطة إحصائية، شكّ وضابطة، بحث تفصيلي وضابط تحصيلي، ضابطة تلخيصية لحاقة)، انتهىٰ.

وفي المجلد الثالث من كتاب أعلام العرب (ص ٩٦/ ط الثانية): الأمير محمّد باقر... الحسيني الاسترابادي الشهير بالداماد، الحكيم المتكلِّم الجليل...، عاش أيّام سلطنة الشاه عبّاس الصفوي، وبلغ من سموّ المكانة والتقدّم في مجالي السياسة والرياسة، وميل الناس إليه، وإقبالهم عليه، ما جعل الشاه المذكور يهابه ويحذر منه فرقاً من امتداد تأثيره، وقد بالغ في الثناء عليه كلّ من ترجم له...

كان السيّد معدوداً من فطاحل علماء الحكمة والفلسفة، والمتبحّرين في العلوم العقلية والنقلة، وكان مع ذلك شاعراً بالعربية والفارسية، وله مصنَّفات مهمّة جليلة كثيرة...

وأكثر من ذكر في ترجمته صاحب (روضات الجنّات)، فقد قال: السيّد البارع المتكلِّم الحكيم، والأيد الجامع المتتبّع الفهيم، مير محمّد باقر بن السيّد الفاضل العماد وسليل الأمجاد شمس الدين محمّد الحسيني الاسترابادي الأصل الشهير بداماد، والمتخلّص في مضامير الشعر بالإشراق.

كان رحمه الله من أجلَّاء علماء المعقول والمشروع، وأذكياء نبلاء الأُصول والفروع، متقدّماً بشعلة ذهنه الوقّاد وفهمه المتوقّد النقّاد علىٰ كل متبحّر أُستاذ، ومتفنّن مرتاد، صاحب منزلة وجلال وعظمة وإقبال،

عظيم الهيبة فخيم الهيأة سريع الحِمَّة، جليل المنزلة والمقدار جزيل الموهبة والإيثار، بدار السلطنة أصفهان، مقدَّماً علىٰ فضلائها الأعيان، مقرَّباً عند السلاطين الصفوية بل مؤدّبهم بجميل الآداب الدينية، مواظباً للجمعة والجماعات، مطاعاً لقاطبة أرباب المناعات، إماماً في فنون الحكمة والأدب، مطلعاً علىٰ أسارير كلمات العرب، خطيباً قلَّ ما يوجد مثله في فصاحة البيان وطلاقة اللسان، أديباً لبيباً فقيهاً نبيهاً عارفاً ألمعياً كأنّما هو إنسان العين وعين الإنسان.

وكان والده المبرور ختن شيخنا المحقّق علي بن عبد العالي الكركي ﵀، فخرجت هذه الدرَّة اليتيمة من صدف تلك الحرَّة الكريمة، وطلعت هذه الطلعة الرشيدة من أُفق النجمة السعيدة، ولُقِّبَ الوالد في ضمن صهره المشار إليه بالتعظيم بالداماد الذي هو بمعنىٰ الختن بالفارسية، ثمّ غلب عليه وعلىٰ ولده من بعده ذلك اللقب الشريف، ولقِّب هو نفسه بذلك كما في بعض المواضع...

وكان من قرناء شيخنا البهائي... وكان بينهما أيضاً خلطة تامّة ومواخاة عجيبة قلَّ ما يوجد نظيرها في سلسلة العلماء ولاسيّما المعاصرين منهم.

فقد نقل أنَّ السلطان شاه عبّاس ركب يوماً علىٰ بعض منتزهاته، وكان الشيخان المذكوران أيضاً في موكبه المبارك لما أنَّه كان لا يفارقهما غالباً، وكان سيّدنا المبرور بديناً عظيم الجثَّة، بخلاف شيخنا البهائي فإنَّه كان نحيف البدن في غاية الهزال، فأراد السلطان أن يختبر صفاء الخواطر فيما بينهما، فجاء إلىٰ سيّدنا المبرور وهو راكب فرسه في مؤخّر الجمع وقد ظهر عليه الإعياء والتعب لغاية ثقل جثّته، وكان جواد الشيخ ﵀ في مقدَّم الخيل يهرول كأنَّما لم يُحمَل عليه شيء.

فقال السلطان للسيّد: يا سيّدنا، ألَا تنظر إلىٰ هذا الشيخ في المقدَّم كيف يهرول ويسرع بجواده ولا يمشي علىٰ وقار بين هذا الجمع مثل جنابك المتأدّب المتين؟

فقال له السيّد: أيّها الملك، إنَّ جواد شيخنا لا يستطيع أن يتأنّي بجريه من شغف ما حُمِلَ عليه، ألَا تعلم من ذا الذي ركبه؟

فأخفىٰ الملك ذلك القول في نفسه، فتركه وأُقيل في سيره حتّىٰ حاذىٰ الشيخ البهائي في مجال السير.

فقال له: يا شيخنا، ألَا تنظر إلىٰ خلفك كيف أتعب جثمان السيّد الجواد وأورده من غاية سمنه في العيّ والنصب، والعالم المطاع لا بدَّ أن يكون مثلك مرتاضاً خفيف المؤنة.

فقال البهائي: لا أيّها الملك، بل الظاهر في وجه الفرس من عجزه عن تحمّل حمل العلم الذي تعجز عن حمله الجبال الرواسي علىٰ صلابتها.

فلمّا رأىٰ السلطان تلك الأُلفة التامّة والمودَّة الخالصة والصفاء بين عالمي عصره، نزل من ظهر دابته بين الجمع وسجد لله تعالىٰ شكراً وعفَّر وجهه في التراب شكراً علىٰ هذه النعمة العظيمة، فأكرم به من ملك كامل وسلطان عادل، وبهما من عالمين صفيّين ومخلصين رضيّين.

مؤلَّفاته:

وللداماد مؤلَّفات كثيرة في الفلسفة والحكمة الإشراقية، والكلام والهندسة، والشريعة والتفسير، والحديث وسوىٰ ذلك، ومن كتبه:

١ _ القبسات في الحكمة، مطبوع.

٢ _ الصراط المستقيم، في الحكمة أيضاً.

٣ _ الحبل المتين، في الحكمة أيضاً.

٤ _ كتاب خلسة الملكوت.

٥ _ كتاب تقويم الإيمان.

٦ _ كتاب الأُفق المبين في الحكمة الإلهية.

٧ _ الرواشح السماوية.

٨ _ الإيماضات والتشريفات في حدوث العالم وقِدَمه.

٩ _ الجمع والتوفيق بين رأيي الحكيمين في حدوث العالم.

١٠ _ رسالة في حدوث العالم ذاتاً وقِدَمه زماناً، انتصر فيه لأرسطو علىٰ أفلاطون، وانتقد فيه علىٰ الفارابي لجمعه بين الرأيين، طُبِعَت في حاشية كتابه (القبسات).

١١ _ اللوامع الربّانية في ردّ شبه النصرانية.

١٢ _ المجذورات، بالفارسية.

١٣ _ رسالة في المنطق.

١٤ _ رسالة في تحقيق مفهوم الوجود.

١٥ _ كتاب السبع الشداد، في فنون من العلوم، طُبِعَ في إيران.

١٦ _ رسالة في فنون العلوم والصناعات.

١٧ _ سدرة المنتهىٰ.

١٨ _ رسالة في خلق الأعمال.

١٩ _ نبراس الضياء في تحقيق معنىٰ البداء.

٢٠ _ عيون المسائل، لم يتمّ.

٢١ _ تفسير القرآن.

٢٢ _ شرح الاستبصار، في الحديث.

٢٣ _ رسالة في الجبر والتفويض، في نفيهما وإثبات الأمر بين

الأمرين، توجد منه مخطوطة في المكتبة الرضوية ضمنها رسالة في الموضوع نفسه لملّا محسن الفيض الكاشاني، وأُخرىٰ لصدر المتألّهين.

٢٤ _ رسالة في إبطال الزمان الموهوم، وقد ردَّ عليها جمال الخونساري، وكتب الحكيم الخاجوئي رسالة في الردّ علىٰ الخونساري.

٢٥ _ رسالة في جيب الزاوية.

* * *

(٤٩)

صدر المتألّهين الشيرازي[1]

رجل العلم والفضيلة، البطل المقدام في ميادين العلم والمعرفة، سيّد نوابغ العالم، أُسوة الحكماء والمتألّهين محمّد بن إبراهيم الشيرازي، المشتهر بصدر الدين وصدر المتألّهين.

قال القمّي في (الكنىٰ والألقاب): محمّد بن إبراهيم الشيرازي، الحكيم المتألّه المعروف، كان عالم أهل زمانه في الحكمة، متقناً لجميع الفنون، كما قال صاحب السلافة. له الأسفار الأربعة، وشرح الكافي، وتفسير بعض السور القرآنية، وكسر الأصنام الجاهلية، وشواهد الربوبية، وغير ذلك، توفّي بالبصرة وهو متوجّه إلىٰ الحجّ سنة (١٠٥٠هـ)، يروي عنه المولىٰ المحقّق محسن الكاشاني، وهو يروي عن المحقّق الداماد، والشيخ البهائي، قال صاحب نخبة المقال في تاريخه:

ثمّ ابن إبراهيم صدر الأجلّ　　　في سفر الحجّ مريض (١٠٥٠) ارتحل
قدوة أهل العلم والصفاء　　　يروي عن الداماد والبهائي

(١) سلافة العصر: ٤٩١؛ الفوائد الرضوية: ٣٧٨؛ أعيان الشيعة ٤٥: ٩٩؛ معجم المؤلّفين ٨: ٢٠٣؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٢٩١؛ فلاسفة الشيعة: ٣٤٦؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٥٢؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٣٧٧؛ معجم أعلام المورد: ٢٦٦؛ أمل الآمل ٢: ٢٣٣؛ لؤلؤة البحرين: ١٣١.

وفي (أعيان الشيعة)(١): المولىٰ صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي القوّامي، المشهور علىٰ لسان الناس بـ (الملّا صدرا)، وعلىٰ لسان تلامذة مدرسته بـ (صدر المتألّهين) أو (صدر المحقّقين).

هو من عظماء الفلاسفة الإلهيين الذين لا يجود بهم الزمن إلَّا في فترات متباعدة من القرون، وهو المدرِّس الأوَّل لمدرسة الفلسفة الإلهية في القرون الثلاثة الأخيرة في البلاد الإسلاميّة الإماميّة، والوارث الأخير للفلسفة اليونانية والإسلاميّة، والشارح لهما والكاشف عن أسرارهما، ولا تزال الدراسة عندنا تعتمد علىٰ كتبه، لاسيّما (الأسفار) الذي هو القمَّة في كتب الفلسفة قديمها وحديثها، والأُمّ لجميع مؤلَّفاته هو.

وكلّ من جاء بعده من الفلاسفة في هذه البلاد فإنَّ فخر المجلي منهم أن يقال عنه: إنَّه يفهم أسرار كلامه، أو أنَّه من تلاميذه ولو بالواسطة.

ومن الطريف حقَّاً أن نجد أساتذة فنّ العقول _ كما يسمّونه _ يفتخرون باتّصالهم به في سلسلة التلمذة، حتَّىٰ أنَّ بعضهم يبالغ في أسماء أشخاص هذه السلسلة، كالعناية بسلسلة رواية الحديث.

وأكثر من ذلك أنَّ المحقّق الحجّة الشيخ محمّد حسين الأصفهاني... سمعت عنه أنَّه كان يقول: (ولو أعلم أحداً يفهم أسرار كتاب الأسفار، لشددت إليه الرحال للتلمذة عليه وإن كان في أقصىٰ الديار).

وكأنَّه يريد أن يفتخر أنَّه وحده بلغ درجة فهم أسراره، أو أنَّه بلغ درجة من المعرفة أدرك فيها عجزه عن اكتناه مقاصده العالية.

---

(١) أعيان الشيعة ٩: ٣٢١/ الرقم ٦٨٩.

وأزيدك أنّي من المؤمنين بأنَّ صدر المتألّهين أحد أقطاب أربعة في الدورة الإسلاميّة، هو والمعلِّم الثاني أبو النصر الفارابي المتوفّىٰ في حدود (٣٠٤هـ)، والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٣ _ ٤٢٧هـ)، والخواجة نصير الدين محمّد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ _ ٦٧٣هـ)، هؤلاء هم في الرعيل الأوَّل وهم الأُصول للفلسفة، والمترجَم خاتمتهم، والشارح لآرائهم، والمروِّج لطريقتهم، والأُستاذ الأكبر لفنّهم، ولولا خوف المغالاة لقلت: هو الأوَّل من بينهم في الرتبة العلمية، لاسيّما في المكاشفة والعرفان.

والرجل نشأ مطارداً منقوماً عليه، حتَّىٰ كان يقول عن نفسه: (ما كان له رتبة أدنىٰ من آحاد طلبة العلم)، ولكنَّه في أيّامه الأخيرة أقبل الناس علىٰ فلسفته والتلمذة عليه حتَّىٰ نبغ من بينهم جماعة، منهم صهراه علىٰ ابنتيه الحكيم المحدِّث المشهور ملَّا محسن (الفيض)، والحكيم الآخر الشيخ عبد الرزاق اللاهيجي (الفيّاض) صاحب شوارق الإلهام، والفيض والفيّاض لقبان وضعهما لهما أُستاذهما وأب زوجتيهما صدر المتألّهين.

أمَّا بعد حياته فقد بعد صيته وأقبل طلَّاب الفلسفة إقبالاً عظيماً علىٰ مؤلَّفاته يتدارسونها ويكتبونها ويتلمَّذون عليها، وسادت مدرسته الفلسفية ومؤلَّفاته، وطغت علىٰ كلّ مدرسة ومؤلَّفات أُخرىٰ حتَّىٰ مؤلَّفات الشيخ ابن سينا والخواجة نصير الدين الطوسي، وبالأخير أي قبل مائة سنة فما بعدها طُبِعَت جميع مؤلَّفاته في المطابع الحجرية بإيران.

فصدر الدين إلىٰ يومنا هذا يُعتَبر مجدِّد الفلسفة الإسلاميّة في المشرق، وخاتمة فلاسفتها ومفكّريها، والذين ظهروا بعد صدر الدين لم

يكونوا أكثر من شرّاح لآرائه، أو مكرِّر لما قاله وذهب إليه، فهو منذ أربعة قرون وقد تربَّع علىٰ قمَّة المجد الفكري، كسلطان لا ينازعه أحد في ملكه.

حياته ونشأته:

ففي كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٣٤٧): أمَّا حياته ونشأته، فإنَّه يكتنفها كثير من الغموض، ولا تعي كتب التراجم كثيراً عن تفاصيل حياته، فلم تتحقَّق سنة مولده، علىٰ الرغم من أنَّه كان من الشخصيات الفكرية الكبيرة، التي يعكف المترجمون في أمثاله علىٰ تناول حياته تفصيلاً.

وغاية ما عرفناه أنَّه وُلِدَ في مدينة شيراز، عاصمة فارس في ذلك الحين، وقيل: إنَّ والده إبراهيم بن يحيىٰ القوّامي أحد الوزراء في ذلك العهد، ولم يُعرَف اسم تلك الدولة، أو الملك الذي وزر له، لكنَّه من الثابت أنَّه كان في عصر الدولة الصفوية. أمَّا وفاته فقد كانت في البصرة سنة (١٠٥٠هـ) وهو في طريقه للحجّ للمرَّة السابعة، أو بعد رجوعه منه.

وكان وحيد والده، جاءه بعد نذر نذره، وقد وجَّهه والده إلىٰ طلب العلم، وبعد وفاة والده رحل إلىٰ أصفهان لإكمال دراسته، ودرس فيها علىٰ الشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣ _ ١٠٣١هـ) وقد أنفق جميع ما خلَّفه له والده من مال في سبيل تحصيل العلم.

وقد انقطع بعد وفاة أُستاذه البهائي، وفي مراحل دراسته الأخيرة إلىٰ درس فيلسوف عصره السيّد الداماد محمّد باقر المتوفّىٰ (١٠٤٠هـ). ويظهر منه في بعض كلماته في (شرح أُصول الكافي) أنَّه كان متأثّراً إلىٰ

حدٍّ كبير بشخصية أُستاذه (الداماد) وأنَّه كان موضع احترامه وتقديره، فهو يقول عنه في شرح أوَّل حديث من شرحه علىٰ أُصول الكافي:

(سيّدي وسندي وأُستاذي واستنادي في العلوم الدينية والعلوم الإلهية، والمعارف الحقيقية، والأُصول اليقينية...)، ويكرِّر هذا وأمثاله في كلّ مناسبة تدعو إلىٰ ذكره.

وكان له تلامذة بارزون في الفكر والفلسفة، قادوا الحركة الفلسفية في عصرهم، وأشهرهم صهراه الحكيم المحدِّث المعروف بملَّا محسن الفيض الكاشاني، والحكيم عبد الرزّاق اللاهيجي، المعروف بالفيّاض صاحب (مشارق الإلهام).

ويبدو أنَّ حظّ فيلسوفنا المترجَم كان كحظّ أكثر العباقرة والموهوبين، الذين عاشوا في زوايا الخمول والحرمان، مغمورين في عصرهم، لا يؤبه لهم، حتَّىٰ إذا ماتوا أشرق حظّهم، وعاشت أفكارهم، وبرزت آثارهم تنطق بمكانتهم، وتُعبِّر عن تقديرهم واحترامهم، وما أصدق قول الشاعر أبي القاسم الشابي:

الناس لا ينصفون الحيّ بينهم ... حتَّىٰ إذا ما توارىٰ عنهم ندموا
حتَّىٰ العباقرة الأفذاذ حيّهم ... يلقىٰ الشقاء وتلقىٰ مجدها الرمم

ويبدو أيضاً أنَّه كان قد لقي العنت والجفاء من الناس عالمهم وجاهلهم، وعاش في حرمان وكبت، لم يُعرَف حقّه، ولم يُرعَ جانبه.

وكانت تقوم ضدّه حملة شديدة، أطاحت بكثير من طموحه، حملة عنيفة تعتمد علىٰ الفقهاء، ورجال الدين، بحجَّة أنَّه يقول بوحدة الوجود، وهو نفسه يشير إلىٰ ما كان يلاقيه من حرمان وجفاء بقوله:

(... وكثرة احتماله من الجهلة والأرذال، وقلَّة شفقة الناس في

حقّه، وعدم التفاتهم إلىٰ جانبه، حتّىٰ أنّه كان في الدنيا مدّة مديدة كئيباً حزيناً، ما كان له عند الناس رتبة أدنىٰ من آحاد طلبة العلم، ولا عند علمائهم الذين أكثرهم أشقىٰ من الجهّال قدر أقلّ من تلاميذهم...).

وربّما كان هذا الحرمان الذي مني به هو الذي ولّد في نفسه روح العزلة عن الناس وحمله علىٰ الاعتزال في بعض الجبال النائية، وبقي فيها خمسة عشر عاماً، وكان ذلك في قرية من قرىٰ قم.

وهو يحكي لنا هذه العزلة متبرّماً من أهل زمانه بقوله في مقدّمة الأسفار:

(... كما رأىٰ الحال علىٰ ذلك المنوال من خلوّ الدار من أهل الديار، من أهل المعرفة، وضياع العادلة، وإشاعة الآراء الباطلة، ضرب صفحاً عن أبناء الزمان، والتجأ إلىٰ أن ينزوي في بعض نواحي الديار، منكسر البال، منقطع الآمال، متوفّراً إلىٰ العبادة، لا علىٰ درس يلقيه، ولا تأليف يتصرّف فيه، إنَّ هذه أُمور تحتاج إلىٰ تصفية الفكر، وتهذيب الخيال عمّا يوجب الملال والاختلال، وتحتاج إلىٰ فراغ البال، ولا تحصل هذه الأشياء لمن يسمع ويرىٰ من أهل زمان من قلّة الانصاف، وكثرة الاعتساف، وخفض الأعالي والأفاضل، ورفع الأداني والأراذل، وظهور الجاهل والعامّي علىٰ صورة النحرير، وهيأة الحبر الخبير...، إلىٰ غير ذلك من القبائح والمفاسد...).

أمّا أسباب هذا الحرمان الذي لقيه من بني عصره، والذي كان من أثره تلك العزلة الطويلة، والذي يكثر الشكاية منه في مواضع كثيرة من مؤلّفاته فلا تزال مجهولة.

وما ندري هل يعود ذلك إلىٰ عوامل تكوينية في تربيته وهو وحيد

والديه، وكان بطبيعة الحال أن ينشأ في جوّ الدلال وتلبية رغباته فيه أنّىٰ توجَّه، لم يصطدم بحقيقة المجتمع، ولا بما يعترض ما اعتاده من عطف وحنان؟ أم أنَّه حلقة منفصلة في تفكيره لا يلتقي بأفكار الناس وذهنيّاتهم؟ أم أنَّ هناك أسباباً اجتماعية لا تزال مجهولة لدينا؟ إنَّها تساؤلات لا تزال عطشىٰ إلىٰ الجواب عنها.

وكان فيلسوفنا من أُولئك الذين عاشوا في زحمة طغيان الروح الإشراقية في ذلك العصر، والتي كانت أبرز مميّزات ذلك المجتمع.

ولا بدع بعد هذا أن تنعكس في نفس صدر المتألّهين هذه الظاهرة، وأن تكون الجزء الكبير من شخصيته، وأن يسير في التيّار العرفاني الذي كان يسير به شيخاه البهائي والداماد، وبخاصّة أُستاذه الأوَّل الذي تجد بروز هذا الجانب طاغياً فيما وضعه من مؤلَّفاته، ولعلَّك تجد ذلك واضحاً في كتابه (الكشكول).

ويبدو أنَّ الأثر الذي تركته دراسته علىٰ كلّ من البهائي والداماد كان بعيداً، فقد انعكست آراء أستاذيه المذكورين علىٰ تفكيره، وتركت فيه أصداءً عميقة، ولقيت في نفسه تجاوباً بعيد الأثر، طغىٰ علىٰ كيانه الثقافي وتفكيره الفلسفي، وتحوَّل إلىٰ طاقة فكرية جديدة، برزت علىٰ نزعاته واتّجاهاته، حين أراد أن يوفق بين الفلسفة الإشراقية أو الصوفية، وبين الفلسفة المشّائية المنطقية من جهة، وبين تعاليم الإسلام من جهة أُخرىٰ.

إنَّه كان من أثر ذلك أن حاول أن يمزج بين تلك العناصر، ويبرز لنا مزيجاً جديداً في اتّجاهاته الثقافية والفكرية، ويتألَّف هذا المزيج الكيميائي من التفكير المشائي القائم علىٰ أساس المنطق والنظر والأقيسة

العقلية، وعلىٰ العلم الذاتي الحاصل من طرق الإلهام والكشف، وذلك بتطهير النفس من أكدار الشهوات، وأدران المادّة، حتَّىٰ تصبح كالمرآة الصافية تقبل صور الحقائق وانعكاساتها الواضحة كما هي دون تشويه.

ويذهب إلىٰ أنَّ المعرفة الذاتية من طريق الكشف ممكنة الحصول، كما حصلت للأنبياء والأوصياء والعرفاء.

قال في (مفاتيح الغيب) في المشهد الثامن من المصباح الثالث:

(إنَّ كثيراً من المنتسبين إلىٰ العلم ينكرون العلم الغيبي اللدنّي، الذي يعتمد عليه السلَّاك والعرفاء، وهو أقوىٰ وأحكم من سائر العلوم، قائلين: ما معنىٰ العلم إلَّا الذي يحصل من تعلّم أو فكرة أو رويّة).

وبالغ بالذمّ للنظر والبحث، فقال في الأسفار:

(... علىٰ مجرَّد الأنظار البحثية، التي ستغلب المعوّلين علىٰ الشكوك، ويلعن اللاحق منهم فيها السابق، ولم يتصالحوا عليها، بل كلَّما دخلت أُمَّة لعنت أُختها).

وهو يذهب إلىٰ أنَّ الطريقين المشّائية والإشراقية لا ينفصلان في الإيصال إلىٰ الحقيقة، وليس لأحدهما غنىً عن الآخر، قال في المبدأ والمعاد (ص ٢٧٨): (فأولىٰ أن يرجع إلىٰ طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألّهين من الحكماء، والمليين من العرفاء).

وأشار إلىٰ ذلك مرَّة أُخرىٰ في الأسفار فقال: (... لأنَّ من عادة الصوفية الاقتصار علىٰ مجرَّد الذوق والوجدان فيما حكموا، وأمَّا نحن فلا نعتمد كلّ الاعتماد علىٰ ما لا برهان عليه...).

وقال فيه أيضاً: (... ولا تشتغل بترّهات الصوفية، ولا تركن إلىٰ أقاويل المتفلسفة...، وقانا الله وإيّاك يا خليلي من شرّ هاتين الطائفتين، ولا جمع الله بيننا وبينهم طرفة عين).

وقد أكثر من الإشارة إلىٰ هذا الاتّجاه، الذي أخذ يحاول إقامة دعائمه، ووضع قواعده، وهو الجمع بين طريقة المشّائيين وطريقة الإشراقيين، والتوفيق بينهما.

وبالرغم من تصريحه باتّجاهه هذا، ومحاولته لدمج الفلسفتين الإشراقية والمشّائية في بوتقة واحدة، فإنَّ العنصر الإشراقي كان هو المسيطر علىٰ تفكيره، والبارز علىٰ كثير من مؤلّفاته وأبحاثه.

ولعلَّك تجد ذلك واضحاً حين تكلَّم علىٰ النفس في (الأسفار) وفي رسالته (حشر العوالم) ورسالته في تفسير سورة الأعلىٰ.

كما تجد العنصر الفلسفي المنطقي هو البارز في بحوثه عن الأُمور العامّة في الوجود ولواحقه، وبخاصّة بحثه في المواد الثلاث للوجود، ونذكر منها الوجود الذهني، فإنَّ العنصر المنطقي هو البارز فيها دون سواه من عناصر.

ونجد له إلىٰ جانب هذه المحاولة محاولة أُخرىٰ هي التوفيق بين الدين والفلسفة بقسميها، هذه المحاولة وضع نواتها نصير الدين الطوسي، والتي يخلص منها إلىٰ أنَّ الشرع والعقل قد تلاقيا في جميع القضايا الفلسفية، وقد أشار إلىٰ ذلك بقوله في الأسفار: (حاشا الشريعة الحقّة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادر للمعارف اليقينية الضرورية وتبّاً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسُّنَّة).

ومن هنا نجده كثيراً ما يستشهد علىٰ رأيه في موضوع من مواضيع

الفلسفة والأدلَّة السمعية من الكتاب والسُّنَّة، حتَّىٰ أنَّه ليكاد يجعل كتبه الفلسفية تفسيراً للدين، وكتبه الدينية كتفسير القرآن، وشرح أُصول الكافي تفسيراً للفلسفة.

ومهما يكن من محاولة فإنَّ شخصيته الإشراقية كانت هي البارزة علىٰ أكثر آرائه ومؤلَّفاته، بينما نجد أنَّ شخصيته المشّائية قد اختفت في أكثر الأحيان. ولعلَّ تلك العزلة الطويلة التي أشار إليها آنفاً كانت من أقوىٰ العوامل في نموّ الروح العرفانية في اتّجاهاته، وشدّه شدّاً وثيقاً بحبال الإشراقية المتطرّفة.

ويبدو أنه مرَّ في مراحل ثلاث:

الأُولىٰ: مرحلة التلمذة والدراسة، وتتبّع آراء الفلاسفة والمتكلِّمين، ويظهر أنَّه في هذه المرحلة لم يكن قد تفاعل بعد بالروح الصوفية، وقد أشار إلىٰ ذلك في مقدّمة تفسيره لسورة الواقعة، قال: (وإنّي كنت سابقاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلىٰ مطالعة كتب الحكماء والنظّار، حتَّىٰ ظننت أنّي علىٰ شيء، فلـمَّا انفتحت بصيرتي، ونظرت إلىٰ حالي رأيت نفسي وإن حصَّلت شيئاً من أحوال المبدأ وتنزيهه عن صفات الإمكان والحدثان، وشيئاً من أحكام المعاد لنفوس الإنسان، فارغة من العلوم الحقيقة، وحقائق العيان، ما لا يدرك إلَّا بالذوق والوجدان...).

وقد أظهر الندم ممَّا فرَّط في أوَّل عمره، في سلوكه مسلك أهل البحث، قال في مقدّمة الأسفار: (... وإنّي لأستغفر الله ممَّا ضيَّعت شطراً من عمري في تتبّع آراء الفلسفة والمجادلين من أهل الكلام، وتدقيقاتهم، وتعلّم جربزتهم (جريزتهم) في القول، وتفنّنهم في البحث).

ويظهر أنَّه في هذه المرحلة وضع رسالته (طرح الكونين) التي أعلن فيها برأيه في (وحدة الوجود) كما هو مسلك أهل العرفان.

الثانية: مرحلة العزلة وانقطاعه إلىٰ العبادة في بعض الجبال النائية، حتَّىٰ قيل: إنَّه أقام فيها خمسة عشر عاماً، وقد تقدَّم تصريحه بهذه العزلة. وفي هذه المرحلة تكاملت فيه العناصر الصوفية، ونضجت به الروح العرفانية، وقد نتعرَّف إلىٰ مدىٰ تأثير هذه المرحلة عليه من قوله:

(واشتغلت نفسي لطول المجاهدات، والتهب قلبي لكثرة الرياضيات التهاباً قويَّاً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلَّت منها خبايا الجبروت، ولحقتها الأضواء الأحدية، وتداركتها الألطاف الإلهية، فاطَّلعت علىٰ أسرار لم أكن اطَّلعت عليها حتَّىٰ الآن، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان؛ بل كلّ ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان...).

الثالثة: مرحلة التأليف وتسجيل آرائه، وأكثرها علىٰ الطريقة الإشراقية الكشفية، وأوَّل كتاب وضعه في هذه المرحلة هو كتاب (الأسفار) وربَّما كان قد ابتدأ بتأليفه في أواخر مرحلته الثانية.

وإذا ذكرنا كتابه (الأسفار) فإنَّما نعني به الشحنة المتألّقة بكلّ ما عنده من أفكار وآراء فلسفية، ومكاشفات عرفانية، وأكثر كتبه التي وضعها فيما بعد أو كلّها عنه مأخوذة وإليه تعود، ولذا قيل: إنَّه الأصل لمؤلَّفاته الباقية التي عنه تتفرَّع.

وهذه المراحل الثلاث التي مرَّ بها صدر المتألّهين تذكّرنا بالمراحل التي مرَّ بها الغزالي، وبالشبه القريب بين الطريقتين، فكلّ منهما قد عكف أوَّلاً علىٰ دراسة آراء الفلاسفة المتكلّمين، وكلّ منهما قد سفَّه تلك الآراء

والنظريات الفلسفية باعتبار أنَّها لا توصل إلىٰ الحقيقة، وأنَّها الحاجز المبني الذي يحول بينه وبين إدراك الحقائق، وكلّ منهما اعتزل عزلة طويلة، يعيش في تأمّلاته وإحساساته الشخصية، وكلّ منهما قد سيطرت عليه الروح الإشراقية والفلسفة العرفانية.

إنَّ التشابه بينهما واضح في مداخل حياتهما وفي طريقة التفكير وفي مناحي الاتّجاهات والنزعات وفي كثير من أحوالهما، وهما معاً يؤلِّفان مدرسة خاصّة، تجمع بينهما في أكثر من جانب، إلَّا أنَّ فيلسوفنا يتميَّز بسعة الثقافة وغور الفكرة، وعمق الإحساس، وبالبعد عن خرافات الصوفية وأضاليلها، ويتماز أيضاً بأنَّه يستمدّ إحساساته العرفانية، وآراءه الإشراقية من النصوص الإسلاميّة، التي لا يجهدها بالتأوّل والخيال، ولا يخضعها لآرائه، وإنَّما يُخضِع آراءه لها، ويسير في تيّارها وروحها، علىٰ عكس ما كان يفعله الغزالي ونظرائه من المتصوّفين المتطرّفين.

ويظهر أنَّه كان منسجماً إلىٰ حدٍّ بعيد مع آراء محيي الدين بن عربي المتوفّیٰ عام (٦٣٨هـ) شيخ المتصوّفة في عصره، فهو يكبره إكباراً كبيراً، ويغرق في تمجيده وتعظيمه، ويكثر الاستشهاد بكلامه، ويحيط آراءه بهالة قدسية، ويعبِّر عنه بالحكيم العارف، والشيخ الجليل المحقِّق، وغير ذلك؛ بل إنَّه قد يجعل بعض أقواله نصوصاً يجب الأخذ بها، لا تحتمل خطأ، وهو عنده من أئمّة الكشف والشهود.

وهذا غريب منه وفوق الغرابة.

منهجه العلمي في التأليف:

في (أعيان الشيعة) ما نصّه: تبتني فلسفته في كلّ ما ألَّف حتَّىٰ كتبه الدينية التي قلنا إنَّها جزء من فلسفته وامتداد لها علىٰ حصر العلوم

الحقيقية والمعارف اليقينية في العلم بالله في صفاته، وملكه وملكوته، والعلم باليوم الآخر ومنازله ومقاماته، لأنّه يجد أنّ الغاية المطلوبة _ وكم يكرّر ذلك في كتبه لاسيّما في مقدّماتها _ هي تعليم ارتقاء الإنسان من حضيض النقص إلىٰ أوج الكمال (الذي لا حدّ له بالنسبة إلىٰ الإنسان خاصّة من بين سائر المخلوقات) وبيان كيفية سفره إلىٰ الله تعالىٰ، قال في الأسفار من كتابه (ج ١/ ص ٩): (غرضنا فيه بيان طريق الوصول إلىٰ الحقّ وكيفية السير إلىٰ الله).

إنّ هذا الهدف وحده يبتني عليه منهج التأليف في كلّ كتبه المطوّلة والمختصرة، وهو قطبها وعليه تدور رحاها، حتّىٰ كتبه الدينية التي يعني منها تطبيق الشرع علىٰ فلسفته، كما سبق آنفاً. ولهذا الهدف _ حسب تقريره _ ستّة مقاصد: ثلاثة منها كالدعائم والأُصول، وثلاثة كاللواحق، وركّز مؤلّفاته علىٰ الدعائم، وهي:

١ _ معرفة الحقّ الأوّل وصفاته وآثاره، وهو فنّ الربوبيات الذي هو جزء من الفلسفة الكلّية، وإذا بحث عن الفلسفة الكلّية _ كما في الأسفار _ فالبحث عنها إنّما هو عنده لهذه الغاية ليس إلّا.

٢ _ معرفة الصراط المستقيم، ودرجات الصعود إليه تعالىٰ، وكيفية السلوك إليه، وهو علم النفس الذي هو جزء من العلم الطبيعي، وإذا بحث عن العلم الطبيعي _ كما في الأسفار أيضاً _ فالبحث عنه لهذه الغاية عنده.

٣ _ معرفة المعاد والمرجع إليه تعالىٰ، وأحوال الواصلين إليه وإلىٰ دار رحمته (علم المعاد).

هذه الدعائم الثلاث هي محور مؤلّفاته، عليها تدور ولها

تستهدف، وأمّا اللواحق فلم يفرد لها تأليفاً، وإنّما يذكرها عرضاً وبالتبع في غضون أكثر مؤلّفاته؛ لأنّها لواحق تلك الدعائم، وهي:

١ _ معرفة المبعوثين من عند الله لدعوة الخلق ونجاة النفس، وهم قوّاد سفر الآخرة ورؤساء القوافل، يعني الأنبياء والأوصياء، بل الأولياء.

٢ _ حكاية أقوال الجاحدين وكشف فضائحهم، وهم قطّاع الطريق في سفر الآخرة.

٣ _ تعليم عمارة المنازل والمراحل في ذلك السفر، وكيفية أخذ الزاد والراحلة له، والاستعداد برياضة المركب وعلف الدابّة، ويقصد بالمركب والدابّة النفس، وهو الذي يسمّىٰ علم الأخلاق.

وهو في تحصيل ذلك الهدف سلك الطريقة المتقدّم ذكرها، وهي الجمع بين المشّائية والإشراقية والإسلام، أي إنّه يذكر الأدلّة المنطقية علىٰ مطلوبه، ويذكر مكاشفاته ومشاهداته العرفانية، ويستشهد بالأدلّة السمعية.

وهذا المنهج يسلكه في أكثر كتبه لاسيّما الأسفار أُمّها، نعم بعض المؤلّفات خصّه بالمسلك العرفاني، والبعض الآخر بالمسلك البحثي.

أمّا المختصّة بالمسلك العرفاني فهي: الشواهد الربوبية والعرشية وأسرار الآيات والواردات القلبية، علىٰ ما بيّنها من الاختلاف في التطويل والاختصار، وأسماؤها تنمّ عن ذوقها العرفاني، وفي خصوص الأخير (الواردات القلبي) سلك مسلك الكهّان المتحذلقين في التسجيع والتعقير وتلمّس الأغراب، كأنّما يريد أن يظهرها بمظهر الإلهامات الإلهية التي ورد بها آمر قلب، ودفعت إليها إشارة مشير غيب _ علىٰ حدٍّ

تعبيره في مقدّمة الشواهد (ص ٣) _ فامتثل ذلك الأمر والمأمور معذور، ويبدو أنَّه يريد أن يقول: إنَّه فاقد الاختيار وأنَّه مجبور.

فهي تشبه أن تكون عنده من نحو النصوص الدينية والأحاديث القدسية، كما يرىٰ هو ذلك في كلمات ابن عربي، قال في مقدّمة العرشية: (بل هذه قوابس مقتبسة من مشكاة النبوَّة والولاية، مستخرجة من ينابيع الكتاب والسُّنَّة، من غير أن تكتسب من مناولة الباحثين ومزاولة صحبة المعلِّمين).

وسلك في شرحه للهداية الأثيرية، وشرحه لإلهيات الشفا مسلك البحث الصرف اتّباعاً لطريقة المتن، ولذا لـمَّا بدت منه بادرة في السلوك العرفاني مرَّة في شرحه للشفا اعتذر عن ذلك فقال من هذا الشرح (ص ٦٧): (وليعذرنا إخوان البحث في الخروج عن طورهم تشوّقاً إلىٰ طور المكاشفة، وتحنّناً إلىٰ عالم الملكوت).

ثمّ هو حينما يسلك الطريقين في تأليفه لاسيّما في (الأسفار) يشرع أوَّلاً في البحث علىٰ طريقة النظّار وأهل البحث، ثمّ يذكر مشاهداته العرفانية ومكاشفاته اليقينية شفقةً علىٰ المتعلِّمين كما يقول: (وهي عادة الفلاسفة لسهولة التعليم)، ثمّ قال: (ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصّة، حيث سلكنا أوَّلاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأوساطها، ثمّ نفترق عنهم في الغايات، لئلَّا تنبو الطبايع عمَّا نحن بصدده في أوَّل الأمر، بل يحصل لهم الاستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول إشفاقاً بهم)[1].

---

(١) الأسفار: ١٨ و١٩.

وفي الحقيقة إنَّ هذا المنهج العلمي هو متفرّد به، بل هو المؤسّس لمدرسته كما قلنا، ولم يُعهَد كالأسفار كتاب جمع بين الطريقين بأوسع ما يمكن من الجمع والتوفيق، فاحتشدت فيه آراء الناس علىٰ اختلاف مشاربهم، ومحاسبتها حساباً دقيقاً علمياً مع نصوع العبارة ورصانتها وسلامتها وحسن أداء المقاصد والصراحة في إيضاحها، والمعهود في كتب الفلسفة الغموض والرمز والتعقيد.

فسهولة التعليم التي أشار إليها بريئة منه كتب الفلسفة المتقدّمة عليه؛ بل المتأخّرة عنه، كيف ومن تعاليمهم أن يكتموا آراءهم إلّا علىٰ فئة خاصّة من تلاميذهم يفتحون لهم رموزهم، حيث يجدون منهم استعداداً لفهم مقاصدهم والاستنارة بها.

وصاحبنا هو أيضاً يوصي بهذه الوصيّة في كتمان مطالبه علىٰ الجلود الميّتة (كما في الأسفار في المقدّمة) اتّباعاً للحكماء الكبار أُولي الأيدي والأبصار كما يقول، ولكن يأخذ بها في اتّخاذ الرمز والتعقيد والغموض سبيلاً لكتمان آرائه لاسيّما في الأسفار؛ بل بالغ في تصوير آرائه باختلاف العبارات والتكرار، حسبما أُوتي من مقدرة بيانية، وحسبما يسعه موضوعه من أدائه بالألفاظ، وهو معبّر موهوب لعلّه لم نعهد له نظيراً في عصره وفي غير عصره من أمثاله من الحكماء، وإذا كان أُستاذه الجليل السيّد الداماد يُسمّىٰ أمير البيان، فإنَّ تلميذه ناف عليه وكان أكثر منه براعةً وتمكّناً من البيان السهل، وإنّما كان امتياز السيّد باستعمال المجاز والكنايات والألفاظ المتخيّرة والتسجيع ولأجله أُعطي هذا اللقب (أمير البيان) وتلميذه في نظري أحقُّ به وأولىٰ.

وإن كان هو يرىٰ (أنَّ الحقائق لا يمكن فهمها عن مجرَّد الألفاظ،

فإنَّ الاصطلاحات وطبايع اللغات مختلفة)، ولقد أحسن جدَّاً في هذا التعبير الحكيم، وتلك حقيقة واقعة معروفة، لكنَّه لم يدَّخر وسعاً في تقريب مقاصده من مكان قريب وبعيد في كتابه الأسفار، وجاء فيه بأقصىٰ جهد الكاتب البليغ في توضيحها، ووفَّق توفيقاً لم يتهيَّأ لمثله.

فجاء _ كما قال في مقدّمته آخر (ص ٣) _: (بحمد الله كلاماً لا عوج فيه ولا ارتياب، ولا لجلجة ولا اضطراب يعتريه، حافظاً للأوضاع، رامزاً مشبعاً في مقام الرمز والإشباع، قريباً من الأفهام في نهاية علوّه، رفيعاً عالياً في المقام مع غاية دنوّه).

ثمّ قال: (واستعملت المعاني الغامضة في الألفاظ القريبة من الأسماع)، ثمّ قال: (أُنظر بعين عقلك إلىٰ معانيه هل تنظر فيه من قصور؟ ثمّ ارجع البصر كرَّتين إلىٰ ألفاظه هل ترىٰ فيه من فطور؟).

وفي الحقيقة إنَّ كتابه الأسفار جدير بهذا الوصف، لاسيّما قوله فيه: (قريباً من الأفهام في نهاية علوّه)، فإنَّ قربه من الأفهام باعتبار سهولة عبارته ورصانتها، ونهاية علوّه باعتبار ما حوىٰ من الآراء الدقيقة والأفكار السامية التي هي في مستوىٰ كبار العلماء المنتهين، فإنَّه كما قال في المبدأ والمعاد (ص ٣) عنه: (وإنّا عملنا لمن له فضل قوَّة لتحصيل الكمال علىٰ وجه أبلغ وأوفر كتاباً جامعاً لفنون العلوم الكمالية التي هي ميدان لأصحاب الفكر، وفيها جولان لأرباب النظر سمَّيناه الأسفار الأربعة).

المآخذ عليه:

١ _ وحدة الوجود:

كثر التشنيع علىٰ هذا الرجل بعد وفاته عند رجال الدين، حتَّىٰ كان اسمه ومؤلَّفاته مثار السخط والاشمئزاز، ويكفي أن نعرف أنَّ

الشيخ أحمد الأحسائي المتوفّىٰ سنة (١٢٤٣هـ) كفّره الناس لميله إلىٰ بعض آراء المترجَم، (أُنظر: قصص العلماء: ٣٧، فما بعدها).

ومن المفارقات العجيبة في تلك العصور، أنَّ الأحسائي نفسه كان يقول بكفر صاحبنا ويشنّع عليه، وبليّة الأحسائي كلّها أنَّه قرأ كتبه من دون حضور علىٰ أُستاذ فلم يفهمها كما يجب، وكان ذكياً معتدَّاً بنفسه، فأُصيب بداء الغرور فاشتطَّ من جهته في تأثّره بها عقيدةً، واشتطَّ من جهة أُخرىٰ في بحث آرائه ناقداً، وفي كلتا الجهتين كان متورّطاً.

بل صاحبنا قد لاقىٰ من العنت في زمانه ما دفعه إلىٰ إعلان تذمّره من أهله والسخط عليهم في عدَّة تصريحات ثائرة عنيفة في أكثر كتبه، لاسيّما في مقدّماتها، بل ألجأه ذلك إلىٰ أن يهرب بنفسه فينزوي في بعض النواحي البعيدة، علىٰ ما سبق، ومن أمضىٰ التشنيعات عليه في نظري أن يقال كما في روضات الجنّات (ص ٣٣١) في صدد الثناء علىٰ ولده ميرزا إبراهيم: (وهو في الحقيقة مصداق يخرج الحيّ من الميّت)، وعلَّل ذلك بأنَّه (كان علىٰ ضدّ طريقة والده في التصوّف والحكمة)، بينما أنَّ الوالد هذا لا يرىٰ في غير الحكمة والعرفان حياة للنفس الإنسانية، بل من يتجرَّد عن ذلك يقسو عليهم فيعبِّر عنهم بأهل الجلود الميّتة، ومن اللازم أن نشير إلىٰ جملة من المؤاخذات البارزة التي سُجِّلت عليه من قِبَل المترجمين له: أحدها رأيه في وحدة الوجود.

إنَّ الرأي المعروف (بوحدة الوجود) علىٰ إجماله يعبِّر من سمات المتصوّفين التي تدفعهم إلىٰ دعوىٰ الشطحات والمواجدة وعلم المغيبات وما إليها، ويُعَدُّ من أكبر الوصمات فيهم الملازمة لطعنعم بالكفر والزندقة، وهو يساوق _ عند الناس _ مقالة الحلول والتناسخ، وهذه

الكلمات وحدها مدعاة لإثارة الشعور بكراهية القائل بها، وللاستنكار لأقواله والتسرّع بنسبته إلىٰ الكفر، وإن لم تتحدَّد معانيها ومفاهيمها بالضبط، ولم تعرف العامّة السرّ في التكفير بها.

قال الشيخ أحمد الأحسائي في شرحه للعرشية (ص ١٢) ناقداً المولىٰ محسن الفيض: (فإذا لم يكن قوله هذا قولاً بوحدة الوجود إذن؟)، وموضع الشاهد نقله الإجماع علىٰ تكفير معتقد وحدة الوجود.

أمَّا السرّ في التكفير بها، فقد قيل: إنَّ لازم هذه المقالة أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام وقاتله ابن ملجم مثلاً ممدوحين ناجيين، وكذا موسىٰ وفرعون، والحسين عليه السلام ويزيد، وهكذا الخلق كلّهم سعيدهم وشقيّهم، إمَّا لا شقي أو لا سعيد.

وقيل: إنَّ لازمها أن يتَّصف الله تعالىٰ بصفات الممكنات، أو تتَّصف الممكنات بصفات الواجب، أو تكون هو إيّاها أو هي إيّاه، فتكون واجبة الوجود أو معبودة، فتصحّ العبادات لفرعون والأصنام والشمس والقمر وهكذا، قال الشيخ أحمد الأحسائي في شرح العرشية (ص ١٧) مخاطباً للمولىٰ محسن الفيض متهكّماً: (قل أنا الله، ولا تخف فإنَّك بالتصريح تستريح وتريح).

وعلىٰ كلّ حال فقد اقترنت مقالة (وحدة الوجود) بإطار من صفة المروق من الدين والكفر والزندقة، مع أنَّ لها _ كما سيأتي _ عدَّة معانٍ ربَّما لا يكون لأحدها تلك اللوازم الباطلة ولا غيرها، ولكن لا صبر للرأي العامّ علىٰ التفكير في ذلك، والتفكيك بين المعاني وتوجيه كلام القائل بها.

ولذلك كان يتحاشىٰ المترجم التعبير بعبارة (وحدة الوجود)

تعبيراً صريحاً واضحاً، أمَّا تلامذة مدرسته فقد بالغوا في تصويره القول بالوحدة علىٰ الوجه الذي لا يلزم منه تلك اللوازم الباطلة ولا غيرها، وأنَّه ليس المراد من الوحدة الاتِّحاد الذي يُفهَم من ظاهر الكلمة، وعندهم أنَّ هذا المعنىٰ لا يفهمه إلَّا الأوحدي من الأذكياء والفضلاء.

وإذا انطلىٰ علىٰ العامّة وأشباه العامّة لفظ (وحدة الوجود) فلذلك شأن من لا يفهم الأسرار الفلسفية، فيشنّع علىٰ قائلها.

وقال هو في تفسير سورة البقرة (ص ٢٧٨): (إنَّ أكثر الناس يتنازعون في مسألة لا يعرفون بعد موضوعها ولا محمولها. فقبل تحرير محلّ النزاع يخاصم بعضهم بعضاً، ويكفّر بعضهم بعضاً).

ويتندرون بقصَّة الشيخ محمّد كاظم في الروضة الحسينية حينما كان في تعقيبه بعد صلاة الصبح يلعن بتسبيحة كاملة الملَّا صدرا، وكلّ واحد من جماعة آخرين بتسبيحة كاملة، منهم المولىٰ محراب (وهو الحكيم المولىٰ محراب علي الأصفهاني، من أعلام القرن الثاني عشر) وكان هذا الحكيم صدفةً جالساً إلىٰ جنبه يستمع إلىٰ هذه التسبيحات القدسية، وهو لا يعرفه، وقيل: إنَّه جاء متخفّياً فارّاً إلىٰ كربلاء من أصفهان بعد تكفيره فيها، فقال للشيخ: لماذا تلعن هؤلاء؟ أتعرفهم؟ فقال: لأنَّهم يقولون بوحدة الوجود، فلم يفرّق بين وحدة الوجود ووحدة واجب الوجود، فقال له ببرودة دم متهكّماً: حقّ من مثلك أن يلعن من يقول بوحدة واجب الوجود حتَّىٰ لا ينتشر مثل هذا الاعتقاد.

وسواء صحَّت هذه القصَّة الطريفة أم لم تصحّ، فإنَّها ترمز عندهم إلىٰ عدَّة أشياء:

منها: عدم تمييز العامّة للواضحات واضطهادهم للحكماء بما لا يعرفون.

ومنها: اللوم علىٰ الحكماء أن يصرّحوا بما لا تتحمّله عقول العامّة، ويحقّ عليهم اللعن من هذه الجهة.

ومنها: أن القول بوحدة الوجود الذي يذهب إليه هؤلاء العرفاء راجع في الحقيقة إلىٰ القول بوحدة واجب الوجود، أي إنَّ التوحيد الحقيقي الذي لا يشاب بالشرك لا يصحُّ إلَّا إذا قلنا بوحدة الوجود؛ لأنَّ التوحيد توحيد في العبادة، وتوحيد في الخلق، وتوحيد في الوجود.

ويعبِّر عنه صدر المتألّهين في كثير من المواقع بالتوحيد الخاصّ أو توحيد الأخصّي، فإذا كان التوحيد كفراً فعلىٰ الإسلام السلام!

بل يقولون: إذا نفينا وحدة الوجود التي يفسّرها صدر المتألّهين يلزمنا القول بالشرك في الحقيقة، وهو دائماً يقول: إنَّما الناس يعبدون أصناماً ينحتونها بأوهامهم، ويستشهد _ كما في تفسير سورة الفاتحة (ص ١٠) وغيره _ بكلام للإمام الباقر عليه السلام: «كلّ ما ميَّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مصنوع مثلكم مردود إليكم»[(١)].

ولأجل أن نجلي غرض صدر المتألّهين وتلاميذ مدرسته في هذا الباب، نقول: إنَّ الأقوال في المسألة يمكن تصويرها في ثلاثة وجوه:

١ _ تعدّد الوجود والموجود، وهذا هو الذي يتصوَّره عموم الناس.

٢ _ وحدة الوجود والموجود، وإنَّ التعدّد الذي يبدو للعامّة في الوجود والموجود إنَّما هو تعدّد ظاهري مجازي، وفي الحقيقة لا تعدّد لكلّ منهما، وهذا هو المذهب المعروف المنسوب إلىٰ المتصوّفة، الذي قال عنه الأحسائي: (إنَّ العلماء مجمعون علىٰ تكفير معتقده، باعتبار أنَّه فهم منه الحلول أو الاتّحاد بين الخلق والمخلوق).

---

(١) بحار الأنوار ٦٦: ٢٩٣.

٣ _ وحدة الوجود وتعدّد الموجود، وهو المنسوب إلىٰ بعض المتألّهين، كما حكاه في الأسفار (ج ١/ ص ١٦)، وردَّ عليه من عدَّة وجوه، ولكنَّه نفسه في رسالة (سريان الوجود) يظهر منه الميل إليه، ومن هنا نستظهر أنَّ هذه الرسالة ألَّفها في مرحلته الأُولىٰ من حياته العلمية، قال فيها (ص ١٣٨) عن الممكنات: (فهي موجودات متعدّدة متكثّرة في الخارج، ولها كثرة حقيقية عينية، فالوجود واحد والموجود متعدّد متكثّر)، هذه الاحتمالات الثلاثة المتصوّرة كلّ واحد منها به قائل، ولم يبقَ إلَّا الاحتمال الرابع وهو (تعدّد الوجود ووحدة الموجود) فليس به قائل لوضوح استحالته.

أمَّا الذي استقرَّ عليه رأي المترجم في كتاب الأسفار وغيره، فلا يتَّفق مع تلك الأقوال الثلاثة كلّها، بل إن لم يكن قولاً رابعاً فهو جمع بين الأقوال، يعني أنَّه يقول: إنَّ الاحتمالات الأربعة كلّها صحيحة ويجب القول بها جمعاً، فإنَّ الذي يراه أنَّ الوجود متعدّد حقيقة، ولكنَّه في عين الحال الوجود واحد حقيقة والموجود أيضاً واحد حقيقة، فإن شئت قلت بتعدّد الوجود والموجود، أو بوحدة الوجود والموجود، أو بوحدة الوجود وتعدّد الموجود، أو بتعدّد الوجود ووحدة الموجود، فكلّه صحيح، ولكن بشرط الجمع بين هذه الأقوال كلّها.

وهذا من العجيب حقَّاً، ويبدو أنَّه متهافت متناقض، غير أنَّه يصرّ عليه كلّ الإصرار ويقول: إنَّ فهمه يحتاج إلىٰ فطرة ثانية.

ويرتفع التهافت الظاهر بأن يكون معنىٰ الوجود متعدّداً حقيقة أنَّها الحقيقة في قبال المجاز اللغوي، ومعنىٰ الوجود واحد حقيقة أنَّها الحقيقة في قبال المجاز العرفاني، قال في المبدأ والمعاد (ص ١١٤): (ليس إطلاق الوجود علىٰ ما سوىٰ الله مجازاً لغوياً بل عرفانياً عند أهل الله).

ولكن يجد (إنَّ العبارة قاصرة عن أداء هذا المقصد لغموضه ودقَّة مسلكه وبعد غوره، فيشتبه علىٰ الأذهان ويختلط عند العقول، ولذا طعنوا في كلام الأكابر بأنَّه ممَّا يصادم العقل الصريح والبرهان الصحيح).

ونكتة الغموض في هذا المسلك وبعد غوره أنَّه يرىٰ أنَّ الوحدة في الوجود والموجود عين الكثرة، والكثرة فيهما عين الوحدة، وهذا هو معنىٰ المجاز العرفاني في التعدّد، لا (أنَّ هويّات الممكنات أُمور اعتبارية محضة وحقائقها أوهام وخيالات لا تحصل لها إلَّا بحسب الاعتبار)، فإنَّ هذا ليس معنىٰ المجاز الذي يراه.

ولـمَّا كانت الوحدة عين الكثرة، فإنَّ الظاهريين لـمَّا نظروا إلىٰ الوجود والموجود بعين واحدة وهي اليسرىٰ واقتصروا عليها رأوا الكثرة والتعدّد، والمتصوّفون لـمَّا نظروا إليها بعين ثانية وهي اليمنىٰ واقتصروا عليها رأوا الوحدة ولم يروا سوىٰ الله، أمَّا الكمال الراسخ فهو ذو العينين السليمتين: ويعلم أنَّ كلّ ممكن زوج تركيبي له وجهان، وجه إلىٰ نفسه ووجه إلىٰ ربّه، فبالعين اليمنىٰ ينظر إلىٰ وجه الحقّ _ أي وجه ربّه _ فيعلم أنَّه الفائض علىٰ كلّ شيء، والظاهر في كلّ شيء، فيعود إليه كلّ خير وكمال وفضيلة وجمال، وبالعين اليسرىٰ ينظر إلىٰ الخلق _ أي وجه نفسه _ ويعلم أنَّه ليس له حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم، ولا شأن إلَّا قابلية الشؤون والتجليّات وفي ذواتها إعدام ونقائص، قائلاً لسان مقاله طبق لسان حاله:

رقَّ الزجاج ورقَّت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنَّه خمر ولا قدح وكأنَّه قدح ولا خمر

والسرّ في ذلك: (أنَّ الوجودات وإن تكثَّرت وتمازيت إلَّا أنَّها من مراتب تعيّنات الحقّ الأوَّل وظهورات نوره وشؤونات ذاته، لا أنَّها أُمور مستقلّة وذوات منفصلة)، باعتبار أنَّها معلولة للحقّ الأوَّل والمعلول طور من أطوار العلَّة وشأن من شؤونها، (والوجود الحقيقي ظاهر بذاته بجميع أنواع الظهور ومظهر لغيره، وبه تظهر الماهيات، وله ومعه، وفيه، ومنه، ولولا ظهوره في ذوات الأكوان وإظهاره لنفسه بالذات ولها بالعرض، لما كانت ظاهرة موجودة بوجه من الوجوه، بل كانت باقية في حجاب العدم وظلمة الاختفاء)[١].

ويستشهد دائماً بكلمات أمير المؤمنين عليه السلام لأداء هذا الغرض كقوله: «وهو مع كلّ شيء لا بمقارنة _ وفي كلمة أُخرىٰ لا بممازجة _ وغير كلّ شيء لا بمزايلة _ وفي حكمة كلمة أُخرىٰ لا بمباينة _»[٢].

لأنَّ وجوده منبسط علىٰ جميع الكائنات، وجميع الموجودات إنَّما هي رشحات نوره، وإن كان كلّ موجود بحدوده العدمية وبقيوده الإمكانية غير الله تعالىٰ.

ويضرب لك أمثلة في الأسفار لتقريب هذا المعنىٰ يطول ذكرها، كتقريبه بانبساط نور الشمس علىٰ المرئيات، وبصورة المرآة وبأمواج البحر.

وعلىٰ كلّ حال فالمترجَم يتَّفق مع القائلين بتعدّد الوجود والموجود من دون تجوّز، ولكن (لـمَّا كان كلّ موجود معلولاً فهو في حدّ ذاته متعلّق بغيره ومرتبط به، فيجب أن تكون ذاته الوجودية ذاتاً تعلقية،

---

(١) الأسفار: ١٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٠/ الخطبة ١.

وجوده وجوداً تعلقياً، لا بمعنىٰ أنَّه شيء وذلك الشيء موصوف بالتعلّق، بل هو بما هو عين معنىٰ التعلّق بشيء...).

إلىٰ أن يقول: (ولا يمكن للعقل أن يشير في المعلول إلىٰ هوية منفصلة عن هوية موجده حتَّىٰ تكون هناك هويتان مستقلّتان في الإشارة العقلية إحداهما مفيضة والأُخرىٰ مفاضة).

ويتَّفق أيضاً مع المتصوّفة في القول بوحدة الوجود والموجود من دون تجوز، ولكن لا بأن يفهم من ذلك الحلول والاتّحاد لأنَّ ذلك معناه الاثنينية في أصل الوجود، ولا بأن يفهم أنَّ الممكنات اعتبارات محضة، كيف (وإنَّ لكلّ منها آثاراً مخصوصة وأحكاماً خاصّة، ولا نعني بالحقيقة إلَّا ما يكون مبدأ أثر خارجي، ولا نعني بالكثرة إلَّا ما يوجب تعدّد الأحكام والآثار، فكيف يكون الممكن لا شيئاً في الخارج ولا موجوداً فيه).

والحاصل (إذا ثبت تناهي سلسلة الموجودات إلىٰ حقيقة واحدة بسيطة ظهر أنَّ لجميع الموجودات إلىٰ حقيقة واحدة _ هي الموجدة لها _ ذاته بذاته، وجود وموجود وموجد، فهو الحقيقة، والباقي شؤونه).

فهذا هو معنىٰ وحدة الوجود والموجود، إنَّ الوجود والموجود المستغني بذاته واحد لا شريك له، وهو الذي يصدق عليه أنَّه وجود وموجود وموجد بنفس ذاته لا بجعل جاعل وليس هو إلَّا الواجب تعالىٰ، وما سواه فهو محض الفقر والفاقة، والتعلّق والارتباط بالواجب لا استقلال له في الوجود، وهذا معنىٰ المجاز العرفاني.

وفي الحقيقة ليس هذا بوحدة الوجود، ولا ينبغي التعبير عنه بوحدة الوجود، كما لم يعبّر هو، وإنَّما هو قول بالتوحيد الخاصّ أو الأخصّي، ولسنا أعداء لكلمة (التوحيد)، بل أعداء (الاتّحاد).

قال في المشاعر (ص ٨٣): (إيّاك أن تزلّ قدمك من استماع هذه العبارات وتتوهَّم أنَّ نسبة الممكنات إليه تعالىٰ بالحلول أو الاتّحاد ونحوهما، هيهاتَ! إنَّ هذه تقتضي الاثنينية في أُصول الوجود).

وإذا سلم صاحبنا من هذه المؤاخذاة فكلّ مؤاخذة أُخرىٰ يهون أمرها، وليس الإنسان معصوماً من الخطأ.

٢ _ رأيه في ابن عربي:

يكثر من النقل عن محيي الدين بن عربي المتوفّىٰ سنة (٦٣٨هـ) في جميع كتبه، ولا يذكره إلَّا بالتقديس والتعظيم، كالتعبير عنه بالحكيم العارف، والشيخ الجليل المحقّق، ونحو ذلك، بل في بعض المواضع ما يُشعِر بأنَّ قوله عنده من النصوص الدينية التي يجب التصديق بها ولا يحتمل فيها الخطأ.

هذا رأيه فيه، بينما أنَّ ابن عربي هذا سمّاه بعض الفقهاء، بمميت الدين أو ماحي الدين، كما جاء في روضات الجنّات (ص ٧٠٥)، بل قيل: إنَّ كلّ من يرىٰ في ابن عربي حسن اعتقاد، ويعتقد بآرائه فإنَّ الفقهاء لا بدَّ أن يعدوّه كافراً، كما في قصص العلماء (ص ٢٥٢)، ولئن دافع عنه القاضي السيّد نور الدين التستري في مجالس المؤمنين، وأوَّل كثيراً من كلماته، فإنَّ صاحب الروضات (ص ٧٠٥) لم يرضه ذلك، وقال: (لو كان الأمر كذلك لما بقي علىٰ وجه الأرض كافر ولا هالك)، انتهىٰ.

جاء في سفينة البحار في ترجمة ملَّا صدرا ما نصّه: قال شيخنا صاحب المستدرك في ذكر مشايخ المحدِّث الفاضل المولىٰ محسن الكاشاني: وسابعهم الحكيم المتألّه الفاضل محمّد بن إبراهيم الشيرازي

الشهير بملّا صدرا، محقّق مطالب الحكمة ومروّج دعاوي الصوفية بما لا مزيد عليه، صاحب التصانيف الشائعة التي عكف عليها من صدَّقه في آرائه وأقواله ونسج علىٰ منواله، وقد أكثر فيها من الطعن علىٰ الفقهاء وحملة الدين وتجهيلهم وخروجهم من زمرة العلماء، وعكس الأمر في حال ابن العربي صاحب الفتوحات، فمدحه ووصفه في كلماته بأوصاف لا تنبغي إلَّا للأوحدي من العلماء الراسخين.

مع أنَّه لم يُرَ في علماء العامّة ونواصبهم أشدّ نصباً منه، أليس هو القائل في الفتوحات في ذكر بعض حالات الأقطاب ما لفظه: (ومنهم من يكون ظاهر الحكم ويحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحسن ومعاوية بن يزيد وعمر بن عبد العزيز والمتوكّل)[1]، وهذا المتوكّل الذي عدَّه من الأقطاب وممَّن حاز الخلافة الظاهرة والباطنة، هو الذي صرَّح السيوطي الذي هو أيضاً من المتعصّبين في (تاريخ الخلفاء)[2] بأنَّه في سنة ستّ وثلاثين [ومائتين] أمر بهدم قبر الحسين عليه السلام وهدم ما حوله من الدور، وأن يعمل مزارع، ومنع الناس من زيارته، وخرَّب وبقي صحراء، وكان المتوكّل معروفاً بالتعصّب، فتألَّم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه علىٰ الحيطان، وهجاه الشعراء، وممَّا قيل في ذلك:

تالله إن كانت أُميّة قد أتَت ... قتل ابن بنت نبيّها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثلها ... هذا لعمري قبره مهدوما
أسفوا علىٰ أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبَّعوه رميما

---

(١) الفتوحات المكّية ٢: ٦.

(٢) تاريخ الخلفاء: ٣٧٤.

وصرَّح أيضاً فيه بأنَّ أصل الضلالات من الشيعة، وصرَّح في مسامرة الأبرار بأنَّ الرجعيين جماعة لهم رياضة من آثارها أنَّهم يرون الروافض بصورة الخنزير، وصرَّح في الفتوحات بعصمة ابن الخطّاب، وغير ذلك ممَّا هو نصّ علىٰ كونه من نواصبهم.

وتصريحه بكون المهدي الموعود صلوات الله عليه هو الحجَّة بن الحسن العسكري عليه السلام كما عليه الإمامية لا ينافي النصب فضلاً عن التسنّن كما أوضحناه في كتابنا (النجم الثاقب)، وله في هذا الاعتقاد شركاء من علمائهم ذكرنا أساميهم في الكتاب المذكور، ومع ذلك كيف يقول الإمامي في حقّه: المحقّق العارف بالله، ومن لا يجازف في القول وأمثال ذلك فيه وفي أضرابه.

ومن تصانيفه (شرح أُصول الكافي)، شرحه علىٰ مذاقه وعقائده وأُصوله ومطالبه، فاستحسنه من استصوبها واستحقره من استضعفها؛ بل في الروضات: فمنهم من ذكر في وصف شرحه علىٰ الأُصول: (شروح الكافي كثيرة جليلة قدراً، وأوَّل من شرحه بالكفر صدرا)، انتهىٰ.

٣ _ موقفه مع الفقهاء:

ففي (أعيان الشيعة) ما نصّه: من الأُمور التي سُجِّلَت علىٰ المترجَم، تحامله علىٰ الفقهاء وتوهينه لهم، بل علىٰ كلّ من اشتغل في العلوم، عدا من لهم رسوخ في الحكمة العرفانية.

قال صاحب المستدرك: (قد أكثر في كتبه من الطعن علىٰ الفقهاء وحملة الدين، وتجهيلهم وخروجهم من زمرة العلماء).

والحقّ أنَّ صاحبنا تجاوز الحدّ في الشكوىٰ الثائرة والنقد القاسي

الذي لا يطاق، راجع الرسائل الثمان له (ص ٢٥٨) في رسالة الواردات القلبية.

وفي تفسيره (ص ٣٥٢) في تفسير آية الكرسي، حينما بحث عن مسألة انقطاع العذاب، واستشعر مخالفة كلامه لإجماع الفقهاء، أخذ يقارن بين أصحابه أصحاب الشهود والعرفان، وبين الفقهاء، فالفقهاء عنده وإن كانوا عالمين بأحكام الله إلَّا أنَّهم في معرفة الذات والصفات والأفعال الإلهية كباقي المقلّدين من المؤمنين، بخلاف أهل التوحيد الشهودي.

ثمّ يطلب من خصومه _ وهم الفقهاء _ ألَّا يظنّ أحد منهم في أهل التوحيد الشهودي أنَّ ورعهم في أُمور الدين واحتياطهم في عدم القول في مسألة شرعية بمجرَّد الظنّ والتخمين يكون أقلّ من ورع غيرهم واحتياطهم! هذا من بعض الظنّ.

ثمّ يأخذ بالثناء علىٰ أهل التوحيد الشهودي بما يرفع من ضبعهم، ثمّ يقيسهم بغيرهم _ وهم من الفقهاء _ فيقول: (وأنّىٰ يوجد لغيرهم ما كان لهم، وهم في الحقيقة أولياء الله وقوّام الدين وفقهاء شريعة سيّد المرسلين).

وهنا حتَّىٰ كلمة (الفقهاء) يريد أن يسلبها من علماء الفقه ويعطيها لأصحاب الشهود.

وزاد علىٰ ذلك حتَّىٰ جعل كلّ آية قرآنية، وكلّ حديث نبوي، في مدح المؤمنين مختصَّاً بأهل الشهود التوحيدي، إلىٰ أن يقول: (فالقدح من أحد فيهم في مسألة اعتقادية دينية يدلُّ علىٰ قصور رتبة القادح وسوء الفهم وقلَّة انصافه).

وأكَّد اختصاص صفة (المؤمنين) بالعرفاء في أسرار الآيات (ص ٨)، بل لا يرىٰ للفقهاء شأناً في المعرفة والعلم والدين، إذ هو من جهة ينقدهم في تعظيمهم للفقه، ولا يرىٰ من الجدير بالإنسان أن يصرف عمره فيه، ومن جهة ثانية ينقد تهاونهم بالحكمة والفلسفة وأهلها، مع ما يشكوه مرّ الشكوىٰ في تحقيرهم له، ففي المبدأ والمعاد (ص ٢٧٨): (إذ ما كان له عند الناس رتبة أدنىٰ من آحاد طلبة العلم، ولا عند العلماء الذين أكثرهم أشقىٰ من الجهلاء قدر أقلّ تلاميذهم)، وما أقسىٰ كلمته عنهم: (أكثرهم أشقىٰ من الجهلاء).

ولا ندري هل أنَّ تحامل بعضهم عليه في مبدأ أمره هو الذي دفعه إلىٰ تعميم هذا النقد القاسي أو أنَّ تحامله عليهم هو الذي دفعهم إلىٰ نقده وتوهينه.

وعلىٰ كلّ حال، فهو لم يختصّ بنقد الفقهاء، بل تجاوز إلىٰ نقد جميع الناس علىٰ اختلاف طبقاتهم وطرقهم، من الحكماء أصحاب البحث والمتكلِّمين إلىٰ المتصوّفين والأطبّاء وعلماء اللغة والمؤرِّخين، بل اعتبر جميع الناس هالكين، وأنَّ الإيمان الحقيقي في غاية الندرة، بل لا يوجد في كلّ عصر إلَّا واحد أو اثنان[1]، بل عنده أكثر أهل الإسلام ظاهراً أهل الكفر والشرك باطناً.

ولم يرضَ أن يشتغل أحد بغير الحكمة العرفانية، وكلّ ما عداها علوم جزئية غير ضرورية الاشتغال بها مضيّعة للعمر وابتعاد عن الوصول إلىٰ النعيم الدائم، فنقد ابن سينا[2] في اشتغاله بالعلوم الجزئية، كاللغة، ودقائق الحساب وفزارنماطيقي وموسيقىٰ، وتفاصيل المعالجات

---

(١) أسرار الآيات: ٧.

(٢) الأسفار ٤: ١٢٧.

في الطبّ، وذكر الأدوية المفردة والمعاجين، وأحوال الدرياقات والسموم والمراهم والمسهّلات ومعالجة القروح والجراحات.

وكأنَّه إنَّما يعدّد كلّ هذه التفاصيل لأجل توهينها في نظر القارئ وتسخيفها، باعتبارها أُموراً غير ضرورية والاشتغال بها اشتغال بأُمور الدنيا وحبائلها، مع أنَّ ابن سينا في نظره (يجب أن يكون معرضاً عن الخلق طالباً للخلوة، آنساً بالله آيساً عن غيره).

ومن تهكّماته في المشتغلين بغير الحكمة العرفانية قوله في أسرار الآيات (ج ٢: ص ٦٥): (إن كنت من أهله وإلّا فغض بصرك عن مطالعة هذا الكتاب _ يعني أسرار الآيات _ والتدبّر في غوامض القرآن، وعليك بممارسة القصص والأخبار والروايات وعلم السير والأنساب، وتتبّع العربية واللغة وتحمّل الرواية من غير دراية، وما هو عندك كالنتيجة للكلّ _ يعرض بما يذكره الفقهاء في علم الأُصول من لزوم دراسة بعض العلوم مقدّمة للفقه _ من البحث عن المسائل الفرعية الخلافية، ونوادر تفريعات الطلاق والعتاق، والسلم والرهن والإجارة وقسمة المواريث...).

إلىٰ أن يقول: (وقد نصب الله لها كسائر الأُمور التي هي أدون منزلة منها أقواماً يعظّمون الأمر فيها ويصرّون عليها ويفرحون بها، وكلّ حزب بما لديهم فرحون، قيمة كلّ امرئ علىٰ قدر همّته).

وهكذا ينقم علىٰ الفقهاء علمهم، كما ينقم علىٰ غيرهم، ولا يرضىٰ بغير الحكمة علماً وبغير الحكماء علماء. وهذا كلّه غلوّ مفرط في فلسفته، ولا لوم علىٰ الفقهاء ولا علىٰ غيرهم إذا كان عندهم موضع التهمة والتجريح، وفي الحقيقة لم يقسوا عليه كما قسىٰ هو عليهم.

وإذا أردنا أن نأخذ برأيه كلّه في هذا الباب لوجب أن نعطّل جميع المعارف والعلوم وجميع الأعمال والمكاسب وجميع الأُمور المدنية، ليبقىٰ الإنسان معتكفاً في الكهوف منتظراً للواردات القلبية والمشاهدات العقلية، فيكون _ علىٰ حدّ تعبيره _ صوفياً صفا قلبه وخلص ضميره من كلّ شوب وغرض.

كان المنتظر من صاحبنا _ كفيلسوف خبر النفس الإنسانية ومتطلّباتها _ أن تكون نظرته إلىٰ الإنسان الاجتماعي بالطبع غير هذه النظرة الأنانية المتشائمة، والمنتظر منه _ كمسلم عرف الشريعة الإسلاميّة وما وضعت للبشر من تكاليف وأنظمة وقوانين _ أن يكون حكمه علىٰ الإنسان غير هذا الحكم الرهباني الذي ما أنزل الله به من سلطان.

وعلىٰ كلّ حال، فإنَّه _ وهو يعرف أنَّ كلّ إنسان ميسَّر لما خلق له، كما كرَّر ذلك في كتبه _ كان يجب أن تكون نظرته إلىٰ أفراد الناس أكثر تقديراً للواقع، وإنصافاً في الحكم، وحبّاً في الخير، ولا يبرّر تحامله علىٰ الناس، ذلك التحامل القاسي، إنَّه لاقىٰ عنتاً منهم أشرقه بريقه، فإنَّ هذا ليس من شيمة العلماء الإلهيين الذين يتطلَّبون صلاح البشر وهدايتهم إلىٰ الله تعالىٰ، فلا ينبغي أن ينتقم لنفسه منهم.

وإذا كان قصده إقلاعهم عمَّا هم عليه وإقبالهم علىٰ الحكمة والمعرفة الفلسفية، فليس هذا طريق ترغيب البشر وتحبيذ سبل النجاة لهم بالعنف والشتم والتحقير، بل يلزم للمرشد الهادي أن يأخذ بأيدي الناس إلىٰ الخير بالرفق والشفقة والمحبَّة.

وأكبر الظنّ أنَّ فيلسوفنا كان مصاباً بكبت عنيف نتيجة لحرمان قاس، وهو الذي دفعه _ فيما أظنّ _ إلىٰ العزلة في الجبال النائية خمسة

عشر عاماً، كما تحدَّثنا عنه في الفصول السابقة، ودفعه إلىٰ النفرة من الناس والنظر إليهم بمنظار أسود قاتم.

وإن كنت لم أستطع أن أقف علىٰ ظروفه الخاصّة، لأحكم علىٰ مصدر ذلك الكبت ونوع ذلك الحرمان.

ولعلَّ ذلك الكبت قد رافقه منذ الصغر، وهذا الذي حدَّد له اتّجاهه الفلسفي وطريقته العرفانية الصوفية، وإن كان قد يعتقد هو أنَّ تفكيره وعقله الواعي هو الذي ساقه إلىٰ اختيار هذا السبيل.

وقد نجد ما يشير إلىٰ ذلك الكبت والحرمان إعلانه للتذمّر والنقمة والقسوة في النقد كلَّما وجد لذلك مجالاً علىٰ الفقهاء، علىٰ المتكلِّمين، علىٰ الحكماء، علىٰ الصوفية، وتكاد تكون أكثر تلك الاندفاعات لا شعورية منبعثة من عقله الباطن.

وكونه الولد الوحيد المدلَّل لأبيه الوزير، وقد فقده في حداثة سنّه ما يعين علىٰ هذا الاستنتاج ويقرّبه إلىٰ التصديق، انتهىٰ.

مؤلَّفاته:

ففي كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٣٦٢): وقد وضع كتباً ضخمة في الفلسفة والحكمة الإشراقية، لا يزال بعضها المعين الوحيد الذي يرد عليه طلَّاب العلوم العقلية إلىٰ اليوم، وقد طُبِعَ أكثرها، بل كلّها _ كما قيل _.

وتتناول مؤلَّفاته المواضيع التالية علىٰ الأكثر:

أوَّلاً: ما يتعلَّق بمعرفة المبدأ الأوَّل، وصفاته، وآثاره، الذي هو جانب كبير من الفلسفة بمعناها الشامل، ودرسه عن الفلسفة الكلّية _ بما هي _ إنَّما هو لتلك الغاية.

ثانياً: معرفة الصراط المستقيم، ودرجات الصعود إليه تعالىٰ،

وكيفية السلوك إليه، وهو علم النفس، الذي هو جزئي من العلم الطبيعي، وبحثه عن ذلك إنَّما هو لغاية المعرفة المذكورة.

ثالثاً: معرفة المعاد، وأحوال الواصلين إليه تعالىٰ، وإلىٰ دار رحمته.

رابعاً: معرفة المبعوثين من عند الله تعالىٰ، لدعوة الخلق، ولنجاة النفس، كالأنبياء، والأوصياء، حتَّىٰ الأولياء عنده.

خامساً: ذكر أقوال المنكرين الجاحدين، وكشف فضائحهم، وسوىٰ ذلك ممَّا جاء في أثناء بحوثه عرضاً.

أمَّا مؤلَّفاته فهي علىٰ ما يلي:

١ _ الأسفار الأربعة، طُبِعَ للمرَّة الأُولىٰ في إيران علىٰ المطابع الحجرية في (٩٢٦) صفحة، وعليها حاشية الفيلسوف السبزواري علىٰ ثلاث مجلَّدات منه، وهذه الطبعة بالقطع الكبير في أربعة مجلَّدات عام (١٢٨٢هـ)، وقد حظىٰ هذا الكتاب بالاعتناء والاهتمام لدىٰ الفلاسفة والمفكّرين، فعلَّقوا عليه، وبلغت الحواشي التي وضعت عليه تسع حواشي قيّمة، ذكرها الطهراني في كتابه (الذريعة).

كما طُبِعَ للمرَّة الثانية في إيران أيضاً عام (١٣٧٨هـ)، وطُبِعَ علىٰ المطابع الحديثة، وعلىٰ ورق أبيض جيّد، وبترتيب حسن، وإخراج لا بأس به، وبهامشه ست حواشي، وهي:

الأُولىٰ: للحكيم آغا علي بن جمشيد النوري الأصفهاني المتوفّىٰ عام (١٢٤٦هـ).

الثانية: للفيلسوف هادي بن مهدي السبزواري (١٢١٢ _ ١٢٨٥هـ)، صاحب اللئالي المنظومة في الفلسفة، وصاحب شرحها، وغيرها من المؤلَّفات الفلسفية.

الثالثة: للفيلسوف الشهير آغا علي المدرس ابن عبد الله الزنوزي التبريزي، صاحب (بدائع الحكم) المتوفّىٰ عام (١٣١٠هـ).

الرابعة: للحكيم إسماعيل بن سميع الأصفهاني، تلميذ الحكيم علي النوري، المتوفّىٰ عام (١٢٧٧هـ).

الخامسة: للمدرّس الشهير محمّد بن معصوم الزنجاني، صاحب الحاشية علىٰ شرح منظومة السبزواري المتوفّىٰ عام (١٣٤٩هـ).

السادسة: للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي المعاصر، صاحب (تفسير الميزان) وغيرها من المؤلّفات.

ويحتوي كتابه الأسفار الأربعة علىٰ ما يلي:

١ _ الأُمور العامة، وهي كما قال: في النظر إلىٰ طبيعة الوجود وعوارضه الذاتية.

٢ _ العلم الطبيعي.

٣ _ العلم الإلهي، أو المعرفة الربوبية والحكمة الإلهية.

٤ _ علم النفس من مبدأ تكوينها إلىٰ آخر مقاماتها، وهو المعاد، وقد ألّفه في حياة أُستاذه الداماد المتوفّىٰ عام (١٠٤٠هـ)، لأنّه يدعو له فيه بطول البقاء عند ذكره له في (ج ٢/ ص ١١١).

ويظهر أنّ تاليفه للأسفار كان قبل عام (١٠١٥هـ)، لأنّه ذكره في آخر النسخة الخطّية لكتابه (المبدأ والمعاد) الذي انتهىٰ منه عام (١٠١٥هـ) وفي مقدّمته (ص ٣) ذكر سبق تأليف الأسفار عليه.

٢ _ المبدأ والمعاد، ويشتمل علىٰ (٣٧٠) صفحة بالقطع المتوسّط، طُبعَ سنة (١٣١٤هـ).

وهو في فنّين: الربوبيات، والمعاد، ومتوسّط في البيان، ينهج فيه

منهج الأسفار في الجمع بين مسلكي أهل البحث وأهل العرفان، وقد سبق ما يشير إلىٰ أنَّه متأخّر في التأليف عن الأسفار، وله نسخة خطّية قديمة في مكتبة السيّد محمّد مشكاة، وهي مهداة إلىٰ جامعة طهران برقم (٤٢١)، وفي مكتبة آل المظفَّر في النجف الأشرف نسخة منه، كُتِبَت بتاريخ (١٢٣٥هـ).

٣ _ الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، وهو كتاب مختصر علىٰ طريقته العرفانية، طُبِعَ سنة (١٢٨٦هـ) بالطبع المتوسّط في (٢٦٤) صفحة، ويقال: إنَّه آخر مؤلَّفاته، وفيه خلاصة آرائه في المسائل الفلسفية، وهو يصلح لتدريس المبتدئين، ومنه نسخة خطّية في مكتبة آل المظفَّر في النجف كُتِبَت عام (١٢٣٥هـ).

٤ _ أسرار الآيات وأنوار البيّنات، في معرفة أسرار آيات الله تعالىٰ وصنائعه وحكمه علىٰ الطريقة العرفانية، مع تطبيق الآيات القرآنية علىٰ أكثر بحوثه، طُبِعَ عام (١٢٩١هـ) بالقطع الكبير في (٢٠) صفحة، كما طُبِعَ مراراً.

٥ _ المشاعر، علىٰ الطريقة العرفانية أيضاً، طُبِعَ سنة (١٣١٥هـ) بالقطع الصغير في (١٠٨) صفحات طبعاً جيّداً مع تعليقات وحواش لجماعة من أعلام الفلسفة، وقد ردَّ عليه أحمد زين الدين الأحسائي.

٦ _ الحكمة العرشية، علىٰ الطريقة العرفانية أيضاً، ويقع في (٩٦) صفحة، طُبِعَ مع كتابه (المشاعر) في مجلَّد واحد، وقد تناوله بالردّ والنقد أحمد زين الدين الأحسائي أيضاً.

٧ _ شرح الهداية الأثيرية، طُبِعَ عام (١٣١٣هـ) بالقطع المتوسّط في (٣٩٧) صفحة، وقد نهج فيه منهج الفلسفة المشّائية وطريقة أهل

البحث والمنطق فقط، تبعاً للمتن (الهداية الأثيرية) التي هي من تأليف الفيلسوف أثير الدين مفضَّل الأبهري، من أعلام الفلسفة في القرن السابع الهجري، وقد توفّي _ كما قيل _ سنة (٦٦٣هـ).

٨ _ شرح إلهيات الشفاء، طُبِعَ سنة (١٣٠٣هـ) بالقطع الكبير في (٢٦٤) صفحة، مع (إلهيات الشفاء) في مجلَّد واحد، وهو غير تامّ، انتهىٰ به إلىٰ شرح المقالة السادسة، وكتاب الشفاء هو للرئيس ابن سينا.

٩ _ رسالة الحدوث، وهي رسالة مبسوطة في حدوث العلم، طُبِعَت سنة (١٣٠٢هـ) بالقطع المتوسّط في (١٠٩) صفحات في مجموعة تحتوي علىٰ ثماني رسائل أُخرىٰ، نذكرها بالتسلسل إلىٰ رقم (١٧)، وقد ذكرها في الأسفار في مواضع، منها في (ج ١/ ص ٢٣٣)، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّها أُلِّفت قبل الأسفار.

١٠ _ رسالة اتّصاف الماهية بالوجود، تقع في (١٠) صفحات عام (١٣٠٢هـ).

كما طُبِعَت أيضاً علىٰ هامش رسالته (التصوّر والتصديق) الآتية، أثبت فيها أصالة الوجود، وأنَّه صورة في الأعيان، ومجعول في ذاته، ومتشخّص بنفسه، وأنَّ الماهية موجودة به، متشخّصة من جهته.

ومسألة تأصل الماهية أو الوجود من المسائل البارزة التي تصوَّرت المواضيع الفلسفية المتعلّقة بأبحاث الوجود وما يتعلَّق به، وقد ذهب جماعة من الفلاسفة إلىٰ تأصّل الماهيات وأنَّ الوجود اعتباري صرف، وذهب آخرون إلىٰ أصالة الوجود واعتبارية الماهية، كما ذهب آخرون إلىٰ اتّحادهما، وأنَّهما معاً متأصّلان وليس أحدهما اعتبارياً والآخر متأصّلاً، ومن هؤلاء العلَّامة الشيخ هادي بن محمّد أمين الطهراني النجفي المتوفّىٰ

عام (١٣٢١هـ) فقد وضع رسالة في (اتّحاد الوجود والماهية) وأبطل فيها القول بتأصّل أحدهما دون الآخر.

١١ _ رسالة التشخّص، تقع في (١٢) صفحة.

١٢ _ رسالة سريان الوجود، التي يظنّ أنَّها نفس رسالته (طرح الكونين) الآتية، تقع في (١٦) صفحة، وهي متقدّمة بالتأليف علىٰ الأسفار، لاشتمالها علىٰ رأيه الذي عدل عنه في الأسفار، وهو القول بتأصّل الماهية، فإنَّه قال في الأسفار (ج ١/ ص ١٠): (إنّي قد كنت شديد الذبّ عن العرفاء في اعتبارية الوجود وتأصّل الماهيات، إلىٰ أن هداني ربّي، وانكشف لي انكشافاً بيّناً أنَّ الأمر بعكس ذلك)، كما أنَّ رأيه في وحدة الوجود في هذه الرسالة لا يتّفق مع رأيه في الأسفار.

١٣ _ رسالة القضاء والقدر، في (٩٠) صفحة.

١٤ _ رسالة الواردات القلبية، تقع في (٤٠) صفحة.

١٥ _ رسالة إكسير العارفين في معرفة الحقّ واليقين، في (٦٣) صفحة.

١٦ _ رسالة حشر العوالم، في (٣٠) صفحة، وطُبِعَت أيضاً علىٰ هامش المبدأ والمعاد (ص ١٨٤)، وعلىٰ هامش كشف الفوائد للعلَّامة الحلّي (ص ٩٤)، وهو المطبوع سنة (١٣١٢هـ)، وقيل: إنَّ هذه الرسالة هي نفس رسالته (طرح الكونين في حشر العالمين)، ولكن يبدو _ كما قيل _: إنَّها غيرها، بدليل أنَّه حيثما يشير في الأسفار إلىٰ طرح الكونين في (ج ١/ ص ١٠) يقول: (وعملنا فيه (أي موضوع وحدة الوجود) رسالة علىٰ حدة، سمَّيناها بطرح الكونين)، علىٰ أنَّه في فصول الحشر من الجزء الرابع من الأسفار لم يشر إلىٰ هذه الرسالة، ولو كانت هي نفس (طرح الكونين) المتقدّم في التأليف علىٰ الأسفار لأشار إليها عادة.

١٧ _ رسالة خلق الأعمال، في (٧) صفحات، كما طُبِعَت أيضاً علىٰ هامش كشف الفوائد (ص ١٤٩).

١٨ _ رسالته إلىٰ الملَّا شمسا الجيلاني في بعض المسائل العويصة، وهو شمس الدين محمّد الجيلاني الأصفهاني، أحد تلامذته ومعاصريه، المتوفّىٰ عام (١٠٩٨هـ)، طُبِعَت علىٰ هامش المبدأ والمعاد (ص ٢٤٠).

١٩ _ أجوبة المسائل الثلاث، التي كان وجَّهها الفيلسوف نصير الدين الطوسي إلىٰ شمس الدين الخسروشاهي، طُبِعَت علىٰ هامش المبدأ والمعاد (ص ٣٧٢)، وشرح الهداية (ص ٩٣).

٢٠ _ رسالة التصوّر والتصديق، طُبِعَت سنة (١٣١١هـ) بالقطع المتوسّط في (٣٠) صفحة، وهي ملحقة بكتاب (الجوهر النضيد) في المنطق للعلَّامة الحلّي.

٢١ _ رسالة في اتّحاد العاقل والمعقول، طُبِعَت في إيران، ومنها نسخة محفوظة في المكتبة الحسينية في النجف الأشرف في مجموعة برقم (١٢٤) الصنف السابع، تقع في (٣٥) صفحة بالقطع المتوسّط.

٢٢ _ كسر الأصنام الجاهلية في كفر جماعة الصوفية، ذُكِرَت هذه الرسالة في جملة مؤلَّفاته.

٢٣ _ جوابات المسائل العويصة، ذكرها في (الذريعة)، ولعلَّها هي أجوبة المسائل الثلاث المارّ ذكرها، أو أجوبة مسائل مظفَّر حسين الكاشاني، منها نسخة في مكتبة السيّد محمّد المشكاة المهداة إلىٰ جامعة طهران برقم (١٠٣٠).

٢٤ _ رسالة في حلّ الإشكالات الفلكية في الإرادة الجزافية، ذكرها في الأسفار (ج ١/ ص ١٧٦)، والفيلسوف السبزواري قال عنها في حاشيته: (لم نرَ تلك الرسالة).

٢٥ _ حاشيته علىٰ شرح الحكمة الإشراقية للسهروردي، طُبِعَ سنة (١٣١٦هـ).

٢٦ _ رسالة في الحركة الجوهرية.

٢٧ _ رسالة في الألواح المعادية.

٢٨ _ رسالته علىٰ الرواشح السماوية للسيّد الداماد.

٢٩ _ شرح أُصول الكافي، طُبِعَ في إيران بحوالي (٥٠٠) صفحة بالقطع الكبير، ولم يذكر تاريخ طبعه، وانتهىٰ فيه إلىٰ الحديث (٤٩٩)، وهو (باب أنَّ الأئمّة ولاة أمر الله وخزنة علمه).

٣٠ _ رسالة المظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية، طُبِعَت علىٰ هامش المبدأ والمعاد (ص ٢٧٢).

٣١ _ مفاتيح الغيب، طُبِعَ مع شرح أُصول الكافي في (٢٠٠) صفحة تقريباً بالقطع الكبير، وقد أَلَّفه مقدّمة لتفسيره الآتي.

٣٢ _ تفسير القرآن الكريم، يشتمل علىٰ تفسير جملة من السور والآيات، لم يتمّ، ويظهر أنَّه أَلَّفه ومن نيَّته تأليف تفسير كامل، فلم يمهله القدر، طُبِعَ سنة (١٣٢١هـ) أو سنة (١٣٢٢هـ) في (٦١٦) صفحة بالقطع الكبير.

وهو يشتمل علىٰ تفسير الفاتحة في (٤١) صفحة، وتفسير سورة البقرة في (٢٤٨) صفحة إلىٰ الآية (٦٥): ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾، وتفسير آية الكرسي في (٦٧) صفحة، وتفسير آية النور في (٦٧) صفحة، وطُبِعَ مستقلَّاً سنة (١٣١٣هـ)، وتفسير سورة السجدة في (٢٣) صفحة، وتفسير سورة يس في (٨٦) صفحة، انتهىٰ من تأليفه سنة (١٠٣٠هـ)، وتفسير سورة الواقعة في (٢٥) صفحة، وطُبِعَ مستقلَّاً

بقطع صغير، وتفسير سورة الحديد في (٤٢) صفحة، وتفسير سورة الجمعة في (٢٩) صفحة، وتفسير سورة الطارق في (٩) صفحات، وتفسير سورة الزلزلة في (٧) صفحات، وتفسير آية: ﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً﴾ (النمل: ٨٨)، في (٣) صفحات، وتفسير سورة الأضحىٰ طُبِعَت في ضمن مجموعة من تفاسيره سنة (١٣٢٢هـ)، وذكر ذلك في (الذريعة)، وتفسير سورة الأعلىٰ طُبِعَت علىٰ هامش (كشف الفوائد).

٣٣ _ جوابات المسائل في بدوّ وجود الإنسان، ذكره الذريعة (ج ٥/ ص ٢١٥).

الفلسفة والشريعة:

الفلاسفة ليسوا أعداء للدين والشريعة كما صوَّرها خصومهم، ولا معاندين ولا منكرين؛ بل يعتقدون أنَّ الشريعة السماوية ضرورية لهداية البشريّة؛ بل أمر لا بدَّ منه تقتضيها قاعدة اللطف الإلهي، ولا يمكن أن يترك الله عباده سدىٰ، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدى﴾ (القيامة: ٣٦).

وموقف فلاسفة الإسلام بالنسبة للشريعة الإسلاميّة ينبع من هذا الاعتقاد، فكلّهم وبلا استثناء حاولوا وبذلوا قصارىٰ الجهد أن يخدموا العقيدة ما استطاعوا إلىٰ خدمتها سبيلاً، وما البحث العقلي في الواجب والممكن، والحرّية، والعدالة، والجنَّة والنار إلَّا لإثبات هذه المعتقدات علىٰ أساس من العقل والاستدلال النظري.

ومن هنا كان ينبع ذلك العداء الشديد والخصومة اللدودة بين الفلاسفة والفقهاء، حيث إنَّ هذه الطائفة الأخيرة لم ترضَ بتفلسف الفلاسفة في الدين، وكانت الطائفة الأُولىٰ لم ترَ في الجمود وعدم

الاستدلال بالعقل ما يناسب العقيدة من جلال وجمال وروعة وبهاء؛ لأنَّ كلّ ما حكم به العقل حكم به الشرع.

ولا نريد الآن أن نستعرض هذا الصراع الطويل المرّ المملّ الذي شهدته القرون الخالية بين الفلاسفة والفقهاء؛ لأنَّه خارج بحثنا هذا، وإنَّما نريد الاختصار علىٰ موقف صدر الدين بالذات من الشريعة، وبهذا الاستعراض قد نستطيع أن نكشف النقاب عن الاتّجاه العامّ الذي سار فيه الركب الفلسفي منذ أوَّل فيلسوف ظهر في العالم الإسلامي، وهو الكندي إلىٰ العصر الذي نعيش فيه أنَّه اتّجاه واحد، وهو دعم الدين بالعقل، واتّخاذ العقل محوراً لإثبات ما جاءت في الشريعة من أحكام ومواضيع وأوامر.

وقبل صدر الدين بسبعمائة عام قال إخوان الصفا، كما يحدِّثنا عنهم أبو حيّان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة (ج ٢/ ص ٨٧): إنَّ الشريعة قد دُنِّست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلىٰ غسلها وتطهيرها إلَّا بالفلسفة الاعتقادية. والمصلحة الاجتهادية، وأنَّه متىٰ انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال.

ومن هذا المنطق انطلق فلاسفة الإسلام، لاستخدام كثير من القواعد الفلسفية اليونانية لدعم العقيدة الإسلاميّة.

فنظرية الجوهر الفرد والتي كانت نظرية يونانية قديمة، تنسب لديمقريطس، والتي كانت تستخدم لتفسير الكون تفسيراً مادّياً بحتاً استخدمها فلاسفة الإسلام لغرض يناقض تماماً الفكر اليوناني، حيث استخدمت النظرية لتفسير هذا العالم تفسيراً روحياً أو إلهياً، بحيث

أصبحت من الأدلَّة التي تستخدم لإثبات وجود الله عند الفلاسفة والمتكلِّمين علىٰ السواء.

ودليل الدور والتسلسل، وهما الدليلان اللّذان يتوقَّف علىٰ تفنيدهما إثبات واجب الوجود، كان مستخدماً في الفكر اليوناني، واستخدمها أرسطو لغرض يناقض غرض الإلهيين، إلَّا أنَّ فلاسفة الإسلام استخدموهما لإثبات وجود الله، وشقَّت هذه النظرية طريقها إلىٰ كلّ الكتب الفلسفية والكلامية، وأصبحت النظرية هي التي تهيمن علىٰ عقول فلاسفة الإسلام والمتكلِّمين علىٰ السواء.

وكلّنا نعلم أنَّ فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندي وضع كتاباً خاصّاً سماه: في تثبيت الرسل صلوات الله عليهم، وسلك في كتابه ذاك طريق العقل لكي يثبت أنَّ إرسال الأنبياء ضروري لهداية البشر، وبعد ثمانية قرون سلك سلفه من شيراز نفس الطريقة، وهو مريد دعم الشريعة بالعقل.

ونحن نستمع الآن إلىٰ صدر الدين كي يحدِّثنا عن ضرورة إرسال الأنبياء، ولكن بلغة وأدلة تختلف تماماً عمَّا استعملها سلفه البعيد.

يقول صدر الدين: (وإنَّه لا بدَّ وأن يدخل في الوجود رسول من الله ليعلِّم الناس طريق الحقّ ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم).

وفي الإشارة إلىٰ أسرار الشريعة وفائدة الطاعات، وفي معنىٰ ختم النبوَّة وانقطاع الوحي عن وجه الأرض وما يرتبط بهذه المعارف يقول[1]: (إمَّا إثبات النبيّ: فبما أنَّ الإنسان غير مكتفٍ بذاته في الوجود

(١) الشواهد الربوبية، المشهد الخامس.

والبقاء؛ لأنَّ نوعه لم ينحصر في شخصه فلا يعيش في الدنيا إلَّا بتمدّن واجتماع وتعاون، فلا يمكن وجوده بالإنفراد، فافترقت أعداد واختلفت أحزاب، وانعقدت صنّاع وأفراد وبلاد، فاضطرّوا في معاملاتهم ومناكحاتهم وجناياتهم إلىٰ قانون مرجوع إليه بين كافّة الخلق، يحكمون به بالعدل وإلَّا تغالبوا وفسد الجميع، وانقطع النسل واختلَّ النظام لما جبل عليه كلّ أحد من أن يشتهي لما يحتاج إليه، ويغضب علىٰ من يزاحمه فيه، وذلك القانون هو الشرع، ولا بدَّ من شارع يعيّن لهم منهجاً يسلكونه لانتظام معيشتهم في الدنيا، ويسنّ لهم طريقاً يصلون به إلىٰ الله، ويفرض عليهم ما يذكّرهم أمر الآخرة والرحيل إلىٰ ربّهم، وينذرهم يوم ينادون فيه من كلّ مكان قريب، وتنشقّ الأرض عنهم سراعاً، ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم.

ولا بدَّ أن يكون إنساناً؛ لأنَّ مباشرة الملك ليعلِّم الإنسان علىٰ هذا الوجه مستحيل، ودرجة باقي الحيوانات أنزل من هذا، ولا بدَّ من تخصّصه بآيات من الله دالّة علىٰ أنَّ شريعته من عند ربّهم العالم القادر الغافر المنتقم، ليخضع له النوع، ويوجب لمن وفِّق لها أن يقرّ بنبوَّته، وهي المعجزة، وكما لا بدَّ في العناية الإلهية لنظام العالم من المطر، والعناية لم تقتصر عن إرسال السماء مدراراً لحاجة الخلق، فنظام العالم لا يستغني عمَّن يعرفهم موجب صلاح الدنيا والآخرة.

نعم، من لم يهمل إنبات الشعر علىٰ الحاجبين للزينة لا للضرورة وكذا يعقر الأخمص في القدمين كيف أهمل وجود رحمة للعالمين، وسائق العباد إلىٰ رحمته ورضوانه في النشأتين.

فانظر إلىٰ عنايته في العاجل، وإلىٰ لطفه كيف أعد لخلقه بإيجاد

ذلك الشخص مع النفع العاجل السلامة في العقبىٰ، والخير الآجل، فهذا هو خليفة الله في أرضه.

فهذا النبيّ يجب أن يلزم الخلائق في شرعه الطاعات والعبادات ليسوقهم بالتعويد عن مقام الحيوانية إلىٰ مقام الملائكة (الملكية).

فمن العبادات ما هي وجودية إمَّا يخصّهم نفعها كالصلوات والأذكار علىٰ هيأة الخضوع والخشوع فيحرّكهم بالشوق إلىٰ الله، أو يعمّ نفعها لهم ولغيرهم كالصدقات والقرابين في هيكل العبادات.

ومنها ما هي عدمية تزكّيهم، إمَّا يخصّهم كالصيام أو يعمّهم وغيرهم كالكفّ عن الكذب وإيلام النوع والجنس، ويسنّ عليهم أسفاراً ينزعجون فيها عن بيوتهم طالبين رضا ربّهم ويتذكَّرون، ﴿فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (يس: ٥١).

فيزورون الهياكل الإلهية والمشاهد النبوية ونحوها، ويشرّع لهم عبادات يجتمعون عليها كالجمعة والجماعات فيكسبون مع المثوبة التودّد والايتلاف والمصافات، ويكرّر عليهم العبادات والأذكار في كلّ يوم، وإلَّا فينسون ذكر ربّهم فيهملون.

الفرق بين النبوّة والشريعة والسياسة:

نسبة النبوَّة إلىٰ الشريعة كنسبة الروح إلىٰ الجسد الذي فيه الروح، والسياسة المجرَّدة من الشرع كجسد لا روح فيه. وقد ظنَّ قوم من المتفلسفة أنَّه لا فرق بين الشريعة والسياسة، وبيَّن أفلاطون الإلهي فساد قولهم في كتاب (النواميس) وأوضح الفرق بينهما بوجوه أربعة منجهة المبدأ، الغاية، الفعل، والانفعال.

فقال: أمَّا المبدأ فلأنَّ السياسة حركة مبدؤها من النفس الجزئية تابعة لحسن اختيار الأشخاص البشرية ليجمعهم علىٰ نظام مصلح لجماعتهم.

والشريعة: حركة مبدؤها نهاية السياسة؛ لأنَّها تحرّك النفوس وقواها إلىٰ ما وُكِّلَت به في عالم التركيب من مواصلة نظام الكلّ؛ لأنَّها تحرّكها وتذكّرها معادها إلىٰ العالم الإلهي وتزجرها عن الانحطاط إلىٰ الشهوة والغضب وما يتركَّب عنهما ويتفرَّع عليهما. فإنَّ النفس إذا أعطت أحدهما غرضه سلكت بها مسالك بعيدة عن غايتها ومستقرّها، وعسر عليها طاعة الحقّ والإقامة علىٰ ما وكّلت به.

وأمَّا النهاية: فنهاية السياسة هي الطاعة للشريعة، وهي لها كالعبد للمولىٰ تطيعه مرَّة وتعصيه أُخرىٰ. فإذا أطاعته إنقاد ظاهر العلم باطنه وقامت المحسوسات في ظلّ المعقولات، وتحرَّكت الأجزاء نحو الكلّ.

وأمَّا الفرق بين الشريعة والسياسة من جهة الفعل: فأفعال السياسة جزئية ناقصة مستبقاة مستكملة بالشريعة، وأفعال الشريعة كلّية تامّة غير محتاجة إلىٰ السياسة، وأمَّا الفرق بينهما من جهة الانفعال، فإنَّ أمر الشريعة لازم لذات المأمور به، وأمر السياسة مفارق له، مثاله: إنَّ الشريعة تأمر الشخص بالصوم والصلاة فيقبل ويفعله بنفسه فيعود نفعه إليه.

والسياسة إذا أمرت الشخص تارة تبرقعه الملبوس وأصناف التجميل، وإنَّما ذلك من أجل الناظرين لا من أجل ذات الملابس[1].

---

(١) راجع: الجديد في فلسفة صدر الدين الشيرازي لموسىٰ الموسوي.

أسرار الشريعة والأحكام:

هـذا المبحـث مـن أخطـر المواضـيع التـي يبحثهـا صـدر الـدين في مؤلَّفاتـه الفلسـفية، بحيـث يريـد إثبـات فلسـفة للشـريعة الإسـلاميّة ومـا جاءت فيها من أُصول وفروع.

والتفلسـف في الشـريعة أمـر عسـير المـآل؛ لأنَّ ديـن الله لا يصـاب بـالعقول كـما جـاء في الروايـات المـأثورة عـن أهـل البيـت عليهم السلام[1]، ثـمّ إنَّ الشريعة تحوي علىٰ أُمـور تعبّديـة، أي واجبـات يجـب عـلىٰ المسـلمين العمـل بها مـن غـير أن يعرفـوا فلسـفتها وسـبب وجوبهـا، كـما أنَّ بعـض المحرَّمـات والمنهيّات لا يُعرَف لها سبب، إلَّا أنَّ الشريعة حرَّمتها ونهت عنها.

ولـذلك بحـث المتكلِّمـون ومـن بعـدهم الأُصـوليون (أي علـماء أُصـول الفقـه) بصـورة مسـهبة عـن هـذا الموضـوع بالـذات وهـو: هـل أنَّ الواجبـات الشـرعية والمحرَّمـات الشـرعية شُرِّعَـت لأسـباب ومصـالح نعلـم بعضـها ولا نعلـم الكثـير منهـا؟ أم هـل أنَّ الغـرض منهـا هـو إطاعـة الأمـر والانتهـاء عـن النهـي؟ أي إنَّ إطاعـة أمـر المـولىٰ وامتثـال أوامـره هـو الغرض وهي المصلحة، والسرّ يكمـن في هـذا الامتثـال الـذي أمـر بـه المـولىٰ أو نهىٰ عنه.

وقـد أراد بعـض الفقهـاء أن يعلّلـوا الأحكـام الشـرعية ويبيّنـوا سرائرهـا، فـألَّفوا الكتـب الكثـيرة والرسـائل المطوَّلـة، وابـن إدريـس الحـلّي وضـع كتابـاً في هـذا الموضـوع وسـمّاه بــ (سرائـر الأحكـام)، وسـبقه الصـدوق في تأليفـه (علـل الشـرائع)، إلَّا أنَّ الصـدوق وابـن إدريـس وغيرهما سلكا طريـق النقـل في إثبـات علـل الشـرائع وأسرارهـا أكثـر مـن

---

(١) كمال الدين: ٣٢٤/ باب ٣٢/ ح ٩.

العقل، أمَّا فيلسوفنا الشيرازي فقد بحث هذا الموضوع علىٰ الصعيد العقلي البحت، ولنستمع إليه كي يبيّن لنا أسراراً لأهمّ أُسس الشريعة وأُصولها.

أمَّا السبب الذي دعا فيلسوفنا كي يبيّن أسرار الشريعة وفائدة الطاعات _ أمثال الوجبات الدينية _ فكما يقول نصَّاً:

(قد أومأنا لك فيما مضىٰ، إلىٰ أنَّ حقيقة الإنسان حقيقة جمعية ولها وحدة تألّفية كوحدة العالم ذات مراتب متفاوتة في التجرّد والتجسّم والصفاء والتكدّر، ولهذا يُقال له: (العالم الصغير).

لأنَّ جملته منتظمة من مراتب موجودات العالم التي علىٰ كثرتها منحصرة في أجناس ثلاثة وهي: العقليات، والمثاليات، والمحسوسات، فكذلك الإنسان كما مرَّ مشتمل علىٰ شيء كالعقل، وشيء كالنفس، وشيء كالطبع، ولكلّ منها لوازمه، ولكن كماله من أن ينتقل من حدّ الطبع إلىٰ حدّ العقل ليكون أحد سكّان الحضرة الإلهية، وذلك إذا تنوَّر باطنه بالعلم وتجرَّد عن الدنيا بالعمل، وكما أنَّ طبقات العلم كلّها يجمعها رباط واحد يتَّصل بعضها ببعض، فكذلك هيئآت النفس والبدن ويتصاعد ويتنازل من أحدهما إلىٰ الآخر، فكلّ منهما ينفعل عن صاحبه، فكلّ صفة جسمانية أو صورة حسّية صعدت إلىٰ عالم النفوس صارت هيأة نفسانية، وكلّ خلق أو هيأة نفسانية نزلت إلىٰ البدن، حصلت له انفعال يناسبه، كذلك الفكر في المعارف الإلهية وسماع آية من صحائف الملكوت، قد يفعل بالقلب ما يحرّكه عن موضعه ويزيله عن مستقرّه.

فالغرض إذن من وضع النواميس (أي الشرائع) ووجوب الطاعات هو استخدام العين للشهادة وخدمة الشهوات العقول (أي

الشواهد الربوبية)، وإرجاع الجزء إلىٰ الكلّ، وسياقة الدنيا إلىٰ الآخرة وتصيير المحسوس معقولاً، وكذلك قال بعض الحكماء: (إذا قام العدل خدمت الشهوات للعقول، وإذا قام الجور خدمت العقول للشهوات).

فطلب الآخرة أصل كلّ سعادة و«حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[1]، وليكن هذا عندك أصلاً جامعاً في حكمة كلّ ما مأمور به أو منهي عنه في الشريعة الإلهية علىٰ لسان التراجمة (يقصد بالتراجمة الأئمّة عليهم السلام)، فإنَّك إذا تدبَّرت في كلّ ما ورد به الحكم الشرعي لم تجده خالياً من تقوية الجنبية العالية.

فاحفظ جانب الله وملكوته وحزبه في كلّ ما تفعله أو تتركه، وارفض الباطل وأعرض عن الشهوات وحارب أعداء الله وجنود الشياطين بالجهاد الأكبر ليفتح لك باب القلب وتدخل كعبة المقصود في: ﴿سُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾ (الحديد: ١٣).

أمَّا سرّ الصلاة فخشوع الجوارح وخضوع البدن بعد تنظيفه وتطهيره، وما يكتف به مع ذكر الله باللسان وتحميده وتمجيده، والإعراض من الأغراض الحسّية والامتناع منها بكفّ الحواسّ، وذكر أحوال الآخرة والموت، والتشبّه بالمقدّسين المسبّحين من عباد الله المخلصين، وأنَّها توجب عروج القلب والروح إلىٰ الحضرة الإلهية والإقبال علىٰ الحقّ، والاستعاضة عن عالم الأنوار، وتلقّي المعارف والأسرار والاستمداد من ملكوت السماوات.

ولكلّ هذا فإنَّها وضعت عبادة شاملة لهيئآت الخضوع والخشوع وإتعاب

---

(١) الكافي ٢: ١٣١/ باب ذمّ الدنيا والزهد فيها/ ح ١١.

الجوارح مع شرائط التنضيف والتنزيه، وقصد القربىٰ وصدق النيَّة والأذكار المذكّرة لنعم الله وثناء ربّ العالمين بما هو أهله ومستحقّه، وقراءة الكلام النازل في الوحي الإلهي علىٰ عبده المقرَّب حين عروجه إلىٰ عالم النور، مع تدبّر معانيه والتأمّل في حقائق مبانيه، ليكون مرقاة للعبد إلىٰ الله معراجاً له إلىٰ الوجهة الكبرىٰ، كما ورد: «الصلاة معراج المؤمن»[1].

وأمَّا الركوع فهو كتمكين الرجل من نفسه من حاول ضرب عنقه فإنَّه لا يجد نصبة أمكن من الركوع، هكذا ذكر في نواميس أفلاطون موافقاً لما روي عن علي عليه السلام[2].

وأمَّا السجود فوضع الجبهة علىٰ التراب، يزيل صفة الغضب وتوابعه وهو أحد الموذيات للروح.

وأمَّا الصوم فيكسر به قوَّة الشهوة الغالبة، ويضعف سورة أعداء الله فيك، ويسدّ مجاري جنود إبليس، وهو جُنَّة من النار.

وأمَّا الحجّ فقد علمت أنَّ لكلّ علَّة مع معلولها، ولكلّ مفيض مع المستفيض عنه مناسبة تامّة، فتأكيد المناسبة بينهما يوجب تأكيد علاقة الإفاضة والاستفاضة، وأنَّ لكلّ حقيقة عقلية في هذا الكون مثالاً جسمانياً، ومن قصر طرفه عن مشاهدة العقليات يجب عليه العكوف علىٰ أمثلتها لئلَّا يكون محروماً عن الثواب بالكلّية مسلماً عن الخطاب.

فكما وجب علىٰ الروح التمسّك بحضرة القدس الحقيقي، وجب علىٰ الهيكل وقواه مشاهدة الروح تمثّلاً وحكايةً، أوَلا ترىٰ أنَّ المفكّر في أمر قدسي لا يخلو بدنه عن حركات وهيئات مناسبة لارتباط الظاهر

---

(١) تفسير الرازي ١: ٢٦٦.

(٢) راجع: علل الشرائع ٢: ٣٢٠/ باب ١٠/ ح ١.

بالباطن؟ فالتوجّه إلىٰ بيت الله والإحرام في سبيله عن الملاذّ والشهوات الحيوانية من النساء والطيب وغير ذلك بنيَّة خالصة، ممَّا يعدّ الروح للتوجّه من بيت النفس إلىٰ كعبة المقصود والوجهة الكبرىٰ بالتجرّد عن قوىٰ البدن وملاذّها الدنياوية والنسك عند تشبّهها بالأشخاص العالية، والإحرام الكريمة في حركاتها الشوقية الدورية الحاصلة من إشراق مبادئها الفائضة تشوقّاً إلىٰ مبدأ الكلّ، إذ منه مبدئها وإليه منتهاها كما سبق، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها﴾ (البقرة: ١٤٨).

وهو الذي أفاد فيها شوقاً يوجب الطواف، فللَّه درَّ طائفة بالكعبة تقرَّبت إلىٰ الله.

وأمَّا الزكاة فتوجب صرف النفس عن التوجّه إلىٰ الأُمور الدنيّة، ففيها تحصل ملكة التنزّه عن غير الله، وعدم الأمر بترك المال بالكلّية لصلاح العالم ومؤنة المعونة والصرف علىٰ الفقراء والمساكين.

وأيضاً منافع الدنيا مشتركة محصورة، وحبسها علىٰ بعض الناس قبيح عقلاً، وكلَّما كان احتياج الخلق إليه أكثر وجب أن تكون مشتركة فيه بينهم والتوزيع له عليهم أحقّ.

وأمَّا الجهاد ففيه مع دفع أعداء الله ومحاربة القاطعين لطريقه نجاة الخلق عن مهالك الآخرة وترك التوجّه إلىٰ هذه النشأة الزائلة، وتوطين النفس علىٰ بذل المهجة والمال والأهل والولد في سبيل الله، فزهوق الروح عن الدنيا علىٰ مثل هذه الحال يوجب حسن الخاتمة والقدوم علىٰ الله في صفة الملائكة المقدَّسين، ثمّ لا يفوت منه شيء يكون حسرة عليه؛ لأنَّ أُمور الدنيا كلّها بصدد الزوال وفي وجودها آفات كثيرة، وليس الغرض منها إلَّا تحصيل الزاد للآخرة والمناسبة مع أهلها وقد حصل.

فهذا الذي ذكرناه في هذا المقام أو غيره هو مقدار قوّتنا ومبلغ طاقتنا في هذه الأحكام الخمسة، ونحن نعجز عن العلم بجملة ما تفيدنا الشريعة الحقّة، ونعلم أنَّ ما بقي علينا من لطف الحكمة فيها شيء غامض لا نسبة له إلىٰ ما بلغ إليه أفهامنا، إلَّا أنّا نعلم يقيناً بما منحنا واهب العلوم وملهم الحقائق، أنَّ غرض واضع النواميس في إصلاح جزئنا الشريف وقصده إلىٰ تهذيب جوهرنا الباقي يوم القيامة أكثر وأوكد من إصلاح جزئنا الأخسّ وجوهرنا الفاسد.

فإنَّ الإنسان، كما بيّن أتمّ تبيين، مركَّب من جوهر صوري ناطق وجوهر مادّي ميّت صامت، ولتركّبه من هذين الجوهرين صار حسّاساً متحرّكاً ذا قوَّة وشهوة وغضب فيصير عند انكبابها إلىٰ متابعة هاتين القوَّتين وإمضاء دواعيهما، والسعي في تحصيل بغيتهما بعيداً من الحيّ الباقي حتَّىٰ أنَّ الواغلين في تمهيد أسباب هاتين الحياتين يُعَدُّ عند العقلاء من جنس البهائم والسباع علىٰ الحقيقة.

فوضعت الشريعة النبوية لطفاً من الله سبحانه في مداواة هذين المرضين، وبانكسارهما ينكسر جنود إبليس ويندفع مكايد هذا اللعين. فالله تعالىٰ أرسل رسولاً وأنزل كتاباً يهدي إلىٰ الرشد، فمن صدَّق نبيَّه وسمع كتابه اهتدىٰ به وخلص من رقِّ النفس والهوىٰ، ومن لم يسمع وعمىٰ عن ذلك أو نبذه وراء ظهره فقد ضلَّ وغوىٰ وبقي في الهاوية وتردّىٰ.

أمَّا الضابطة التي يُعلَم بها كبائر المعاصي عن صغارها، فقد اختلف فيها الفقهاء اختلافاً لا يرجىٰ زواله، إلَّا أنَّ الناظر في معالم الدين ببصيرة أفادها الله نور اليقين يعلم ويحقّق بشواهد الحقّ ومناهج الشرع،

أنَّ مقصود الشرائع كلّها سياقة الخلق إلىٰ جوار الله وسعادة لقائه، والارتقاء من حضيض النقص إلىٰ دورة الكمال ومن هبوط الدنيا إلىٰ شرف الآخرة، وذلك لا يتيسَّر إلَّا بمعرفة الله ومعرفة صفاته والاعتقاد بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما مرَّ.

إنَّ قوام الممكن بالواجب، وقوام النفس بالعقل، وقوام العقل بالباري جلَّ اسمه، وإنَّ النفس الإنسانية في أوَّل الأمر شيء بالقوَّة شبيهة بالعدم بحسب النشأة الثانية، وإن كانت صورة طبيعته متحرّكة حسّاسة بحسب هذه النشأة الأُولىٰ، فإنَّها حسّاسة بالفعل، علَّامة بالقوَّة، فما لم يعلم ذاتها بالعبودية وبارئها بالربوبية، فلا قوام له في القيامة لما ذكرنا: أنَّ قوام العبد بالربّ، وقوام النفس بالمعرفة وبصيرورتها جوهراً عقلياً، وعالماً ربّانياً إلهياً، وكما أنَّ العبودية والمربوبية مقوّم لها، كذلك الإلهية والربوبية عين ذاته تعالىٰ، ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

أي ليكونوا عبيداً وتحقّقوا به بالعرفاء، وفيه سرّ النفس وسرّ قوله عليه السلام: «ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه»[1]، وسرّ قوله تعالىٰ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩).

فإذا ثبت أنَّ مقصود الشرائع معرفة النفس بقيّومها والصعود إلىٰ بارئها بسُلَّم معرفة ذاتها والانتباه من رقدة الطبيعة، والخلاص من موت الجهالة والعروج من ظلمات الهوىٰ وغشاوة هذا الأدنىٰ.

وهذا نوع من الحركة، والحركة لا تكون إلَّا في زمان، فالارتقاء من حضيض النقصاء إلىٰ ذروة الكمال لا يتحصَّل إلَّا في مدَّة من الحياة

---

(١) شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين: ٥٧/ الكلمة الثالثة.

الدنيا، فصار حفظ هذه الحياة التي هي النشأة الحسّية مقصوداً ضرورياً للدين لأنّه وسيلة إليه كما أشار إليه عليه السلام: «الدنيا مزرعة الآخرة»(١).

فكلّما يتوقّف عليه تحصيل المعرفة بالله يكون ضرورياً واجباً تحصيله، وترك ما يضادّه وينافيه، ثمّ إنَّ المتعلّق من أُمور الدنيا بتحصيل الزاد للآخرة شيئآن: النفوس والأموال وأسبابها.

فمن هاهنا يُعلَم أنَّ أيّ الأعمال الدنيوية، أفضل الوسائل المقرّبة به إلىٰ طلب الفوز بالآخرة، وأيّها أكبر المعاصي عن ذلك، فإنَّه إذا كانت المعرفة بالله واليوم الآخر هي الثمرة العليا والغاية القصوىٰ، فأفضل الأعمال شهادة التوحيد والإقرار بالربوبية لله والرسالة لرسوله والطاعة لأُولي الأمر من الأئمّة عليهم السلام، فما يحفظ به المعرفة علىٰ النفوس هو أفضل الأعمال، ويليه ما ينفع في ذلك ويبلغ بسببه إلىٰ كمالها في الرسوخ بحيث لا تتزلزل عند تصادم الأهواء والشكوك، وهي الطاعات المقرّبة إلىٰ الله كالصلاة والصيام والحجّ والزكاة والجهاد، فإنَّها بمنزلة السقي لبذر المعرفة في أرض القلب حتَّىٰ ينمو ويبلغ إلىٰ حدّ الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

وهو ممَّا يتوقَّف علىٰ بقاء الحياة علىٰ البدن مدَّة، فما ينحفظ به الحياة علىٰ الأبدان يتلو في المرتبة عمَّا ينحفظ به المرتبة علىٰ النفوس، ويتلو هاتين المرتبتين ما يكون نافعاً في حفظ الحياة علىٰ الأبدان، وهو ما يحفظ به الأموال ويتعيَّش به الأشخاص إلىٰ أن يترقّىٰ إلىٰ درجة الكمال.

فهذه ثلاث مراتب ضرورية في غرض النواميس عقلاً، فأكبر الكبائر ما يسدّ باب معرفة الله، ويليه ما يسدّ باب الحياة علىٰ النفوس، ويلي ذلك ما يسدّ به

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٦٧/ ح ٦٦.

باب المعيشة عليها، فلا كبيرة في المعاصي فوق الكفر، كما لا فضيلة فوق الإيمان علىٰ مراتبه في قوّة المعرفة وضعفها؛ لأنَّ الحجاب بين العبد وبين الله هو الجهل، ويتلو الجهل بحقائق الإيمان أعني الكفر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإنَّ هذا باب من الجهل بل عينه، فمن عرف الله لم يتصوَّر أن يكون آمناً من مكر الله، ولا أن يكون آيساً من رحمته، ويتلو هذه المرتبة البدع كلّها المتعلّقة بذاته وصفاته وأفعاله، وبعضها أشدّ من بعض.

المرتبة الثانية قتل النفس الزكية، إذ ببقائها تدوم الحياة، وبدوامها تحصل المعرفة والإيمان بالله وآياته، فهو لا محالة من الكبائر، وإن كان دون الكفر؛ لأنَّه يصدم عن المقصود، وهذا يصدم عن وسيلته. ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف، وكلّ ما يفضي إلىٰ الهلاك حتَّىٰ الضرب، وبعضها أكبر من بعض، ومن هذه المرتبة في التحريم الزنا واللواط فإنَّه لو اجتمع الناس علىٰ الاكتفاء بالذكور لانقطع النسل، ودفع الوجود قريب من رفعه، وأمَّا الزنا فإنَّه وإن لم يفوّت أصل الوجود لكن تشوّش الأنساب، ويبطل التوارث والتناسل وما يتعلَّق بهما من عدم انتظام العيش وتحريك أسبابٍ يفضي إلىٰ التقاتل.

المرتبة الثالثة الأموال؛ لأنَّها معائش الخلق فلا بدَّ من حفظها من التلف والغصب، لكنَّها يمكن استردادها إذا أُخذت وتغريمها إذا أُكلت، فليس يعظم الأمر فيها...

ثمّ لا يخفىٰ أنَّ للشريعة ظاهراً وباطناً وأوَّلاً وآخراً، واعلم أنَّ لكلّ حقّ حقيقة، والشريعة لكونها أمراً ربّانياً ووحياً إلهياً جاء من عند الله ونزلت به ملائكته ورسله، فأحرىٰ بها أن تكون ذا حقيقة.

فهي كشخص إنساني له ظاهر مشهور وباطن مستور، وله أوَّل محسوس وآخر معقول، هو روحه ومعناه، ظاهره متقوّم بباطنه، وباطنه متشخّص بظاهره.

أوَّله قشر صائن، وآخره لب كائن بائن، فمن أقبل علىٰ ظاهر الشريعة دون باطنها كان كجسد بلا روح يتحرَّك بلا قصد كطير مذبوح، فلا يزال يتعب بدنه في الحركات ويزداد سعيه في صورة الطاعات، ولا وزن لها عند الله، مجرَّدة عن النيّات لا تحصل بها الزلفىٰ، إذ هي من الدنيا لأنَّها أُمور محسوسة زائلة تغيّر المجمود علىٰ الصورة منفكّاً عن روح اليقين.

وهو عند نفسه أنَّه علىٰ شيء من الدين؛ بل هو مستخدم للشريعة مطواع للطبيعة كالدين، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴿١٠٤﴾﴾ (الكهف: ١٠٣ و١٠٤).

إلَّا أن يتوب عن اشتغاله بغير الحقّ، ويسلك سبيل الله، ويستقيم علىٰ صراطه حتَّىٰ يكتسب روحاً كاملة ونعمة شاملة، ترفعه إلىٰ السماء العالية وتنجيه عن الهوىٰ في الهاوية.

ومن كان مقبلاً علىٰ العلوم الحقيقية والآراء العقلية وهو متغافل عن إقامة الظواهر الشرعية متكاسل عن طاعة النسك الدينية التكليفية، فهو كذي روح قد انتقلت من جسدها وفارقت كسوتها الساترة لعورتها، فيوشك أن تنكشف سوأته وتنتهك علىٰ الخلائق عورته، إذا اراد أن يخرج بصورته المجرَّدة قبل قوامها في غير أوانها، ونطق بالحكمة قبل نضجها وتمامها في غير زمانها، فلا شكَّ أنَّ حقّه يزهق وعلمه يتمزَّق...

واعلم أنَّ النبوَّة والرسالة منقطعتان بوجه دون وجه، كما قاله بعض العارفين، انقطع منها مسمّىٰ النبيّ والرسول، وانقطع نزول الملك حامل الوحي علىٰ نهج التمثيل، ولهذا قال ﷺ: «لا نبيّ بعدي»، ثمّ أبقىٰ حكم المبشّرات وحكم الأئمّة المعصومين عن الخطأ عليهم السلام، وحكم المجتهدين وأزال عنهم الاسم

وبقىٰ الحكم، وأمر من لا علم له بالعلم الإلهي أن يسأل أهل الذكر كما قال تعالىٰ: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

فيفتونه بما أدّىٰ إليه اجتهادهم، وإن اختلفوا كما اختلفت الشرائع، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ (المائدة: ٤٨)، وكذلك جعل لكلّ مجتهد شرعة من دليله ومنهاجاً، وهو ما عيَّن دليله في إثبات الحكم، وحرَّم عليه العدول عنه، وقرَّر الشرع الإلهي ذلك.

فالنبوَّة والرسالة من حيث ماهيتها وحكمها ما انقطعت وما نسخت، وإنَّما انقطع الوحي الخاصّ بالرسول والنبيّ من نزول للملك علىٰ أُذنه وقلبه، فلا يقال للمجتهد ولا الإمام: إنَّه نبيّ أو رسول. وأمَّا الأولياء فلهم في هذه النبوَّة مشرب عظيم لاسيّما قد روي أنَّه قال ﷺ: «إنَّ لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيّون»[١]، وقال ﷺ: «إنّ في أمّتي محدَّثين مكلَّمين»، وقال ﷺ: «إنَّ من حفظ القرآن قد أُدرجت النبوَّة بين جنبيه»[٢].

فإنَّها له غيب وهي للنبيّ شهادة، فهذا هو الفرقان بين النبيّ والوليّ في النبوَّة، يقال فيه: نبيّ، ويقال في الوليّ: وارث.

والوليّ والوارث وهما اسمان إلهيّان، ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: ٢٥٧)، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩)، فالولاية نعت إلهي، وكذا الوراثة، والوليّ لا يأخذ النبوَّة من نبيّ إلَّا بعد أن يرثها الحقّ منه، ثمّ يلقيها إلىٰ الوليّ ليكون ذلك أتمّ في حقّه، وبعض الأولياء يأخذونها وراثة من النبيّ ﷺ وهم الذين شاهدوه كأهل بيته عليهم السلام ثمّ العلماء يأخذونها خلفاً عن سلف إلىٰ يوم القيامة.

---

(١) أُنظر: الكافي ٢: ١٢٦/ باب الحبّ في الله والبغض في الله/ ح ٧.

(٢) أُنظر: الكافي ٢: ٦٠٤/ باب فضل حامل القرآن/ ح ٥.

وأمّا الأولياء يأخذونها عن الله من كونه ورّثها وجاد بها علىٰ هؤلاء، فهم أتباع الرسل بمثل هذا السند العالي المحفوظ: ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصّلت: ٤٢).

قال أبو يزيد: «أخذتم علمكم ميّتاً عن ميّت، وأخذت عن الحيّ الذي لا يموت».

وقال سبحانه لنبيّه في مثل هذا المقام لـمّا ذكر الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

وكانوا قد ماتوا وورثهم الله والله خير الوارثين، ثمّ جاء علىٰ النبيّ بذلك الهدىٰ الذي هداهم به، وهكذا بيّنه علم الأولياء اليوم بهدي النبيّ وهدي الأنبياء صلوات الله عليهم أخذوه عن الله ألقاه في صدورهم من لدنه رحمة بهم وعناية سبقت لهم عند ربّهم، كما قال في حقّ عبده الخضر: ﴿آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: ٦٥).

وهذه النبوّة سارية في الحيوان، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ (النحل: ٦٨ و٦٩).

فمن علّمه منطق الحيوانات وتسبيحي النبات والجماد، وعلم صلاة كلّ واحد من المخلوقات وتسبيحه، علم أنَّ النبوَّة سارية في كلّ موجود، لكنّها لا تُطلَق اسم النبيّ والرسول إلَّا علىٰ واحد منهم. وعلىٰ الملائكة خاصّة الرسل منهم، وهم الملائكة وكلّ روح لا يُعطىٰ رسالة فهو روح ولا يقال له: ملك إلَّا مجازاً)[1].

* * *

(١) الشواهد الربوبية: ٣٦٦ - ٣٧٩.

(٥٠)

الشيخ البهائي

محمّد بن الحسين بن عبد الصمد(١)

محمّد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الجبعي، نسبة إلىٰ جبع _ بالجيم والباء المنقّطة تحتها نقطة _ وهي قرية من قرىٰ جبل عامل. والحارثي نسبة إلىٰ الحارث الهمداني، الذي كان من خواصّ أصحاب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وهو المخاطب بقول أمير المؤمنين عليه السلام بالأبيات المشهورة(٢):

يا حار همدان من يمت يرني ... من مؤمن أو منافق قبلا
يلحظني طرفه وأعرفه ... باسمه والكنىٰ وما فعلا
وأنت عند الصراط معترضٌ ... فلا تخف عثرة ولا زللا
أسقيك من باردٍ علىٰ ظمأ ... تخاله في الحلاوة العسلا
أقول للنار حين تعرض للعرض ... ذريه ولا تقربي الرجلا

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٣٩٨؛ سلافة العصر: ٢٨٩؛ روضات الجنّات ٧: ٥٦؛ أعيان الشيعة ٤٤: ٢١٦؛ تراث العرب العلمي: ٤٢٧؛ نزهة الجليس ١: ٣٧٧؛ أمل الآمل ١: ١٥٥؛ لؤلؤة البحرين: ١٦؛ معجم المؤلّفين ٩: ٢٤٢؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٩١؛ معجم أعلام المورد: ٢٧٩؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٨٥؛ مقدّمة كتابه الكشكول طبعة النجف.

(٢) الأبيات للسيّد الحميري، راجع: ديوان الحميري: ٨٣ باختلاف يسير.

ذريـــــه لا تقربيـــــه إنَّ لــــــه   حـــبلاً بحبــل الــوصيّ متَّصــلا

وكـانوا مخلصـين في ولاء عـلي عليه السلام ، وصـبروا معـه يـوم صـفّين، روي أنَّهـم في بعـض أيّامهـا حـين اسـتحرَّ القتـل ورأوا فـرار النـاس، عمـدوا إلىٰ أغــماد سـيوفهم فكســروها، وعقلــوا أنفســهم بعمائمهــم وبركــوا للقتــل، فقال فيهم علي عليه السلام :

همــدان أخـــلاق وديـــن يزيّنهـــا   وبـأس إذا لاقــوا وحســن كــلام

فلـو كنـت بوّابـاً عـلىٰ بـاب جنَّـة   لقلــت همــدان أُدخلــوا بســلام

وقال عليه السلام يوم الجمل: «لـو تمَّـت عـدَّتهم ألفـاً لعُبِـدَ الله حـقّ عبادتـه»، وكان إذا رآهم يتمثَّل بقول الشاعر:

ناديـت همـدان والأبـواب مغلقـة   ومثـل همـدان سـني فتحـة البـاب

كالهنـــدواني لم تفلـــل مضـــاربه   وجه جميل وقلـب غـير وجـاب[1]

وإلىٰ ذلـك يشـير الشـيخ جعفـر الخطـي شـاعر البحـرين في قصـيدته الرائيـة التـي عـارض بهـا رائيـة البهـائي المسمّاة (روح الجنـان) المـذكورة في ترجمته بقوله:

فيـا ابـن الأُلىٰ أثنـىٰ الـوصيّ علـيهم   بـما لـيس تثنـي وجهـه يـد إنكـار

بصـــفّين إذ لم يلـــف مـــن أوليائـــه   وقد عضَّ نـاب للـوغىٰ غـير فـرّار

وأبصـر مـنهم جـنَّ حـرب تهـافتوا   علىٰ الموت إسراع الفـراش إلىٰ النـار

سراعـاً إلىٰ داعـي الحـروب يرونهـا   عـلىٰ شربهـا الأعـمار منهـل أعـمار

أطاروا غمود البـيض واتَّكلـوا عـلىٰ   مفـارق قـوم فـارقوا الحـقّ فجّـار

(١) الجوهرة في نسب الإمام علي وآله للبري: ٢٥.

وأرسوا وقد لاثوا علىٰ الركب الحبىٰ ... بروكـــاً كهـــدي أبركـــوه لجـــزّار
فقـال وقـد طابـت هنالـك نفسـه ... رضىٰ وأقـــرّوا عينـــه أيّ إقـــرار
فلـو كنـت بوّابـاً عـلىٰ بـاب جنّـة ... كما أفصحت عنـه صـحيحات آثـار

مولده ووفاته ومدفنه:

ففي (أعيان الشيعة)[1]: ولـد في بعلبـك يـوم لخمـيس لـثلاث عشـرة بقين من المحرَّم سنة (٩٥٣هـ) كما في السلافة وغيرها.

وتـوفّي في أصـفهان (١٢) شـوّال سـنة (١٠٣٠هــ) عـلىٰ مـا ذكـره تلميـذه السـيّد حسـين بـن السـيّد حيـدر الحسـيني الكركـي العـاملي، والمجلسـي الأوَّل الـذي حضـر وفاتـه والصـلاة عليـه، فهما أعـرف بتـاريخ وفاتـه، وقيـل: سـنة (١٠٣١هــ)، وقيـل: سـنة (١٠٣٥هــ) فيكـون عمـره (٧٧) سنة، وذكـر تلميـذه المجلسـي الأوَّل: أنَّ عمـره بضـع وثمانـون سـنة، إمَّا إحدىٰ وثمانون أو اثنتـان وثمانـون، لأنّي سـألته عـن عمـره فقـال: ثـمان أو تسع وسبعون، ثمّ توفّي بعد ذلك بسنتين.

وعليـه فيكـون أحـد التـاريخين مغلوطـاً تـاريخ الـولادة أو تـاريخ الوفاة، وكان من أرَّخ وفاته سنة (١٠٣٥هـ) أخذه من هذا، والله أعلم.

وعن السيّد نعمة الله الجزائـري أنَّ تـاريخ وفاتـه عـلىٰ مـا نظمـه بعـض مشايخنا المعاصرين:

بـــدر العـــراقين خبـــا ضـــوءه ... ونـــيّر الشـــام وشـــمس الحجـــاز
أردت تاريخـــاً فلـــم اهتـــد ... لـــه فأُلهمـــت قـــل (الشـــيخ فـــاز)

ولا يخفىٰ أنَّه ينقص سنة لأنَّ حروفه تبلغ (١٠٢٩).

---

(١) أعيان الشيعة ٩: ٢٣٤/ الرقم ٥٥٦.

وكانت وفاته في أصفهان، ثمّ نُقِلَ قبل الدفن إلىٰ مشهد الرضا عليه السلام ودُفِنَ هناك في داره بجانب الحضرة المقدَّسة الرضوية وقبره هناك مشهور مزور إلىٰ اليوم.

أقوال وآراء في حقّه:

ففي كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٣٩٨): ... والبهائي من ألمع العلماء اسماً، وأبعدهم ذكراً في القرن الحادي عشر الهجري، قد أخذ بأسباب الثقافة الإسلاميّة، وهو أحد الأئمّة الكبار المنفردين بالعلوم المعروفة في ذلك العصر، جمع إلىٰ الفقه والآثار والأُصول والآداب، الهندسة والفلك والحساب والجبر وجميع أقسام الرياضيات بإتقان عجيب وهضم غريب، كما جمع إلىٰ كلّ ذلك الحكمة والكلام وبعض العلوم التي لم يحم حولها سواه كما قيل.

وقد حظي (البهائي) بإعجاب العلماء وإطرائهم وقد أفاضوا في مدحه، ومن هؤلاء أحمد بن علي المنيني، شارح قصيدة (البهائي) المسمّاة (وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان)، والتي فرغ المنيني من شرحها عام (١١٥١هـ)، قال فيه:

(... صاحب التصانيف والتحقيقات، وهو أحقّ من كلّ حقيق بذِكر أخباره ونشر مزاياه، وإتحاف العالم بفضائله وبدائعه، وكان أُمَّة مستقلَّة في الأخذ بأطراف العلوم، والتضلّع من دقائق الفنون، وما أظنّ أنَّ الزمان يسمح بمثله، ولا جاء بندّه).

ووصفه تلميذه السيّد عزّ الدين حسين بن حيدر الكركي العاملي بقوله: (... وشيخنا هذا _ طاب ثراه _ قد كان أفضل أهل زمانه، بل كان منفرداً بمعرفة بعض العلوم الذي لم يحم حولها أحد من أهل زمانه ولا قبله...، يميل إلىٰ التصوّف كثيراً...، منصفاً في البحث...).

وأطـراه صـاحب السـلافة عـلىٰ عادتـه في التسـجيع والإطنـاب، ووصفه بأنَّه جمع فنون العلم وتفرَّد بصنوف الفضل.

كـما أفـاض في إطرائـه كثـيرون غـير هـؤلاء، الأمـر الـذي يـدلُّ عـلىٰ مكانتـه الاجتماعيـة، وشخصـيته العلميـة ذات الأثـر الكبـير في يقظـة الجيـل الذي عاشه، وفي الحركة العلمية المنتجة.

ويحسـب البهـائي أثـراً ونفـوذاً علميـاً أنَّـه ظهـر في تلـك الفـترة، التـي كانــت تغـطّ أكثـر شـعوب الأرض في سـبات عميـق، قـد تخـدَّرت فيهـا المعركـة والفكـر، وركـدت فيهـا الحركـة الثقافيـة، وعمَّهـا الضـعف والانحـلال في أكثـر جوانـب الحيـاة، كـلّ ذلـك بسـبب الأحـداث والنـوازل التي انصبَّت عـلىٰ كثـير مـن الـدول العربيـة والإسـلاميّة في مختلـف الأقطـار، التي شملها الضعف والوهن، وحال ذلك دون نشاط الثقافة فيها.

وإنَّـه رغـم كـلّ ذلـك فقـد كانـت هنـاك واحـات في بعـض الأقطـار الإسـلاميّة معشـبة مخضـوضرة بالمعرفـة والفكـر، فيهـا مـدارس علميـة قـد أينعـت ثمارهـا، وبلغـت أوج نشـاطها...، ومـن نفـس هـذه الواحـات الخصـبة (جبـل عامـل)، وفي هـذه الفـترة بالـذات ظهـر (البهـائي) رائـداً علميـاً، يتَّسـع عقلـه لكـلّ أنـواع الثقافـة التـي عُرِفَـت في عصـره، وتفعـل آثاره في تفكير المجتمع الذي عاشـه فعـل الكهربـاء، لمـا فيهـا مـن قـوَّة علميـة ونشاط فكري في ميادين المعركة والعلم.

وقـد ظلَّـت آثـاره في الهندسـة والفلـك والرياضـيات وسـواها زمنـاً طويلاً مـن بعـده حتَّىٰ الآن مرجعـاً لكثـيرين مـن علـماء المشـرق، كـما أنَّهـا كانت منبعاً يستقي منه طلَّاب المدارس والجامعات.

كـما أنَّ آثـاره الفلسـفية والكـلام والفقـه، والحـديث والأدب

والشعر، لا تقلُّ شأناً وأهمّيةً عن آثاره في الفلك والرياضيات، علىٰ أنَّ شهرته في هذه العلوم الأخيرة غلبت عليه، وبخاصّة في العصور الأخيرة، وذلك بسبب مؤلَّفاته في هذه المواضيع التي نالت إعجاب العلماء والطلَّاب علىٰ السواء، ممَّا دفعهم إلىٰ شرحها والتعليق عليها، وتدريسها في كثير من عواصم الشرق الإسلامي.

ويبرز علىٰ تفكير بهاء الدين اتّجاهان واضحان هما:

أوَّلاً: الاتّجاه الرياضي، الذي يسيطر علىٰ كثير من محاولاته ومعالجاته لمسائل علمية، وبخاصّة لمسائل ما وراء الطبيعة، يبدو هذا الاتّجاه في صفحات كثيرة من كتابه (الكشكول) حين يعرض (اللاتناهي) فهو يقول ببطلانه، مبرهناً علىٰ ذلك ببراهين رياضية وهندسية، تذكّرنا بطريقة الكندي الفيلسوف الذي عرضنا في محلّه لشيء من اتّجاهاته، كما تذكّرنا بطريقة نصير الدين الطوسي التي تتمثَّل فيما أقامه من دليل علىٰ بطلان اللاتناهي، والتسلسل أيضاً، في كتبه الكلامية، أمثال (التجريد) و(فوائد الاعتقاد)، وسواهما.

ثانياً: الاتّجاه العرفاني أو الصوفي، الذي ينعكس في كثير من مؤلَّفاته انعكاساً بارزاً، ولعلَّ كتابه (الكشكول) يعطينا أوضح صورة عن هذا الاتّجاه، فقد أكثر فيه من ذكر أقوال الزهّاد والعبّاد والعارفين والمتصوّفة وقصصهم، كما نجد انعكاس ذلك بارزاً في أقواله وأشعاره بصورة عامّة.

جاء في (أعيان الشيعة): وذكره صاحب (أمل الآمل)[1] بقوله: حاله في الفقه والعلم والفضل والتحقيق والتدقيق، وجلالة القدر

---

(١) أمل الآمل ١: ١٥٥/ الرقم ١٥٨.

وعظم الشأن وحسن التصنيف، ورشاقة العبارة، وجمع المحاسن أظهر من أن يُذكَر وفضائله أكثر من أن تُحصَر، وكان ماهراً متبحّراً جامعاً كاملاً شاعراً، أديباً منشئاً، عديم النظير في زمانه في الفقه والحديث والمعاني والبيان والرياضي وغيرها.

وقال السيّد مصطفىٰ التفريشي في (نقد الرجال)[1]: جليل القدر عظيم المنزلة رفيع الشأن، كثير الحفظ، ما رأيت بكثرة علومه ووفور فضله وعلوّ رتبته، في كلّ فنون الإسلام كمن كان له فنّ واحد، له كتب نفيسة جيّدة، انتهىٰ.

وقال السيّد عزّ الدين الحسيني ابن السيّد حيدر الكركي في بعض إجازاته: (شيخنا الإمام العلّامة، ومولانا الهمام الفهّامة، أفضل المحقّقين وأعلم المدقّقين، خلاصة المجتهدين بهاء الملّة والحقّ والدين، كان أفضل أهل زمانه؛ بل كان منفرداً بمعرفة بعض العلوم الذي لم يحم حوله من أهل زمانه ولا قبله علىٰ ما أظنّ)، انتهىٰ.

وقال السيّد علي خان في السلافة (ص ٢٩٨): علم الأئمّة الأعلام، وسيّد علماء الإسلام، وبحر العلم المتلاطمة بالفضائل أمواجه، وفحل الفضل الناتجة لديه أفراده وأزواجه، وطود المعارف الراسخ، وقضاؤها الذي لا تحدّ له فراسخ، وجوادها الذي لا يؤمل له لحاق، وبدرها الذي لا يعتريه محاق، الرحلة التي ضربت إليها أكباد الإبل، والقبلة التي فطر كلّ قلب علىٰ حبّها وجبل، فهو علّامة البشر ومجدّد دين الأئمّة علىٰ رأس القرن الحادي عشر، إليه انتهت رياسة المذهب والملّة، وبه قامت قواطع البراهين والأدلّة، جمع فنون العلم وانعقد عليه

---

(١) نقد الرجال ٤: ١٨٦ و١٨٧/ الرقم (٤٦١٦/ ٢٦٠).

الإجماع وتفرَّد بصنوف الفضل فبهر النواظر والأسماع، فما من فنّ إلَّا وله فيه القدح المعلّىٰ، والمورد العذب المحلّىٰ، إن قال لم يدع قولاً لقائل، أو طال لم يأتِ غيره بطائل، وما مثله ومن تقدَّمه من الأفاضل والأعيان إلَّا كالملَّة المحمّدية المتأخّرة عن الملل والأديان جاءت آخراً ففاقت مفاخراً، وكلّ وصف قلته في غيره فإنَّه تجربة الخواطر.

وقال الحاج محمّد مؤمن الشيرازي في كتابه (خزانة الخيال) في حقّه: بهاء الحقّ وضياؤه، وعزّ الدين وعلاؤه، وأُفق المجد وسماؤه، ونجم الشرف وسناؤه، وشمس الكمال وبدره، وروض الجمال وزهره، وبحر الفيض وساحله، وبرّ البرّ ومراحله، وواحد الدهر ووحيده، وعماد العصر وعميده، وعلم العلم وعلامته، وراية الفضل وعلامته، ومنشأ الفصاحة ومولدها، ومصدر البلاغة وموردها، وجامع الفضائل ومجمعها، ومنبع الفواضل مرجعها، ومشرق الإفادة ومشرعها، وسلطان العلماء وتاج قمَّتهم، وبرهان الفقهاء وتتمَّة أئمّتهم، وخاتم المجتهدين وزبدتهم، وقدوة المحدِّثين وعمدتهم، وصدر المدرّسين وأُسوتهم، وكعبة الطالبين وقبلتهم، مشهور جميع الآفاق وشيخ الشيوخ علىٰ الإطلاق، كهف الإسلام والمسلمين، مروّج أحكام الدين، العالم العامل الكامل الأوحد بهاء الملَّة والحقّ والدين.

وفي (لؤلؤة البحرين): كان رئيساً في دار السلطنة أصفهان، وشيخ الإسلام فيها، وله منزلة عظيمة عند سلطانها الشاه عبّاس، وله صنَّف (الجامع العبّاسي).

وقال الشيخ أحمد المنيني الدمشقي، في شرح القصيدة الرائية للمترجَم في حقّه: صاحب التصانيف والتحقيقات، وهو أحقّ من كلّ حقيق بذكر أخباره ونشر مزاياه...، إلىٰ آخر ما قاله وقد مرَّ.

وذكره تلميذه المجلسي الأوَّل في شرحه العربي علىٰ الفقيه عند الكلام علىٰ مشيخة الكتاب فصرَّح بأنَّه من مشائخه، وأنَّه من نسل الحارث الهمداني، قال: ذكره الشهيد الثاني في إجازته لأبيه وذكر جماعة من أجداده ومدحهم، ثمّ قال: هو شيخنا وأُستاذنا ومن استفدنا منه بل كان الوالد المعظَّم، كان شيخ الطائفة في زمانه، جليل القدر عظيم الشأن كثير الحفظ، ما رأيت بكثرة علومه ووفور فضله وعلوّ مرتبته أحداً، له كتب نفيسة، انتهىٰ.

وقال الشيخ محمّد الرضا الشبيبي: لقد استرضىٰ نظري وأنا أتصفَّح مختلف الأسفار والتصانيف، ما يتَّصل منها بتاريخ الفلسفة الإسلاميّة، أنَّ جملة من كتب الشيخ بهاء الدين العاملي رحمه الله حافلة بفوائد وشوارد فلسفية، مضافاً إلىٰ بحوثه الأُخرىٰ في الرياضيات والفلكيات، لا تخلو كتب الطبقات والتأليف من التنويه بعلماء قليلين شاركوا في جملة من الفنون والعلوم، ولكن ما أندر الذين برعوا وحذقوا تلك العلوم والفنون التي شاركوا فيها جميعاً، وما أقلّ الذين جودوا التأليف ووضع الكتب فيها، إذ ليس كلّ من شارك في ذلك موفَّقاً _ كما لا يخفىٰ _، ومن ذلك القليل النادر الإمام محمّد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني العاملي المعروف بالشيخ البهائي، أو بهاء الدين العاملي، فإنَّه شارك مشاركة عجيبة في جميع العلوم والفنون المعروفة في زمانه عقلية ونقلية، ووُفِّقَ في التأليف فيها، وفي جملتها الفقه والأُصول، والحديث والتفسير واللغة وعلومها، والحكمة والفنون الرياضية والفلكية، وقد كتب له التوفيق في مؤلَّفاته فذاعت وأقبل عليها العلماء والمتعلِّمون في القرون الأربعة الأخيرة، ونذر أن يُقدَّر لغيره ما قُدِّرَ له من بقاء الذكر وطيب الأُحدوثة وجميل الأثر.

ونلاحظ أنَّ الأثر الذي تركه في مختلف شؤون الحياة من دينية ودنيوية، ماديّة ومعنوية، نقول: إنَّ ذلك الأثر الذي تركه لدىٰ طبقات مختلفة من العالم الإسلامي لا يزال باقياً حتَّىٰ اليوم.

ما أكثر التآليف والتصانيف التي اندثرت فعفي شأنها وذهب زمانها، أمَّا آثار الإمام العاملي علىٰ كثرتها فقد غالبت الأيّام بجدّتها وطراوتها.

يحفل تاريخ العلوم والحضارة الإسلاميّة، بذكر عدد كبير من العلماء، منهم من قصر جهده وصفر وكده علىٰ علم أو فنّ بعينه، فمنهم من انقطع لعلوم الدين، ومنهم من تجرَّد لعلوم الدنيا حتَّىٰ عاش كلّ منهم داخل إطار معيَّن من فنّه لا يكاد يتعدّاه في الغالب، أمَّا الإمام العاملي فقد طاف في كلّ مدرسة واخترق نطاقها، ودمَّر علىٰ رجالها، وشاركهم فيما يعنيهم، كأنَّه واحد من القوم، وهذا سرّ من أسرار تفوّقه وسبقه وتقدّمه وأخذه بمجامع القلوب، فهو فقيه مع الفقهاء، ومحدِّث مع المحدِّثين، وصوفي مع المتصوّفة، وفيلسوف مع الفلاسفة، ورياضي مع أصحاب التعاليم، وهو نحوي مع النحاة، إلىٰ غير ذلك.

ترجم للإمام العاملي كثيرون من متأخّري المؤلِّفين وأصحاب المعجمات، وأطنب بعضهم في هذه الناحية، ومع ذلك بقيت مصادر من صنف آخر قلَّما تناولها الباحثون، وفي هذا الصنف من المصادر نعثر علىٰ نبذ غير معروفة حتَّىٰ الآن من أحوال الشيخ، وقوام هذا الصنف البقيّة الباقية من مخطوطات الإمام العاملي والنسخ الأصلية المقروءة عليه من مؤلَّفات غيره، إذ لا يخفىٰ أنَّ الشيخ رحمه الله كتب ونسخ وعلَّق الكثير، وتوجد جملة من مؤلَّفاته في مكتبات الديار الإيرانية وغيرها، ولا يستبعد

وجود بعض نسخ الأصل من مؤلَّفاته وغيرها من المؤلَّفات التي نسخها بخطّه في بلاد أُخرىٰ كالهند وأفغانستان والبحرين عدا ما يوجد منها في دور الكتب والمتاحف الغربية، ومن يتصفَّح تلك النسخ المخطوطة وتعاليق الشيخ عليها، وصور إجازاته لمن قرأ كتبه أعني إجازات روايتها، عثر بلا شكّ علىٰ فرائد ونوادر غير قليلة لها علاقة بسيرته والتعريف بجملة من أصحابه الذين لم يرد لهم ذكر في التاريخ.

وقال الأُستاذ الشبيبي أيضاً: أخذ الشيخ عن والده علوم العربية والفقه والأُصول والحديث والتفسير، ودرس عليه في قزوين في عصر من عصور ازدهارها ونهضتها، أي في العصر الأوَّل من عصور الدولة الصفوية، وكانت قزوين قاعدة هذه الدولة الأُولىٰ، وقد شهدت حركة علمية واسعة في ذلك الزمان، وأُنشئت فيها عدَّة مدارس، فثابر الشيخ علىٰ الدراسة هناك إلىٰ أن غادرها أبوه إلىٰ (هراة) فبقي هو في قزوين متبرّماً من طول الإقامة فيها، مفضّلاً الانتقال منها إلىٰ حيث يقيم والده، وقد أسعفه الزمان بالرحلة إليها بعد ذلك وواصل هناك دراسته وذاعت شهرته أوَّل ما ذاعت في هذه المدينة، وله فيها ذكريات جميلة في أشعاره ورسائله.

ولنا أن نقول: إنَّ الإمام لم يترك ناحية من نواحي المملكة الإيرانية إلَّا زارها، زار خراسان، وأذربيجان، وآران (ققفاسية) سنة (١٠١٥هـ) صحبة الشاه عبّاس الكبير، فإنَّ هذا الشاه قصد الديار الكرجية وأوقع بأهلها في التاريخ المذكور، وكان ديدن الشيخ في سفره الأخذ عن الجهابذة، وأعظم حاضرة إيرانية رحل إليها وطابت له الإقامة فيها أخيراً حتَّىٰ وافته منيَّته _ تغمَّده الله بالرحمة _ هي مدينة أصفهان وهي

القاعدة الثانية للدولة الصفوية، وفي أصفهان لقي جماعة من العلماء المتضلّعين في مختلف العلوم والفنون فأخذ عنهم وأخذوا عنه وفي هذه المدينة علىٰ الأرجح وضع جملة من تآليفه المشهورة، وأسّس أكثر من مدرسة واحدة فيها حتّىٰ صارت إليها الرحلة من كثير من الأقطار الإسلاميّة، وأصبحت أصفهان بذلك دار العلم في هذا العصر وما بعده إلىٰ عصور غير قليلة _ كما هو معروف _ وما زالت تلك المدارس وغيرها من الآثار التي أنشأها الإمام العاملي في غير حاضرة من حواضر الدولة الصفوية قائمة إلىٰ هذا اليوم.

وقال الأُستاذ الشبيبي متحدِّثاً عن أخلاقه: خلق هذا الإمام مطبوعاً علىٰ حبّ الحرّية والتخفّف ومجافاة التصنّع والتكلّف، مشغوفاً بمظاهر البساطة في الحياة ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨)، ثائراً علىٰ المتصنّعين المتكلّفين وما أكثرهم في زمانه ومكانه.

ويقول بعض المؤرِّخين في معرض الاستدلال علىٰ مجافاته للتكلّف والتصنّع: إنَّه ما كان علىٰ جلالة قدره يتحرَّج من النزول إلىٰ ميادين المدينة والاختلاط بالسواد والوقوف مع المارّة علىٰ حلقات الألعاب البريئة كألعاب الحواة ومروّضي الحيوان وغيرها من الألعاب ضارباً بمظاهر التزمّت والتصنّع عرض الحائط.

هذا ما قاله بعض المؤرِّخين: ومن رأينا أنَّه ﵀ ما كان يقصد إلَّا المزيد من الاطّلاع واكتناه الأسرار والفنون الكامنة في تلك الألعاب، ويستفاد من كثير من مؤلَّفاته وأشعاره أنَّه كان صوفي المشرب ميّالاً إلىٰ الزهد والتقشّف، وقد رغب أواسط عمره بالفقر والسياحة، وكان زيّه

في أسفاره هذه زيّ الدراويش والسائحين المغتربين، كما ورد في بعض كتب المؤرِّخين، وقد أمضىٰ في سياحته أعواماً كثيرة، ويعدّه بعض الباحثين أجلّ عرفاء أواخر المائة العاشرة وأوائل المائة الحادية عشر خصوصاً في إيران كان يُعَدُّ أكبر مشايخ هذه الطائفة.

وقد لاحظ جمع من المنتسبين إلىٰ العلم أو المتصدّين للرياسة أنَّ الشيخ أفرط في بعض اتّجاهاته الصوفية حتَّىٰ زعموا أنَّ والده أنكر عليه ذلك، وليس من السهل إثبات ما قيل عن والده في هذا الشأن، وهناك روايات أشبه بالأساطير تروىٰ معزَّزة بالصور والرسوم عن بعض أوضاعه في ثباته ورباطه جأشه، والمرجَّح أنَّ بعض هذه الروايات موضوعة.

كان الإمام العاملي عميق النظر، جوّال الفكر، حادّ الذكاء، جمّ النشاط، راغباً رغبة أكيدة في إصلاح ما فسد من الأخلاق والأوضاع العامّة، انتقد الجمود والتقليد، وشنَّ الحملة تلو الحملة في شعره ونثره علىٰ المتزعّمين الجاحدين وعلىٰ المرتزقين من الدجل والشعوذة والرياء.

ومن هذه الناحية ناوأه من هذه الطبقة، بل وجّهت إليه بعض المطاعن والتهم الباطلة، وتاريخ العالم الإسلامي قديماً وحديثاً طافح بأخبار الصراع بين المصلحين ومناوئيهم، والمتحرّرين والجامدين علىٰ صورة أدَّت إلىٰ حوادث دامية معروفة في التاريخ، فلا عجب إذا اتَّفقت هذه المشادّة بين الإمام العاملي وهو قطب من أقطاب الحكمة والإصلاح والتجدّد، وبين غيره من الجهلة المقلِّدين، ومن يقرأ أشعاره بالعربية والفارسية وهي كثيرة في هذا المعنىٰ يتَّضح له ذلك.

كان رحمه الله علىٰ جانب عظيم من رحابة الصدر وسعة الأُفق، اتَّصل

بشتّىٰ الطوائف وباحث مللاً ونحلاً، وكان العصر الصفوي بحاجة إلىٰ إمام مثل هذا الإمام المجدّد المصلح، بل كان مفتقراً إلىٰ توجيهه وإرشاده في رتق الفتوق، ويرأب الصدوع الكثيرة في العصر المذكور.

وقد عمل علىٰ توحيد الآراء وجمع الشتات، وعوَّل السلاطين والأُمراء علىٰ آرائه في الإصلاح وحسم مادّة النزاع الداخلي بالوسائل السلمية علىٰ قدر الإمكان وفي كثير من الأحيان، انتهىٰ.

وقال الأُستاذ قدري حافظ طوقان في مجلَّة المقتطف: علىٰ الرغم ممَّا كانت عليه الدول العربية والإسلاميّة في مختلف الأقطار من الضعف، وعلىٰ الرغم ممَّا أصابها من الانحلال، وممَّا حلَّ بها من المصائب وما أحاطها من المتاعب التي تحول دون تقدّم العلوم ودون ازدهار الفنون، أقول: علىٰ الرغم من كلّ ذلك فقد ظهر في بعض الحواضر من وجَّه بعضاً من عنايته إلىٰ العلوم وتشجيع المشتغلين بها، ومن هؤلاء الذين ظهروا في القرن السادس عشر للميلاد، وبرزوا في العلوم الرياضية بهاء الدين محمّد بن حسين بن عبد الصمد...

وذكره العلَّامة الشيخ جعفر نقدي في كتابه منن الرحمن (ج ١/ ص ٦): هو شيخ الفقهاء، وأُستاذ الحكماء، ورئيس الأُدباء، أفضل المتأخّرين، محمّد بن العلَّامة الشيخ الحسين المعروف بهاء الدين العاملي (عامله الله بطلفه الجليّ) ذكر ترجمته جماعة من الأُدباء، وذكره أشهر من أن يُذكَر، وهل يخفىٰ ضوء الشمس ونور القمر؟

وقال السيّد الأديب والفاضل الأريب العبّاس بن علي ابن نور الدين الحسيني المكّي في كتابه (نزهة الجليس): العالم العلَّامة، الحبر الفهّامة، الشيخ بهاء الدين محمّد بن الحسين بن عبد الصمد العاملي

الحارثي الهمداني الشامي أصلاً ومولداً، والخراساني منشأً وتربةً، فاضل لم تشنف الأسماع بأحسن من معلوماته، ولم تتشرَّف الأرباع بأمتن من مؤلَّفاته، رحل به والده إلىٰ بلاد العجم فنشأ بها إلىٰ أن صار مفتيها الأعظم، وشيخها المقدَّم، وكان فاضلاً نبيلاً، وكاملاً جليلاً، بالغاً في الفضل المحلّ الأقصىٰ، وفي الذكاء الغاية التي لا تستقصىٰ، ورحل بعد وفاة أبيه إلىٰ الأقطار، وتفنَّن في تنقيح الأخبار، وساح ثلاثين سنة، وآتاه ربّه كلّ حسنة، وحجَّ البيت الشريف والقدس المنيف، وزار معاهده، وورد موارده، واجتاز بدمشق الشام في أثناء السفر، ولم يقم إلَّا بمقدار أن قيل له أهلاً وسهلاً ومرَّ، وكان قدومه إلىٰ الديار الشامية من الديار المصرية...

قال الفاضل المنيني: حكىٰ الرضيّ ابن أبي اللطف المقدسي، قال: ورد علينا من مصر رجل من مهابته محرَّم، فنزل من بيت المقدس بفناء الحرم، عليه سيماء الصلاح، وقد اتَّسم بلباس السيّاح، وقد تجنَّب الناس وأنس بالوحدة دون الإيناس، وكان يألف من الحرم فناء المسجد الأقصىٰ، ولم يسند إليه أحد مدَّة الإقامة نقصاً، فألقي في روعي أنَّه من كبار العلماء الأعاظم، فما زلت لخاطره أتقرَّب، ولما لا يرضيه أتجنَّب، فإذا هو ممَّن يُرحِل إليه للأخذ منه، وتُشَدُّ له الرحال للرواية عنه، يُسمّىٰ بهاء الدين محمّد الهمداني الحارثي، فسألته عند ذلك القرائة في بعض العلوم، فقال: بشرط أن يكون ذلك مكتوماً، وقرأت عليه شيئاً من الهيأة والهندسة، ثمّ سار إلىٰ الشام قاصداً بلاد العجم، قلت: وقد خفي عنّي أمره واستعجم.

حياته:

ففي كتاب (فلاسفة الشيعة): وأصل بهاء الدين من جبل عامل، وهو القسم الجنوبي من لبنان، من بلدة جبع أو جباع التي هي موطن آبائه وأجداده، وإليها ينتسب كلّ من والده الشيخ حسين بن عبد الصمد الجبعي العاملي، وجدّه شمس الدين محمّد الجباعي صاحب المجموعة الشهيرة، التي ينقل عنها كثيراً بهاء الدين العاملي في الكشكول.

والبهائي نفسه يصرِّح بأنَّ أصله من جبل عامل، فقد نقل عنه محمّد تقي المجلسي: إنَّ البهائي كان يقول: (آباؤنا وأجدادنا من جبل عاملة، كانوا دائماً مشتغلين بالعلم والعبادة والزهد، وهم أصحاب كرامات...، ولـمَّا شربنا ماء العجم سُلِبنا جميع ذلك).

ولا زال إلىٰ اليوم في جبل عامل بعض الأُسر تنتمي إلىٰ أخيه عبد الصمد، وهي أُسرة آل مروة.

وقد وهم كثير من الكتّاب والمؤرِّخين، فنسبوه إلىٰ آمل الواقعة في شمالي إيران، وقال بعض هؤلاء: إنَّه وُلِدَ في بلدة (آمل) الخراسانية الواقعة علىٰ الضفة اليسرىٰ لنهر جيحون.

وآخر من وقع في هذا الوهم الأُستاذ قدري حافظ طوقان في كتابه (تراث العرب العلمي) فقد قال: (أمَّا القول بأنَّه وُلِدَ في بعلبك فبعيد عن الصواب، بل هو خطأ محض، وأرجح أنَّ قولهم هذا يرجع إلىٰ الخلط بين جبل عامل في سوريا، وبين آمل، وقد يكون هذا الخلط هو الذي جعلهم يقولون بمولده في بعلبك، وقد يكون أيضاً هو الذي جعل العلماء يسمّونه بهاء الدين العاملي).

وقد نشر هذا الخطأ في دائرة المعارف اللبنانية في مادّة (أمل).

ولا ريب أنَّ ما ذكره طوقان ليس بصواب حتماً، وهو من الأوهام التي لم يعتمد علىٰ سند، ولسنا بحاجة كبيرة إلىٰ إثبات أنَّ البهائي هو عاملي لا آملي، بل يكفينا الرجوع إلىٰ ما كتبه عنه تلميذه الحرّ العاملي في كتابه (أمل الآمل في علماء جبل عامل)، وما كتبه عنه أحمد المنيني في شرحه لقصيدة البهائي المسمّاة (وسيلة الفوز والأمان)، وإلىٰ مؤلَّفاته المطبوعة مثل (مفتاح الفلاح) و(كتاب الأربعين) و(الكشكول) التي صرَّح فيها بنسبته إلىٰ جبل عاملة.

هذا بالإضافة إلىٰ ما ذكره علماء الرجال وأصحاب التراجم من الشيعة، مثل الخونساري في الروضات، والسيّد علي خان في سلافة العصر، وما كُتِبَ عن أبيه وإخوته وجدّه في كتب التراجم والرجال، وهي كلّها تثبت أنَّه كان عاملياً لا آملياً، وبخاصّة تصريحه للمجلسي الذي هو من المعاصرين له.

وانتقل به والده الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي إلىٰ إيران وهو صغير، وعمره إذ ذاك سبع سنوات، وقيل: أقلّ من ذلك، علىٰ أثر مقتل أُستاذه الشيخ زين الدين العاملي، الشهير بـ (الشهيد الثاني) المقتول سنة (٩٦٦هـ).

أمَّا أساتذته فقد عرفنا منهم:

والده حسين بن عبد الصمد العاملي، وهو من أعلام العلم والفقه والأدب في ذلك العهد، وقد توفّي عام (٩٧٤هـ).

والمولىٰ عبد الله بن حسين اليزدي المتوفّىٰ عام (٩٨١هـ) من أساتذة المنطق والحكمة، وهو صاحب الحاشية في المنطق التي لا تزال

تُدرَّس في جامعات النجف وقم وجميع العواصم الشيعية العلمية إلىٰ اليوم.

وطبيعي أن تكون ثقافة البهائي العامّة قد أخذها عن عدَّة أساتذة عادة، وربَّما كان تعرفه في أثناء سياحته الطويلة علىٰ شخصيات علمية وأدبية وسواها قد أكسبته ثقافةً وعلماً.

وما آلت مصادر كثيرة لثقافته مجهولة لدينا، ولم أجد من مؤرّخيه من عني بذلك، وغاية ما قالوه هنا: إنَّه درس علىٰ جهابذة عصره.

وللبهائي تلاميذ كثر، نهلوا من مدرسته، وأخذوا عنه، كانوا من أعلام عصره في العلم والمعرفة، ومن هؤلاء:

١ _ الشيخ جواد بن سعد الله البغدادي الكاظمي المعروف بالفاضل الجواد الكاظمي، درس علىٰ البهائي في أصفهان، حتَّىٰ أصبح من اللامعين في المعقول والمنقول والرياضيات وغير ذلك، وقد شرح بعض كتب أُستاذه البهائي مثل (خلاصة الحساب)، و(زبدة الأُصول).

٢ _ ملَّا محسن الفيض الكاشاني المتوفّىٰ عام (١٠٩١هـ) وهو من الفلاسفة المعروفين.

٣ _ السيّد رفيع الدين محمّد بن حيدر الطباطبائي الحسيني النائيني، المتوفّىٰ عام (١٠٨٢هـ) من أئمّة الفلسفة المشهورين.

٤ _ الشيخ محمّد علي التبنيني العاملي.

٥ _ زين الدين بن محمّد بن حسن بن زين الدين العاملي، من علماء الفقه والآثار.

٦ _ صدر المتألّهين الشيرازي.

٧ _ السيّد ماجد البحراني، وجماعة كثيرون غيرهم.

ونال بهاء الدين مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة لدىٰ الصفويين (ملوك إيران) وبخاصّة لدىٰ الشاه عبّاس الصفوي في أصفهان، وتولّىٰ فيها مشيخة الإسلام، وألَّف للشاه المذكور كتابه (الجامع العبّاسي) في الفقه.

وكان بصلة وثيقة بفيلسوف عصره (السيّد الداماد) صلة صداقة وإخاء، وقد كانا معاً موضع تقدير الشاه عبّاس واحترامه، يسود بينهما الصفاء والودّ، وقد ذُكِرَت في كتب التراجم بعض القصص التي تمثّل هذا الصفاء الذي كان يسود بينهما...

وقد سكن البهائي هراة مدَّة طويلة، وأعجب بها وبمناخها، وله أُرجوزة يصف فيها هراة، وهواءها، وماءها، وعنبها وأنواع ثمارها، وهي أُرجوزة طويلة، ويتحسَّر في آخرها علىٰ فراقها ويقول:

يا حبذا أيّامنا اللواتي ... مضت لنا ونحن في الهراة

نسترق اللذّات والأفراحا ... ولا نملّ الهزل والمزاحا

وعيشنا في ظلّها رغيد ... والدهر مسعف بما نريد

ولم ترق هذه الحياة بعيني البهائي فآثر العزلة والسياحة، واستمرَّت سياحته حوالي ثلاثين سنة، جاب في أثنائها مصر والعراق والحجاز وسوريا، التقىٰ في خلالها بشخصيات كثيرة علمية وأدبية، وألَّف كتابه الكشكول في سياحته وهو في مصر، وعاد إلىٰ أصفهان، وعندما علم الشاه عبّاس حاكم الدولة الصفوية بعودته إلىٰ أصفهان ذهب إليه بنفسه وأحاطه بالتجلة والإكرام.

وقد بقي البهائي صاحب المقام الأوَّل عند الشاه إلىٰ أن وافاه حمامه بأصفهان سنة (١٠٣١هـ)، ثمّ نُقِلَ ودُفِنَ في طوس في جوار الإمام الرضا عليه السلام.

ولم يسلم البهائي من نقد وطعن عليه في دينه وعلمه رغم شخصيته العلمية الشاملة والدينية، شأن العظماء والمفكّرين الذين يسمون بتفكيرهم علىٰ تفكير الناس.

وقد خلق له مركزه العلمي الرفيع ومكانته من ملوك إيران منافسين وحاسدين، أثاروا من حوله الشكوك والظنون.

وذكر البهائي نفسه في بعض سوانحه التي دونها في كتابه الكشكول شيئاً من ذلك، قال:

(وقد جرىٰ ذكري يوماً في بعض المجالس العالية فبلغني أنَّ بعض الحضّار ممَّن يدَّعي الوفاق وعادته النفاق، ويظهر الوداد وبغيته العناد، جرىٰ في ميدان البغي والعدوان، وأطلق لسانه في الغيبة والبهتان، ونسب إليَّ من العيوب ما لم تزل فيه، ونسي قوله تعالىٰ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ (الحجرات: ١٢)).

وقد أزرىٰ به غير واحد من أهل العلم مثل المجلسي، وفيض الله التفريشي، ولم يوثّقاه وطعنا عليه في دينه.

وحمل عليه الشيخ عبد الله بن صالح البحراني قائلاً: (إنَّ له بعض الاعتقادات الضعيفة، كاعتقاد أنَّ المكلَّف إذا بذل جهده في تحصيل الدليل، فليس عليه شيء إذا كان مخطئاً في اعتقاده، ولا يخلَّد في النار، وإن كان بخلاف أهل الحقّ.

قال: وهو باطل قطعاً، لأنَّه علىٰ هذا يلزم أن يكون علماء الضلال ورؤساء الكفّار غير مخلَّدين في النار، إذا أوصلتهم شبههم وأفكارهم الفاسدة إلىٰ ذلك من غير اتّباع لأهل الحقّ).

فحملة البحراني هذه إنَّما كان مصدرها مخالفة البهائي في رأيه لما

عليه تفكير أمثال البحراني، الذين لا يعتبرون العقل حجّة في أمثال هذه المواضيع.

وما أحرىٰ بأن يكون رأي البهائي المذكور منقبة ومأثرة، تدلُّ علىٰ حرّية تفكيره، وسلامة طبعه، ولأن يكون رأيه هذا مدحاً له أولىٰ من أن يكون ذمّاً.

ولكن القصَّة قصَّة رواسب عقائدية، لا تتَّصل للدين بسبب، تتحكَّم بتفكير الكثرة الساحقة من العلماء.

آثاره ومؤلَّفاته:

امتاز البهائي بشخصية علمية كبيرة، ومكانة رائعة في جميع ميادين العلم، وبلغ من شأنه العلمي لدىٰ الناس حدّاً يكاد يلحقه في عداد الشخصيات الأُسطورية.

وقد نسب الناس إليه غرائب وعجائب وأساطير كثيرة، تعبّر تعبيراً واضحاً عن أثر البهائي العلمي، ونفوذه البالغ علىٰ أفكار الناس.

فقد حكي عنه أنَّه استطاع أن يحطّم الذرَّة، وأن يسيطر علىٰ طاقتها، وأن يستخدمها في الحاجات.

وإن من مظاهر ذلك أن صنع شمعة أوقدها في أتون حمّام بأصبهان، وأنَّها كانت تكفي لتدفئة حمّام بكامله مدَّة طويلة دون أن تتغيَّر الشمعة.

ويُنسَب إليه أنَّه صنع ساعة دوّامة الحركة، دون أيّ حاجة إلىٰ من يحرّكها.

وفي كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٥٨): وقد تحدَّث الأُستاذ كمال سنو في مقال في جريدة (النهار) اللبنانية عن الغرائب الموجودة في

أصفهان، فتحدَّث عن المآذن الهزّازة وعن حمّام أصفهان وعن غيرها، فقال: ويتحدَّثون في أصفهان عن المياه الأزلية الساخنة، فيقولون: إنَّ أصفهان كانت تنعم بالمياه الساخنة دائماً، ولم يستطع أحد كشف سرّ هذه المياه الساخنة، ومن أين تأتي، وما الذي يسخنها.

حتَّىٰ جاءت بعثة من العلماء الإنكليز فاستغربت مصدر المياه الساخنة، فأخذت تبحث عنه، حتَّىٰ وصلت إلىٰ مكان وجدت فيه خزّاناً كبيراً يصبُّ فيه وقد حفر في الصخر ووضعت تحته شمعة سوداء صغيرة مضاءة، واطفأها العلماء الإنكليز وأخذوها إلىٰ بلادهم ليحلّلوها، ولكنَّهم لم يستطيعوا إعادة إشعالها، كما لم يستطيعوا معرفة المادّة التي تتألَّف منها، ولا تزال قصَّة هذه المياه الساخنة لغزاً من الألغاز في تاريخ أصفهان.

كما تحدَّث عن المأذنتين الهزّازتين، اللتين إذا هُزَّت إحداهما اهتزَّت الأُخرىٰ المقابلة لها ثمّ تهتزّ الأُولىٰ، ثمّ يهتزّ البناء بكامله، وقد جرَّبه بنفسه. كما تحدَّث عن مسجد شاه في أصفهان، الذي يتردَّد فيه الصدىٰ سبع مرّات حين تنطق أو تصفق تحت قبَّته، وأكثر هذه الآثار منسوبة إلىٰ البهائي.

ومن الأسطاير ما ذكره الشيخ جعفر نقدي رحمه الله في كتابه منن الرحمن (ج ١/ ص ١٦): يقال: إنَّ رجلاً من تلاميذ الشيخ قدس سره التمس منه أنَّه يعلّمه كحل الإخفاء، وهو كحل إذا اكتحل به الإنسان اختفىٰ عن الأعين. فامتنع الشيخ أن يعلّمه، وبعد الإصرار التامّ علَّمه ذلك الكحل وأوصاه أن لا يعمله فيما لا يرضي الله، فمضىٰ ذلك الرجل وبعد أيّام كان الشاه عبّاس يوماً في غرفته جالساً للغداء إذ رأىٰ لقمة من

الطعام صعدت من السفرة إلىٰ الهواء، ونظر إلىٰ السفرة فرأىٰ الطعام بتناقص شيئاً فكأنَّما أحد يأكل منه، فتعجَّب السلطان غاية العجب، واستمرَّت أيّام علىٰ هذا المنوال، فنقل السلطان هذه القضيّة للشيخ رحمه الله فعلم الشيخ أنَّ ذلك من صاحب كحل الإخفاء، فقال للسلطان: إذا جلست بعد هذا علىٰ الطعام فأت بعذر من الأعذار وقم من مجلسك ثمّ مر بسدّ باب الغرفة وبإلقاء شيء من التبن هناك من الروشن وإشعاله بالنار حتَّىٰ يرتفع الدخان، وبعد ساعة مر بفتح باب الغرفة فمن رأيتموه هناك فأتوني به، فلمَّا فعلوا ما أمرهم به الشيخ رأوا صاحب الكحل جالساً هناك وقد دخل الدخان في عينيه وهما تدمعان وقد غسلت دموعه ذلك الدخان، فأتوا به إلىٰ الشيخ فعاتبه وأنَّبه ثمّ أخذ عليه العهود والمواثيق أن لا يعود إلىٰ مثلها وأن يتوب من هذا العمل فتاب.

وقد تعرض لهذا العلم صاحب كشف الظنون في الجلد الأوَّل (ص ٧١٦/ ط الثانية) تحت عنوان علم الخفاء قال: وهو علم يتعرَّف منه كيفية إخفاء الشخص نفسه عن الحاضرين بحيث يراهم ولا يرونه، ذكره أبو الخير من فروع علم السحر، وقال: وله دعوات وعزائم إلَّا أنَّ الغالب علىٰ ظنّي أنَّ ذلك لا يمكن إلَّا بالولاية بطريق خرق العادة، لا بمباشرة أسباب يترتَّب عليها ذلك عادة، وكثيراً ما نسمع هذا لكن لم نرَ من فعله إلَّا أنَّ خوارق العادات لا تنكر، سيّما من أولياء هذه الأُمَّة، انتهىٰ.

أقول: كونه علماً من جهة تفرّعه علىٰ السحر لا من جهة الكرامة فلا وجه لغلبة ظنّه في عدم إمكانه، إذ هو بطريق السحر ممكن لا شبهة فيه؛ بل بطريق الدعوة العزائم أيضاً كما يدَّعيه أهله، وعدم الرؤية لا يدلُّ علىٰ عدم الوقوع.

ويقول السيّد محسن الأمين في (الأعيان): وتتحدَّث الأجيال التي تلت جيل البهائي حتَّىٰ الجيل الحاضر، بأحاديث تشبه الأساطير عن مكانته وأعماله الإنشائية في دولة الشاه عبّاس الكبير، حتَّىٰ أنَّه كان يضع تصاميم المعاهد والمعابد والقصور وغير ذلك من الأبنية التي اشتهر هذا الشاه بإنشائها، وهي مبانٍ ضخمة لا يزال جملة منها قائماً، ومنها عمارة المشهد العلوي في النجف.

وهذه التصاميم تشهد للشيخ بخبرته وبراعته الفنّية في فرع الرياضيات والهندسة، وقد وضع تصاميم كثيرة من تلك المعابد والمساجد علىٰ أُسس فنّية بحيث يستفاد منها تعيين المواقيت الشرعية، ويقال: إنَّه صنع بعض الآلات الفلكية التي تُحدِّد المواقيت المذكورة.

ولا شكَّ في صحَّة هذا القول لأنَّ له أكثر من تأليف واحد في صناعة الإسطرلاب، وما إلىٰ ذلك من الآلات العلمية، هذا إلىٰ روايات أُخر شايعة عند الجمهور عن أعماله الرصدية والفلكية في أصفهان وغيرها من ديار الفرس والعرب، وهي روايات ترفع البهائي إلىٰ مستوىٰ الأبطال أو القدّيسين في نظر الجمهور، ولا شكَّ أنَّ جملة من هذه الروايات لا تتحمَّل النقد والتمحيص، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ سور المشهد العلوي القائم اليوم يرجع إلىٰ عصر الشاه عبّاس الكبير، وأنَّ الشيخ البهائي أشرف علىٰ وضع أُسسه وإنشائه...

ويقول الشيخ جعفر نقدي في منن الرحمن (ج ١/ ص ١٧): ويقال: إنَّ سور الصحن الشريف في النجف الأشرف من هندسة الشيخ البهائي رحمه الله وضعه علىٰ نحو أنَّ كلّ حجرة من الحجرات الشريفة التي هي في أطراف الصحن المقدَّس تقابل كوكباً من الكواكب

المربّية للعلوم، وذلك الكوكب له تعلّق بأحد العلوم بحيث إذا كان طالب لعلم الرياضي في حجرة تقابل كوكب العلم الرياضي تعلَّم ذلك العلم بمدَّة قليلة، ووضع جدار الصحن المقدَّس علىٰ نحو يتحقَّق أوَّل الظهر في أيّ فصل كان من فصول السنة بوصول الشمس إلىٰ الجدار.

وبالتالي أنَّ شخصية البهائي في ميادين العلم والفنون، ومكانته الشهيرة من أكثر الثقافات التي عُرِفَت في عصره، والتي تجاوبت أصداؤها في أنحاء العالم الإسلامي، قد نُسِجَت من حوله هالة رائعة، كانت العامل القوي في أكثر ما يُنسَب إليه من غرائب وأساطير.

نبذ قصيرة من نثره ونظمه:

في منن الرحمن (ج ١/ ص ٢٠): فمن نثره ما كتبه إلىٰ الميرزا إبراهيم الهمداني المشهور بقاضي زاده همداني، وهو من السادة الطباطبائية، ومن علماء دولة الشاه طهماسب وبعده، وكان بينه وبين صاحب الترجمة من المؤاخات والمصافات ما يفوق الوصف، وهذا الكتاب كتبه جواباً عن كتاب كتبه له، وصورته:

يا غائباً عن عيني لا عن بالي — القرب إليك منتهىٰ آمالي
أيّام نواك لا تسل كيف مضت — والله مضت بأسوء الأحوال

قد نوَّرت عيون قلوب المهجورين، لمعان الرفقة القدسية المباني، وعطَّرت مشام أرواح المشتاقين، نسمات أزهار المفاوضة اللاهوتية المعاني، المنطوية علىٰ كنوز الحقائق الدينية التي لا تصل إلىٰ غوامضها أكثر الأذهان، المحتوية علىٰ رموز الأسرار العرفانية التي هي فوق مدارك أبناء الزمان.

جانا سخنت گرچه معما رنگست   اين زمزمها بگوش ياران چنگست

مخروش كه مرغان چمن ميدانند   كين نغمه ناقوس همان آهنگست

ولقد جرَّني كلّ سطر منها إلىٰ شطر، ودلّني كلّ فصل علىٰ أصل، وهداني كلّ إشارة إلىٰ بشارة، فإنَّ جميع تلك الأشطار المتخالفة، والفصول المتكاثرة، راجعة في الحقيقة إلىٰ شيء وحداني لا تعدّد فيه، وأمر فرداني لا كثرة تعتريه.

نواى عشق بازان خوش نوائيست   كه هر آهنگ آنرا ره بجائيست

اگر چه صد نوا خيزد از آن چنگ   چه نيكو بنگرى باشد يک آهنگ

وقد أشرتم خلَّد الله ضلالكم إلىٰ الفحص عن حال مخلصكم الحقيقي، والسؤال عن أوضاع خادمكم التحقيقي، وها أنا أعرضها علىٰ سبيل الإجمال، وإن كان استماعها مفضياً إلىٰ فرط الملال، فأقول: إنَّ بوائق الأيّام قد كدَّرت مشربي، وطوارق الآلام قد ضيَّعت مآربي، وقلبي القاسي العاصي قد سوَّدته الذنوب والمعاصي، وأحاطت به ظلمة الغفلة والقساوة، فصارت علىٰ غرَّته غشاوة.

آه از اين عمر گر گريبان غمى بر سر زند

صد مصيبت رفت ودست شيونى بر سر زند

ومع هذا فإنَّ جنود الضعف قد استولت علىٰ ممالك قواي، وذهب مع الركب اليماني هواي ومناي، حتَّىٰ سئمت من اللذائذ الرسمية بأسرها، وبرئت من الحظوظ العادية عن آخرها.

مرغ آتش خواره   كى لذت شناسد دانه

وقد قلت في المثنوي شعراً:

اندر اين ويرانه پر وسوسه		دل گرفت از خانقاه ومدرسه

نه زمسجد كام بر دم نه زدير		نه به خلوت طرف بستم نه زسير

عالمى خواهم از اين عالم بدر		تا بكام خود كنم خاكى بسر

لكن كلَّما تراكمت عليَّ أفواج الهموم، وتلاطمت لديَّ أمواج الغموم، لا يحصل لقلبي الزين المبتلىٰ التسلّي إلَّا بتذكّر العهد الشريف الذي عاهدناه في خدمتكم العليّة، وتدبّر الميثاق المنيف الذي أوثقناه في طارمتكم السنيّة...

فقم يا مطاع المعارضين حتَّىٰ تنفض من أذيالنا الغبار المتعلّق بتمويهات عالم الزور، وانهض يا سلطان المتألّهين حتَّىٰ تخلص رقابنا من رقية ملاقات أهل دار الغرور، تمّ ترنّم لسان حالنا بهذا المقال مع اطمئنان القلب وفراغ البال:

از خلق جهان كناره كرديم		سر رشته عقل پاره كرديم

وقد قيل: لا راحة إلَّا في قطع العلائق، ولا عزَّ إلَّا في العزلة عن الخلائق.

ومن ظرائف الشيخ ﭬ: كتب إليه الشيخ العلَّامة جمال الدين محمّد الكيلاني هذين البيتين:

يا منبع الفيضان يا بحر الندا		يا من رقىٰ بالمجد أعلىٰ ذروة

هجمت عليَّ جيوش برد فاتك		فسرت فديتك في صياصي فروة

فكتب إليه في الجواب: (أحسنت أيّها الذكي الألمعي، وأجدت أيّها الزكي اليلعمي، في نظم هذين العقدين وسبك هذين النقدين، الذين أسكتا في معرك الألفاظ كلّ منافث وأمنا أن يعزّزا بثالث، لكنَّك فتحت الذال من الذروة جانحاً لموازنة الفروة، والمنقول ضمّ الذال أو كسرها،

كما نطقت به كتب اللغة بأسرها، فإن أحطت بها لم نحط فأتنا من سبأ بنبأ يقين، فإنَّك لذروة اللغة من المرتقين، وإلَّا فهدهد عن ذلك، واسلك غير هذه المسالك، فإنَّ هذه غمرة عجيبة لا تقع من أمثالك، ولعلَّ هذا لتوزّع بالك، وتزعزع أحوالك، فإلىٰ الله المشتكىٰ من دهر يمطر الهموم علىٰ طلاَّب العلوم علىٰ العموم، وكلّ منهم يبكي علىٰ حاله، كأنَّما أُوتي كتابه بشماله، فبربّ الصفا والمروة لقد هراهم الدهر هروة، حتَّىٰ صاروا لكثرة البرد وقلَّة الثروة، يوشك أن يحدث لكلّ منهم قروة، لعدم قدرته علىٰ تحصيل فروة، ولو أنَّها تكون من جلد جروة. وقد أمرت الشاطر رجباً أن يدفع إليك مثقالاً ذهباً، فاعذرني فإنّي في كصيصة ليس لي قدرة علىٰ خربصيصة، والسلام).

معنىٰ الألفاظ الغريبة:

الألمعي واليلمعي الذكيّ المتوقّد كأنَّه يلمع نوراً من ذكاوته، والنافث من النفيث وقوله تعالىٰ: ﴿النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق: ٤) الحسرة، والذروة بالضمّ والكسر علىٰ الشيء، والهدهد المتغيّر، والانصراف والغمرة السكرة، والتوزّع التشتّت، والثروة زيادة المال، والقروة إمَّا أن يُراد بها الجدّ فتكون من القوىٰ، أو يُراد بها الهزل فتكون من القرو وهو داء يكون في الخصىٰ، والكصيصة الحبالة التي يصاد بها الظبي، والخربصيصة الشيئين، أي لا قدر لي علىٰ شيئين.

ومن تفنّناته في البلاغة هذا اللغز وهو في الكافية:

يا من صرف في مطالعة النحو أيّاماً، وخاض فيه شهوراً وأعواماً، أخبرني عن اسم ثنائي الآحاد، ثلاثي العشرات، ثالثه آخر الحروف، وهو بين الناس مشهور ومعروف، فمن جملة حروفه حرف ربَّما تحلّىٰ

بحلية الأسماء فيجري غالباً في مضمار المضمرات، ويسلك نادراً مسالك المظهرات، فما دام في ضمير الإظهار مكتوماً، يكون من ارتفاع المحلّ مجزوماً وبسمة النصب والجزم موسوماً، ولا يزال دائماً معمولاً، وعن رتبة العمل معزولاً، وربَّما انخرط في سلك الحروف فيصير في بعض الأحيان عادلاً، وفي بعضها عن العمل عاطلاً، ومعموله كمعمول أخواته الستّ لا يكون إلَّا ظاهراً، وربَّما عمل في الضمائر نادراً.

ومنها: حرف هو رابع علائم الرفع في ثلاثة، وخامس علائم النصب في ستّة، لا يقع في أوَّل شيء من الكلمات الثلاث، ولكن يقع في آخر ما تصف به الإناث، إن جاوز الأفعال صار من الأسماء وارتفع محلّه ومقداره، وإن خالط الأسماء عاد إلىٰ الحروف، واختلفت بالرفع والنصب آثاره، وإن أسقطته من عدد الأسماء اللازمة الرفع، بقي في عدد الجمل التي لها محلّ من الإعراب، وإن نفضته من عدد الأسماء اللازمة النصب ومن عدد المبهمات، بقي عدد الجمل التي لها عن إعراب المحلّ غاية الاجتناب، وإن أضفت إليه عدد الأسماء التي تُنصَب تارة ولا تُنصَب أُخرىٰ، ساوىٰ عدد ما هو عن المتبوعية ممنوع وبالتابعية أحرىٰ، وإن زدت عليه عدد ما يعتمد اسم الفاعل عليه في التقوي علىٰ معموله، ساوىٰ عدد المواضع الموجبة لتأخير الفاعل عن مفعوله.

ومنها: حرف ربَّما ينتظم في سمط أخواته العشرة، فيتَّصف بالفصاحة في بعض الأحيان، وقد يندرج في سلك أخواته الخمس، بعد إحدىٰ الستّ فينصب تاليه عند أهل اللسان.

ومنها: حرف إن جرىٰ مجرىٰ الأسماء فقد يكون محلّىٰ بكلّ من الحليّ الثلاث، فما دام مرفوعاً فهو ملصق بعامله في جميع الأطوار، وما

دام منصوباً فهو مفترق عنه لئلَّا يسري إليه الانكسار، وبينهما فاصل يحفظه عن ذلك العار، وهو في البحر داخل في عدد السمكات، وفي أفعال النساء مانع لهنَّ من الحركات، وإن جرىٰ مجرىٰ الحروف يكون في أوائل بعض الكلمات للغياب، وفي أواخر بعضها للانتساب، وقد يحصل به الثاني فيعمل في الأسماء بالنيابة عن الأفعال، وعن مقلوبه أيضاً علىٰ هذا المنوال، لكنَّه قد يدخل في سلسلة الأسماء فيختصّ بين أخواته، وقد يلج في ربقة الحروف فيصير في عدد أخواته الموجبة للايجاب.

ومنها: حرف معدود في الأسماء غالباً، وقد يُعَدُّ في الحروف نادراً، فما دام في الأسماء مدرجاً، وعن الحروف مخرجاً، فهو عن الفتح عري، وبالخفض والضمّ حري، فيخفض ما زال الأربعة من الحروف الجاري معمولاً، ويضمّ ما دام السبعة منها مدخولاً، ومتىٰ صار بالحرفية موسوماً، ومن الأسماء محروماً، فقد يتَّصل ببعض الكلمات لإفادة المبالغات، فيلبس المذكّرين حلية المؤنَّثات، وقد يبنىٰ علىٰ السكون فيلزم السكون أينما يكون.

فهذه صفات حروف هذا الاسم قد فصَّلتها لك تفصيلاً شافياً، وقرَّرتها لك تقريراً وافياً، وسأزيد في التوضيح بما يقارب التصريح.

فأقول: إنَّه ظرف لحرف خُصَّ بالظرفية من بين أخواته، وهو مع كمال ظهوره بعض المخفي في حدّ ذاته، ثمّ إنَّك إن نقصت من رابعه موجبات الانفصال بقي عدد مانعات حذف حرف النداء، وإن أضفت إلىٰ خمس أوَّله ما يوجب في كلّ نعت من العشر المشهورة حصل عدد روابط الجمل الخبرية بالمبتداء، وإن نقصت من رابعه حروف الزيادة النحوية، بقي عدد المواضع التي يُعلَّق فيها العامل عن المعمول، وإن

أسقطت من طرفيه عدد أخوات كان بقي عدد المواضع التي عود الضمير فيها علىٰ المتأخّر لفظاً ورتبةً مقبول، وإن نقصت من خمس ثالثه عدد موانع الصرف، بقي عدد الأُمور التي يتميَّز بها التمييز عن الحال، وإن زدت ثانيه علىٰ رابعه حصل عدد الموضع التي يجب فيها استتار الفاصل عن المفصول، وإن نقصت رابعه من الحروف الجارّة، بقي عدد الأُمور التي يفترق بها البدل عن عطف البيان، وإن أسقطت عدد الأسماء العاملة المشبّهة بالفعل من أخويه، بقي عدد الأشياء التي تمتاز بها الصفة المشبّهة عن اسم الفاعل في كلّ حين وزمان.

وممَّا اختصَّ بهذا الاسم الخماسي من الغرائب أنَّك إن نقصت من حروفه حرفين بقي حرف واحد وهذا من أعجب العجائب.

وهذا اللغز كما تراه حريّ بالنعوت السنية، قد انطوىٰ علىٰ عموم المسائل النحوية وغيرها من الظرائف البهية.

لغز في اسم علي عليه السلام:

جاء في (أعيان الشيعة) ما نصّه: عمل الشيخ البهائي عليه الرحمة لغزاً في اسم علي عليه السلام، وكأنَّه أرسله إلىٰ والده وهو:

(يا ثقتي ورجائي ومن به في الدارين اقتدائي، استدعي منكم الإخبار عن اسم عدد أفراده بعدد لطائف الأركان، ومن أجزائه عرق أبواب الجنان، ويذكرونه مع الله المنّان، في أوَّله بصيرة المخلوقات، وثانيه تالي اسم الذات، وآخره أوَّل مراتب العشرات، ويحصل منه الإيمان بالزبر والبيّنات، أوَّل أفراده رأس العرب والعجم، وآخر أجزائه مساو للاسم الأعظم، صورته بالاستعلاء موصوف، ومسمّاه في السماوات والأرضين معروف، وآخر آخره صدر الحروف، أوَّله مدار الدنيا

وبآخره تتمّ العقبىٰ، ولولا وسطه لكان معه، وما أن نقص ثلاثة من ثلثه بقي ثلاثة، وإن زيد ثلاثة علىٰ ثلثه جعل ثلث ثلاثة، لولا أوّله لكان رأس العمر مقطوعاً، وإن لم يكن آخر ثانيه واسطة العمر لكان بقطعتين مكسولاً، من وجد بأوّله نصيباً فقد كان غنياً، ومن عري فلا يرىٰ من العيش نصيباً، ولو كان أوّله لآخرته لم يكن فقيراً، آخره رأس اليقين، وبجزئي أوّله يتمّ الدين، الحروف مندرج بين جزئي آخره بالتمام، وبآخره يبنىٰ حروف كلّ كلام، والسلام خير ختام).

مؤلّفاته:

وللبهائي مؤلّفات وكتب قيّمة، حظيت باهتمام العلماء ودراستهم، وأكثرها مطبوع، كما أنَّ بعض كتبه في الحساب والهندسة والفلك قد نال عناية كبيرة، فشُرِحَت وعُلِّقَ عليها.

وتمتاز مؤلّفاته بصفة عامّة، بأنّها خالية من الحشو، وأنَّ قارئها لا يخرج منها إلّا بفائدة.

ومؤلّفاته هذه قد تناولت جوانب كثيرة من الثقافة والفكر، وأتت علىٰ هذه الجوانب باستيعاب وهضم.

ويُعَدُّ البهائي من المخصبين في الإنتاج، فقد ترك أكثر من خمسين مؤلّفاً، وظلّت آثاره ومؤلّفاته مرجعاً يُؤخَذ عنه ويُعتَمد عليه، ولا زال بعض كتبه في الحساب والهيأة يُدرَّس في جامعات النجف وإيران وغيرهما إلىٰ اليوم.

ومن مؤلّفاته:

التفسير:

١ ـ مشرق الشمسين وإكسير السعادتين، جمع فيه آيات الأحكام

وشرحها والأحاديث الصحاح وشرحها، خرج منه كتاب الطهارة لا غير نحو (٤٠٠) حديث، مطبوع.

٢ _ العروة الوثقىٰ في تفسير القرآن، خرج منه تفسير الفاتحة لا غير.

٣ _ حاشية علىٰ تفسير القاضي البيضاوي، جيّدة نفيسة أحسن ما كُتِبَ علىٰ هذا التفسير، قاله تلميذه السيّد حسين الكركي.

٤ _ حواشي الكشّاف، لم يتمّ.

٥ _ التفسير الموسوم بعين الحياة.

الحديث:

٦ _ الحبل المتين في أحكام الدين، في الأحاديث الصحاح والحسان والموثَّقات خاصّة، وشرحها شرحاً لطيفاً، وجمع بين متعارضاتها، خرج منه كتاب الطهارة لا غير في مجلَّد واحد فيه ألف حديث وزيادة يسيرة لم يتمّ، مطبوع.

٧ _ شرح الأربعين حديثاً، قال تلميذه الكركي، لم يُصنَّف مثله، مطبوع عدَّة طبعات.

٨ _ حاشية الفقيه، لم تتمّ.

الدراية:

٩ _ رسالة في الدراية، مختصرة مطبوعة.

الرجال:

١٠ _ حاشية علىٰ خلاصة العلَّامة، مختصرة.

١١ _ فوائد في الرجال.

العبادة والدعاء:

١٢ _ مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة، مبطوع عدَّة طبعات، ومنها الطبعة المصرية.

١٣ _ حدائق المقرَّبين أو حدائق الصالحين في شرح الصحيفة السجّادية، مطبوع وسمّىٰ شرح كلّ دعاء باسم حديقة، فسمّىٰ شرح دعاء الهلال بالحديقة الهلالية، وكذا غيره، وعليه فما ذكره المترجمون من أنَّ له الحديقة الهلالية، وحدائق المقرَّبين، وشرح دعاء الصباح، وشرح دعاء رؤية الهلال من الصحيفة ليس في محلّه، نعم الظاهر أنَّ شرح الصحيفة لم يتمّ.

الفقه:

١٤ _ الجامع العبّاسي، صنَّفه للشاه عبّاس الصفوي، خرج منه إلىٰ آخر كتاب الحجّ، مطبوع.

١٥ _ الاثنا عشريات، الخمس في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحجّ، مرتَّبة علىٰ اثني عشر في كلّ أبوابها وفصولها ومطالبها.

١٦ _ رسالة في استحباب السورة، ردّاً علىٰ بعض معاصريه، لكنَّه رجع عنه أخيراً.

١٧ _ رسالة في قصر الصلاة وإتمامها في الأماكن الأربعة.

١٨ _ شرح اثني عشرية صاحب المعالم.

١٩ _ حواش علىٰ مختلف العلَّامة.

٢٠ _ رسالة في المواريث.

٢١ _ رسالة في ذبايح أهل الكتاب.

٢٢ _ شرح الفرائض النصيرية للمحقّق الطوسي، لم يتم.

٢٣ _ رسالة الكرّ.

٢٤ _ رسالة القبلة.

٢٥ _ رسالة في أحكام سجود التلاوة.

الأُصول:

٢٦ _ الزبدة، مطبوع، وشرحه الشيخ جواد الكاظمي المعروف بالفاضل، والشرح كالأصل مشهوران.

٢٧ _ لغز الزبدة.

٢٨ _ حواش علىٰ قواعد الشهيد.

٢٩ _ حواشي الزبدة.

٣٠ _ حاشية شرح العضدي علىٰ مختصر الأُصول.

٣١ _ شرح شرح الرومي علىٰ الملخَّص، ذكره في الحديقة الهلالية.

النحو:

٣٢ _ الفوائد الصمدية، صنَّفها لأخيه عبد الصمد، يدرسها الإيرانيون، ومطبوعة.

٣٣ _ تهذيب البيان.

البيان:

٣٤ _ حاشية علىٰ المطوَّل، لم تتمّ.

الحساب:

٣٥ _ خلاصة الحساب، لخَّصه من كتابه (بحر الحساب) واشتهر أكثر منه، وهو أجمع كتاب لفنون الحساب، وكان موضع اهتمام ودراسة حتَّىٰ اليوم في بعض الجامعات الشيعية، وأخذ شهرة كبيرة في الأقطار بين الطلَّاب والعلماء، وهو مرتَّب علىٰ مقدّمة وعشرة أبواب وخاتمة، وقد كتب عنه الأُستاذ طوقان بإسهاب ممَّا هو جدير بالمطالعة. (راجع كتاب تراث العرب: ٤٢٨ _ ٤٣٥)، وطُبِعَت الخلاصة في إيران والهند وإسطنبول ومصر، كما تُرجِم إلىٰ الألمانية سنة (١٨٤٣م) في برلين،

وتُرجِم إلىٰ الفرنسية في عام (١٨٦٤م)، وقد حظي هذا الكتاب بشروح العلماء وتعليقاتهم. (أُنظر: فلاسفة الشيعة: ٤٠٨).

٣٦ _ بحر الحساب، وهو كتاب كبير في الحساب.

علم الهيأة:

٣٧ _ تشريح الأفلاك مع حواشيه، وهو مختصر، طُبِعَ في الهند مراراً، ومنه نسخ مخطوطة كثيرة في مكتبات إيران والعراق وغيرهما. وقد نال عناية العلماء واهتمامهم، وتناولوه بالشرح والتعليق. (أُنظر فلاسفة الشيعة: ٤١٠). وقد ابتدأ البهائي كتابه تشريح الأفلاك بقوله: ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً ...﴾ (آل عمران: ١٩١)، وهو مرتَّب علىٰ مقدّمة وخمسة فصول وخاتمة.

٣٨ _ جبر الحساب، مات قبل الفراغ منه، وفيه تفصيل لبراهين كثيرة من النظريات الهندسية، وقوانين المساحات والحجوم، وعدد من المبادئ الحسابية، وأدخل فيه أيضاً طرقاً جديداً لحلّ مسائل مختلفة صعبة، تشحذ الذهن، وتمرّنه علىٰ حلّ الأعمال المعقَّدة.

٣٩ _ الصحيفة في الإسطرلاب، باللغة العربية، منها نسخة في خزانة المتحف العراقي...، نُقِلَت عن خطّ المؤلِّف، وعليها شروح.

٤٠ _ كتاب الإسطرلاب بالفارسية سمّاه التحفة الحاتمية، وهو مختصر من كتاب (بيست باب) لنصير الدين الطوسي، وقد طُبِعَ في إيران سنة (١٣١٦هـ).

٤١ _ الجفر، صرَّح باسمه ونسبه في الخطبة، أوَّله: (الحمد لله الذي كشف علينا رموز الغرائب بفيضه)، رتَّبه علىٰ مقدّمة وستَّة فصول، وفي المقدّمة ثلاث مطالب ذكر فيها ما يتوقَّف عليه استخراج السؤال، رآه الطهراني في كربلاء.

٤٢ _ شرح الجغميني في الهيأة، ولعلّه شرحه علىٰ شرح الرومي علىٰ الملخَّص.

٤٣ _ الرسالة الاعتقادية، مطبوعة في عام (١٣٢٦هـ) مع منظومة (مواهب المشاهد) لهبة الدين الشهرستاني. وقد بيَّن فيها عقائد الإمامية، وميَّزهم عن سواهم من الفِرَق الأُخرىٰ المتشيّعة، وأصحاب العقائد غير المرضية.

٤٤ _ إثبات الأنوار الإلهية، منه نسخة في مكتبة راغب باشا في إستانبول.

٤٥ _ رسالة الجوهر الفرد، وهي في إبطال الجوهر الفردي، ذكره في كشكوله، ونقل قطعة منه، وذكر فيها دليلاً علىٰ إبطال تركيب الجسم من الأجزاء التي لا تتجزَّأ.

٤٦ _ رسالة في نسبة أعظم الجبال إلىٰ قطر الأرض.

٤٧ _ رسالة في أنَّ أنوار سائر الكواكب مستفادة من الشمس.

٤٨ _ رسالة في حلّ أشكال عطارد والقمر.

٤٩ _ شرح الفرائض النصيرية للمحقّق الطوسي، لم يتمّ.

٥٠ _ جواب ثلاث مسائل عجيبة.

٥١ _ جواب المسائل المدنيات.

٥٢ _ جواب مسائل الشيخ صالح الجزائري، وهي اثنتان وعشرون مسألة.

٥٣ _ الكشكول وهو في ثلاثة أجزاء، وقد طُبِعَ في إيران ومصر، وهو مجموعة قيّمة، تحتوي علىٰ كثير من فصول علمية في الهندسة والفلسفة والأدب والشعر والتاريخ، وعلم المناظر والضوء والجبر والحساب وسوىٰ ذلك.

٥٤ _ المخلاة، وهو مجموعة فيها فوائد كثيرة، وطُبِعَت في مصر وإيران.

٥٥ _ توضيح المقاصد، فيما اتَّفق له في أيّام السنة وفي وقائع الأيّام، وذكر فيه وفيات بعض العلماء، كما طُبِعَ في مصر سنة (١٣١٣هـ)، مع شرح بائية الحميري، كما طُبِعَ في إيران سنة (١٣١٥هـ).

٥٦ _ شرح أربعين حديثاً، وفيه تحقيق وفوائد جمَّة، وقد طُبِعَ في إيران سنة (١٣١٠هـ).

٥٧ _ كتاب سوانح سفره إلىٰ الحجاز، أكثره بالفارسية.

وتقوم شهرة البهائي في الأكثر علىٰ بعض من مؤلَّفاته، مثل (خلاصة الحساب) و(تشريح الأفلاك) وقد عرفت شيئاً عنهما، ومثل كتابه (الكشكول) الذي طُبِعَ مراراً في إيران ومصر. وكتابه المذكور يُعَدُّ من أروع الكتب وأكثرها فائدة، وأجمعها لفنون المعرفة، وقد اشتهر اشتهاراً كبيراً في الأوساط العلمية والأدبية.

وقد جمع البهائي فيه من الشوارد العلمية، والفوائد الثقافية، والنوادر الأدبية، ما يغني عن كتب كثيرة في هذا الباب، وهو مجموعة قيّمة، تشتمل علىٰ بحوث فلسفية وعرفانية وصوفية، كما تشتمل علىٰ مسائل مبسوطة من علم المناظر والرؤية، وعلىٰ جانب كبير من الهندسة والجبر والحساب.

كما تجده قد تناول فيه التفسير لكثير من آيات القرآن، وعرض فيه لمسائل غير قليلة من الفقه.

أمَّا الأدب والشعر والتاريخ فهو الشيء الكثير البارز، الذي

يواجه القارئ. كما جمع إلىٰ ذلك ألغازاً حسابية وأعمالاً جبرية، وألغازاً شعرية وأدبية وسواها.

ويتمثَّل البهائي في كتابه (الكشكول) بروحه الصوفية، واتّجاهاته العرفانية، وتبرز فيه هذه الخصائص بروزاً واضحاً، فهو يكثر من ذكر الصوفية، وحكاياتهم وكلماتهم وأشعارهم، وما إلىٰ ذلك ممَّا يتعلَّق بهذا الموضوع.

ويبرز فيه البهائي أديباً، دقيق الملاحظة، وشاعراً له في الشعر الملكة القوية، وهو ينحو في شعره وجهة عرفانية، وعليه مسحة فلسفية ظاهرة، كما تناول فيه أيضاً معنىٰ الموسيقىٰ وأقسامه، والسحر وأنواعه، وبحث مسائل في علم الفلك بإسهاب، كما تجد فيه بحوثاً فلسفية وكلامية كثيرة يلتقي بها القارئ في صفحاته.

ومن آثاره القيّمة رسالته في (الجوهر الفرد)، وقد ذكرها في كتابه (الكشكول)، وهي في إبطال الجزء الذي لا يتجزَّأ، وقد أقام تسعة براهين علىٰ إبطاله، وروح هذه البراهين قائمة علىٰ أدلَّة رياضية هندسية.

قال في (الكشكول): (من رسالتي الموسومة بالجوهر الفرد وما سنح بخاطري في إبطال تركيب الجسم من الأجزاء التي لا تتجزَّأ، سوىٰ الوجوه الستَّة السابقة. أن نفرض مثلَّثاً متساوي الساقين، كلّ منهما ثمانية أجزاء، وقاعدته سبعة، فما بين طرفي ساقيه خمسة من قاعدته، لاشتراك طرفيها، والثامن الذي هو رأس المثلَّث مشترك أيضاً، فما بين الساقين، إذا كان واحداً، فبين السادسين اثنان، وبين الخامسين ثلاثة، فبين الأوَّلين سبعة، وقد كان خمسة، هذا خلف، وإن كان أكثر فالفساد أشدّ، فهو أقلّ من جزء، فافهم).

قال: (وقد لاح لي وجه ثامن وهو: أن نفرض دائرة، ونصل بين جزأين منها بالقطر، ثمّ بين ثمانية يتوسَّطها القطر، وبين نظائرها أوتار ثمانية، ونصل بين الطرفين الأقطرين بخطّ مستقيم، فهو تسعة أجزاء ووتر القوس، وهو تسعة أيضاً، فقد ساوت قاعدة القطعة قوسها).

قال: (ولنا وجه تاسع لطيف ذكرته في لغز موسوم بـ (رتبة الوصول)، فهذه وجوه تسعة في إبطال الجزء لم يسبقني إلىٰ شيء منها أحد).

أشعاره:

جاء في (أعيان الشيعة): وله شعر كثير بالعربية والفارسية، فمن شعره قصيدته التي يمدح بها صاحب الزمان، وسمّاها (وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان).

وقد شرحها الشيخ أحمد بن علي المنيني الدمشقي، بطلب السيّد محمّد هاشم قاضي دمشق الشام، وطُبِعَت مع شرحها، وشرحها العلَّامة الشيخ جعفر نقدي وجاء الشرح في مجلَّدين وأسماه (منن الرحمن في شرح وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان)، مطبوع.

والقصيدة طويلة وأوَّلها وهي مذكورة في (أعيان الشيعة)، وفي (منن الرحمن):

سرىٰ البرق من نجد فهيج تذكاري ... عهوداً بحزوىٰ والعذيب وذي قار

وله وقد رأىٰ النبيّ ﷺ في منامه، وتمتَّع بالنظر إلىٰ جماله:

وليلة كان بها طالعي ... في ذروة السعد وأُوج الكمال

قصَّر طيب الوصل من عمرها ... فلم تكن إلَّا كحلّ العقال

واتَّصل الفجر بها بالعشا وهكذا عمر ليالي الوصال
إذ أخذت عيني في نومها وانتبه الطالع بعد الوبال
فزرته في الليل مستعطفاً أفديه بالنفس وأهل ومال
وأشتكي ما أنا فيه من البلوىٰ وما ألقاه من سوء حال
فأظهر العطف علىٰ عبده بمنطق يزري بعقد اللئال
فيا لها من ليلة نلت في ظلامها ما لم ينل في خيال
أمست خفيفات مطايا الرجا بها وأضحت بالعطايا ثقال
سقيت في ظلمائها خمرة صافية صرفاً طهوراً حلال
وابتهج القلب بأهل الحمىٰ وقرَّت العين بذاك الجمال
ونلت ما نلت علىٰ أنَّني ما كنت أستوجب ذاك النوال

وله مضمّناً المصراع المشهور للجامي: (فاح ريح الصبا وصاح الديك):

يا نديمي بمهجتي أفديك قم وهات الكؤوس من هاتيك
هاتها هاتها مشعشعة أفسدت نسك ذا التقىٰ النسيك
خمرة إن ظللت ساحتها فسنا نور كأسها يهديك
يا كليم الفؤاد داو بها قلبك المبتلىٰ لكي يشفيك
هي نار الكليم فاجتلها واخلع النعل واترك التشكيك
صاح ناهيك بالمدام فدم في احتساها مخالفاً ناهيك
عمرك الله قل لنا كرماً يا حمام الأراك ما يبكيك
أترىٰ غاب عنك أهل منىٰ بعد ما قد توطَّنوا واديك

إنَّ لي بـــين ربعهـــم رشـــأ　　طرفـه إن تمـت أسـىً يحييـك
ذا قـوام كأنَّـه عصـىٰ موسـىٰ　　لمـا بـدا بـه التحريـك
لسـت أنسـاه إذ أتـىٰ سـحراً　　وحـده وحـده بغـير شريـك
طـرق البـاب خائفـاً وجـلاً　　قلـت مـن قـال مـن يرضيك
قلـت صرّح فقـال تجهـل مـن　　سـيف أُلحاظـه تحكّـم فيـك
بـات يسـقي وبـتُّ أشربهـا　　قهـوة تـترك المقـل مليـك
ثـمّ جاذبتـه الـرداء وقـد　　خـامر الخمـر طرفـه الفتيـك
قـال لي مـا تريـد قلـت لـه　　يـا منـىٰ القلـب قبلـة مـن فيـك
قـال خـذها فمـذ ظفـرت بهـا　　قلـت زدني فقـال لا وأبيـك
ثـمّ وسـدته اليمـين إلىٰ　　أن دنـا الصـبح قـال لي يكفيـك
قلـت مهـلاً فقـال قـم فلقـد　　(فاح ريح الصبا وصاح الـديك)

وقال يرثي والده الشيخ حسين بن عبد الصمد وقد توفّي بالموصل من قرىٰ البحرين سنة (٩٨٤هـ):

قـف بـالطلول وسـلها أيـن سـلماها　　وروّ مـن جـرع الأجفـان جرعاهـا
وردّد الطـرف في أطـراف سـاحتها　　وأرّج الـروح مـن أرواح أرجاهـا
فـإن يفتـك مـن الأطـلال مخبرهـا　　فـلا يفوتنَّـك مرآهـا ورياهـا
ربـوع فضـل تبـاهي التـبر تربتهـا　　ودار أُنـس تحـاكي الـدرّ حصـباها
عـدا عـلىٰ جـيرة حلـوا بسـاحتها　　صرف الزمـان فـأبلاهم وأبلاهـا
بـدور تـمَّ غـمام المـوت جللهـا　　شموس فضل سحاب الترب غشاها
فالمجـد يبكـي عليهـا جازعـاً أسـفاً　　والـدين ينـدبها والفضـل ينعاهـا

يـا حبـذا أزمـن في ظلّهـم سـلفت ... ما كـان أقصـرها عمـراً وأحلاهـا
أوقـات عمـر قضـيناها فـما ذكـرت ... إلّا وقطّـع قلـب الصبّ ذكراهـا
يـا جيرة هجـروا فاسـتوطنوا هجـراً ... واهـاً لقلـب المعنـىٰ بعـدكم واهـا
رعياً لليلات وصـل بـالحمىٰ سلفت ... سـقياً لأيّامنـا بـالخيف سـقياها
لفقدكم شقّ جيب الصبر وانصدعت ... أركانـه وبكـم مـا كـان أقواهـا
وخـرّ مـن شـامخات العلـم أرفعهـا ... وانهد من باذخـات الحلـم أرسـاها
يـا ثاويـاً بالمصـلّىٰ مـن قـرىٰ هجـر ... كسيت من حلل الرضوان أضفاها
أقمت يا بحـر بـالبحرين فاجتمعت ... ثلاثـة كـنَّ أمثـالاً وأشـباها
ثلاثـة أنـت أسـداها وأغزرهـا ... جـوداً وأعـذبها طعـماً وأحلاهـا
حويـت مـن درر العليـاء مـا حويـا ... لكـن درّك أعلاهـا وأغلاهـا
يا أخمصاً وطئـت هـام السـهىٰ شرفـاً ... سـقاك مـن ديـم الوسـمي أسماها
ويـا ضريحاً عـلا فـوق السـماك عـلاً ... عليـك مـن صـلوات الله أزكاهـا
فيـك انطـوىٰ مـن شـموس الفضـل ... ومـن معـالم ديـن الله أسـناها
ومـن شـوامخ أطـواد الفتـوَّة أر ... سـاها وأرفعهـا قـدراً وأنهاهـا
فاسحب علىٰ الفلك العلوي ذيل علا ... فقـد حويـت مـن العليـاء أعلاهـا
عليـك منّـي سـلام الله مـا صـدحت ... علىٰ غصـون أراك الـدوح ورقاهـا

ومن شعره قوله:

إنَّ هـذا المـوت يكرهـه ... كـلّ مـن يمشـي علىٰ الغـبرا
وبعـين العقـل لـو نظـروا ... لـرأوه الراحـة الكـبرىٰ

وقوله:

وثـــورين حاطــا بهــذا الــورىٰ فثـــور الثريـــا وثـــور الثـــرىٰ
وهـم فـوق هـذا ومـن تحـت ذاك حمـــير مســـرَّحة في قـــرىٰ

وقوله:

ومائسـة الأعطـاف تسـتر وجههـا بمعصـمها الله كـم هتكـت سـترا
أرادت لتخفـي فتنـة مـن جمالهـا بمعصمها فاستأنفت فتنة أُخرىٰ

وقوله:

وثقـــت بعفـــو الله عنّـــي في غـــدٍ
وإن كنـت أدري إنَّنـي المـذنب العـاصي
وأخلصـــت حبّـــي للنبـــيّ وآلـــه
كفىٰ في خلاصي يوم حشـري إخـلاصي

وقوله في الشوق إلىٰ لثم عتبة سيّد الأنبياء ﷺ:

للشـوق إلىٰ طيبـة جفنـي بـاكي لـو أنَّ مقـامي فلـك الأفـلاك
يستحقر مـن مشىٰ إلىٰ روضـتها المشـي علىٰ أجنحـة الأمـلاك

ولـه دو بيـت قالـه ليكتـب علىٰ المكـان الـذي أمـر ببنائـه في النجـف الأشرف لحفظ نعال الزوّار:

هـذا الأُفـق المبـين قـد لاح لـديك فاسـجد متـذلّلاً وعفّـر خـدّيك
ذا طور سينين فاخضع الطـرف بـه هـذا حـرم العـزَّة فـاخلع نعليـك

وقوله وأرسلها إلىٰ خدّام مولانا الحسين عليه السلام:

يا سعد إذا جزت ديـار الأحبـاب وقـــــت الســـــحر

قبّل عنّي تراب تلك الأعتاب واقـض وطـري
إن هم سألوا عن البهائي فانطق رؤيـا النظـر
قد ذاب من الشوق إليكم قد ذاب هـذا خـبري

وقوله في الشوق إلىٰ زيارة مولانا الرضا عليه السلام:

إن جئت أقصّ قصّة الشوق لديك إن جئت إلىٰ طوس فبالله عليك
قبّل عنّي ضريح مولاي وقل قد مات بهائيك بالشوق إليك

وقوله:

في يثرب والغري والزوراء في طوس وكربلا وسامراء
لي أربعة وعشرة هم ثقتي في الحشر وهم حصني من أعدائي

وقوله:

يا ربّ إنّي مذنب خاطئ مقصّر في صالحات القرب
وليس لي من عمل صالح أرجوه في الحشر لدفع الكرب
غير اعتقادي حبّ خير الورىٰ وآله والمرء مع من أحبّ

وقوله عن لسان أهل الحال من الصوفية:

أنا الفقير المعنىٰ ذو رقّة وحنين
للناس طرّاً خدوم إذا هم استخدموني
يعلو مقامي قدراً إذا هم لمسوني
ولست أسلو هواهم يوماً ولو قطعوني
هذا ومن سوء حظّي وحسرتي وشجوني
أن لست أُذكَر إلّا عقيب رفع الصحوني

وله دو بيت:

يـا بـدر دجـىٰ خيالـه في بـالي ... مـنـذ فـارقني وزاد في بلبـالي

أيّام نـواك لا تسـل كيـف مضـت ... والله مضـت بأسـوء الأحـوال

وله:

يـا عـاذلي كـم تطيـل في أتعـابي ... دع لومك وانصرف كفـاني مـا بي

لا لـوم إذا أهـيم بالشـوق فـلي ... قلـب مـا ذاق فرقـة الأحبـاب

وله:

كـم بـتُّ مـن المسـا إلىٰ الإشراق ... في فـرقتكم ومطـربي أشـواقي

والهـمّ منـادمي ونقـلي سـهري ... والدمع مـدامتي وجفنـي السـاقي

وكتب إلىٰ والده بهرات من قزوين سنة (٩٨١هـ):

بقـزوين جسـمي وروحـي ثـوت ... بـأرض الهـرات وسـكّانها

فهـذا تغـرَّب عـن أهلـه ... وتلـك أقامـت بأوطانهـا

وكتـب إليـه شيخ الإسـلام الشـيخ عمـر المفتـي بالقـدس الشـريف أبياتـاً في بعـض الأغـراض، فأجابـه بهـذه الأبيـات لمغـزاً فيهـا باسـم مدينـة القدس:

يـا أيّهـا المـولىٰ الـذي قـد غـدا ... في الخلـق والخلـق عـديم المثـال

وحـلّ مـن شـامخ طـود العـلىٰ ... في ذروة المجـد وأوج الكـمال

وعطَّـر الكـون بمنظومـة ... نظامهـا يـزري بعقـد الـلآل

كأنّهـا بكـر بأحاظهـا ... سـحر بهـت سـلب لـبّ الرجـال

وروضـة ممطـورة مـرَّ في ... أرجائهـا صـبحاً نسـيم الشـمال

لـو لم يكـن أسـكرني لفظهـا لقلـت حقّـاً هـي سـحر حـلال
يـا سـادة فـاقوا الـورىٰ عبـدكم أحقـر مـن أن تخطـروه ببـال
أرضـعتموه درّ ألفـاظكم ومـا لـه عـن ودكـم مـن فصـال
ومـذ أنـاخ الركـب في أرضـكم سـلا عـن الأهـل وعـمّ وخـال
أنـتم بنـو اللطـف وألطـافكم علىٰ الورىٰ مـا مرحـت في اتّصال
في قمّـة الفضـل لكـم منـزل مـا مـرَّ في وهـم ولا في خيـال
وعبـدكم أعجـزه مـدحكم فصـار بـاللغز يطيـل المقـال
يـا سـيّداً قـد حـاز مـن سـائر الفنـون حظّـاً وافـراً لا ينـال
مـا بلـدة أوّلهـا سـورة بـل جبـل صـعب بعيـد المنـال
ومـا سـوىٰ آخرهـا قـد غـدا اسماً وفعـلاً وهـو حـرف يقـال
وقلبـه فعـل واسـم لمـا يصـير منـه الجسـم مثـل الخـلال
وغيرهـا إن ينـتقص نصـفه مـن صـدرها فهـو طعـام حـلال
ومـا سـوىٰ أوّلهـا قلبـه أمـر بـه كـلّ جميـل الخصـال
وقلبهـا إن زال نصـف لـه يصـير مـا قلبـي غـداً منـه غـال
وإن تـزده النصـف منـه يكـن حاجـب مـن يرمـي لقلبـي نبـال
مـولاي إنَّ العبـد مـن شـعره في خجـل متَّصـل وانفعـال
قـال يراعـي حـين كلّفتـه تحريـر هـذا الهـذر مـاذا الخبـال
يقابـل الـدرّ بهـذا الحصـىٰ لا شكَّ في عقلـك بعـض اختلال

فأجبه الشيخ عمر المذكور بهذه الأبيات:

حلـت وقـد حيّـت برفـع النقـاب وابتسـمت عـن نظـم درّ الحبـاب

وأسـفرت إذ مـا بـدت تـنجلي　　فخلت بدراً قد بدا من سحاب
تماسـت عجبـاً ومالـت قنـاً　　وعطَّرت بالطيب تلك الرحاب
وأسرعـت نحـوي وقـد أبـدعت　　وأودعـت سمعي لذيذ الخطاب
وأرشـفتني مـن لمـىٰ لفظهـا　　فرحـت سكران بغير الشـراب
مسـتغرقاً في بحـر ألفاظهـا　　كـأنَّني ممَّـا عـراني مصـاب
ولـيس ذا مسـتغرباً حيـثما　　أبرزهـا بحـر خضـمّ عبـاب
فيـا إمـام الـنظم أذكرتنـي　　بهـذه الغـادة عصـر الشباب
ألغـزت يـا مـولاي في بلـدة　　قـد أَمَّهـا الـداعي بنصّ الكتاب
مضـافها الـروح بـلا شـبهة　　مطهَّـر مـن دنـس الارتيـاب
إذا أزلـت القلـب مـن لفظهـا　　فهي فصيح العرب لـب اللباب
وإن تزدهـا واحـداً تلفهـا　　سـفينة تجـري بـها يسـتطاب
كـذاك إن زدت إلىٰ قلبهـا　　واواً تجـد اسـماً لمـولىٰ الثـواب
عسـاك إن جئـت إلىٰ حيّهـا　　تقـدس الـذات وتنفـي الشـواب
وتشـرح الصـدر بـما صـغته　　مـن درّ لفـظ ومعـان عـذاب
فاسـلم ودم في نعمـة ملغـزاً　　في بلـد القـدس رفيـع الجنـاب

وله:

يـا سـاحراً بطرفـه　　وظالمـاً لا يعـدل
أخربـت قلبـي عامـداً　　كـذا يراعـىٰ المنـزل

وله وقد أشرف علىٰ مدينة سُرَّ من رأىٰ:

اسرع السـير أيّهـا الحـادي　　إنَّ قلبـي إلىٰ الحمـىٰ صـادي

وإذا مـا رأيـت مـن كثـب مشـهد العسـكري والهـادي

فـالتثم الأرض خاضـعاً فلقـد نلـت والله خـير أسـعادي

وإذا مـا حللـت نـاديهم يـا سـقاه الإلـه مـن نـادي

فاغضـض الطـرف خاضـعاً ولهـاً واخلـع النعـل إنَّـه الـوادي

وله وقد أشرف علىٰ المشهد الأقدس الرضوي:

هـذه قبَّـة مـولا ي بـدت كـالقبس

فـاخلع النعـل فقـد جـزت بـوادي القـدس

وأورد في الكشكول ما صورته: رثىٰ السيّد الأجلّ والد جامع الكتاب (ولم يذكر من هو هذا السيّد الأجلّ) بقصيدة مطلعها:

جـارتي كيـف تحسـنين ملامـي أيـداوىٰ كلـم الحشـىٰ بـالكلام

وطلب منه القول علىٰ طرزها، فقال مشيراً إلىٰ بعض ألقابه الشريفة:

خليـاني بلـوعتي وغرامـي يـا خليـلي واذهبـا بسـلام

قـد دعـاني الهـوىٰ ولبّـاه لبّـي فـدعاني ولا تطـيلا ملامـي

إنَّ مـن ذاق نشـوة الحـبّ يومـاً لا يبـالي بكثـرة اللـوّامي

خـامرت خمـرة المحبَّـة عقـلي وجـرت في مفاصـلي وعظـامي

فعـلىٰ الحلـم والوقـار صـلاة وعـلىٰ العقـل ألـف ألـف سـلام

هـل سـبيل إلىٰ وقـوفي بـوادي الجـزع يـا صـاحبي أو المـامي

أيّهـا السـائل الملـح إذا مـا جئت نجـداً فعـج بـوادي الخـزام

وتجـاوز عـن ذي المجـاز وعـرّج عـادلاً عـن يمـين ذاك المقـام

وإذا مـا بلغـت حـزوىٰ فبلّـغ ... جـيرة الحـيّ يـا أخـي بسـلامي
وانشـدنَّ قلبـي المعنـىٰ لـديهم ... فلقـد ضـاع بـين تلـك الخيـام
وإذا مـا رثـوا لحـالي فسـلهم ... أن يمنّـوا ولـو بطيـف منـام
يـا نـزولاً بـذي الأراك إلىٰ كـم ... تنقضـي في فـراقكم أعـوامي
مـا سرت نسـمة ولا نـاح في الـدو ... ح حمـام إلَّا وحـان حمـامي
أيـن أيّامنـا بشـرقيّ نجـد ... يـا رعاهـا الإلـه مـن أيّـام
حيث غصن الشباب غضّ وروض ... العـيش قـد طرزتـه أيـدي الغـمام
وزمـاني مسـاعدي وأيـادي ... اللهـو نحـو المنـىٰ تجـرّ زمـامي
أيّهـا المرتقـي ذرىٰ المجـد فـرداً ... والمرجّـىٰ للفادحـات العظـام
يا حليف العلىٰ الـذي جمعـت فيـه ... مزايـا تفرَّقـت في الأنـام
نلـت في ذروة الفخـار محـلَّاً ... عسـر المرتقـىٰ عزيـز المـرام
نسـب طـاهر ومجـد أثيـل ... وفخـار عـال وفضـل سـامي
قـد قرنـا مقـالكم بمقـال ... وشـفعنا كلامكـم بكـلام
ونظمنـا الحصـىٰ مـع الـدرّ في ... سـمط وقلنـا العبـير مثـل الرغـام
لم أكـن مقـدماً عـلىٰ ذا ولكـن ... امتثـالاً لأمـركم إقـدامي
عمـرك الله يـا نـديمي أنشـد ... (جـارتي كيـف تحسـنين ملامـي)

وله متسلّياً به من طول الإقامة بقزوين:

قد اجتمعت كلّ الفلاكات في الأرض ... فقوموا بنا نعدوا فقومـوا بنـا نعـدو
فمختلطـات الهـمّ فيهـا كثـيرة ... فلـيس لهـا رسـم ولـيس لهـا حـدّ
وأشـكال آمـالي أراهـا عقيمـة ... ومعكوسة فيهـا قضـاياي يـا سـعد

فمـن قلَّـة التمييـز حـالي تسـيئني   وفعـلي معتـل وهمّـي ممتـدّ

ومن شعره قوله:

ألَا يـا خائضـاً بحـر الأمـاني   هـداك الله مـا هـذا التـواني
أضـعت العمـر عصـياناً وجهـلا   فمهـلاً أيّهـا المغـرور مهـلا
مضىٰ عصر الشباب وأنت غافل   وفي ثـوب العمـىٰ والغـيّ رافـل
إلىٰ كـم كالبهـائم أنـت هـائم   وفي وقـت الغنـائم أنـت نـائم
وطرفـك لا يـرىٰ إلَّا طموحـا   ونفسـك لم تـزل أبـداً جموحـا
وقلبـك لا يفيـق عـن المعـاصي   فويلـك يـوم يؤخـذ بـالنواصي
بـلال الشـيب نـادىٰ في المفـارق   بحيّ علىٰ الـذهاب وأنـت غـارق
ببحـر الإثـم لا تصـغي لـواعظ   وإن أطـرىٰ وأطنـب في المـواعظ
وقلبـك هـائم في كـلّ وادي   وجهلـك كـلّ يـوم في ازديـاد
عـلىٰ تحصـيل دنيـاك الدنيـة   مجـدّاً في الصـباح وفي العشـية
وجهـد المـرء في الـدنيا شـديد   ولـيس ينـال منهـا مـا يريـد
وكيـف ينـال في الأُخـرىٰ مرامـه   ولم يجهـد لمطلبهـا قلامـه

وقولـه مشـيراً إلىٰ حـال مـن صرف العمـر في جمـع الكتـب وادّخارهـا علىٰ غير طائل:

علىٰ كتـب العلـوم صرفـت مالـك   وفي تصـحيحها أتعبـت بالـك
وأنفقـت البيـاض عـلىٰ السـواد   إلىٰ مـا لـيس ينفـع في المعـاد
تظـل مـن المسـاء إلىٰ الصـباح   تطالعهـا وقلبـك غـير صـاحي
وتصـبح مولعـاً مـن غـير طائـل   (بتحريـر) المقاصـد (والـدلائل)

(وتوضـيح) الخفـا في كـلّ بـاب ... وتوجيـه السـؤال مـع الجـواب
لعمـري قـد أضـلَّتك (الهدايـة) ... ضـلالاً مـا لـه أبـداً (نهايـة)
و(بالمحصـول) حاصـلك الندامـة ... وحرمـان إلىٰ يـوم القيامـة
(وتذكرة) (المواقـف) و(المراصـد) ... تسـدّ عليـك أبـواب (المقاصـد)
فلا تنجي (النجاة) مـن الضـلالة ... ولا يشفي (الشفاء) مـن الجهالـة
و(بالإرشـاد) لم يحصـل رشـاد ... و(بالتبيـان) مـا بـان السـداد
و(بالانصاح) أشـكلت (المـدارك) ... و(بالمصباح) أظلمـت (المسـالك)
و(بـالتلويح) مـا لاح الـدليل ... و(بالتوضـيح) مـا اتَّضـح السـبيل
صرفت (خلاصـة) العمـر العزيـز ... علىٰ (تنقـيح) أبحـاث (الـوجيز)
بهذا (النحو صرفت) العمر جهـل ... فقـم واجهـد فـما في الأمـر مهـل
ودع عنك الشـروح مـع الحـواشي ... فهـنَّ علىٰ البصـائر كـالغواشي

وقوله وهو من سوانح سفر الحجاز:

يا نديمي ضاع عمـري وانقضـىٰ ... قم إلىٰ استدراك وقـت قـد مضـىٰ
واغسـل الأدنـاس عنّـي بالمـدام ... وامـلأ الأقـداح منهـا يـا غـلام
واسـقني كأسـاً فقـد لاح الصـباح ... والثريـا غربـت والـديك صـاح
زوّج الصـهباء بالمـاء الـزلال ... واجعلـنَّ عقـلي لهـا مهـراً حـلال
هاتهـا مـن غـير مهـل يـا نـديم ... خمـرة يحيـا بهـا العظـم الـرميم
بنـت كـرم تجعلـن الشـيخ شـاب ... من يذق منها عـن الكـونين غـاب
خمـرة مـن نـار موسـىٰ نورهـا ... دنّهـا قلبـي وصـدري طورهـا
قـم ولا تمهـل فـما في العمـر مهـل ... لا تصـعّب شربهـا فـالأمر سـهل

قــل لشـيـخ قلبــه منهــا نفــور لا تخــف فــالله تــوّاب غفــور
يــا مغنّــي إنَّ عنــدي كــلّ فــم قــم وألــق النــاي فينــا بــالنغم
عــن لي دوراً فقــد دار القــدح والصبا قد فـاح والقمـري صـدح
واذكرنَّ عنـدي أحاديـث الحبيـب إنَّ عيشــي بســواها لا يطيــب
واحذرنَّ ذكـري أحاديـث الفـراق إنَّ ذكــر البعــد ممَّــا لا يطــاق
روّحــنَّ روحــي بأشـعار العـرب كــي يـتمّ الأُنــس فينــا والطـرب
وافتــتح منهــا بــنظم مسـتطاب قلتــه في بعــض أيّــام الشــباب
قـد صرفنـا العمـر في قيـل وقـال يا نـديمي قـم فقـد ضـاق المجال
ثــمّ أطربنــي بأشــعار العجــم واطـردنَّ همَّــاً عــلىٰ قلبــي هجــم
قــم وخــاطبني بكــلّ الألســنه عــلّ قلبــي ينتبـه مـن ذي ألسـنه
إنَّــه في غفلــة عــن حالــه خــابط في قيلــه مــع قالــه
كــلّ آنٍ وهــو في قيــد جديــد قـائلاً مـن جهلـه هـل مـن مزيـد
تائـه في الغـيّ قـد ضـلَّ الطريـق قـطّ مـن سـكر الهـوىٰ لا يستفيق
عــاكف دهــراً عــلىٰ أصــنامه تهــزأ الكفّــار مــن إســلامه
كم أُنـادي وهـو لا يصـغي التنـاد يــا فــؤاد يــا فــؤاد يــا فــؤاد
يــا بهــائي اتَّخــذ قلبــاً ســواه فهــو مــا معبــوده إلَّا هــواه

وقوله:

أيّهــا القــوم الأولىٰ في المدرســة كلَّــما حصــلتموه وسوســة
فكـركم إن كـان في غـير الحبيـب ما لكم في النشأة الأُخـرىٰ نصيب
فاغسلوا بـالراح عـن لـوح الفـؤاد كــلّ علــم لـيس ينجـي في المعـاد

وكتب إلىٰ والده وهو بهرات:

يا ساكني أرض الهـرات أمَـا كفـىٰ   هذا الفـراق بـلىٰ وحـقّ المصـطفىٰ
عودوا عليَّ فربـع صـبرىٰ قـد عفـا   والجفن من بعـد التباعـد مـا غفـا

وخيـــالكم في بـــالي
والقلـــب في بلبـــال

إن أقبلت من نحوكم ريـح الصـبا   قلنـا لهـا أهـلاً وسـهلاً مرحبـا
وإلـيكم قلـب المتـيّم قـد صـبا   وفـراقكم للـروح منـه قـد سـبا

والقلـب لـيس بخـالي
مـن حـبّ ذات الخـال

يـا حبَّـذا ربـع الحمـىٰ مـن مربـع   فغزالـه شـبَّ الغضـا في أضـلعي
لم أنسـه يـوم الفـراق مـودعي   بمـدامع تجـري وقلـب موجـع

والصـب لـيس بسـالي
عـن ثغـره السلسـال

وله في وصف الديار المصرية أبيات أوّلها:

يـا مصـر سـقياً لـك مـن جنَّـة   قطوفهـــا يانعـــة دانيـــة
ترابهـــا كـــالتبر في لطفـــه   وماؤهـــا كالفضَّـــة الصـــافية
لمـا أنخـت الركـب في أرضـها   أنسـيت أحبـابي وأصـحابية

وجاء في منن الرحمن (ص ٣٠):

لا يغرنَّـــك مـــن المـــرء   رداء رقَّعـــــــــــــه
وجبـــين لاح فيـــه   أثـــر قـــد قلعـــه

وقميص فوق كعب الساق | منه رفعه
أره الدرهم تعرف | غيّه أو ورعه

وله أيضاً رحمه الله:

ألقىٰ يديه علىٰ صدري فقلت له | برّدت حرّ فؤاد أنت موجعه
فقال لا تعجلنّ عيناي قد رمتا | سهماً فأحببت أدري أين موضعه

وله أيضاً:

ولـمّا اشتكيت اشتكىٰ كلّ من | علىٰ الأرض واعتلّ شرق وغرب
لأنّك قلب لجسم الزمان | وما صحّ جسم إذا اعتلّ قلب

وقوله يرثي الحسين بن علي عليهما السلام:

مصابك يا مولاي أورث حرقة | وأمطر من أجفاننا هاطل المزن
فلو لم يكن ربّ السماء منزّهاً | عن الحزن قلنا إنّه لك في الحزن

وقوله أيضاً:

مضىٰ في غفلة عمري | كذلك يذهب الباقي
أدر كأساً وناولها | ألَا يا أيّها الساقي
ألَا يا ريح إن تمرر | بأهل الحيّ من حزوي
فبلّغهم تحيّاتي | ونبّأهم بأشواقي
وقل أنتم نقضتم عهد | كم ظلماً بلا سببِ
وإنّي ثابت أبداً | علىٰ عهدي وميثاقي

ومن شعره الأُرجوزة الهراتية، وصف بها بلدة هرات وأشجارها وثمارها وأنهارها وهوائها وهي طويلة وأوّلها:

الحمـــــد لله العـــــلي العـــــالي ذي المجـد والإفضـال والجـلال

ذكرها الشيخ جعفر نقدي في كتابه (منن الرحمن).

وله وسـيلة الفـوز والأمـان في مـدح صـاحب الزمـان سـلام الله عليـه وعلىٰ آبائه الطاهرين:

سرىٰ البرق من نجد فجدَّد تذكاري عهوداً بحـزوىٰ والعـذيب وذي قـار
وهـيَّج مـن أشـواقنا كـلّ كـامن وأجَّـج في أحشـائنا لاعـج النـار
ألَا يـا لبـيلات الغـوير وحـاجر سَـقينا بهـام مـن بنـي المـزن مـدرار
ويـا جــيرة بالمـأزَمَين خيـامهم علـيكم سـلام الله مـن نـازح الـدار
خلـيلي مـا لي والزمـان كـأنَّما يطـالبني في كـلّ آنٍ بأوتـار
فأبعـد أحبـابي وأخـلىٰ مرابعـي وأبـدلني مـن كـلّ صـفو بأكـدار
وعادل بي من كـان أقصـىٰ مرامـه من المجد أن يسمو إلىٰ عشر معشـاري
ألم يـدر أنّي لا أذل لخطبـه وإن سامني خسفاً وأرخص أسعاري
مقـامي مقـام الفرقـدين فـما الـذي يـؤثره مسـعاه في حفـظ مقـداري
وإنّي امـرؤ لا يـدرك الـدهر غـايتي ولا تصـل الأيـدي إلىٰ سِرِّ أغـواري
أُخـالط أبنـاء الزمـان بمقتضـىٰ عقولهـمـوا كـي لا يفوهـوا بإنكـاري
وأظهـر أنّي مـثلهم تسـتفزّني صروف الليـالي بـاحتِلاءٍ وامـرار
وإنّي ضاوي القلب مستوفز النهـىٰ أسر بيسـر أو أُسـاء بإعسـار
ويضـجرني الخطـب المهـول لقـاؤه ويطربنـي الشـادي بعـودٍ ومزمـار
ويَصمىٰ فؤادي ناهد الثدي كاعـب بأسـمر خَطـارٍ وأحـور سَـحّار
وإنّي أسـخي بالـدموع لوقفـة علىٰ طلـل بـالٍ ودارس آثـار

وما علموا أنّي امرؤ لا يروعني ... توالي الرزايا في عشيّ وإبكار
إذا دكَّ طود الصبر من وقع حادث ... فطود اصطباري شامخ غير منهار
وخطب يزيل الروع أيسر وقعِهِ ... كؤدٍ كوخز بالأسنَّة سعار
تلقَّيته والحتف دون لقائه ... بقلب وقور في الهزاهز صبّار
ووجه طليق لا يُمِلُّ لقاؤه ... وصدرٍ رحيب في ورود وإصدار
ولم أبده كي لا يساء لوقعه ... صديقي ويأسىٰ من تعسّره جاري
ومعضلة دهماء لا يهتدىٰ لها ... طريق ولا يُهدىٰ إلىٰ ضوئها السار
تشيب النواصي دون حلّ رموزها ... ويحجم عن أغوارها كلّ مغواري
أجلت جياد الفكر في حلباتها ... ووجَّهت تلقاها صوائب أنظاري
فأبرزت من مستورها كلّ غامض ... وثقَّفت منها كلّ أصور موار
أأضرع للبلوىٰ وأغضي علىٰ القذىٰ ... وأرضىٰ بما يرضىٰ به كلّ مخوار
وأفرح من دهري بلذَّة ساعة ... وأقنع من عيشي بقرص وأطمار
إذاً لا ورىٰ زندي ولا عزَّ جانبي ... ولا بزغت في قمَّة المجد أقماري
ولا بلَّ فيَّ بالسماح ولا سرت ... بطيب أحاديثي الركاب وأخباري
ولا انتشرت في الخافقين فضائلي ... ولا كان في المهدي رائق أشعاري
خليفة ربّ العالمين وظلّه ... علىٰ ساكني الغبراء من كلّ ديّار
هو العروة الوثقىٰ الذي مَن بِذَيْله ... تمسَّك لا يخشىٰ عظائم أوزار
إمام هدىٰ لاذ الزمان بظلّه ... وألقىٰ إليه الدهر مقود خوّار
ومقتدر لو كلَّف الصمّ نطقها ... بأجذارها فاهت إليه بأجذار
علوم الورىٰ في جنب أبحر علمه ... كغرفة كفّ أو كغمسة منقار

فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه ... ولم يعشه منها سواطع أنوار
رأىٰ حكمة قدسية لا يشوبها ... شوائب أنظارٍ وأدناس أفكار
بإشراقها كلّ العوالم أشرقت ... لما لاح في الكونين من نورها الساري
إمام الورىٰ طود النهىٰ منبع الهدىٰ ... وصاحب سرّ الله في هذه الدار
به العالم السفلي يسمو ويعتلي ... علىٰ العالم العلوي من دون إنكار
ومنه العقول العشر تبغي كمالها ... وليس عليها في التعلّم من عار
همام لو السبع الطباق تطابقت ... علىٰ نقض ما يقضيه من حكمه الجاري
لنكّس من أبراجها كلّ شامخ ... وسكّن من أفلاكها كلّ دوّار
ولا انتشرت منها الثوابت خيفة ... وعاف السرىٰ في سورها كلّ سيّار
أيا حجّة الله الذي ليس جارياً ... بغير الذي يرضاه سابق أقدار
ويا من مقاليد الزمان بكفّه ... وناهيك من مجد به خصّه الباري
أغِث حوزة الإيمان واعمر ربوعه ... فلم يبقَ منها غير دارس آثار
وأنقذ كتاب الله من يد عصبةٍ ... عصوا وتمادوا في عتوٍّ وإصرار
يحيدون عن آياته لرواية ... رواها أبو شعيون عن كعب أحبار
وفي الدين قد قاسوا وعابوا وخبطوا ... بآرائهم تخبيط عشواء معشار
وأنعش قلوباً في انتظارك قرحت ... وأضجرها الأعداء أيّة إضجار
وخلِّص عباد الله من كلّ غاشم ... وطهِّر بلاد الله من كلّ كفّار
وعجِّل فداك العالمون بأسرهم ... وبادر علىٰ اسم الله من غير انظار
تجد من جنود الله خير كتائب ... وأكرم أعوان وأشرف أنصار
بهم من بني همدان أخلص فتية ... يخوضون أغمار الوغا غير فكّار

بكلّ شديد البأس عبل شمردل ... إلىٰ الحتف مقدام علىٰ الهول صبّار
تحاذره الأبطال في كلّ موقف ... وترهبه الفرسان في كلّ مضمار
أيا صفوة الرحمن دونك مدحة ... كدرّ عقود في ترائب أبكار
يهنّي ابن هاني إن أتىٰ بنظيرها ... ويعنو لها الطائي من بعد بشّار
إليك البهائي الحقير يزفّها ... كغانية مياسة القدّ معطار
تغار إذا قيست لطافة نظمها ... بنفحة أزهار ونسمة أسحار
إذا رددت زادت قبولاً كأنّها ... أحاديث نجد لا تملّ بتكرار

وله أيضاً في اللغتين العربية والفارسية نقلاً عن مجموعتي الخطّية:

يا من بمحياه جلىٰ الكون وزانَه ... العالم في الحيرة لا يدرك شانَه
أخافك ظهور لك عنهم وإبانَه ... اى تير غمت بر دل عشّاق نشانه
عالم به تو مشغول و تو غايب زميانه

إنَّ في عَرفات ومِناها جسدي دار ... أو مَشعرها ما بسواك خَلَدي دار
هل مثليَ من حجَّ إلىٰ الكعبة والدار ... حاج بره كعبه ومن طالب ديدار
او خانه همى جويد من صاحب خانه

إيّاك تطلَّبتُ وذكراك هَويتُ ... من كلّ حديثٍ بأسانيد رَوَيت
إن كنت إلىٰ الكعبة وللبيت أتيت ... مقصود من از كعبه وبُتخانه توئى تو
مقصود توئى كعبه وبُتخانه بهانه

لا مطلب لي غيرك لا والذي يوجَد ... إن أغرقُ أو أُتَّهِمُ أو أُشئِمُ أنجدِ
الفوز إلىٰ وصلك يا مَن هو موجدِ ... گه معتكف ديرم و گه ساكن مسجد
يعنى كه تُرا مي طلبم خانه بخانه

ما كتبه الدكتور شوقي:

كتاب جديد يطرق الأسواق بعنوان (الأعمال الرياضية بهاء الدين العاملي)، وهو كتاب دقيق عميق في البحث العلمي الرياضي، تحقيق وشرح وتحليل الدكتور جلال شوقي الأُستاذ بكلّية الهندسة جامعة القاهرة، طُبِعَ بمطابع دار الشروق (بيروت/ الطبعة الأُولىٰ/ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

يقول مؤلِّفه جلال شوقي في مقدّمة الكتاب: (...وقد زخرفت الحضارة العربية بعشرات من علماء الرياضيات الذين قدَّموا للعالم عدَّة مئآت من المؤلَّفات القيّمة لا زالت الغالبية العظمىٰ منها أسيرة خزانات المخطوطات، هذا لما قُدِّرَ لها البقاء إلىٰ وقتنا الحاضر، ومن المؤسف حقَّاً أنَّ الكثير من المخطوطات العربية قد ضاع أو تلف عبر القرون بسبب الحروب والغزوات والمحن. الأمر الذي جعل قضيّة تاريخ العلوم الرياضية عند العرب أمراً ليس بالهيّن اليسير.

ولقد دار بخلدي أن أُقدِّم دراسة لأحد الرياضيين العرب، ممَّن كانت له فرصة التجوال والاطّلاع علىٰ الآثار العلمية لمن سبقه من علماء العرب، ومن ثَمَّ فقد يكون من الممكن أن ننقل عنه صورة دقيقة لما وصلت إليه علوم الحساب والجبر والمقابلة وأعمال المساحة قرب نهاية الحضارة التي امتدَّت زهاء ثمانية قرون.

وبعد درس وتنقيب وتمحيص استقرَّ رأيي علىٰ أن أقوم بتحقيق آثار الشيخ بهاء الدين العاملي في الرياضيات، فالشيخ من علماء النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.

وقد عُرِفَ عنه شغفه الشديد بالعلم، وتعدّد أسفاره التي استمرَّت ثلاثين عاماً، جاب خلالها المنطقة الممتدّة من مصر جنوباً

وغرباً حتّىٰ أصفهان شمالاً وشرقاً، ولا بدَّ أن يكون الشيخ العاملي قد اطَّلع في أسفاره هذه علىٰ كتب المتقدّمين، ومنها ما قد يكون ضلَّ طريقه إلينا، وقد وجدت أنَّ العاملي قد ألَّف كتاباً لخَّص فيه الحساب والجبر وأعمال الساحة علىٰ عصره، وقدَّم هذه المعلومات في صورة مرتَّبة كلّ الترتيب واضحة كلّ الوضوح.

وشاءت الصدفة الحسنة أن أعثر علىٰ ستّ مخطوطات لكتابه هذا المسمّىٰ (خلاصة الحساب) في مكتبات حلب الشهباء أثناء تواجدي بها أُستاذاً مُعاراً لجامعتها، فعقدت العزم علىٰ تحقيق هذا الكتاب للعاملي لاسيّما وأنّي لم أجد في فهارس معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ما يدلّ علىٰ وجود مخطوط أو مصوَّر لهذا الكتاب ضمن مقتنياته.

هذا وقد تبيَّن لي أثناء التحقيق أنَّ الكتاب قد لخَّص _ بعناية ودقَّة _ الطرق الحسابية والجبرية المعروفة علىٰ عهده، وأورد العديد من الأمثلة، وبيَّن أنواع المعادلات وطرائق حلّها، كذا المسائل المستعصية الحلّ، كما قدَّم عدَّة قواعد وفوائد لتسهيل أعمال الحساب.

ونحن لم نعرض لهذا التحقيق ظنّاً منّا أنّا نعرض لفضل العاملي في الرياضيات، وإنَّما نقدّم الكتاب باعتباره عرضاً _ في المقام الأوَّل _ لعلوم الحساب والجبر والمساحة ومفاهيم العلماء العرب وطرائقهم فيها في القرن الأخير من الحضارة العربية، بهذا المضمون أقبلنا علىٰ هذه المهمّة مفضّليها علىٰ أن نكتب من عندنا تاريخاً للعلوم الرياضية عند العرب، وذلك حتّىٰ يتمّ تحقيق ونشر الجانب الأكبر من المخطوطات العربية في هذا المجال، فتكون كتابة التاريخ عن المصادر العربية الأصيلة لا عن آراء واجتهادات متفرّقة من الشرق والغرب.

وقد وجدنا إتماماً للفائدة أن نعرض بالدراسة للمسائل الحسابية والجبرية المتنوّعة التي ساقها الشيخ بهاء الدين العاملي في كتاب آخر له يُعرَف بكتاب الكشكول، ألَّفه أثناء تواجده بمصر، فقدَّمناها مشروحة وذلك بعد انتهاء تحقيقنا لكتاب خلاصة في الحساب والجبر والمقابلة، وكان يودّنا أن نحصل علىٰ نسخة من مخطوط أشار إليه العاملي في كتابه هذا وسمّاه (بحر الحساب)، وهو كتاب كان يؤلِّفه العاملي ويأمل أن يوفّقه الله لإتمامه، إلَّا أنَّه لا يبدو أنَّ ذلك قد تحقَّق له.

أرجو بهذه الدراسة العلمية أن أكون قد وُفِّقت في تقديم صورة واضحة علىٰ لسان أحد علمائنا المتأخّرين لمعارف العرب في الحساب والجبر والمساحة قبل أن تأخذ أُوربا بزمام المبادرة في مجال الرياضيات، والله وليّ التوفيق).

ثمّ يستمرّ في كتابه (ص ١١) ترجمة الشيخ البهائي فيقول:

(هو محمّد بن حسين بن عبد الصمد، الملقَّب بهاء الدين الحارثي العاملي الجبعي الهمداني، ولد ببعلبك عند غروب شمس يوم الأربعاء لثلاثة عشر بقين من ذي الحجَّة سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، وانتقل به أبوه إلىٰ بلاد العجم، حيث نهل من مناهل العلم، ثمّ أخذ في السياحة، فتنقَّلت به الأسفار إلىٰ أن وصل أصفهان، وجاب بلاداً كثيرة، فدخل مصر، ثمّ قدم القدس ولزم فناء المسجد الأقصىٰ الشريف، ثمّ أقلع إلىٰ حلب قبل أن يرجع إلىٰ أصفهان حيث كانت وفاته لاثنتي عشرة خلون من شوّال سنة إحدىٰ وثلاثين وألف، ونُقِلَ إلىٰ طوس حيث دُفِنَ فيها بجوار الإمام الرضا عليه السلام.

ولقب الحارثي نسبة إلىٰ حارث، وهمدان قبيلة، أمَّا لقب العاملي فهو نسبة إلىٰ جبل عامل أو بني عاملة بالشام (حالياً بلبنان).

تُنسَب إلىٰ الشيخ بهاء الدين العاملي مؤلَّفات كثيرة وجليلة، منها: التفسير المسمّىٰ بالعروة الوثقىٰ والصراط المستقيم، والتفسير المسمّىٰ بعين الحياة، والتفسير المسمّىٰ بالحبل المتين في مزايا القرآن المبين، ومشرق الشمسين وإكسير السعادتين، وحاشية علىٰ أنوار التنزيل، وتفسير وجيز، ورسالة في وحدة الوجود، ومفتاح الفلاح، وزبدة الأُصول، وأربعون حديثاً، ودراية الحديث أو الرسالة الوجيزة، والجامع العبّاسي (فارسي)، والحديقة الهلالية، والرسالة الاثنا عشرية، وهداية الأُمَّة إلىٰ أحكام الأئمّة، وحديقة السالكين.

وله في مجال اللغو والأدب: الفوائد الصمدية في علم العربية، وأسرار البلاغة، وتهذيب النحو، والمغلاة، والكشكول، وبعض القصائد، ومنظومة في الموعظة، وتهذيب البيان، ومنظومة وسيلة الفوز، وتوضيح المقاصد في شرح القصيدة الذهبية.

لقد تعدَّت مصنَّفات عالمنا الموسوعي الشيخ بهاء الدين العاملي الخمسين مصنَّفاً ما بين كتاب ورسالة ومقال، ولم يقتصر نشاطه الفكري علىٰ علوم الدين والأدب واللغة، وإنَّما تعدّىٰ ذلك إلىٰ مجال العلوم حيث نجد له مؤلَّفات قيّمة في الرياضيات والفلك، منها:

١ _ خلاصة الحساب، المسمّىٰ البهائية.

٢ _ بحر الحساب، وهو كتاب أشار إليه العاملي في عدَّة مواضع من خلاصة الحساب. ووصفه بكتابه الكبير، وتمنّىٰ أن يتمّمه بعون الله وتوفيقه، ويبدو أنَّ هذه الأُمنية لم تتحقَّق له.

٣ _ رسالة في الجبر والمقابلة.

٤ _ تشريح الأفلاك.

٥ _ الرسالة الحاتمية في الإسطرلاب.

٦ _ رسالة في تحقيق جهة القبلة.

٧ _ رسالة الصحيفة أو الصفحة.

٨ _ رسالة جهاتما.

٩ _ الملخَّص في الهيأة.

١٠ _ رسالة كرّية.

نتناول هنا بالدراسة _ من كتاب العاملي _ كتاب خلاصة الحساب، فنقدّم تحقيقاً لفظياً وعلمياً له، مع شرح وتحليلات رياضية لما احتواه هذا الكتاب، من حساب وجبر ومقابلة ومساحة، مستعينين في ذلك بالمخطوطات الستَّة الموجودة بمدينة حلب الشهباء، كما أنَّنا رجعنا إلىٰ كتاب العاملي المسمّىٰ (الكشكول) لدراسة ما جاء فيه من قواعد ومسائل متفرّقة في الرياضيات.

تعريف بالكتاب:

كتاب يبحث في تراث العرب في الرياضيات فيقدّم دراسة علمية لكتابات الشيخ بهاء الدين العاملي في كتابه (خلاصة الحساب) والجبر والمقابلة، ويعرض لرياضياته في كتابه الكشكول، ويشرحها شرحاً وافياً مدعماً بالتحليل الرياضي الشامل.

ويمتاز الشيخ العاملي _ العالم الموسوعي العربي _ بأنَّه قد رسم صورة واضحة وصادقة لمعارف العرب الرياضية في نهاية القرن السادس عشر الميلادي، بعد أن جاب الأمصار العربية والإسلاميّة، واطَّلع علىٰ أعمال العرب وفلاسفتهم، زهاء ثلاثين عاماً.

ويوجد من كتاب العاملي (خلاصة الحساب) أكثر من أربعين

مخطوطاً منتشرة في أرجاء العالم شرقيه وغربيه، كما يوجد له ثلاثة عشر شرحاً، وقد تمَّ تحقيق الكتاب من واقع ستَّة مخطوطات موجودة بمكتبات مدينة حلب الشهباء لم يرد ذكرها في كتب المخطوطات المختصَّة، ولم يكن قد سبق نشر هذا الكتاب في العالم العربي.

يبدأ الشيخ العاملي ببيان طرائق الحساب الأساسية من جمع وتفريق وضرب وقسمة واستخراج الجذور سواء بالنسبة للأعداد الصحيحة أوللكسور، كذا كيفية التحقّق من سلامة أدائها بتطبيق قاعدة (ميزان العدد)، تلك القاعدة التي أطلق عليها العرب تسمية (القاعدة الذهبية)، ويعرّج العاملي بعد ذلك إلىٰ استخراج المجهولات بطريق الأربعة المتناسية، كذا بطريق حساب الخطأين، ثمّ بطريق العمل بالعكس.

وقد يعرض العاملي في مجال الحساب لكيفية استخراج المضمرات من طريق تكوين معادلة بسيطة ذات مجهول واحد، كذلك لفكرة التباديل والتوافيق كإيجاد عدد الكلمات التي تتركَّب من حروف المعجم بشروط خاصّة.

وأخيراً قدَّم العاملي طريقة قسمة مال علىٰ جماعة من المستحقّين تزيد استحقاقاتهم علىٰ المال الموجود، ويبحث الشيخ العاملي في... الأعداد، ويعرِّف الأعداد التامّة المتحابّة والمتوافقة والمتداخلة وغيرها، ويقدّم قاعدة مبتكرة لتعيين الأعداد التامّة ثبتت صحَّتها حتَّىٰ البلايين، وأمكن باستخدامها تعيين الأعداد التامّة السبعة الأُولىٰ.

ويعرض العاملي لجمع المتواليات الرياضية، فيبيّن كيفية جميع الأعداد علىٰ النظم الطبيعي (وهو ما نسمّيه اليوم بالمتوالية الحسابية)،

وجمع الأفراد دون الأزواج وعكسه، كذا جمع المربَّعات المتوالية وجمع المكعَّبات المتوالية.

أمَّا في مجال الجبر والمقابلة فإنَّ العاملي يُعرِّف الشيء والمال والمكعَّب ومراتبها، أي المقدار المجهول ومربَّعه ومكعَّبه وما فوق ذلك علىٰ التوالي، ويشرح المسائل الجبرية الستّ، ويقدّم حلول معادلة الدرجة الثانية.

كذلك يبيّن العاملي تحويل الفرق بين مربَّعي مقدارين إلىٰ حاصل ضرب مجموع المقدارين في الفرق بينهما، كما يعرض (للمسائل السيّالة)، وهي تسمية أطلقها العرب علىٰ المسائل التي يصحُّ لها عدد غير محدود من الإجابات الصحيحة.

ويسوق العاملي باباً خاصّاً لتعيين مساحات الأشكال الهندسية المستوية وحجوم الأجسام المنتظمة، ويتناول بيان أعمال المساحة العملية وتقديم البراهين الهندسية علىٰ صحَّة الطرق المتَّبعة فيها، فيعرض لطرق قياس فرق المنسوب بعرض شقّ القنوات وطرق تعيين علوّ المرتفعات وأعمال الآبار، كذا قياس ارتفاع الشمس دون إسطرلاب أو آلة ارتفاع.

ويفرد الشيخ العاملي خاتمة كتابه لسبع مسائل يسمّيها (المستصعبات السبع)، وهي مسائل بعضها صعب وبعضها الآخر مستحيل الحلّ. فمنها مستصعبات تشتمل علىٰ معادلات جبرية من الدرجتين الثالثة والرابعة، ومنها مسألتان مستحيلتا الحلّ كمسألتي تقسيم ضعف المربَّع إلىٰ مربَّعين وتقسيم المكعَّب إلىٰ مكعَّبين بشرط كون المقادير كلّها أعداد صحيحة، وقد عُرِفَت هاتان المستصعبتان فيما بعد بنظرية (فيرما) نسبة إلىٰ العالم الفرنسي (بييردي فيرما) الذي عاش

في القرن السابع عشر وذلك يثبت سبق وقوف العرب علىٰ هذه النظرية الشهيرة.

إنَّ العاملي يقدّم لنا عرضاً شاملاً تمام الشمول، مرتَّباً غاية الترتيب، ودقيقاً كلّ الدقَّة لما ألمَّ به العرب وأحاطوا في مجال الرياضيات وأعمال المساحة، وهو عرض غني بفضل العرب وسبقهم في هذا المجال، قبل أن تنتقل الصدارة في التقدّم الحضاري من الشرق إلىٰ الغرب.

مخطوطات كتاب (خلاصة الحساب):

تحتفظ خزانات الكتب في العالم _ شرقية وغربية _ بالعديد من مخطوطات هذا الكتاب القيّم، حيث يوجد أكثر من أربعين مخطوطاً منه، فضلاً عن شروحه التي تعدَّت العشرين مخطوطاً.

وقد طُبِعَ الكتاب ثلاث مرّات، كما صدرت له ثلاث ترجمات إلىٰ اللغات الفارسية والألمانية والفرنسية، بيد أنَّه لم يُنشَر في العالم العربي قبل اليوم، ويدلُّ العدد الضخم من النسخ الخطّية لهذا الكتاب علىٰ أهمّيته وسعة انتشاره، وبالتالي كثرة الأخذ عنه، حيث إنَّه يقدّم صورة متكاملة ومرتَّبة لحالة المعارف الرياضية عند العرب في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وتشهد الشروح العديدة للكتاب علىٰ عظم الاهتمام به.

وتبيَّن فيما يلي أهمّ مخطوطات الكتاب وشروحه الوجودة في خزانات الكتب العامّة في العالم.

المخطوطات الموجودة في العالم العربي:

١ _ مخطوط المكتبة الخالدية بالقدس.

٢ _ مخطوطات الموصل (عن كتاب مختارات الموصل، لداود الحلبي الموصلي...).

٣ _ مخطوطا مكتبة الأوقاف الإسلاميّة بحلب، رقم (٩١٢)، (١٧٧٣).

٤ _ مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب، رقم (١٢٥٣).

٥ _ مخطوط المكتبة المولوية بحلب، رقم (٧٥٣).

٦ _ مخطوطا مكتبة مدرسة الشيخ أحمد الصديق بحلب، رقم (٦٦)، (١٥٩).

٧ _ مخطوطا دار الكتب المصرية بالقاهرة، فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية المصرية، المجلَّد الخامس، رقم (١٨٠)، المجلَّد السابع رقم (٨٩).

٨ _ مخطوط الخزانة الآلوسية، مكتبة المتحف العراقي ببغداد، رقم (٨٧٩٢).

المخطوطات الموجودة في آسيا وتركيا:

١ _ مخطوطات المجلس الوطني بطهران، رقم (٣٩٨/ ١٣١٩٠١٢٧٥٠٢).

٢ _ مخطوط مكتبة المشهد، رقم (١٧/ ١٨/ ٥١/ ٤).

٣ _ مخطوط مكتبة تبريز، رقم (١٢٧٦).

٤ _ مخطوط مكتبة اصفهان، رقم (١/ ٧٩٦/ ٦٩).

٥ _ مخطوط مكتبة كييف، رقم (٩٣).

٦ _ مخطوط مكتبة الجامعة الإسلاميّة عليجره، رقم (١٦٠).

٧ _ مخطوط مكتبة بشاور، رقم (١٧٤٧).

٨ _ مخطوط المكتبة العامّة رامبور، رقم (٤١٣/ ٢٨١ ب).

٩ _ مخطوط مكتبة بوهار، رقم (٣٥٢) طُبِعَ في كلكتا عام (١٨١٢م).

١٠ _ مخطوط المكتبة الشرقية العامّة بنكيبور، رقم (٢١٩).

١١ _ مخطوط مكتبة حاجي سليم أغا بإستانبول، رقم (٧٢٩). كذا مجموع (١٢٧٦).

المخطوطات الموجودة في أُوربا وأمريكا:

١ _ مخطوط المتحف البريطاني بلندن، رقم (١٣٤٥/ ٢).

٢ _ مخطوط المكتب الهندي بلندن، رقم (٧٥٨).

٣ _ مخطوط مكتبة جامعة كامبريج، ملحق براون رقم (٤٣٧).

٤ _ مخطوط المكتبة الملكية ببرلين الغربية، كتالوج ألواردت رقم (٥٩٩٨).

٥ _ مخطوط مكتبة الفاتيكان، رقم: روسيا في (١٠١٣).

٦ _ مخطوط مكتبة جوتنجن بألمانيا الغربية، رقم (٦٨).

٧ _ مخطوط جامعة برنستون بأمريكا، رقم (١٦٣).

٨ _ مخطوطات المكتبة العامّة ببطرسبرج (لينينجراد) كتالوج عام (١٨٥٢م) رقم (٢٤٣)، كتالوج روزن رقم (١٩٢٦/ ٥ ب)، كتالوج كراتشكوفسكي رقم (٩٢٩)، كتالوج مجموعة بخارىٰ رقم (٤١٩).

شروح الكتاب:

١ _ بهاء الدين العاملي المصنِّف نفسه، شرح الباب الثامن، مخطوط المتحف البريطاني بلندن، رقم: ملحق (٧٦٥/ ٧).

٢ _ عصمت الله بن أعظم بن عبد الرسول سهار نبوري، أتمَّ الشرح حوالي عام (١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م).

مخطوط المكتب الهندي بلندن، رقم (٧٥٩/ ٦٠).

مخطوط مكتبة الجامعة الإسلاميّة بعليجره، رقم (١٢٠/ ١).

مخطوط المكتبة العامّة برامبور، رقم (١/ ٤١٦/ ٥٠).

طُبِعَ الشرح في كلكتا بالهند عام (١٨٢٩م).

٣ _ رمضان بن حَريَرة الجزائري القادري، أتمَّ شرحه عام (١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م).

مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية المصرية، المجلَّد السادس رقم (١٨٠).

مخطوط المكتبة الشرقية لجامعة القدّيس يوسف بيروت، رقم (٢٤٠).

مخطوط مكتبة سليم أغا بإستانبول، رقم (٧٣٤).

مخطوط مكتبة بشاور، رقم (١٦٩٤ _ ١٧٣٥).

مخطوط المكتبة العامّة برامبور، رقم (١/ ٤٢٧/ ٢٨/ ٩).

مخطوط المكتبة العامّة ببطرسبرج (لينينجراد)، كتالوج كراتشكوفسكي رقم (٩٢٩).

٤ _ حاجي حسين، مخطوط المكتب الهندي بلندن، رقم (٧٦٢).

٥ _ شمس الدين علي الخلخالي، مخطوط المكتب الهندي بلندن، رقم (٧٦٣).

مخطوط مكتبة جون ريلاندز بمانشستر، رقم (٣٥٥).

مخطوط مكتبة بشاور، رقم (١٧٦٦).

مخطوط مكتبة م حسين حيدر آباد، مجلّة الجمعية الآسيوية الملكية/ عام (١٩١٧م)/ العدد (٢٢٥)/ صفحة (١٠٩).

٦ _ جواد بن سعد بن جواد، مخطوط المتحف البريطاني بلندن، رقم شرقيات (٦٢٨٠).

مخطوط المكتبة العامّة ببطرسبرج (لينينجراد)، كتالوج مجموعة بخارىٰ رقم (٤٢٠)، مطبوع بالمجلس الوطني بطهران، رقم (١٢٧٣).

٧ _ عمر بن أحمد المائي الشكي، مخطوط مكتبة جامعة ليبزج، رقم (٨٨٣/ ٨).

مخطوط المكتبة العامّة بميونيخ، مجموعة جلازر، رقم (٨٥١).

المكتبة الملكية ببرلين الغربية، كتالوج ألواردت، رقم (٥٣٠١).

مخطوط مكتبة قَولو بتركيا، رقم (٢/ ٢٦٤).

٨ _ مير حسين الميبدي اليزيد. مخطوط مكتبة المشهد، رقم (١٧/ ٤٠/ ١٢٤).

٩ _ لطف الله المهندس اللاهوري، مخطوط المكتبة العامّة رامبور، رقم (١/ ٤١٦/ ٧٥).

١٠ _ شمس الدين علي الحسني، مخطوط المكتبة العامّة رامبور، رقم (١/ ٤٦).

١١ _ عبد الباسط بن رَسَتم أحمد بن علي أصغر القنّوجي. مخطوط المكتبة العامّة رامبور، رقم (١/ ٤٧١).

١٢ _ سليمان بن أبي الفتح كشميري. كتاب اللباب.

١٣ _ عبد الرحمن بن أبي بكر المرعشي. مخطوط مكتبة قَوله، رقم (٢/ ٢٦٤).

١٤ _ رمضان بن أبي هريرة الجزري القدري، (حلّ الخلاصة لأهل الرياسة)، مخطوط الخزانة الآلوسية، مكتبة المتحف العراقي ببغداد، رقم (٨٥٥٨).

ترجمات الكتاب:

١ _ ترجمة فارسية بالمتحف البريطاني بلندن، المجموعة الفارسية (٢)، رقم (١٤٥٠).

٢ _ ترجمة ألمانية بقلم نسِلمان ببرلين عام (١٨٤٣م).

٣ _ ترجمة فرنسية بقلم المستشرق أ. مايرَ بباريس عام (١٨٤٦م).

ثمّ يعود المؤلّف فيقول في خاتمة كتابه:

هذه نظرة فاحصة جامعة لما ضمَّنه العالم العربي الموسوعي بهاء الدين العاملي لكتابيه (خلاصة الحساب) و(الكشكول) من رياضيات، عرض فيها لمعارف العرب علىٰ عهده، وقد جاب كثيراً من الأمصار العربية والإسلاميّة.

ووقف علىٰ أعمال الكثيرين ممَّن تقدَّمه من العلماء والفلاسفة، فلا غروَّ أن يطلع علينا بعرض شامل تمام الشمول، مرتَّب غاية الترتيب، دقيق كلّ الدقَّة، يُمثِّل أصدق تمثيل لما ألمَّ العرب به وأحاطوا في مجال الحساب والجبر والمساحة في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر للميلاد، غداة انتقال الصدارة في التقدّم الحضاري من الشرق إلىٰ الغرب.

وعرض العاملي هذا غنىٰ بأوجه سبق العرب في الرياضيات، عامر مليء بفضلهم فيها. وما يدرس عالم أعمال العرب ويتعمَّق ويخوض فيها إلَّا ويخرج من دراسة جادّة منصفة إلىٰ أنَّ رياضيات العرب هي ولا شكّ الأساس الذي عليه قامت الرياضيات الحديثة.

* * *

(٥١)

الفيض الكاشاني[١]

قال السيّد الخوئي في (معجم رجال الحديث)[٢]: قال الشيخ الحرّ في تذكرة المتبحّرين: المولىٰ الجليل محمّد بن مرتضىٰ المدعو بمحسن الكاشاني، كان فاضلاً عالماً، ماهراً، حكيماً، متكلّماً، محدِّثاً، فقيهاً، محقّقاً، شاعراً، أديباً، حسن التصنيف، من المعاصرين، له كتب منها: كتاب الوافي، جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشكلة، إلَّا أنَّ فيه ميلاً إلىٰ بعض طريقة الصوفية.

وقال السيّد علي خان المدني في السلافة (ص ٤٩٩): ومنهم المولىٰ العلَّامة محمّد بن المرتضىٰ الشهير بملَّا محسن الكاشاني، له كتب ومصنَّفات جليلة، في الفقه والحديث والكلام والحكمة، وهو من أهل العصر الموجودين الآن.

وفي المجلَّد (٢٥) من الذريعة[٣]: الوافي في جمع أحاديث الكتب الأربعة القديمة، للمحدِّث العارف محمّد بن مرتضىٰ المتخلّص فيض

---

(١) أمل الآمل ٢: ٣٠٥؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٣٩؛ روضات الجنّات ٦: ٧٩؛ لؤلؤة البحرين: ١٢١؛ سلافة العصر: ٤٩١؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٤٩١؛ فلاسفة الشيعة: ٥٣٣؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٢٣٤؛ معجم المؤلِّفين ١٢: ١٢.

(٢) معجم رجال الحديث ١٨: ٢٢٦/ الرقم ١١٧٦٤.

(٣) الذريعة ١٤: ١٦٤.

الكاشـاني، وهـو أوَّل المحمّـدين الثلاثـة المتـأخّرين، وأقـربهم إلىٰ الفلسـفة، وصاحب الإجازات.

وقـال الشـيخ القمّـي في (الكنـىٰ والألقـاب): الفـيض لقـب العـالم الفاضـل الكامـل العـارف، المحـدِّث المحقِّـق المـدقِّق، الحكـيم المتألّـه، محمّـد بن المرتضـىٰ المـدعو بـالمولىٰ محسـن الكاشـاني، صـاحب التصـانيف الكثـيرة الشـهيرة، كـالوافي والصـافي والشـافي، والمفـاتيح والنخبـة والحقـائق، وعلـم اليقين، وعين اليقـين، وخلاصـة الأذكـار، وبشـارة الشيعة، ومحجَّـة البيضـاء في إحيـاء الأحيـاء، إلىٰ غـير ذلـك ممَّـا يقـرب مـن مـأة تصـنيف، ولـه ديـوان شعر كبير فـارسي مشـتمل عـلىٰ فنـون مـن الشـعر وأنـواع القصـائد والغـزل والمـديح والمناجـاة والمـواعظ وغيرهـا. وبالجملـة أمـره في الفضـل والأدب، وطـول البـاع وكثـرة الاطّـلاع وجـودة التعبـير وحسـن التحريـر والإحاطـة بمراتب المعقول والمنقول أشـهر مـن أن يخفـىٰ. تفـرَّق النـاس فرقـاً في مدحـه والقدح فيه والتعصّب لـه أو عليـه، وذلـك دليـل عـلىٰ وفـور فضـله وتقدّمـه علىٰ أقرانـه، والكامـل مـن عُـدَّت سـقطاته، والسـعيد مـن حُسِبَت هفواتـه. توفّي سنة (١٠٩١هـ) في بلدة قاشان ودُفِنَ بها.

قال الخوانسـاري في (روضـات الجنّـات): محسـن بـن الشـاه مرتضـىٰ بـن الشـاه محمـود، المشـتهر بـالفيض الكاشـاني...، أمـره في الفضـل والفهـم والنبالـة في الفـروع والأُصـول، والإحاطـة بمراتـب المعقـول والمنقـول، وكثـرة التـأليف والتصـنيف مـع جـودة التعبـير والترصـيف، أشـهر مـن أن يخفىٰ في هذه الطائفة علىٰ أحد إلىٰ منتهـىٰ الأبـد، وعمـره كـما اسـتفيد لنـا مـن تتبّـع تصـانيفه الـوافرة، تجـاوز حـدود الثمانـين، ووافتـه بعـد الألـف مـن الهجـرة الطـاهرة بنيـف يلحـق تمـام التسـعين، ومرقـده الشـريف معـروف

بالكرامة والمقامة في دار المؤمنين موئلاً للزائرين والعاكفين، ومطافاً لمن كان بين الطوائف من العارفين...

وبالجملة فقد كان بيته الجليل المرتفع قدره إلىٰ ذروة الأفلاك من كبار بيوتات العلم والعمل، والفضل والإدراك...، وقد بلغ فضله إلىٰ حيث لم يُعرَف بين هذه الطائفة مثله، وخصوصاً في مراتب المعرفة والأخلاق وتطبيق الظواهر بالبواطن، بحسن المذاق وجودة الإشراق، وكان يشبه مشربه مشرب أبي حامد الغزالي ويساوق سياقه ذلك السياق، بل اقتبس منه شاكلة كثير من مصنَّفاته، واختلس منه سابلة غفير من تصرّفاته وتطرّفاته، كما استفيد لنا من التتبّع لما كتبه مع تشتّت موضوعاته، وإن لم أرَ إلىٰ الآن من التفت إلىٰ هذه الدقيقة، أو انكشفت عليه مباينة كثير من تحقيقاته الرشيقة، وخطابيات كلامه الملائمة لحسن السليقة سواء الطريقة في حاق الحقيقة.

وقد نسب إليه الشيخ علي الشهيدي العاملي في ذيل رسالته، في تحريم الغنا وغيرها كثيراً من الأقاويل الفاسدة والآراء الباطلة العاطلة التي تفوح منها رائحة الكفر، والمضارّة بضروريات هذا الدين المبين، والمضادّة لما هو من قطعيّات علماء هذا الشرع المتين، ولو أردنا تأويل جملة منها بمحامل وجهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلىٰ ما تدلُّ عليه ألفاظه الظاهرة، بل الصريحة، من منافيات أُصول هذه الشريعة وفروع مذهب الشيعة، مثل:

قوله بوحدة الوجود، وبعدم خلود الكفّار في عذاب النار، وعدم نجاة أهل الاجتهاد، وإن كانوا من جملة أجلّائنا الكبار، وقوله بعدم منجّسية المتنجّس لغيره مثل النجس، وبعدم انفعال الماء القليل بمحض ملاقاته للنجس، وإن وافقه في هذه المسألة من أقادم علمائنا.

وبالجملة فقد كان رحمه الله دائماً في طرف النقيض مع الشيخ علي المذكور، ومقارصاً إيّاه بكلمات السوء وفقرات الشرور، ومن جملة تحقيقاته بالنسبة إليه تسميته إيّاه بالهضم الرابع، من جهة كونه رابعاً بالنسبة إلىٰ جدّه الشهيد الثاني رحمه الله في ترجمة سميّنا العلّامة السبزواري أيضاً، إنَّ بينه وبين هذا الرجل كانت مسادقة أكيدة ومساوقة شديدة، في السرّ والعلانية قلَّ ما يوجد نظيره في رجلين، ولذا كان قد وقع بينه وبين الشيخ علي المعظّم إليه أيضاً ما سبق لك بيانه من الأقوال الشنيعة والأفحاش الفظيعة، والمنافيات لمراسم الشيعة وسجيّات علماء الشريعة.

وهذا ومن جملة ما كان ينكر عليه أيضاً كثيراً من علماء زمانه هو الفاضل المحدِّث المقدَّس المولىٰ محمّد طاهر القمّي صاحب كتاب حجَّة الإسلام وغيره، وإن قيل: إنَّه رجع في أواخر عمره عن اعتقاد السوء في حقّه، فخرج من قم المباركة إلىٰ بلدة كاشان للاعتراف عنده بالخلاف والاعتذار لديه بحسن الإنصاف، ماشياً علىٰ قدميه تمام ما وقع بين البلدين من المسافة، إلىٰ أن وصل إلىٰ باب داره، فنادىٰ: يا محسن قد أتاك المسيء، فخرج إليه مولانا المحسن وجعلا يتصافحان ويتعانقان، ويستحلّ كلّ منهما من صاحبه، ثمّ رجع من فوره إلىٰ بلده، وقال: لم أرد من هذه الحركة إلَّا هضم النفس وتدارك الذنب وطلب رضوان الله العزيز الوهّاب.

ويقال أيضاً: إنَّ بعض من اعتقد في حقّه الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه في المنام علىٰ هيأة حسنة يأمره بالرجوع إلىٰ بعض ما كتبه في أواخر عمره، وهو في مكان كذا وكذا، فلـمَّا استيقظ وطلبه وجده كما نسبه، وكان فيه تبرّأة نفسه من جميع ما ينتسب إليه من أقوال الضلال، والله العالم بسرائر الأحوال.

وأمَّا سميّنا العلّامة المجلسي ﵀، فكان لا يرىٰ بالرجل بأساً، من غاية ملائمة مشربه مع طريقة والده المولىٰ محمّد تقي، وقد عدَّه في أواخر البحار من جملة مشايخ إجازاته الكبار...

وممَّا ورد في كتاب (فلاسفة الشيعة) تأليف الشيخ عبد الله نعمة: الفيض الكاشاني محمّد بن المرتضىٰ بن محمود المعروف بـ (الملَّا محسن الفيض الكاشاني) المتوفّىٰ عام (١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م).

من أئمّة العرفان والحكمة والإلهيات والحديث، ومن تلاميذ صدر المتألّهين الشيرازي في الفلسفة والتصوّف، ومن تلاميذ السيّد ماجد البحراني في الفقه والحديث، ومن بيت علم نبغ منه عدد وفير من العلماء والفقهاء، وله اتّجاه كبير إلىٰ الطريقة العرفانية والمذاهب الصوفية، ويشبه في طريقته الغزالي، بل اقتبس كثيراً منه في مؤلَّفاته، ويبالغ في تمجيد محيّ الدين بن عربي، ويكثر النقل عنه، ويعبّر عنه ببعض العارفين.

وقد نُسِبَت إليه أشياء كثيرة من الأقاويل الفاسدة والآراء الباطلة، التي _ كما يقول مترجموه _ تفوح منها رائحة الكفر.

ومن الذين حملوا عليه الشيخ علي حفيد الشهيد الثاني العاملي، فقد نسب إليه أشياء منكر، شنَّع بها عليه.

وقد تفرَّق الناس فيه _ كما يقول القمّي _ فِرَقاً في مدحه والقدح فيه، والتعصّب له أو عليه، وذلك دليل علىٰ وفور فضله، وتقدّمه علىٰ أقرانه، والكامل من عُدَّت سقطاته، والسعيد من حُسِبَت هفواته.

وقد دافع عنه _ صاحب الروضات _ دفاعاً حارَّاً، ونفىٰ عنه تلك الاتّهامات، وأورد من كلماته في بعض كتبه، ممَّا يذمّ بها الصوفية، ويحمل فيها عليهم حملة منكرة، ويصفهم بالشعوذة والبدع والكذب والإفتراء.

ومهما يكن من شيء فإنَّ ملَّا محسن الفيض، كان من رجال العلم البارزين بالفلسفة والأخلاق والحديث، وقد بذل حياته في سبيل العلم والمعرفة، وقضىٰ أيّامه مجدّاً نافعاً، ومن غير المقبول عادة في أمثاله من أصحاب الأدمغة الكبيرة أن يؤمن بخرافات الصوفية، القائمة علىٰ الشعوذة والدجل، والعلماء أسمىٰ من ذلك قدراً، وأرفع مقاماً.

أمَّا آراؤه التي شنَّع عليه بها فهي:

١ _ قوله بوحدة الوجود؛ بل وضع رسالة يصرِّح فيها _ كما قيل _ بوحدة الوجود، وقد اطَّلع عليها الفقيه الشيخ يوسف البحراني المعروف، ورواية هذا _ إن صحَّت نسبته إليه _ انعكاس من آراء أُستاذه صدر المتألّهين، أخذه عنه وتأثَّر به، وقد عرفت فيما سبق تفصيل القول بوحدة الوجود.

٢ _ قوله بعدم خلود الكفّار في عذاب النار.

٣ _ عدم نجاة أهل الاجتهاد، وإن كان من أعاظم العلماء، وقد كان الرجل من الإخباريين الذين لا يرون الاجتهاد علىٰ طريقتهم المعروفة.

٤ _ قوله بعدم تنجيس المتنجّس لغيره.

٥ _ عدم انفعال الماء القليل بملاقاته للنجاسة.

٦ _ حلّية الغناء.

وغير ذلك من الآراء التي انفرد بها في الفقه، والتي هي علىٰ خلاف رأي المهرة من فقهاء الشيعة، وهي آراء لها وزنها في مجال التشريع، وكثير منها يمثّل الشجاعة الأدبية للعالم المتحرّر.

وهي كما ترىٰ أكثرها في مسائل فرعية، لا تستوجب كلّ هذه الحملة، والأرجح أنَّها كانت محدودة بظروف اجتماعية خاصّة، ربَّما كانت تبرّر عنف هذه الحملة.

مؤلّفاته:

أمَّا مؤلَّفاته فكثيرة، تربو علىٰ الثمانين كتاباً، بينها ما يشتمل علىٰ مجلَّدات ضخمة، ومن هذه المؤلَّفات:

١ _ علم اليقين في أُصول الدين، تناول فيه العقائد الإسلاميّة في الكتاب والسُّنَّة، وقد اختصره في كتاب أسماه (المعارف).

٢ _ كتاب عين اليقين في أُصول الدين، تناول فيه ما يتعلَّق بالدين وأُصوله، بأدلَّة فلسفية، وبراهين عقلية، ولخَّصها في كتاب أسماه (أُصول المعارف).

٣ _ كتاب أنوار الحكمة، وهو مختصر كتاب (علم اليقين).

٤ _ الكلمات المكنونة في علوم أهل المعرفة، ولخَّصها في كتابه (الكلمات المخزونة).

٥ _ كتاب تشريح العالم، في بيان هيئات العالم، وأجسامه وأرواحه، وكيفيّته، وحركات الأفلاك، وأنواع البسائط والمركَّبات.

٦ _ أُصول العقائد، في تحقيق الأُصول الخمسة الدينية.

٧ _ جواب الأبهري، في كيفية علم الله تعالىٰ بالموجودات منذ الأزل، وأنَّه كان عالماً بالأشياء قبل وجودها أم لا، توجد منه نسخة في مكتبة الملَّا محمّد علي الخراساني.

٨ _ جواب السؤال عن تحديد الطبائع وحركة الموجود الجسماني بتجدّد الأمثال.

٩ _ جواب مسألة الوجود، وبيان أنَّه مشترك لفظي أو معنوي.

١٠ _ كتاب التوحيد، توجد منه نسخة في مكتبة السيّد راجة محمّد مهدي.

١١ _ كتاب الحقائق، المطبوع في إيران في هامش جامع السعادات للنراقي.

١٢ _ التذكرة، في الحكمة الإلهية، وُجِدَ منه نسخة في مكتبة الشيخ علي كاشف الغطاء، ذكره الطهراني في الذريعة (ج ٤/ ص ٤٨١).

١٣ _ المحجَّة البيضاء، في إحياء كتاب الإحياء للغزالي، وهو تهذيب للإحياء، معتمداً فيه علىٰ أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

وله كتب في التفسير منها:

١٤ _ كتاب الصافي، وهو مطبوع في إيران، وعندنا منه نسخة مخطوطة.

١٥ _ كتاب الأصفىٰ.

ومن كتبه في الحديث:

١٦ _ الوافي، وهو جامع لما في كتب الحديث الأربعة المعروفة عند الشيعة، واختصره في كتاب أسماه (الشافي).

ومن مؤلَّفاته في الفقه:

١٧ _ كتاب معتصم الشيعة، في أحكام الشريعة.

١٨ _ مفاتيح الشرائع.

١٩ _ النخبة.

٢٠ _ تنفي الهموم، من مثنوياته، ذكره في الذريعة (ج ٤/ ص ٤٥٩).

٢١ _ غنية الأنام في معرفة الساعات والأيّام، وتسمّىٰ أيضاً (من لا يحضره التقويم). وهو في بيان الأيّام والساعات وتعيينها، وساعات

النحس والسعد، وما ورد عن الأئمّة بذلك، وبيان الاختلاف الواقع في الأيّام والشهور والسنين عند أهل الشرع والروم والفرس والمنجّمين، وبيان أحكام النجوم.

٢٢ _ تقويم المحسنين، يحتوي علىٰ ما ورد عن الأئمّة من المأثورات في أوقات السعد والنحس، طُبِعَت مراراً في بومبي الهند في مطبعة الإسلام سنة (١٣٠٥هـ).

٢٣ _ معيار الساعات، فارسي، منه نسخة في خزانة جامعة طهران، وهو يجري مجرىٰ كتاب (غنية الأنام).

* * *

(٥٢)
عبد الرزّاق اللاهيجي الفيّاض[1]

جاء في كتاب (الكنىٰ والألقاب): العالم الفاضل الحكيم المدقّق المحقّق، المولىٰ عبد الرزّاق بن علي بن حسين اللاهيجي الجيلاني القمّي، صاحب الشوارق، وگوهر مراد، وسرماية إيمان، وغيره. كان تلميذ المولىٰ صدرا وختنه، وكان مدرّساً بمدرسة معصومة قمّ، وتوفّي بها سنة (١٠٥١هـ).

وفي كتاب (فلاسفة الشيعة): عبد الرزّاق بن علي بن الحسين اللاهيجي الجيلاني القمّي، توفّىٰ عام (١٠٥١هـ)، هو من ألمع من ظهر من العلماء في القرن الحادي عشر الهجري، ومن كبار الفلاسفة والمنطقيين، ومن تلاميذ الفيلسوف الكبير صدر الدين الشيرازي الشهير، بل من أعاظمهم، وهو صهر الشيرازي زوج ابنته.

وصفه صاحب الروضات بقوله: كان فاضلاً متكلّماً حكيماً متشرّعاً، وأديباً محقّقاً، ولبيباً مدقّقاً، بل منشئاً شاعراً منطقياً.

ولم تعطه كتب التراجم حقّه، ولم تعن كثيراً ببيان أحواله وحياته بصورة مفصَّلة، ولم تعطنا ترجمة كاملة واضحة عنه، شأن أكثر أمثاله من الفلاسفة الأعلام، وغاية ما تعرفه عنه أنَّه كان مدرِّساً بمدرسة (معصومة قم) للفلسفة والكلام وغيرهما إلىٰ أن توفّي بها عام (١٠٥١هـ).

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٢٩٥؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٣٦؛ أعيان الشيعة ٣٧: ١٩٣؛ أمل الآمل ٢: ١٤٨؛ معجم المؤلّفين ٥: ٢١٨؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٣٣٠.

آثاره:

وقد ترك آثاراً كثيرة في الحكمة والكلام والمنطق، وأهمّها:

١ _ مشارق الإلهام في شرح تجريد الكلام للفيلسوف نصير الدين الطوسي في الكلام، لم يتمّ، وخرج منه مباحث الأُمور العامّة المتعلّقة بالوجود وأقسامه.

٢ _ كتاب الشوارق في الفلسفة، وهو مشهور عند أهل الفلسفة وطلّابها.

٣ _ شرح الهياكل، في الحكمة المشرقية للسهروردي.

٤ _ رسالة في حدوث العالم.

٥ _ حاشية علىٰ حاشية الحكيم الخفري علىٰ إلهيات شرح التجريد.

٦ _ حاشية علىٰ شرح الإشارات في الفلسفة لابن سينا التي شرحها نصير الدين الطوسي.

٧ _ الكلمات الطيّبة في المحاكمة بين السيّد الداماد وبين صدر المتألّهين الشيرازي في أصالة الماهية أو الوجود.

وله مؤلّفات أُخرىٰ غيرها بالعربية.

أمّا مؤلّفاته بالفارسية فكثيرة، في مواضيع عديدة من الفلسفة والكلام وسواهما.

وذكره صاحب روضات الجنّات (ص ٣٥٢) وأطنب في ذكره، وجاءت ترجمته مختصرة في (أعيان الشيعة)[1].

* * *

---

(١) أعيان الشيعة ٧: ٤٧٠/ الرقم ١٥٤٧.

(٥٣)

الآقا حسين بن جمال الدين الخونساري[1]

ذكره القمّي في (الكنىٰ والألقاب)، قال: أُستاذ الحكماء والمتكلِّمين، ومربّي الفقهاء والمحدِّثين، كنز الفضائل ونهرها الجاري، المولىٰ الأجلّ الحسين بن جمال الدين محمّد بن الحسين الخونساري.

قال صاحب (جامع الرواة)[2] في وصفه: فريد عصره ووحيد دهره، قدوة المحقّقين سلطان الحكماء المتألّهين، وبرهان أعاظم المتكلِّمين، انتهت إليه رياسة الفضيلة في زمانه إليه، وأمره في علوّ قدره وعظم شأنه وسموّ رتبته وتبحّره في العلوم العقلية والنقلية ودقَّة نظره وإصابة رأيه وحدسه، وثقته وأمانته وعدالته أشهر من أن يُذكَر وفوق ما تحوم حوله العبارة.

وكان ملجأً للفقراء والمساكين، ساعياً في حوائجهم جزاه الله تعالىٰ خير جزاء المحسنين، له تلامذة أجلَّاء وله كتب جيّدة، منها شرح الدروس في غاية البسط وكمال الدقَّة، مشتمل علىٰ جميع أخبار الأئمّة عليهم السلام وأقوال فقهائنا الإمامية رضي الله عنهم بحيث لا يشذُّ منه شيء... ثمّ عدَّ كتبه.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٢٨٦؛ روضات الجنّات ٢: ٣٤٩؛ معجم المؤلّفين ٤: ٤٨؛ أعيان الشيعة ٢٧: ١٦٤؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ١٦٦؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٤١٥؛ سلافة العصر: ٤٩١؛ أمل الآمل ٢: ١٠١؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ١٥٨.

(٢) جامع الرواة ١: ٢٣٥.

ثمّ قال: وُلِدَ في شهر ذي القعدة سنة (١٠١٦هـ)، ومات غرَّة رجب سنة (١٠٩٨هـ) رضي الله عنه وأرضاه، انتهىٰ.

وفي (الأمل): فاضل عالم حكيم متكلِّم مدقّق ثقة ثقة جليل القدر عظيم الشأن علَّامة العلماء فريد العصر، له مؤلَّفات منها شرح الدروس حسن لم يتمّ، وعدَّة كتب في الكلام والحكمة، وترجمة الصحيفة وغير ذلك، انتهىٰ.

أقول: قبره في أصفهان في مقبرة تخت فولاد بقرب بابا ركن الدين مزار معروف، وبنىٰ عليه الشاه سليمان الصفوي قبَّة عالية ومعه ولده العالم الجليل الآقا جمال الدين والعالم الفاضل الحاج مولىٰ حسين علي التويسركاني المتوفّىٰ سنة (١٢٨٦هـ)، (انتهىٰ ما نقلناه عن الكنىٰ والألقاب للشيخ عبّاس القمّي).

وذكره صاحب كتاب (فلاسفة الشيعة) بقوله: هو من المشاهير بالفقه والكلام والفلسفة، وعُرِفَ بـ (المحقّق الخونساري)، وقد غالىٰ فيه مترجموه ومنحوه ألقاباً ضخمة، فقد وصفه القمّي بقوله: (أُستاذ الحكماء والمتكلِّمين)، ونعته صاحب (جامع الرواة) بأنَّه فريد عصره ووحيد دهره، سلطان المتألّهين، وبرهان أعاظم المتكلِّمين، انتهت إليه رياسة الفضيلة في زمانه، وأمره في علوّ قدره...، وتبحّره في العلوم العقلية والنقلية ودقَّة النظر...، وعدالته أشهر من أن يُذكَر...

كما أطراه غيرهما ممَّن تناوله بالترجمة، وأسبغوا عليه النعوت الكثيرة، ومهما يكن من شيء فإنَّ (الخونساري) كان من أعلام العلم والفلسفة والكلام، وقد طغت عليه شهرته بالفقه.

وقد كان له في ابتداء أمره اتّجاه كبير إلىٰ الفلسفة، ثمّ اتَّجه أخيراً إلىٰ الفقه وبرز فيه، ووضع فيه مؤلَّفات قيّمة.

ويقول واصفوه: إنَّه كان حديد الذهن، سريع الخاطر، موهب

الإدراك، درس المنقول علىٰ المولىٰ محمّد تقي المجلسي، ودرس المعقول علىٰ الفيلسوف الأمير أبي القاسم الفندرسكي.

وقامت شهرته أخيراً بعد أن اتَّجه إلىٰ الفقه علىٰ كتابه (مشرق الشموس) في شرح كتاب الدروس للإمام محمّد بن مكّي العاملي الجزيني الشهير بالشهيد الأوَّل المتوفَى عام (٧٨٦هـ).

أمَّا مؤلَّفاته في الفلسفة والكلام وغيرهما وأكثرها حواش وتعليقات فكثيرة، منها:

١ _ حاشية علىٰ شرح الإشارات لابن سينا.

٢ _ حاشيتان له علىٰ كتاب الشفا لابن سينا.

٣ _ حاشيتان له علىٰ الحاشية القديمة الجلالية لجلال الدين الدواني.

٤ _ رسالة في الجبر والاختيار.

٥ _ رسالة في نفي وجوب مقدّمة الواجب.

٦ _ حاشية علىٰ المحاكمات بين شرّاح الإشارات، والمحاكمات هي لقطب الدين الرازي.

٧ _ حاشية علىٰ شرح مختصر ابن الحاجب المعروف بالعضدية، والشرح للإيجي المتوفّىٰ سنة (٧٥٦هـ).

٨ _ حاشية علىٰ شرح حكمة العين، الأصل للكاتبي القزويني، والشرح لشمس الدين محمّد بن مبارك البخاري.

وترجمه العلَّامة السيّد محسن الأمين العاملي في كتابه (أعيان الشيعة)[1] ما نصّه: الآقا حسين بن جمال الدين محمّد بن حسين الخونساري الأصل الأصفهاني المسكن والمدفن.

---

(١) أعيان الشيعة ٦: ١٤٨.

مولده ووفاته ومدفنه:

وُلِدَ في ذي القعدة سنة (١٠١٦هـ) كما عن جامع الرواة، وتوفّي بأصفهان سنة (١٠٩٩هـ) أو (١٠٩٨هـ)[1]، ودُفِنَ بها في صحراء بابا ركن الدين بوصيّة منه، وبنىٰ الشاه سليمان الصفوي علىٰ قبره قبّة عالية، وقبره بها مشهور مزور، كما في الرياض، وفي الروضات كان علىٰ قبره لوح من اليشم المرتفع القيمة، كُتِبَ عليه تاريخ وفاته...

أقوال العلماء فيه:

في (أمل الآمل): فاضل عالم حكيم متكلِّم محقّق مدقّق، ثقة جليل القدر عظيم الشأن علّامة العلماء فريد العصر من المعاصرين أطال الله بقاءه.

وقد ذكره في (سلافة العصر) وأثنىٰ عليه ثناءً بليغاً، وذكره صاحب السلافة في ضمن أعيان العجم وفضلائهم الذين لم يفردهم بترجمة، لأنَّه لم يعثر لهم علىٰ شعر، فقال: ومنهم الآقا حسين الخونساري علّامة هذا العصر الذي عليه المدار وإمامة الذي يخضع لمقداره الأقدار، انتهىٰ.

وعن صاحب (مناقب الفضلاء) أنَّه قال في حقّه: العلّامة الفهّامة المحقّق المدقّق النحرير، أفضل العلماء في القرون والأدوار، ومفخر الفضلاء في الأعصار والأقطار، أُستاذ الحكماء والمتكلِّمين، ومربّي الفقهاء والمحدِّثين، محطّ رحال أفاضل الزمان، ومرجع الفضلاء في جميع الأحيان، أكمل المتبحّرين، المولىٰ الثقة العدل.

---

(١) في الروضة النظرة أنَّه توفّي غرَّة رجب سنة (١٠٩٨هـ).

وفي (رياض العلماء): الأُستاذ المحقّق، والملاذّ المدقّق، الفاضل العلَّامة والعالم الفهّامة أُستاذ الأساتيذ في عصره، فضائله لا تُعَدُّ ولا تُحصىٰ، كان وحيد دهره، وفريد عصره لم يُرَ من يدانيه فكيف بمن يساويه، وكان ظهراً وظهيراً لكافّة أهل العلم، وحصناً حصيناً لأرباب الفضل والحلم، وهو شاعر منشئ حسن الشعر والإنشاء بالعربية والفارسية، وانشاءاته وأشعاره علىٰ الألسن مشهورة وفي المجاميع مسطورة.

وعن (جامع الرواة) أنَّه قال: الحسين بن جمال الدين محمّد بن الحسين الخونساري المعروف بآقا حسين، فريد عصره ووحيد دهره، قدوة المحقّقين سلطان العلماء المتألّهين، برهان أعاظم المتكلّمين، انتهت رياس الفضيلة في زمانه إليه، وأمره في علوّ قدره وعظم شأنه وسموّ رتبته وتبحّره في العلوم العقلية والنقلية، ودقَّة نظره وإصابة رأيه وحدسه وثقته وأمانته وعدالته أشهر من أن يُذكَر وفوق ما تحوم حوله العبارة جزاه الله تعالىٰ خير جزاء المحسنين، له تلامذة أجلَّاء وله كتب جيّدة.

وفي (مستدركات الوسائل)(١): أُستاذ الحكماء والمتكلّمين، ومربّي الفقهاء والمحدِّثين، ومحطّ رحال أفاضل الزمان، المحقّق المدقّق، مقامه أعلىٰ من أن يُسطَر، وفضائله أشهر من أن تُذكَر، انتهىٰ.

ومن مراجعة أحوال وأسماء مؤلَّفاته يبدو انعكافه علىٰ علم الحكمة العقلية ككثيرين أمثاله.

---

(١) خاتمة المستدرك ٢: ١٧٣.

أحواله:

في (الروضات الجنّات): انتقل في زمن صباه من خونسار إلىٰ أصفهان لطلب العلم، وسكن في مدرسة خواجة ملك بجنب مسجد الشيخ لطف الله العاملي الميسي، وكانت منذ بنيت محطّاً لرحال أكابر الفضلاء وأعاظم العلماء، حتّىٰ بلغ في مدّة قليلة درجة عالية في العلوم، وأصابه فيها ضرّ شديد من الفقر، وكان يقول: (مرَّ عليَّ في زمن تحصيلي في هذه المدرسة شتاء بارد لم يتيسَّر لي فيه أن أُوقد ناراً استدفئ بها، وكان لي لحاف خلق كنت ألفّه علىٰ بدني)، ثمّ ترقَّت به الحال إلىٰ أن جعله الشاه سليمان الصفوي نائباً عنه في السلطنة حين عزم علىٰ بعض الأسفار وخلع عليه جبَّة محلَّاة بأنواع الجواهر.

وفي (الرياض): كان في أوَّل تحصيله قليل المطالعة لفرط ذكائه، وكان قليل الكلام عند قراءته وعند إقرائه إلَّا بقدر الضرورة، وكان لا يأخذ كتاباً بيده حال التدريس.

مؤلَّفاته:

ذكر أكثرها صاحب الرياض وما نذكره في وصفها هو من كلامه.

الفقه:

١ _ مشارق الشموس في شرح الدروس، مطبوع كبير جدّاً لم يُعمَل مثله إلَّا أنَّه لم يتمّ ولم يخرج منه إلَّا بعض الطهارة إلىٰ الفقّاع من النجاسات، كتب أوَّلاً شطراً منه ثمّ كتب شطراً آخراً، وقال تلميذه الشيرواني: إنَّ ما كتبه أوَّلاً أحسن ممَّا كتبه ثانياً. وعن (جامع الرواة) أنَّه في غاية البسط وكمال الدقَّة، مشتمل علىٰ جميع أخبار الأئمّة عليهم السلام وأقوال فقهائنا الإمامية بحيث لا يشذُّ منه شيء.

٢ _ المائدة السليمانية، ألَّفه للشاه سليمان الصفوي في الأطعمة والأشربة وما يناسبها.

الأُصول:

٣ _ رسالة في نفي وجوب مقدّمة الواجب، ردَّ فيها علىٰ الفاضل القزويني والفاضل النائيني، وصاحب الذخيرة، مطبوعة، ورأيت منها نسخة في مكتبة الشيخ عبد الحسين الطهراني بكربلاء.

الدعاء:

٤ _ ترجمة الصحيفة السجّادية إلىٰ الفارسية، ذُكِرَت في (الأمل).

الكلام والحكمة:

٥ _ رسالة في الجبر والاختيار، مختصرة حسنة الفوائد، كتبها علىٰ شرح المختصر العضدي في الأُصول علىٰ ذلك المبحث.

٦ _ الجواهر والأعراض.

٧ _ حاشية علىٰ الحاشية القديمة الجلالية علىٰ الشرح الجديد للتجريد، من أحسن الحواشي وأفيدها وأدقّها.

٨ _ حاشية أُخرىٰ جديدة عليها، لم تتمّ.

٩ _ حاشية علىٰ إلهيات الشفا، لم يراجعها أصلاً، ولـمّا تعرَّض صاحب الذخيرة في حاشيته علىٰ الشفا للردّ عليها فيها، كتب ثانياً حاشية أُخرىٰ ردَّ فيها عليه، وهي من أواخر مؤلّفاته.

١٠ _ حاشية علىٰ حاشية صاحب الذخيرة علىٰ شرح الإشارات، ذُكِرَت في (جامع الرواة) مع حاشية الردّ المتقدّمة فعُلِمَ أنّهما اثنتان.

١١ _ حاشية علىٰ شرح الإشارات من الطبيعي والإلهي، جيّدة جدّاً، كاملة.

١٢ _ حاشية أُخرىٰ عليه، لعلّها لم تتمّ.

١٣ _ حاشية علىٰ الحاشية الجلالية علىٰ تصديقات شرح المطالع

في الرياض، لم تتمّ، ولم تخرج من المسودَّة حتَّىٰ ضاعت كما سمعته منه عند قراءتي عليه شرح الإشارات، وهي من أوَّل مؤلَّفاته.

١٤ _ رسالة في التشكيك، حسنة الفوائد.

١٥ _ رسالة شبهة الطفرة، لطيفة جدَّاً.

١٦ _ رسالة في شبهة الاستلزام، ردَّ فيها علىٰ الفاضل النايني والفاضل القزويني.

١٧ _ ترجمة نهج الحقّ للعلَّامة في الإمامة إلىٰ الفارسية، ترجمه للسلطان سليمان الصفوي.

التفسير:

١٨ _ تفسير سورة الفاتحة.

١٩ _ ترجمة القرآن الشريف، ذكره صاحب (الأمل) في مؤلَّفاته، وفي (الرياض) ترجمة القرآن لم أسمع به منه ولا من أولاده ولا كتب إليَّ به ولده في جملة مؤلَّفاته، فهو سهو من صاحب (الأمل).

متفرّقات:

٢٠ _ رسالة في مسائل متفرّقة من الحكمة والمنطق والأُصول وغيرها، ردَّ فيها علىٰ تلميذه الشيرواني الذي تتبَّع مؤلَّفات شيخه هذا وردَّ علىٰ موضع موضع منها، فلمَّا اطَّلع شيخه علىٰ ذلك ردَّ عليه بهذه الرسالة، وهي آخر ما أَلَّفه.

٢١ _ رسالة في دفع شبهات متفرّقة، وهي شبهة الإيمان والكفر، وشبهة الاستلزام، وشبهة الطفرة، في كلّ منهما رسالة مستقلَّة.

٢٢ _ جواب كتاب شريف مكّة إلىٰ الشاه سليمان الصفوي ينقل عنه صاحب (فضائل السادات)، منه نسخة في المكتبة الحسينية بالنجف.

* * *

(٥٤)

رفيع الدين النائيني[(١)]

في (الكنىٰ والألقاب): السيّد الأجلّ محمّد بن حيدر الحسيني الطباطبائي، سيّد الحكماء والمتألّهين، وقدوة المحقّقين والمدقّقين، علّامة زمانه ووحيد دهره وأوانه، ذو الفيض القدسي، أُستاذ العلّامة المجلسي رضوان الله تعالىٰ عليهما، له حواشي وتعليقات علىٰ كتاب المختلف وأُصول الكافي والصحيفة الكاملة وشرح الإشارات، وله رسالة التشكيك والشجرة الإلهية والثمرة الإلهية، وغير ذلك.

يروي عن المولىٰ عبد الله والشيخ البهائي، توفّي بأصفهان (٧) شوّال سنة (١٠٨٢هـ)، ومزاره في تخت فولاد ظاهر يزار، وكتب علىٰ لوحه:

بتاريخ فوتش خردمند گفت   مقام رفيع مقام رفيع

بني بأمر الشاه سليمان الصفوي علىٰ مرقده الشريف قبَّة عالية.

وفي (أعيان الشيعة)[(٢)]: السيّد رفيع الدين محمّد بن حيدر الحسيني الحسني الطباطبائي النائيني، توفّي في شوّال (١٠٩٩هـ) بأصفهان، وبني علىٰ قبره بأمر الشاه سليمان الصفوي قبَّة عالية هي باقية إلىٰ الآن.

---

(١) طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرية): ٢٢٦؛ الكنىٰ والألقاب ٢: ٢٥٤؛ أمل الآمل ٢: ٣٠٩؛ سلافة العصر: ٤٩١؛ روضات الجنّات ٧: ٨٤؛ الفوائد الرضوية: ٥٣١؛ أعيان الشيعة ٤٤: ٣١٧.

(٢) أعيان الشيعة ٩: ٢٧١/ الرقم ٦٣٤.

قال في (جامع الرواة)[1]: فريد عصره ووحيد دهره، قدوة المحقّقين، سيّد الحكماء المتألّهين، برهان أعاظم المتكلّمين، وأمره في جلالة قدره وسموّ رتبته وتبحّره في العلوم العقلية والنقلية ودقّة نظره وإصابة رأيه وحدسه وثقته وأمانته وعدالته أشهر من أن يُذكَر، وفوق ما تحوم حوله العبارة، أخذ الأخبار من الأفضل الأكمل الأورع الأزكىٰ مولانا عبد الله التستري ﵀.

له مصنَّفات جيّده منها:

١ _ حاشية علىٰ المختلف.

٢ _ حاشية علىٰ أُصول الكافي.

٣ _ حاشية علىٰ شرح الإشارات.

٤ _ حاشية علىٰ مختصر الأُصول.

٥ _ حاشية علىٰ الصحيفة الكاملة.

٦ _ رسالة شبهة الاستلزام.

٧ _ رسالة التشكيك.

٨ _ رسالة الشجرة الإلهية وهو كتاب في أُصول العقائد فارسي.

٩ _ الثمرة الإلهية.

١٠ _ ملخَّص الشجرة الإلهية.

يروي عنه الحرّ العاملي بتوسّط المجلسي، وهو الجدّ الأعلىٰ للحكيم المتألّه أبي الحسن بن محمّد الطباطبائي الأصفهاني المعروف بميرزا جلوة.

* * *

(١) جامع الرواة ١: ٣٢١.

(٥٥)
أبو القاسم الفندرسكي[1]

في (الكنىٰ والألقاب): السيّد الأمير أبو القاسم الفندرسكي الحسيني الموسوي، من أكبر حكماء الإمامية، قال صاحب (رياض العلماء): كان حكيماً فاضلاً فيلسوفاً صوفياً، ماهراً في العلوم العقلية والرياضية، معاصراً للسلطان شاه عبّاس الماضي الصفوي، والسلطان شاه صفي، معظَّماً عندهما، وله إلمام بالشعر، سافر إلىٰ الهند وأكرمه سلاطينها، ونُقِلَ من وفور مهارته في العلوم الهندسية، والرياضية، أنَّه قد جرىٰ ذات يوم ذكر مسألة هندسية من كلام المحقّق الطوسي، وكان متَّكئاً، فأقام السيّد المذكور عليها برهاناً بداهةً.

وقال: هذا الذي قال المحقّق الطوسي في مقام البرهان؟ قالوا: لا، فأقام برهاناً آخر ثمّ سأله أنَّه هو الذي أقامه؟ قالوا: لا، إلىٰ أن أقام دلائل وبراهين عديدة.

إلىٰ أن قال: له من المؤلَّفات: الرسالة الصناعية بالفارسية مختصرة معروفة ذكر فيها جميع موضوعات الصنايع وتحقيق حقيقة العلوم، وله شرح كتاب المهارة من كتب حكماء الهند بالفارسية، وهو المعروف بشرح الجول ولعلّه غيره.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٠١؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٣٥؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٤٥٠؛ أعيان الشيعة ٧: ١٠٣.

توفّي بأصفهان في دولة الشاه صفي وقبره معروف فيها، وكان له من العمر نحو من ثمانين سنة تقريباً، ويقال: إنَّه أوصىٰ بجميع كتبه للسلطان شاه صفي، ونُقِلَت بعده إلىٰ خزانته.

جدّه السيّد صدر الدين كان من أكبر السادات، ذا أملاك وعقارات، اتَّصل بالشاه عبّاس الماضي الصفوي، وخلَّف ولداً وهو أميرزا بيك، وبعد وفات صدر الدين المذكور خدم هذا السلطان واتَّصل به وصار مكرَّماً عنده، والظاهر أنَّه جدّ السيّد أبو القاسم المترجَم، وكان له سبط في عصرنا يسمّىٰ الأميرزا أبو طالب بن الأميرزا بيك الفندرسكي من جملة أرباب الفضل، شاعر منشئ قرأ علىٰ المجلسي وغيره، له مؤلَّفات عديدة في أكثر الفنون منها: كتاب المنتهىٰ في النجوم...، ثمّ عدَّ كتبه إلىٰ أن قال: له ترجمة شرح اللمعة بالفارسية، ورسالة فارسية سمّاها (نگارخانه چين) جمع فيها انشاءاته ومكاتيبه بالعربية والفارسية، وديوان موسوم بغزوات حيدري، نظم فيه غزوات علي عليه السلام بالفارسية، ومنظوم آخر بالفارسية اسمه (سامى نامه) وله غير ذلك.

(الفِندرسكي) بكسر الفاء والنون نسبة إلىٰ فِندرسك، قصبة من ناحية أعمال أستراباد وبينهما (١٢) فرسخاً، انتهىٰ.

وفي كتاب (فلاسفة الشيعة): الأمير أبو القاسم الحسيني الموسوي الفِندرسكي، من أكابر حكماء الشيعة وفضلائهم، وقد وصفوه بأنَّه: (كان حكيماً فاضلاً فيلسوفاً صوفياً، ماهراً في العلوم العقلية والرياضية).

اشتهر الفندرسكي بالفلسفة والهندسة والرياضيات الأُخرىٰ،

ويُحكىٰ عنه أنَّه جرىٰ ذات يوم ذكر مسألة هندسية من كلام الفيلسوف الطوسي، وكان متّكئاً، فأقام السيّد المذكور عليها برهاناً بالبداهة...

عاش الفندرسكي عصر الشاه عبّاس الصفوي الأوَّل، وكان موضع احترام الصفويين وتقديرهم، وتوفّي في أصفهان عن ثمانين سنة، وأوصىٰ بجميع كتبه للشاه صفي الذي مات عام (١٠٥٢هـ)، وهو أُستاذ جماعة من الحكماء والمتكلِّمين، وله من المؤلَّفات:

الرسالة الصناعية بالفارسية مختصرة معروفة، ذكر فيها جميع موضوعات الصنائع، وتحقيق حقيقة العلوم، وطُبِعَ في بمبئي عام (١٢٦٧هـ) باسم (حقائق الصنائع).

شرح كتاب المهارة، من كتب حكماء الهند بالفارسية، وهو المعروف بشرح (الجول)، مقالة في الحركة.

وفي (أعيان الشيعة)[1] تأليف السيّد محسن الأمين العاملي: السيّد الأمير أبو طالب ابن الأمير بيك ابن الأمير أبو القاسم الفِندرسكي المشهور الحسني الموسوي الأسترابادي الأصفهاني، (الفِندرسكي) بفاء مكسورة ونون ساكنة ودال مهملة وراء مكسورتين وسين مهملة ساكنة وكاف، نسبة إلىٰ فِندرسك، في (الرياض) قصبة من توابع أعمال أستراباد بينهما (١٢) فرسخاً.

أحواله:

عالم فاضل محقّق مدقّق فقيه محدِّث حكيم الإلهي، متكلِّم بارع متبحّر في أكثر العلوم، معاصر للمجلسي الثاني، ولصاحب رياض

---

(١) أعيان الشيعة ٢: ٣٦٥/ الرقم ٢١١٣.

العلماء، من كبار علماء ذلك العصر، ووصفه صاحب الرياض بأنّه من أهل الفضل شاعر منشئ.

مشايخه:

قال صاحب الرياض: قرأ علىٰ الأُستاذ المحقّق وغيره، انتهىٰ. (يعني الآقا حسين الخونساري)، وكان من أفاضل تلامذته، وقرأ أيضاً علىٰ المحقّق محمّد باقر السبزواري صاحب الكفاية.

له مؤلّفات جليلة:

١ _ كتاب المنتهىٰ في النحو أو النجوم.

٢ _ بيان البديع في البيان والبديع، فارسي يشتمل علىٰ الصناعات البديعية.

٣ _ مجمع البحرين فارسي في علم العروض لأشعار العرب والفرس طويل الذيل حسن الفوائد.

٤ _ توضيح المطالب شرح فارسي كبير علىٰ خلاصة الحساب للبهائي.

٥ _ شرح أو حاشية علىٰ شافية ابن الحاجب في الصرف.

٦ _ حاشية علىٰ تفسير البيضاوي.

٧ _ حاشية جليلة علىٰ أُصول الكافي للكليني.

٨ _ حاشية علىٰ شرح اللمعة.

٩ _ ترجمة شرح اللمعة بالفارسية.

١٠ _ حاشية علىٰ حاشية الخفري علىٰ إلهيات الشفا كذا في الرياض وفي مسودّة كتابنا حاشية علىٰ شرح تذكرة الهيأة للخفري، فكأنّه قد وقع تحريف في إحدىٰ العبارتين.

١١ _ حاشية علىٰ معالم الأُصول للشيخ حسن.

١٢ _ غزوات حيدري نظم بالفارسية فيه غزوات أمير المؤمنين عليه السلام.

١٣ _ نگارخانه چين، وهي مجموعة إنشاءاته بالعربية والفارسية.

١٤ _ سامى نامه منظوم بالفارسية.

ويعود السيّد الأمين فيقول: كان حكيماً متألّهاً عارفاً، وفي الرياض في موضع: الحكيم العلم المعلوم، والسند الفاضل الذي هو بمعرفة علم الحكمة والطبيعي والإلهي والرياضي موسوم. وفي موضع آخر: حكيم فاضل فيلسوف صوفي مشهور، كثير المهارة في العلوم العقلية والرياضية، لكنَّه قليل البضاعة في العلوم الشرعية بل والعربية.

* * *

(٥٦)

القاضي زاده الهمداني[1]

ذكره القمّي في (الكنىٰ والألقاب) قائلاً: القاضي زاده الهمداني ظهير الدين، ويقال: رفيع الدين، الميرزا السيّد إبراهيم بن الميرزا قوّام الدين حسين بن السيّد عطاء الله الحسيني الهمداني، سيّد الحكماء المتألّهين والمتكلّمين، الذي قال في حقّه صاحب السلافة بعد جملة من أسجاعه: برهان العلم القاطع، وقمر الفضل الساطع، ومنار الشريعة ومنير جمالها، ومحقّق الحقيقة ومفصّل إجمالها، وجامع شمل العلوم...، إلىٰ أن قال فيه:

وزاد بـه الـدين الحنيفـي رتبـة   وشاد دروس العلم بعد دروسها

وأحيىٰ موات العلـم منـه بهمّـة   تلوح علىٰ الإسلام منه شموسها

إلىٰ تألّه وتنسّك وعفّة وزهادة وعمل وعلم، ووقار وحلم وبلاغة وبراعة...، وفي (أمل الآمل): فاضل عالم معاصر لشيخنا البهائي وكان يعترف له بالفضل، انتهىٰ.

وفي (مناقب الفضلاء): العالم الفاضل الحكيم الماهر والعارف بعلوم الأوائل والأواخر، كان فاضلاً حكيماً مدقّقاً نحريراً مبرزاً في فنون العلم، انتهىٰ.

---

(١) أمل الآمل ٢: ٩؛ سلافة العصر: ٤٨٠؛ روضات الجنّات ١: ٣٣؛ الكنىٰ والألقاب ٣: ٥٠؛ أعيان الشيعة ٥: ١٥٢؛ معجم المؤلفين ١: ٢٣.

وكان قد اجتمع في مكّة المكرَّمة بالشيخ محمّد بن أحمد بن نعمة الله بن خاتون العاملي، واستجازه الميرزا إبراهيم فأجازه بإجازة بالغ فيها في الثناء عليه، فمن جملة ما قاله:

(لـمَّا منَّ الله علىٰ عبده في أشرف الأمكنة والبقاع مكّة المشرَّفة بنعمة الاجتماع بالجنّات الأرفع الجليل العالي، مبيّن حكم الأحكام بواضح البرهان، مبرز الحقائق بوقاد فكره من كنوز الدقائق، سيّدنا ومولانا وعزيزنا العلَّامة الفهّامة الميرزا إبراهيم ذي الحسب المنيف والنسب الباذخ الشريف أدام الله ظلّه العالي محروساً بعين الصمدية من صروف الأيّام والليالي، فلقد رأيته وقد كنت معترفاً بقصوري عن إدراك فضائله.

جامعاً من العلوم الأدبية والحكمية العقلية والسمعية ما تفخر به أواخر الزمان علىٰ أوائله، وهيهاتَ أين يسع مسطور طرس الكمال ما جُمِعَ فيه، ولقد آنس محبَّة تمام عام (١٠٠٧هـ) أن أحببت أن أكون داخلاً في ربقة إخائه راجياً أن تهبّ عليَّ نفحة من نفحات زاكيات دعواته، وأن لا ينسىٰ المملوك المقصّر في خدمته من عطف لطفه وشفقته، وأن أُجيزه معترفاً بأنّي لم أُعَدّ في طبقاته، أن يعمل بما لعلَّه يجده بحدسه الصائب وذوقه الثاقب علىٰ نهج الصواب، ممَّا أَلَّفه الخاطر الفاتر من قيد أو حاشية أو كتاب كذلك أَلَّفه الفضلاء والفقهاء الإماميون؛ بل كلَّما جمعه وصنَّفه علماء الإسلام المآلفون والمخالفون عملاً وروايةً كما شاء وأحبَّ متىٰ شاء وأحبَّ لمن شاء وأحبَّ بالطرق التي لي إليهم بحقّ القراءة أو السماع أو المناولة أو الإجازة)، إلىٰ غير ذلك من العبارات المتضمّنة أرفع الثناء، وقال في آخرها: (وكتب الفقير إلىٰ عفو الله تعالىٰ محمّد بن أحمد بن نعمة

الله بن خاتون العاملي بمكّة المشرَّفة سنة (١٠٠٨هـ) يوم الجمعة (١٤) محرَّم الحرام حامداً مصلّياً مسلّماً مستغفراً).

أخبرني غير واحد أنَّ الشاه عبّاس قصد يوماً زيارة الشيخ بهاء الدين محمّد، فرأىٰ بين يديه من الكتب ما ينوف علىٰ الأُلوف، فقال له السلطان: هل في العالم عالم يحفظ جميع ما في هذه الكتب؟ فقال الشيخ: لا، وإن يكن فهو الميرزا إبراهيم، انتهىٰ.

وعن (رياض العلماء) عن كتاب (تقويم البلدان) ما معناه: إنَّ الميرزا إبراهيم الهمداني المشهور بالقاضي زاده كان من علماء دولة الشاه طهماسب ومن بعده، ومن السادة الطباطبائية الحسنية، وكان والده قاضياً بهمدان، وكان ولده هذا في قزوين مشتغلاً بتحصيل العلوم العقلية عند العلّامة أمير فخر الدين السماكي الأسترابادي، وقد ترقّىٰ في العلوم الحكمية، وظهر أمره، وبعد موت والده وموت السلطان المذكور صار قاضياً بهمدان، وذكر نحوه صاحب تاريخ عالم آرا.

وقال: ورث منصب القضاء عن والده في همدان ولكنَّه قلَّما اشتغل بأمر القضاء، بل كان يكل أمر المرافعة وفصل الخصومات إلىٰ نوّابه، ويصرف أوقاته الشريفة في المطالعة والمباحثة، وحضر مجلس درسه جمع كثير من الطلبة واستفادوا منه، وكتب في المعقول والحكمة كتباً وحواشي دقيقة، انتهىٰ.

وقال رحمه الله: وكان بينه وبين شيخنا البهائي من المواخاة والمصافاة ما يفوق الوصف، وكان الشيخ البهائي يمدحه ويعترف له بالفضل، ويصف علمه وفضله، ويرجّحه علىٰ السيّد الداماد المعاصر لهما، وبينهما مراسلات ومكاتبات لطيفة، يروي عن الشيخ محمّد بن أحمد بن خاتون،

وعن الشيخ البهائي، ويروي عن المولىٰ محمّد تقي المجلسي، له حاشية علىٰ الكشّاف وعلىٰ إلهيات الشفاء وغير ذلك، توفّي سنة (١٠٢٥هـ) أو سنة (١٠٢٦هـ)، انتهىٰ عن الكنىٰ والألقاب، وجاء ذكره في (أعيان الشيعة)[1].

* * *

(١) أعيان الشيعة ٢: ١٢٨/ الرقم ١٧٠.

(٥٧)

قطب الدين الإشكوري[1]

ذكره صاحب (الكنىٰ والألقاب) بقوله: محمّد بن شيخ علي الشريف الديلمي اللاهجي، الحكيم العارف المتألّه الفاضل، صاحب كتاب (محبوب القلوب) ورسالة في العالم المثالي، تلميذ المحقّق الداماد رحمه الله.

* * *

(١) الكنىٰ والألقاب ٣: ٧٠؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٤٩٨.

(٥٨)

ميرزا إبراهيم بن ملاً صدر الدين الشيرازي[1]

في (أعيان الشيعة)[2]: ميرزا إبراهيم بن ملَّا صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي المعروف أبوه بملَّا صدرا، توفّي سنة (١٠٧٠هـ) بشيراز.

وفي (رياض العلماء): كان فاضلاً عالماً متكلِّماً، فقيهاً جليلاً نبيلاً متديّناً جامعاً لأكثر العلوم، ماهراً في أكثر الفنون سيّما في العقليات والرياضيات، وهو في الحقيقة مصداق قوله: يخرج الحيّ من الميّت، قرأ علىٰ جماعة منهم والده، ولم يسلك مسلكه، وكان علىٰ ضدّ طريقته في التصوّف والحكمة، توفّي في دولة الشاه عبّاس الثاني بشيراز في عشر السبعين بعد الألف، وله أخ فاضل وهو الميرزا أحمد نظام الدين.

أقول[3]: قوله: (مصداق يخرج الحيّ من الميّت) يشير إلىٰ ما نُسِبَ إلىٰ ملَّا صدرا من بعض الكلمات المنافية لظاهر الشريعة...، ويمكن أن يكون لها محمل صحيح، والقدح لا يجوز بغير الأمر الصريح.

وذكره الشيخ عبد النبيّ القزويني في (تكملة أمل الآمل)[4] فقال: ميرزا إبراهيم ابن مولانا صدر الدين الشيرازي، آية الله في التحقيق، وحجَّته علىٰ ذوي

---

(١) أعيان الشيعة ٥: ٣٩١؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٨؛ لؤلؤة البحرين: ١٣٢.

(٢) أعيان الشيعة ٢: ٢٠٢/ الرقم ٣٣٦.

(٣) القائل السيّد نعمة الله الجزائري.

(٤) تتميم أمل الآمل: ٥١/ الرقم ٣.

التدقيق، أعظم العلماء شأناً وأنورهم برهاناً، لو رآه أبو علي لأذعن له، أو أبو نصر لشكره، كم من مسائل عويصة برهن عليها، ومن دقائق خفيّة بيَّنها، إن قلت: إنَّه فاق أباه ما أخطأت، من رأىٰ حاشيته علىٰ حاشية الخفري يحكم بأنَّ اللازم علىٰ الخفري أن يقرأها عليه ويستفيد منه، ليحلّ له مواضعها المشكلة، ثمّ يشكره، وبالجملة لساني قاصر عن مدحه وشرح فضله.

وله رسالة في تفسير آية الكرسي حقَّق فيها ودقَّق وتعمَّق وبيَّن الحقّ، وكان مبايناً لطريقة والده لا يعتني بالملوك، وهو أَلَّف تلك الرسالة لملك عصره، انتهىٰ.

وربَّما فُهِمَ منه أنَّ مخالفته لطريقة والده في الاعتناء بالملوك لا فيما أشار إليه صاحب الرياض، وله حاشية علىٰ إثبات الواجب للمحقّق الدواني.

وفي (لؤلؤة البحرين) عن السيّد نعمة الله الجزائري في بعض مؤلَّفاته، أنَّه قال: لـمَّا وردت شيراز لم أصل إلَّا إلىٰ ولد صدر الدين، واسمه ميرزا إبراهيم، وكان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية، فأخذت عنه شطراً من الحكمة والكلام، وقرأت عليه حاشية علىٰ حاشية شمس الدين الخفري علىٰ شرح التجريد، وكان اعتقاده في الأُصول خيراً من اعتقاد والده، وكان يتمدَّح ويقول: اعتقادي في أُصول الدين مثل اعتقاد العوامّ، وقد أصاب في هذا التشبيه، انتهىٰ.

ثمّ قال في اللؤلؤة في أثناء ترجمة والده صدر الدين: وله ابن فاضل كما تقدَّم في كلام السيّد نعمة الله يُسمّىٰ ميرزا إبراهيم وكان فاضلاً عالماً متكلّماً جليلاً نبيلاً، حاوياً لأكثر العلوم، سيّما في العقليات والرياضيات. (انتهىٰ نقلاً عن أعيان الشيعة).

* * *

(٥٩)

المولى حسين بن صدر الدين الطولي الآستارائي

في (أعيان الشيعة)[1]: في الرياض: فاضل عالم حكيم المشرب صوفي المذهب، وأظنّ أنّه من تلاميذ السيّد الداماد.

له مؤلَّفات وتعليقات وإفادات، رأيت طائفة منها في بلدة رشت من بلاد جيلان منها:

١ _ تعليقات علىٰ شرح الهياكل للعلَّامة الدواني.

٢ _ الرسالة المصطفوية في تحقيق الخير والشرّ علىٰ مسلك الحكماء والصوفية، ملفَّقة من الفارسية والعربية وعليها حواش منه كثيرة.

٣ _ رسالة في وحدة الوجود بالفارسية علىٰ مذاق الصوفية والإشراقيين.

٤ _ رسالة في تفسير الأسماء الحسنىٰ بالفارسية مختصرة.

٥ _ رسالة حديقة الأنوار في جواب شبهة ابن كمونة في قِدَم الحوادث اليومية.

٦ _ تعليقات علىٰ رسالة جام گيتي للقاضي الأمير حسين الميبدي بالفارسية في الحكمة.

---

(١) أعيان الشيعة ٦: ٤١.

ومن ذلك يُعلَم انصرافه إلىٰ التصوّف والحكمة العقلية بكلّيته، وشرحه الأسماء الحسنىٰ لعلَّه كان علىٰ مشرب الصوفية، ولله في خلقه شؤون.

* * *

(٦٠)

المولى خليل بن الغازي القزويني[١]

في (أعيان الشيعة)[٢]: المولىٰ خليل بن الغازي القزويني وُلِدَ سنة (١٠٠١هـ) في (٣) شهر رمضان في قزوين، وتوفّي فيها سنة (١٠٨٩هـ) ودُفِنَ في مدرسته المعروفة بها.

أقوال العلماء فيه:

في (أمل الآمل): المولىٰ الجليل خليل بن الغازي القزويني، فاضل علّامة حكيم متكلِّم محقّق مدقّق، فقيه محدِّث ثقة، جامع الفضائل ماهر معاصر، رأيته بمكّة في الحجَّة الأُولىٰ وكان مجاوراً بها مشغولاً بتأليف حاشية مجمع البيان، توفّي سنة (١٠٨٩هـ). ذكره صاحب السلافة وأثنىٰ عليه ثناءً بليغاً، انتهىٰ.

واعترضه صاحب الرياض بأنَّ في جعله حكيماً نظراً، لأنَّه كما ستعرف كان ينكر الحكمة والاجتهاد وبمجرَّد أقوالها لا يُسمّىٰ أحد بالحكيم والفقيه، مع أنَّ المعرفة الكاملة بأقوالها غير معروفة عنه.

وفي (رياض العلماء): المولىٰ الكبير مولانا خليل بن الغازي

---

(١) أعيان الشيعة ٣٠: ١٠٤؛ معجم المؤلّفين ٤: ١٢٥؛ روضات الجنّات ٣: ٢٦٩؛ أمل الآمل ٢: ١١٢؛ سلافة العصر: ٤٩١؛ طبقات أعلام الشيعة (الروضة النظرة): ٢٠٣.

(٢) أعيان الشيعة ٦: ٣٥٥.

القزويني فاضل متكلِّم أُصولي جامع، دقيق النظر قوي الفكر، من أجلّة مشاهير علماء عصرنا، وأكمل أكابر فضلاء دهرنا، وكان معظّماً مبجّلاً عند السلاطين الصوفية، لاسيّما سلطان عصرنا، وكذلك عند الأُمراء والوزراء وسائر الناس، وكان في زمن الوزير خليفة سلطان المذكور وهو السيّد حسين الحسيني المعروف بخليفة سلطان وبسلطان العلماء، متولّياً التدريس بمدرسة عبد العظيم الحسني بالري، ثمّ عُزِلَ عنها لقصّة طويلة وأُعطي التدريس فيها لمولانا نظام الدين تلميذ البهائي، وسافر إلىٰ مكّة ثمّ رجع وسكن قزوين.

وله مع حكّام طهران وقزوين أقاصيص، وهو أحد القائلين بعدم مشروعية صلاة الجمعة في زمن الغيبة، ومن جملة الإخباريين القائلين بعدم الاجتهاد المبالغين المفرطين في ذلك والقائلين بعدم جواز العمل بالظنّ في الفروع زمن الغيبة والمنكرين للتصوّف والحكمة، القادحين فيهم بما لا مزيد عليه، والمنكرين لأقوال المنجّمين بل والأطبّاء، وله أقوال في المسائل الأُصولية والفروعية انفرد بها وأكثرها لا يخلو من عجب وغرابة، وفي بعضها تابع المعتزلة، ومن ذلك القول بثبوت المعدومات.

ومن أغرب أقواله: إنَّ الكافي بأجمعه رآه صاحب الزمان واستحسنه، وأنَّ كلّما فيه بلفظ روي فهو مروي عنه بلا واسطة، وأنّه لا تقيّة في أخباره، وأنَّ الروضة ليس من تأليف الكليني بل من تأليف ابن إدريس وإن ساعده بعض الأصحاب، ومن خواصّه تصحيفاته وتحريفاته المضحكة المعجبة في العبارات والأخبار والآثار، غفر الله له ولنا.

ولم أُوفَّق لملاقاته في حياته، وكان له قوَّة فكر وتسلّط علىٰ تحرير العبارات في العلوم وتقريرها، وكان أخو العلَّامة (لعلَّه أخو المجلسي) قد لاقاه في قزوين وكان يصف وفور فضله وغزارة علمه كثيراً بل يرجّحه علىٰ علماء العصر، وكُفَّ بصره في آخر عمره.

ولا شكّ أنَّ الكافي من أحسن كتب الحديث وأوثقها، قال الشيخ المفيد في حاشية الاعتقادات للصدوق في أثناء الكلام علىٰ جواز إقامة الحجج والاستدلال في المسائل الدينية والعقائد الإسلاميّة ما هذا لفظه:

(وكان الأئمّة عليهم السلام يحملونهم علىٰ ذلك ويمدحونهم ويثنون عليهم، وقد ذكر الكليني رحمه الله في كتاب الكافي وهو من أجلّ كتب الشيعة وأكثرها فائدة حديث يونس بن يعقوب...)، ثمّ أورد الحديث ثمّ قال: (وأمَّا الكلام في توحيده ونفي الشبه عنه والتنزيه له والتقديس فمأمور به ومرغَّب فيه، وقد جاءت بذلك آثار كثيرة وأخبار متظافرة)[1]، انتهىٰ.

كأنَّه يريد بهذا الكلام الردّ عليه في إنكار الحكمة، ويمكن الجواب بأنَّه ينكر آراء الحكماء في الطبيعيات لا الإلهيات، فلا ينكر إقامة الحجج فيها، والله أعلم.

وممَّا مرَّ تعلم أنَّ في ترجمته ما يستلفت النظر، فمع كونه أخبارياً متصلّباً ينكر مشروعية الجمعة زمن الغيبة التي يوجبها الأخباريون، وينكر أقوال الأطبّاء، وفيه شذوذ، ولعلَّه ينكر بعض أقوالهم في الطبّ لا جميعها، ومن شذوذه انفراده بأقوال عجيبة في الأُصول والفروع، وإن كان لم نطَّلع عليها ومتابعته في بعضها المعتزلة، وقوله في الكافي والروضة، وتصحيفاته وتحريفاته العجيبة المضحكة تنافي الصفات التي

---

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية: ٧٠.

وصفه بها صاحب الأمل والرياض، ووصف صاحب الأمل له حكيم ينافي إنكاره الحكمة وجوابه عن مسائل في الحكمة كما يأتي.

مؤلّفاته:

في (أمل الآمل) له مؤلّفات:

١ _ شرح الكافي فارسي.

٢ _ شرح له عربي.

٣ _ العدَّة في الأُصول.

٤ _ رسالة الجمعة.

٥ _ حاشية مجمع البيان.

٦ _ الرسالة النجفية.

٧ _ الرسالة القمّية.

٨ _ المجمل في النحو.

٩ _ رموز التفاسير الواردة عن الأئمّة الصادقين عليهم السلام الواقعة في الكافي والروضة وغيرها.

وذكر صاحب الرياض له:

١٠ _ رسالة أُخرىٰ بالفارسية في الجمعة متوسّطة.

١١ _ رسالة ثالثة في ذلك.

١٢ _ جمع تعليقات المولىٰ محمّد أمين الأسترابادي علىٰ الكافي وتعليقات أُستاذه المولىٰ أبي الحسن القايني المشهدي، جمع ذلك أيّام مجاورته بمكّة.

١٣ _ تعليقات علىٰ توحيد الصدوق، (انتهىٰ عن الرياض).

١٤ _ الخليلية سأل عنها المجلسي وأجابه عنها، فجمعا في كتاب.

١٥ _ أبواب الجنان، يوجد في مكتبة فينا عاصمة النمسا، ولعلَّه اشتباه بأبواب الجنان لمحمّد بن فتح الله القزويني.

١٦ _ تفسير سورة الفاتحة، في الذريعة حكىٰ بعض الفضلاء أنَّه رآه وهو كبير جدَّاً، وفيه لباب كلّ علم نافع.

في الرياض: أمَّا شرحه الفارسي الأسئلة فقد وُفِّقَ لإتمامه وسمّاه الصافي في شرح الكافي، والشرح العربي شرح فيه عشرين باباً من كتاب الطهارة وسمّاه الشافي في شرح الكافي أو بالعكس، شرع فيه بأمر الوزير خليفة سلطان المقدَّم ذكره، وقبل إكماله ورد الشاه عبّاس الثاني إلىٰ قزوين بعد وفاة الوزير المذكور فأمره بالشرح الفارسي فألَّفه في عشرين سنة بمقدار زمان تأليف الكافي، وهذان الشرحان ممزوجان بالمتن كبيران في عدَّة مجلَّدات، وأودع فيهما غرائب من أقواله وتصحيفاته وتحريفاته ونحو ذلك.

قال المؤلِّف[1]: عندنا بعض أجزاء الشرح العربي.

وأمَّا شرح العدَّة فالمشهور أنَّه حاشية العدَّة في الأُصول للشيخ الطوسي لم تتمّ بل لم تصل إلىٰ أواسطها، وهي مجلَّدان يُعرَف أوَّلهما بالحاشية الأُولىٰ، وثانيهما بالحاشية الثانية، وقد أدرج في الحاشية الواحدة حاشية طويلة تساوي أكثر المجلَّد الأوَّل وأورد فيها مسائل عديدة جدَّاً من الأُصول والفروع وغير ذلك بالتقريبات، وقال فيها بأقوال غريبة عجيبة، وكانت عادته طول عمره تغيير هذين الشرحين، وهذه الحاشية إلىٰ أن أدركه الموت، ولذلك اختلفت نسخها اختلافاً شديداً بحيث لا ربط ولا مناسبة بين أوَّل ما كتبه وبين آخره، وبعض تلاميذه كان يرجّح أفكاره اللاحقة في أواخر عمره.

---

(١) القائل عبد الله الأفندي صاحب (رياض العلماء).

ورسالة الجمعة فارسية في عدم مشروعيتها زمن الغيبة أفردها من شرحه الفارسي علىٰ الكافي.

وألَّف الفاضل القمّي رسالة في ردّها، ثمّ ألَّف هو رسالة أُخرىٰ فارسية في ذلك متوسّطة، ورسالة ثالثة في ذلك أنصف فيها في الجمعة.

أمّا الرسالة النجفية فهي في جواب مسألة نجف قلي بك الخصيّ عن بعض المسائل الحكمية بالفارسية مختصرة، فلذلك سُمّيت النجفية أو لأنَّه أرسلها من النجف.

وأمّا الرسالة القمّية فهي في جواب مسألة ندر قلي بك الخصيّ من قم مختصرة في بعض مسائل الحكمة أيضاً.

* * *

(٦١)

الشيخ داود بن عمر الأنطاكي
الطبيب المكفوف[(١)]

في (أعيان الشيعة)[(٢)]: الشيخ داود بن عمر الأنطاكي الطبيب المكفوف، توفّي بمكّة سنة (١٠٠٩هـ)، وقيل: (١٠٠٨هـ)، وقيل: (١٠٠٧هـ)، وقيل: (١٠٠٥هـ)، وعن هامش شذرات الذهب أنَّه توفّي سنة (١٠١١هـ).

كان عالماً فاضلاً أديباً شاعراً طبيباً ماهراً، مع أنَّه مكفوف البصر، ويُحكىٰ عنه في الطبّ أُمور عجيبة، وكان شيعياً نصَّ علىٰ تشيّعه البستاني في دائرة المعارف، ولا بدَّ أن يكون أخذه من مصدر وثيق، وعلىٰ ذلك شواهد ودلائل كإيراده التترية في تزيين الأسواق وتتلمذه علىٰ بعض فضلاء العجم المسمّىٰ محمّد شريف، وصلاته خلف الشهيد الثاني إذا صحَّت، ومسيره إلىٰ جبل عامل كما يأتي.

وكان معاصراً للشهيد الثاني، وسمعنا مذاكرةً أنَّه صلّىٰ خلفه فلم تعجبه قراءته لأنَّه كان قد تعلَّم التجويد بمصر، فبلغ ذلك الشهيد الثاني فكان سبب هجرته إلىٰ مصر، وتعلَّم بها تجويد القراءة.

---

(١) أعيان الشيعة ٣٠: ١٨٤؛ البدر الطالع ١: ٢٤٦؛ سلافة العصر: ٤٢٠؛ معجم المؤلفين ٤: ١٤٠؛ دائرة معارف البستاني ٧: ٥٧٨.

(٢) أعيان الشيعة ٦: ٣٧٥.

وذكره صاحب السلافة بأسجاع طويلة علىٰ عادة ذلك العصر، وملخَّص ما فيها أنَّه أعمىٰ أدرك ببصيرته ما لم تدركه أُولو الأبصار، وقطن مصر فسار صيته في الأمصار، وجمع فنون العلم وسرد متونه وشروحه عن ظهر القلب إلىٰ أدب بهر بتبيانه وأظهر حكمة شعره وسحر بيانه، فهو عالم في شخص عالم، واعتنىٰ بالطبّ وفاق أربابه حتَّىٰ كان يقول: (لو رآني ابن سينا لوقف ببابي أو ابن دانيال لاكتحل بتراب أعتابي)، وله فيه مؤلَّفات مطوَّلات ومختصرات.

وكان قد هاجر في ابتداء حاله إلىٰ مصر فظهر فيها علمه وفضله، حتَّىٰ دبَّ داء الحسد في علمائهم فرموه بالإلحاد وفساد الاعتقاد، وزعموا أنَّه يرىٰ رأي القدماء من الفلاسفة والحكماء ويعتقد بقِدَم العالم، فخرج من مصر هارباً إلىٰ البلد الحرام وانضوىٰ إلىٰ سلطان الحرمين الشريفين الحسن بن أبي نمي فأكرم وفادته وأبدله من الخوف أمناً إلىٰ أن توفّي بالتاريخ السابق.

وفي (البدر الطالع) عن العصامي أنَّه قال في حقّه: هو المتوحّد بأنواع الفضائل والمتفرّد بمعرفة علوم الأوائل، شيخ العلوم الرياضية لاسيّما الفلسفة وعلم الأبدان القسيم لعلم الأديان، فإنَّه بلغ فيه الغاية التي لا تُدرَك، له فضل ليس لأحد وراءه فضل، وعلم لم يحز أحد في عصره مثله.

حكي أنَّ الشريف حسن لـمَّا اجتمع به أمر بعض إخوانه أن يعطيه يده ليجسّ نبضه، وقال له الشريف حسن جسّ نبضي، فأخذ يده فقال: هذه ليست يد الملك، فأعطاه الأخ الثاني يده فقال: كذلك، فأعطاه الشريف حسن يده فحين جسَّها قبَّلها وأخبر كلَّاً ممَّا هو متلبّس به.

وحكي أنَّه استدعاه الشريف لمداواة بعض حرمه، فلمَّا دخل قادته جارية ولمَّا خرجت به قال للشريف حسن: إنَّ الجارية لمَّا دخلت بي كانت بكراً ولمَّا خرجت بي كانت ثيّباً، ففحص الشريف عن ذلك فوجده كما قال، وله عجائب من هذا الجنس، انتهىٰ.

وفي شذرات الذهب في حوادث سنة (٩٨٩هـ): فيها توفّي ظنَّاً داود بن عمر الأنطاكي نزيل القاهرة المعزية والمميّز علىٰ من له فيها مزية، المتوحّد بأنواع الفضائل والمتفرّد بمعرفة علوم الأوائل، لاسيّما علم الأبدان المقدَّم علىٰ علم الأديان، فإنَّه بلغ فيه الغاية التي لا تُدرَك، وأمَّا معرفته لأقسام النبض فآية له باهرة وكرامة علىٰ صدق دعواه ظاهرة.

ولقد سألته عن مسقط رأسه فأخبرني أنَّه وُلِدَ بأنطاكية بهذا العارض، قال: وقد بلغت عدد سيّارة النجوم _ سبع سنين _ وأنا لا أستطيع أن أقوم لعارض ريح تحكم في الأعصاب، وكان والدي رئيس قرية حبيب النجّار واتَّخذ قرب مزار حبيب رباطاً للواردين وفيه حجرات للمجاورين ورتَّب لهم طعاماً يحمل إليهم كلّ يوم، وكنت أُحمَل إلىٰ الرباط فأُقيم فيه سحابة يوحي، وإذا برجل من أفاضل العجم يدعىٰ محمّد شريف نزل بالرباط فلمَّا رآني سأل عنّي فأُخبر، فاصطنع لي دهناً مدني به في حرّ الشمس ولفَّني في لفافة من قرني إلىٰ قدمي حتَّىٰ كدت أموت وتكرَّر منه ذلك مراراً من غير فاصل، فقمت علىٰ قدمي ثمّ أقرأني في المنطق والرياضي والطبيعي، ثمّ أفادني اللغة اليونانية، وقال: لا أعلم الآن علىٰ وجه الأرض من يعرفها غيري، فأخذتها عنه وأنا الآن فيها بحمد الله هو إذ ذاك (كذا).

ثمّ سافر إلىٰ جبل عامل ثمّ إلىٰ دمشق، واجتمعت ببعض علمائها

كأبي الفتح المغربي والبدر الغزّي والعلاء العمادي، ثمّ دخلت مصر وها أنا فيها إلىٰ الآن.

قال: وكان فيه دعابة وحسن سجايا وكرم نجاد وخوف من المعاد وخشية من الله، كان يقوم الليل إلّا قليلاً ويتبتّل إلىٰ ربّه تبتيلاً، وكان إذا سُئِلَ عن شيء من العلوم الحكمية والطبيعية والرياضية أملىٰ ما يُدهِش العقل بحيث يجيب علىٰ السؤال الواحد بنحو الكرّاسة.

مؤلّفاته:

في السلافة له في الطبّ:

١ _ تذكرة الإخوان في طبّ الأبدان، أو تذكرة أُولي الألباب في الجامع للعجب العجاب، ويقال: إنّ جزءها الثاني لبعض تلاميذه أو أنّه أكمله، مطبوع.

٢ _ مختصر التذكرة، في مجلّد.

٣ _ شرح نظم القانون.

٤ _ مختصر القانون.

٥ _ بغية المحتاج.

٦ _ قواعد المشكلات.

٧ _ لطائف المنهاج.

٨ _ استقصاء العلل وشافي الأمراض والعلل.

٩ _ النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة.

١٠ _ نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان.

وفي غير الطبّ:

١١ _ شرح قصيدة ابن سينا العينية في النفس، سمّاه الكحل النفيس لجلاء عين الرئيس، وهو شرح حافل نفيس.

١٢ _ تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشّاق، مختصر من أشواق العشّاق، طُبِعَ مراراً.

أشعاره:

ننقل طرفاً منها من السلافة وغيرها، فمنها قوله وفيه الجناس:

هواك مازج روحي قبل تكويني ... وأنت ظلماً بنار الهجر تكويني
صبرت فيك علىٰ أشياء أيسرها ... ذهاب نفسي وقوم عنك تلويني
وكلَّما قلت صحَّت لي محبَّتها ... أرىٰ ودادك ممزوجاً بتلويني
قد حلَّ عقد اصطباري طول هجرك لي ... وليس غير وصال منك يبريني
إذا شممت شذا ريّاك منتشقاً ... فما نسيم أتىٰ من نحو يبريني

وله أيضاً:

وسالبة بالحسن عقل أُولي النهي ... لطاعتها أسنىٰ الدراري آفل
إذا ما تجلَّت دكّ طود قلوبهم ... وخرّوا إلىٰ الأذقان والعقل زايل
فيا كعبة العشّاق هل ثمّ مطلب ... سواك إليه تستحثّ الرواحل
عذولي اتئذ واقصر فكلّ جوارحي ... لها عن سماع الزور والعذل شاغل
إذا ما أطلت اللوم لا بدَّ تنتهي ... وعند التناهي يقصر المتطاول
وإن لم تزرني أو تمنّ بنظرة ... وينعم دهري بالذي أنا آمل
(فيا موت زر إنَّ الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي إنَّ دهرك هازل)

ومن شعره قوله موجّهاً بأشكال الرمل:

سألتها عن بياض ... في وجنتيها وحمره
إذا طريق اجتماع ... قالت وراية قصره

قال صاحب السلافة: وأحسن منه قولي:

وذي هيف ما زال بالرمل مولعا إذا ما سألت الوصل منه تبلّدا
ووشىٰ نقي الخدّ منه بحمرة فقلت طريق للوصال تولّدا

أخذه من قول ابن مطروح:

رأيت بخدّيه بياضاً وحمرة فقلت لي البشرىٰ اجتماع تولّدا

ومن شعره قوله:

بروحي أقي من خلتها حين أقبلت علىٰ أثر حزن تنثر الدمع في الخدّ
قضيباً من الكافور يمطر لؤلؤاً من النرجس الوضّاح في فرش الورد

وقوله:

نظرت إليها والسواك قد ارتوىٰ بريق عليه الطرف منّي باكي
تردّده من فوق درّ منظّم سناه لأنوار البروق يحاكي
فقلت وقلبي قد تفطّر غيرة أيا ليتني قد كنت عود أراك
فقالت أمَا ترضىٰ السواك أجبتها وحقّك ما لي حاجة بسواك

وقوله:

لقد فقت أرباب المحاسن كلّهم وزدت عليهم بالرشاقة والعقل
فمذ أعجز المغتاب شيء بقوله رماك بأوصاف القطيعة والبخل
فلا تثبتي بالهجر زور مقاله ولكن صليني أو عديني بالوصل
ولا تمطلي بالوعد صبّاً معذباً وإن قيل إنَّ الشيء يعذب بالمطل

وقوله:

أقول لها هل تسعفين بزورة مريضاً لواه البين بالهجر والقسم

فقالـت إذا مـا فـارق الـروح زرتـه		لأنَّ محـالاً جمـع روحـين في جسـم

وقوله:

أفـــدي فتـــاة فتنـــت مهجتـــي		وقـد أُذيـب القلـب مـن صـدها
مـــا لي وللـــدنيا إذا لم تـــزر		ولـيس يحلـو العـيش مـن بعـدها
يقـــول لي الآســـىٰ وقـــد راعـــه		مـا بفـؤادي مـن جـوىٰ بعـدها
خـــذ مـــاء ورد ولســـان معـــاً		واشربـه بالمـاذي مـن شـهدها
قـــد صـــدق الآسي فهـــذا الـــدوا		هـو الشـفا لـو كـان مـن عنـدها
وإن يكـــون الشـــهد مـــن ثغرهـــا		يجنـىٰ ومـاء الـورد مـن خـدّها

* * *

(٦٢)

المولى سلطان حسين اليزدي الندوشي

ذكره العلّامة السيّد الأمين في كتابه (أعيان الشيعة)[1]، قال: (الندوشي) نسبة إلىٰ ندوش قرية من أعمال يزد.

في (رياض العلماء): فاضل عالم متكلّم جليل القدر، من علماء دولة السلطان الشاه عبّاس الأوّل الصفوي، وكان سماعي أنّ هذا المولىٰ في غاية الفضل والعلم، وكان ماهراً في العلوم العربية والحكمة والكلام، ونحريراً فائقاً علىٰ أهل الآفاق من علماء الأنام، وهو غير المؤمن اليزدي الندوشي الفاضل الشاعر المعاصر له، كما لا يخفىٰ.

مؤلّفاته:

في الرياض: رأيت في بعض المجاميع بهراة رسالة للمولىٰ سلطان حسين في شرح وتحقيق قول المحقّق الطوسي في إلهيات التجريد: (وجود العالم بعد عدمه ينفي الايجاب).

* * *

(١) أعيان الشيعة ٧: ٢٧٦/ الرقم ٩٤٢.

(٦٣)

المولى رجبعلي التبريزي الأصفهاني[1]

في (أعيان الشيعة)[2]: المولىٰ رجبعلي التبريزي الأصفهاني، من أهل أوائل المائة الثانية عشرة.

في مسودَّة الكتاب: كان حكيماً متكلِّماً ماهراً فقيهاً فاضلاً، مدقّقاً مبرزاً مدرّساً في أصفهان في عصر الشاه عبّاس الثاني المتوفّىٰ سنة (١٠٧٧هـ)، معظَّماً عنده وعند أُمرائه، بحيث يزورونه، وأدرك عصر الشاه سليمان ابن الشاه عبّاس الثاني المتوفّي سنة (١١٠٥هـ)، انتهىٰ.

لكن وصفه بالفقيه ينافي ما يأتي عن الرياض، من أنّه لم يكن له معرفة بالعلوم الدينية والأدبية.

وذكره الشيخ عبد النبيّ القزويني تلميذ بحر العلوم في (تتمّة أمل الآمل)[3]، فقال: من أعيان الحكماء المتأخّرين وفحولهم، ومن عظماء الفلاسفة المبرزين وكبرائهم، والراسخين في الحكمة، ماهر في الشفاء والإشارات.

ووجدت في مسودَّة الكتاب بعد هذه العبارة ما صورته: (وفي الأصل: وكان الشفاء والإشارات في يده كالشمع في يد أحدنا)، ولست

---

(١) أعيان الشيعة ٣١: ١٨٨؛ الروضة النظرة: ٢١٥ وفيه أنّه توفّي سنة (١٠٨٠هـ).

(٢) أعيان الشيعة ٦: ٤٦٤.

(٣) تتميم أمل الآمل: ١٥٠/ الرقم ١٠١.

أدري من أين جاءت هـذه العبـارة ولا مـا هـو المـراد بالأصـل، ولـيس المـراد به (أمل الآمل) لأنَّه لا ذكر له فيه.

ثـمّ قـال القزوينـي في (تتمَّـة الأمـل): كـان أُسـتاذ الفـنّ إلَّا أنَّ حكمـه باشـتراك لفـظ الوجـود بـين الواجـب وغـيره، حتَّـىٰ كتـب رسـالة فيـه ممَّـا استنكره كلّ من أتىٰ بعده كما اسـتنكره مـن كـان قبلـه، وبالجملـة هـو تعطيـل محـض لا يمكـن إثبـات الواجـب معـه، ولعـلَّ لـه تـأويلاً يمكـن معـه نفـي التعطيل.

أقـول: الظـاهر أنَّ المـراد بـه وحـدة الوجـود، لكـن ينافيـه تسـميته بالاشتراك اللفظي.

قال: ورأيت له رسالة يطبّق فيها ما ورد في الشـرع الأنور من أمـر المعـاد علىٰ صفات النفس وملكاتها وعلومها، فإن كان هذا بحيث لا يثبت مـع حشـر الأجساد فهو إنكار لأصل من أُصول الإسلام وهو المعاد الجسماني، وإن جمع بينه وبين ما ورد في الشـرع بأن حكم بوقوع كليهما، كما ذهب إليه بعضـهم، فجمـع بين المعاد الجسماني والروحاني، فلا مانع منه.

وذكـر تلميـذه محمّـد رفيـع الزاهـدي الشـهير بپـير زاده في مقدّمـة رسالته المعارف الإلهيـة في الحكمـة، فقـال: لـمَّا وفَّقنـي الله في عنفـوان السـنّ وغضاضـة الغصـن لخدمـة السـدَّة السـنية للمـولىٰ المعظَّـم والعتبـة العليـة للعالم المكرَّم، شيخ أجلَّـة الحكـماء الإلهيـين، رئـيس العرفـاء المتبحّـرين، قـدوة العلـماء الراسـخين، زبـدة الأوليـاء المتـألّهين، عـين الإنسـان وإنسـان العـين، أُستاذ البشـر، العقـل الحـادي عشـر، صـاحب الملكـات الملكيـة والصـفات الرضـية المرضـية، المتخلّـق بـالأخلاق الإلهيـة، ذي الـذهن الصـائب والفكـر الثاقـب، الحكـيم التقـي النقـي، مقتـدانا مولانـا رجـبعلي التبريـزي قدّس سرّه

فصرفت برهة من العمر في ملازمته وأخذت عنه فنون الحكمة من الطبيعية والإلهية، وسمعت منه درر فوائد كلامية، واقتبست من مشكاته أضواء أسرار خفية، وطريق حلّ مشكلات مسائل معضلة، لأنّي كنت ملازماً له ليلاً ونهاراً، وكان بي في غاية الشفقة والرحمة، ويجتهد في تربيتي غاية السعي والطاقة...، إلىٰ آخر ما ذكره.

وفي الرياض: المولىٰ رجبعلي التبريزي ثمّ الأصفهاني، كان يسكن أصفهان، زاهد فاضل حكيم ماهر صوفي، ولم يكن له معرفة بالعلوم الدينية بل ولا بالعلوم الأدبية والعربية أيضاً، مات حوالي عصرنا، وكان معظَّماً عند الشاه عبّاس الثاني الصفوي، واعتلىٰ أمره وبعد صيته، وكان السلطان يزوره ويعتني به، ومالت إليه قلوب الأكابر والعلماء، وله آراء ومقالات في المسائل الحكمية تفرَّد بها: كالقول بالاشتراك اللفظي في الوجود وسائر صفاته تعالىٰ، وله تلاميذ فضلاء، ولكن في العلوم المنطقية والطبيعية والإلهية خاصّة، ولم يكن له قدرة علىٰ تحرير العبارة بالعربية، فكان بعض تلاميذه يحرّرها بالعربية في رسائله.

قال المؤلِّف[1]: العجيب من هؤلاء الذين يصرفون أعمارهم فيما لا يعود عليهم ولا علىٰ المجتمع الإنساني بفائدة من العلوم العقلية إن لم يعد عليهم بالضرر من الاعتقادات الفاسدة، كوحدة الوجود وكون المعاد روحانياً لا جسمانياً، ويجرّهم إلىٰ سخافات التصوّف وأشباه ذلك، فالعقيدة الإسلاميّة جاءت ليفهمها كلّ أحد من العامّة والخاصّة والمخدّرات في خدورهنَّ، لا لتبنىٰ علىٰ فلسفة أفلاطون وفيثاغورس والفارابي وابن سينا، وما دخل الفساد إلىٰ الإسلام إلَّا من هذا الباب،

(١) القائل صاحب (أعيان الشيعة).

فنشأ من ذلك اختلاف المسلمين في الجبر والاختيار لما بنوه علىٰ مسألة حكمية، هي أنَّ الفعل إذا كان في سلسلة علله علَّة غير اختيارية فهو غير اختياري، فخالفوا بذلك بديهة العقول لشبهة جاءت من علم الحكمة، وتسرَّبت من ذلك شطحات الصوفية والقول بوحدة الوجود، وغير ذلك، وما أحسن ما قاله ابن أبي الحديد في هذا الباب من أبيات:

من أنت يارسطو ومن   أفلاط قبلك يا مبلِّد
ما أنتم إلَّا الفراش   رأىٰ السراج وقد توقَّد
فدنا فأحرق نفسه   ولو اهتدىٰ رشداً لأبعد
فلتخسأ الحكماء عن   حرم له الأملاك سُجَّد[1]

أخباره:

في (تتمَّة أمل الآمل) للقزويني: يُحكىٰ أنَّه كان مارَّاً في چهار باغ بأصفهان، فاستقبله أسد قد عتا علىٰ صاحبه وكرَّ علىٰ رصدته، فهرب الناس وبقي هو ماشياً، فمرَّ به الأسد ولم يلتفت إليه ولا التفت هو إلىٰ الأسد.

ومن طريف ما يُحكىٰ عنه: أنَّ الشاه سليمان أحبَّ لقاءه وهو يأبىٰ، فقيل له: إنَّه يجيء أحياناً إلىٰ البستان المعروف بهشت بهشت (ثماني جنان) وهو متَّصل بدار الشاه، فأمر حرّاس البستان أن يخبره إذا جاء، فجاء يوماً وخرج الشاه من باب الحرم ودخل البستان فكان كلَّما قرب من المترجَم مشىٰ المترجَم في طريق آخر، حتَّىٰ وصل إلىٰ مكان لا مندوحة فيه، فتلاقيا وجلسا يتحدَّثان ثمّ افترقا، فأمر الشاه بشيء من الطعام فوضع في صحفة من الذهب وغُطّي بغطاء من الذهب وأرسله

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٥٠.

إليه مع خادم، وقال: قل له: هذا هدية فإن ردَّ الوعائين فقل: ليس من شأننا إذا أهدينا شيئاً أن نأخذ الوعاء، فأخذهما، ثمّ عمل خبزاً بالسمن والسكر ووضعه في الصحفة وأرسله مع خادمه إلىٰ الشاه وقال: قل له: هذا هدية فإن ردَّ الوعائين فقل: ليس من طريقتنا أخذ الوعاء إن أهدينا فيه شيئاً، فردَّ الشاه الوعائين ولم يقبلهما.

وفيما فعله مجال للانتقاد، فإذا كان لا يريد لقاء الشاه فما معنىٰ دخوله بستانه الخاصّ، وإذا أهدىٰ إليه الشاه في إنائين من ذهب فلِمَ لم يكسرهما؟ واستعمال أواني الذهب والفضّة محرَّم؟

مؤلَّفاته:

١ _ الرسالة الموسومة بالأُصول الآصفية صنَّفها باسم آصف ميرزا، ذكرها القزويني في تتمَّة أمل الآمل وقال: إنَّه ذكر فيها مسائل مهمّة من الحكمة في أُمَّهات المسائل.

٢ _ رسالة تطبيق ما ورد في الشرع من أمر المعاد علىٰ صفات النفس وملكاتها وعلومها، ذكرها القزويني أيضاً كما مرَّ.

٣ _ رسالة فارسية في تحقيق القول بالاشتراك اللفظي في وجوده وصفاته تعالىٰ، ذكره صاحب الرياض.

٤ _ رسالة في إثبات الواجب، فارسية رأينا منها نسخة مخطوطة في طهران تاريخ كتابتها (١١٨٦هـ).

* * *

فهرست الموضوعات

* * *